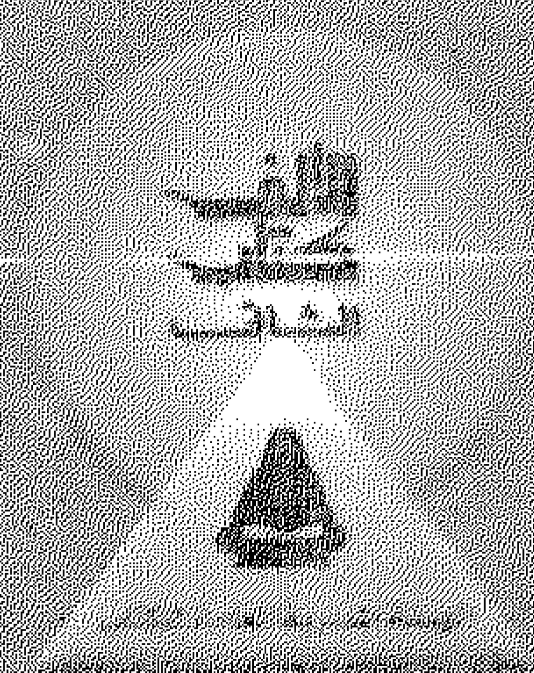


د. رمسيس عوض

أبرز ضحايا محاكم التفتيش

جاليليو - سافونارولا - برونو

إهـــــــداء ٢٠٠٦
الهيئة المصرية العامة للكتاب
القاهرة

أبرز ضحايا محاكم التفتيش

جاليليو - سافونارولا - برونو

د. رمسيس عوض



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠٠٥

الألف كتاب الثانى

نافذة على الثقافة العالمية

الفهرس

ولكنها تدور

(جاليليو جاليلى)

الموت شنقًا فحرقًا

(جيرولامو سافونارولا)

سافونارولا الكنسى وانحسار الأوبئة (ص ٢٥٢) ـ سافونارولا يعود إلى الوعظ والبابا يعود إلى التهديد (٢٥٩) ـ منع سافونارولا من التبشير والبابا يستمر فى تهديداته (ص ٢٦٥) ـ الكثيرون من أهل فلورنسا يتخلون عن سافونارولا (ص ٢٧٠) ـ الزج بسافونارولا فى السجن (ص ٢٧٥) ـ التحقيق مع سافونارولا وعجز المحققين عن إثبات أنه مذنب (٢٨١) ـ توسيع نطاق المحاكمات وسافونارولا يؤلف كتابه الأخير فى حبسه الانفرادى (ص ٢٨٦). النهاية : العودة إلى تعذيب سافونارولا وتقديمه للمحاكمة للمرة الثالثة وتنفيذ حكم الإعدام فيه رغم براءته (ص٢٩٠).

الموت حرقًا

(جيوردانو برونو)

ولكنها تدور

جاليليو جاليلى

(١٥٦٤ - ١٦٤٢)

تصدير

كلنا نعرف الرواية التى تقول، إن جاليليو الذى أضناه السقم والمرض بعد أن أرغمته الكنيسة الكاثوليكية في شيخوخته على إنكار اعتقاده بأن الأرض تدور حول الشمس دورة كل أربع وعشرين ساعة، خرج من قاعة المحكمة منكسرًا ذليلاً ومنسحقًا أمام قوى الجهل والظلام وهو يتمتم أثناء انصرافه «ولكنها تدور». ورغم أنه لا يوجد دليل وثائقى ينص على صحة هذه الرواية، فلا ريب أنها تعبر أصدق تعبير عن حالة الهوان والإحباط التى كابدها، كما تعبر عن تشبثه المستميت بحقائق العلم الذى فشل الاضطهاد والتنكيل الرهيب فى القضاء عليه. ولهذا آثرت أن أختار عبارة «ولكنها تدور» عنوانًا لكتابى، حتى وإن كانت هذه العبارة ضربًا من الأساطير.

د. رمسيس عوض

الفصل الأول

حياته فى بيزا

ولد عالِمنا جاليليو جاليلى Galileo Galilei فى مدينة بيزا الإيطالية عام ١٩٦٤، فى نفس السنة التى توفى فيها الفنان الإيطالى المعروف مايكلانجلو، وفى نفس العام الذى ولد فيه الشاعر المسرحى الإنجليزى وليم شكسبير. وهو ينحدر من عائلة فلورنسية عريقة المحتد، تقلد أربعة عشر من أفرادها فى مناسبات متعددة أرفع المناصب فى جمهورية فلورنسا فى الفترة بين عامى ١٣٤٣ و١٥٢٨. وكان لجاليليو جد أكبر اسمه توماسو Tommaso. كما كان لتوماسو حفيد سماه جاليلى. وذاعت شهرة هذا الحفيد حتى أضحى طبيبًا يشار إليه بالبنان تم تعيينه عام ١٤٣٨ أستاذًا فى مدرسة الطب بجامعة فلورنسا. وقد وقع على هذا الطبيب الاختيار مرتين: إحداهما فى عام ١٤٣٠ والأخرى عام ١٤٤٥؛ لينضم إلى الهيئة الحاكمة فى جمهورية فلورنسا ثم أصبح فى عام ١٤٤٥ قاضى القضاة فيها. وأحيط فى حياته ومماته بأعظم آيات التكريم والتقدير فتم دفنه فى أرض كنيسة سانتا كروتشى بفلورنسا، حيث أقام له ابنه شاهدًا على قبره يحمل الكلمات التالية: هنا يرقد السيد جاليليو الجاليلى المعروف سابقًا بسليل عائلة البنايوتى. وكان فى حياته يشغل وظيفة رئيس قسم الفلسفة والطب، وكذلك قاضى القضاة فى الجمهورية التى أحبها حبًا رائعًا. وقد قام ابنه بنيديتو Benedetto بتخليد ذكرى والده الطاهر الورع بإقامة هذا الشاهد فوق مثواه الأخير.

كان والد عالمنا جاليليو الذى يدور هذا الكتاب حوله موسيقارًا رقيق الحال يدعى فنسنزيو Vincenzio يحترف العزف على القيثارة ويهوى العلوم الرياضية. ورغم ضيق

ذات يده، فقد كان يتمتع بثراء عقلى وفكرى موفور وبالقدرة على إجراء البحوث فى مجال الموسيقى التى درسها على يد زالينو، ولكن جنوحه إلى الاستقلال فى الرأى جعله ينتقد أستاذه والأفكار الموسيقية التقليدية والمتوارثة. فهو يقول: «يبدو لى أن هؤلاء الذين يؤكدون آراءهم اعتمادًا ببساطة على الآراء الموروثة دون أن يقدموا أية حجج لإثبات معتقداتهم يتصرفون على نحو مضحك للغاية، فأنا على العكس من ذلك أرغب فى السماح لى بحرية البحث والاستقصاء وحرية الإجابة عن التساؤلات دون تأليه أو تمجيد، كشأن جميع الذين يخلصون فى البحث عن الحقيقة».

تزوج فنسنزيو من جيوليا أمانتى وأنجب منها ثلاثة ذكور أكبرهم عالمنا الكبير جاليليو وشقيقاه مايكلانجلو وبنيديتو الذى مات فى طفولته، كما أنجب منها أربع بنات، هن: فيرچينيا (التى عُرفت باسم سيلست Celeste)، وأنًّا التى لا يعرف الدارسون عنها شيئًا، وليفيا التى لا نعرف عنها الكثير، ولينا التى لا نعرف عنها غير النزر اليسير. قلنا إن جاليليو ولد فى بيزا عام ١٥٦٤، وإذا شئنا الدقة جاءت ولادته فى الخامس عشر من شهر فبراير فى العام المذكور. وفى بيزا تلقى عالمنا تعليمه الأولى، كما أن والده فنسنزيو ساعده فى تعلم اللغتين الإغريقية واللاتينية اللتين كان يجيدهما. وفى نحو الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من عمره، التحق اليافع جاليليو بدير فالمبروزا بالقرب من فلورنسا، حيث توفر على دراسة الآداب والعلوم الإنسانية. وترك تعليمه الباكر للكلاسيكيات اليونانية واللاتينية بصماته الواضحة على أسلوبه اللاحق فى الكتابة، حيث إن هذا الأسلوب تميز بالأناقة والحدة الجارحة، وفى دير فالمبروزا تولى أحد الرهبان تعليمه المنطق. ودفعته الحياة بين رهبان الدير إلى الانجذاب نحو الدين. ولكن والده صرفه عن الاستغراق فى الدين لما توسمه فى ابنه من نبوغ، وانتهز فرصة إصابة ولده بمرض رمدى لإخراجه من الدير. والجدير بالذكر أن الشاعر الإنجليزى الكبير جون ميلتون زار فالمبروزا أثناء إقامته فى فلورنسا فى خريف ١٦٣٨ وربيع ١٦٣٩. وفى صدر حياته أظهر جاليليو مهارة فائقة فى فن الرسم لدرجة أنه عندما تقدم به العمر قال لأصدقائه، إنه لولا ظروفه لاختار أن يصبح رسامًا. وبسبب شدة شغفه بفن الرسم سعى بعض الرسامين لأخذ رأيه فيما يرسمونه من لوحات. واعتاد الرسام كيجولى Cigoli، على وجه الخصوص القول بأنه يدين بالفضل لجاليليو الذى تعلم منه الاهتمام «بالتطور» ولما أسدى إليه من نصح وقدم له من تشجيع. ولم يقتصر اهتمام جاليليو على فن الرسم بل امتد إلى تذوق الشعر؛ وعلى الأخص شعر

دانتى وأريوستو Ariosto وتاسو Tasso. وبسبب ما أظهره جاليليو فى شبابه من مواهب متعددة، توسم له أبوه مستقبلاً علميًا زاهرًا واختار له دراسة الطب وصرفه عن الاشتغال بالموسيقى وعلم الرياضيات بسبب قلة العائد منهما. ولهذا ألحقه والده فى ٥ سبتمبر ١٥٨١، وهو فى السابعة عشرة والنصف لدراسة الطب فى جامعة بيزا. ولأن أهله غادروا بيزا وعادوا إلى فلورنسا أقام جاليليو فى منزل أحد أقربائه. وفى بيزا تلقى جاليليو دروسه فى الفلسفة والطب على يد واحد من جهابذة الطب وعلم النبات اسمه أندريا كاسالبينو Casalpino، الذى شغل منصب أستاذ كرسى علم الطب فى جامعة بيزا فى الفترة من عام ١٥٦٧ حتى ١٥٩٢.

يقول فيفيانى تلميذ جاليليو ومريده وأول من سطر سيرة حياته إن أساتذته للفلسفة لم يكونوا راضين البتة عن أدائه؛ بسبب رفضه قبول أية نظريات أو أفكار على علتها دون تمحيص أو تدليل. ومعنى هذا أن جاليليو فى هذا الشأن حذا حذو والده لدرجة أن أساتذته وأقرانه الطلبة لقبوه «المشاكس». وبطبيعة الحال لم يرض أساتذته عن تشككه فى صحة آراء أرسطو وأفلاطون والقديس توماس الأكوينى. وخليق بنا أن ننوّه بتمتع عالمنا بدقة الملاحظة منذ وقت باكر. فقد لاحظ الانتظام فى حركة شمعدان كاتدرائية بيزا، الأمر الذى أوحى له باختراع بندول الساعة. والغريب أن جاليليو الذى أولى الفيزياء فى يفاعته عظيم اهتمامه، ظل حتى التاسعة عشرة من عمره لا يعرف غير النزر اليسير عن علم الرياضيات التى شاءت الظروف أن يستسيغها فى شتاء وربيع عام ١٥٨٢ / ١٥٨٣، عندما جاء إلى بلاط مملكة توسكانيا كعادته للإقامة فى بيزا وبرفقته أستاذ رياضيات نابه يدعى أوستيليو ريكى Ostilio Ricci بتكليف من الدوق لتدريس الرياضيات لبعض أفراد حاشيته. وتصادف أن كان ريكى صديقًا لعائلة جاليليو أثناء وجودها فى فلورنسا. ولهذا كان من الطبيعى أن تتوثق عُرى الصداقة بينه وبين جاليليو. وفى يوم من الأيام سمعه جاليليو وهو يشرح داخل إحدى الغرف نظريات إقليدس إلى نفر من حاشية الدوق فاسترق جاليليو السمع إلى شرحه، وهو يختفى وراء الباب فاستحوذ الشرح على لبه وغمره شعور جديد بالانتشاء، مما جعله يكثر التنصت على شروح ريكى. وراقت له الرياضيات بشدة فقرر التبحر فيها، وفى نفس الوقت شعر بالنفور من دراسة الطب. وأخيرًا استجمع جاليليو شجاعته، واعترف لريكى بما كان يفعل ورجاه أن يعلمه المزيد من هذا العلم الحبيب إلى قلبه، فأجابه ريكى بكل سرور إلى طلبه.

وعندما أخبر ريكى والد جاليليو بولع ابنه بتعلم نظريات إقليدس وعزوفه عن دراسة الطب وأساطينه أمثال أبوقراط وجالين، سعى الأب جاهدًا لإثناء ولده عن دراسة الرياضيات التى اعتبرها مهنة تورث الفقر لصاحبها. ولكن جاليليو استمر فى تعلم الرياضيات متجاهلاً اعتراض أبيه عليها، فاضطر الأب إلى الرضوخ والاستسلام لرغبة ابنه. وساعده على هذا الاستسلام ضيق ذات يده وكثرة عياله وعدم تمكنه من الاستمرار فى الإنفاق على تعليم ولده بالجامعة. وفى نهاية عامه الثالث فى الجامعة (١٥٨٤)، رفع الأب التماسًا إلى سعادة الدوق العظيم فرديناند الأول؛ كى يمنح ابنه إحدى المنح الأربعين المجانية المخصصة للطلبة الفقراء، ولكن مشاكسات الابن مع أساتذته فى الجامعة جعلتهم يرفضون إعطاءه هذه المنحة. وهكذا اضطر عالمنا إلى قطع دراسته الجامعية والعودة فى صيف ١٥٨٥ إلى أسرته فى فلورنسا بدون الحصول على شهادة الدكتوراه. ولكن حبه للرياضيات والفيزياء جعله يواصل دراستهما تحت إرشاد صديق العائلة أوستيليو ريكى، وبعد أن أتم جاليليو دراسة نظريات إقليدس انتقل إلى دراسة نظريات أرشميدس فى علم الميكانيكا. وفى عام ١٥٨٦، تمكن جاليليو من اختراع الميزان الهيدروستاتيكى؛ لاستخدامه فى معرفة الوزن الدقيق لأى معدن فى أى مزيج يتكون من معدنين. وقد نشرت أبحاثه فى هذا الموضوع فى عام ١٦٤٤، أى بعد عامين من وفاته. وبسبب هذا الاختراع وأمثاله درج معاصروه على تلقيبه بأرشميدس زمانه. وفى تلك الفترة المبكرة من حياته توثقت عُرى الصداقة بينه وبين راعيه ومشجعه الماركيز جويدو بالدو من بيزاريو Guildo baldo del Monte، وبدأ نجم جاليليو يسطع فى سماء إيطاليا عندما قام هذا الماركيز بتزكيته كعالم نابه لدى فرديناندو الأول دوق توسكانيا العظيم.

وعلى الرغم من بزوغ نجمه فقد شعر والده بالإحباط، حيث كان يأمل أن يضطلع ابنه بعمل يدرّ عليه وعلى الأسرة دخلاً موفورًا يقيلها من عثارها. وآلم جاليليو ما كابدته عائلته من شظف العيش، فسعى إلى زيادة دخله عن طريق إعطاء بعض الدروس الخصوصية للطلبة فى فلورنسا ومدينة سيينا المجاورة لها فى مجال الرياضيات والميكانيكا، ولكنه كان يتطلع إلى شغل وظيفة مدرس فى إحدى الجامعات الإيطالية. وفى منتصف عام ١٥٨٧، أصبحت وظيفة تدريس الرياضيات فى جامعة بولونيا شاغرة. وحاول جاليليو شغل هذه الوظيفة دون جدوى، فقد فاز بها رجل غيره اسمه جيوفانى أنتونيو ماجينى Giovanni Antonio Magini الذى تظاهر بصداقة جاليليو، فى حين أضمر له المَوجدة والبغضاء.

وفى أواخر عام ١٥٨٧، قام جاليليو لأول مرة بزيارة روما؛ حيث تعرف إلى الراهب كريستوفورو عالم الرياضيات المعروف، الذى يرجع إليه الفضل فى إصلاح التقويم عام ١٥٨٢. وفى عام ١٥٨٨، توفى مولينى الأستاذ بجامعة بادوا، ولكنه فشل فى أن يحل محله. ثم خلت إحدى وظائف التدريس فى جامعة بيزا التى كان قد تلقى فيها تعليمه. ولكن الفشل كان حليفه. أيضًا أخفق جاليليو فى الحصول على وظيفة تدريس الرياضيات فى جامعة فلورنسا. ومعنى ذلك أنه فشل نحو أربع مرات متتالية فى التعيين كمدرس فى الجامعة. فقد لفظته جامعات بولونيا وروما وبادوا وبيزا وفلورنسا. غير أن الحظ ابتسم له أخيرًا، حين تمكن فى شهر يوليو عام ١٥٨٩ من شغل وظيفة أستاذ الرياضيات بجامعة بيزا بمساعدة الماركيز جويدو بالدو وأخيه الكاردينال فرانسسكو ماريا دى مونت، وعندما عينته جامعة بيزا لم يكن عمره يتجاوز الخامسة والعشرين والنصف، وكان العائد من وظيفته الجامعية ضئيلاً.

شغل جاليليو وظيفة التدريس فى بيزا فى الفترة من عام ١٥٨٩ حتى ١٥٩٢؛ حيث واصل دراساته الهندسية والفيزيائية بكل جد واجتهاد، وهناك توفر على دراسة مركز الجاذبية ووصل فيها إلى نتائج أثارت إعجاب راعيه الماركيز دل مونت. وفى بيزا اكتشف المنحنى الهندسى المعروف بالدويرى Cycloid وحاول حل مشكلة التربيع Quadrature، وكذلك أولى دراسة حركة الأجسام جل اهتمامه، الأمر الذى جعله يعيد النظر من جديد فى أفكار أرسطو فى مجال الميكانيكا ويضعها موضع الاختبار. وإحقاقًا للحق يجدر بنا أن نقول، إن الرسام المعروف ليوناردو دافنشى (١٤٥٢ - ١٥١٩) سبق جاليليو فى التعبير عن شكه فى صحة الفكر الأرسطاطاليسى فى مجال الميكانيكا، ولكن نقد دافنشى لأرسطو ظل حبيس الأدراج على عكس تشكك جاليليو فى صحة الميكانيكا الأرسطاطاليسية، الذى ذاع وانتشر حتى أصبح ثورة عارمة ضد المنهج الأرسطاطاليسى برمته. ولا غرو، فقد درج عصر النهضة، وهو العصر الذى عاش فيه جاليليو على إعادة النظر فى كل الموروثات سواء كانت فى ميدان العلم أو الدين. واستعان جاليليو بالتجربة لإقناع الآخرين بصحة نقده لأرسطو.

قام جاليليو فى مبحثه المكتوب عام ١٥٩٠ بعنوان: «عن حركة الجاذبية De Motu Gravium » بوضع أسس علم الديناميكا ، وظل هذا البحث قيد المخطوطات لا يرى طريقة إلى النشر حتى مرور قرنين على وفاته. غير أنه ضمّن فيما بعد هذه

الأسس فى عمله الضخم الهام الصادر عام ١٦٢٨ بعنوان: «حوار بين أهم نظامين عالميين» (Dialogue Concerning The Two Chief World Systems)(*).

وهذان النظامان العالميان هما بطبيعة الحال النظرية البطلمية ونظرية كوبرنيكوس فى الكون. ومن منصة التدريس فى قاعة المحاضرات تصدى جاليليو بعنف وقوة للفكر الأرسطاطاليسى الخاطئ، معتمدًا على التجربة وليس على الأفكار المسبقة. وفى تجاربه المعروفة فى مجال الحركة التى تدحض نظرية أرسطو اعتلى جاليليو برج بيزا المائل ليلقى بجسمين مختلفين فى الثقل وزن أحدهما عشرة أرطال، ووزن الآخر رطل واحد ليكتشف أن الجسمين يسقطان على الأرض فى نفس الوقت تقريبًا، وأن الاختلاف فى وقت سقوطهما يرجع إلى ما يجده الجسمان الساقطان من مقاومة الهواء لهما، وذلك على النقيض من نظرية أرسطو التى تقول، إن الجسم الأكثر ثقلاً يسقط على الأرض بسرعة أكبر من الجسم الأخف. غير أن أعضاء هيئة التدريس الذين تجمعوا أسفل برج بيزا لمشاهدة التجربة، والذين تبنوا نظرية أرسطو دون إعمال فكر رفضوا الاقتناع بنتيجة ما شاهدوه من تجربة وجاهروا ببغضائهم لجاليليو، وظلوا يرددون نظرية أرسطو المعلم الأول التى تقول: إن الجسم ذا الأرطال العشرة يستغرق فى سقوطه على الأرض عُشر الزمن الذى يستغرقه الجسم ذو الرطل الواحد. ولم يقتنع بتجربة جاليليو سوى أستاذ فلسفة يدعى جاكوبو مازونى.

ولم يكتف زملاء جاليليو فى جامعة بيزا بإظهار العداوة له، بل قاطعوه وما انفك يضايقونه حتى أصبح من العسير عليه الاستمرار فى عمله، وزاد من عسر موقفه أن مدير ميناء ليجهورن واسمه المهندس جيوفانى دى مديسيس اخترع آلة ضخمة لاستخدامها ككراكة لرفع الأثقال. وقدم هذا المهندس نموذجًا للكراكة للدوق العظيم لإقناعه بجدواها، ولكن الدوق كلف جاليليو بفحص الآلة وكتابة تقرير عنها، وقرر جاليليو أن الكراكة عديمة الفائدة، وهو ما تأكد عندما وضعت هذه الآلة موضع الاختبار. واغتاظ المهندس الذى صمم الآلة من جاليليو فكاد له وحرض الطلبة ضده، فكانوا يستقبلون محاضراته بالضجيج وهمسات الاستنكار. وعندما تبين لجاليليو أن استمراره فى عمله بجامعة بيزا أصبح مستحيلاً قدم استقالته قبل أن تنتهى مدة تعاقده معها بثلاثة أعوام، ثم عاد مرة أخرى إلى فلورنسا، فى منتصف عام ١٥٩٢

(*) يعرف هذا الكتاب أحيانًا باسم «حول أنظمة العالم الكبرى».

تقريبًا. وزاد الطينة بلة أن الجامعة كانت تخصم من راتبه الضئيل أجر المحاضرات التى يتغيب عنها، حتى لو كان تغيبه راجعًا لأسباب قهرية مثل فيضان نهر الأرنو الذى حال دون وصوله إلى مقر عمله، أو مرض أمه واضطراره إلى أن يعودها. وعبثًا شكا جاليليو من هذا الإجراء التعسفى، فقد أبت الجامعة قبول عذره وخصمت عُشر راتبه السنوى. ويبدو على أية حال أنه كان يفكر فى ترك العمل فى جامعة بيزا؛ لأنه فى أوائل عام ١٥٩٠ طلب من راعيه الماركيز دل مونت مساعدته فى شغل وظيفة أستاذ كرسى الرياضيات فى جامعة بادوا والتى خلت فى ٢ يناير ١٥٨٨ بموت شاغلها مولينى، ولكن بادوا رفضت تعيينه فيها.

والجدير بالذكر أن جاليليو كان ذواقة للأدب قراءة وتأليفًا، وينتمى معظم إنتاجه الأدبى إلى تلك المرحلة من حياته. ففى عام ١٥٩٠ كتب مسرحية هزلية سخر فيها من تعليمات الجامعة إلى أساتذتها بضرورة لبس الأرواب الجامعية أثناء إلقاء المحاضرات والسير فى الشوارع وزيارة الأصدقاء، الأمر الذى زاد من غضب الدوائر الأكاديمية عليه. فضلاً عن أنه انتقد انتقادًا لاذعًا القصيدة التى ألفها الشاعر تاسو بعنوان: «تسليم أورشليم». ويقال إنه كان يحفظ عن ظهر قلب القصيدة التى نظمها أريوستو بعنوان: «أورلاندو الغاضب» وعبر عن شدة إعجابه بها. ويقدر مغالاته فى الهجوم على الشاعر تاسو أعلى من شأن أريوستو وقرظه إلى عنان السماء. وإلى جانب ذلك، وضع جاليليو الخطوط العريضة لمسرحية نثرية من تأليفه. وتوثقت علاقته بالشاعر أنتونيو مالاتستى Antonio Malatesti الذى كان صديقًا لجون ميلتون. وترك جاليليو وراءه عددًا من قصائد الشعر المعروفة باسم السونيتات، منها سوناتة عن التليسكوب أهداها إلى الدوق المظيم. وأيضًا اكتشف البروفيسور فافارو ثلاث سوناتات أخرى من نَظْمه.

وفى ٢ يوليو عام ١٥٩١، مات فنسنزيو والد جاليليو فتفاقمت أحوال عائلته المالية، فأصبح العائل الوحيد لأمه وأخيه مايكلانجلو الموسيقار المتعطل، وأختيه ليفيا ولينا.

الفصل الثانى

جاليليو يحاضر فى جامعة بادوا

شغل جاليليو وظيفة أستاذ كرسى الرياضيات فى جامعة بادوا فى الفترة من عام ١٥٩٢ حتى ١٦١٠، وهى الوظيفة التى سبق أن فشل فى الحصول عليها. كرر جاليليو طلبه من الماركيز دى مونت أن يتوسط له لدى معارفه من المسئولين فى جامعة بادوا. وحزم جاليليو متاعه متوجهًا إلى البندقية فى طريقه إلى بادوا؛ حيث استقبله العالم بنيللى - وهو صديق الماركيز دى مونت - بحفاوة بالغة وأعطاه عددًا من خطابات التوصية، الأمر الذى أدى إلى وقوع اختيار جامعة بادوا عليه رغم وجود منافس حاقد عليه هو جيوفانى ماجنينى Giovanni Magnini. تعاقد جاليليو مع جامعة بادوا للعمل بها كمحاضر لمدة أربعة أعوام مقابل راتب سنوى لا بأس به قدره ١٨٠ فلورينه. ونجحت جامعة بادوا فى اجتذاب الطلبة من كل أرجاء أوروبا إليها، مما وفر لجاليليو فرصة زيادة دخله بإعطاء الدروس الخصوصية. وعلى عكس جامعة بيزا أمهلته جامعة بادوا فسحة من الوقت لترتيب أموره فى فلورنسا. وكذلك أعطته هذه الجامعة الوقت الكافى لإعداد خطبة يلقيها بمناسبة تسلمه العمل فى ٧ ديسمبر ١٥٩٢، وهو خطاب ترك أبلغ الأثر فى نفوس المستمعين بسبب عمقه وبلاغته وأناقة أسلوبه. ونزل جاليليو بعض الوقت ضيفًا على بنيللى الذى قيل إنه امتلك مكتبة تضم ثمانين ألف مجلد. ولم يدُر بخلده، وهو يسير فى شوارع بادوا ويتجول فى طرقاتها إن هذه المدينة سوف تقيم له يومًا ما تمثالاً تخليدًا لذكراه واعترافًا بفضله.

وفى أثناء عمله فى بادوا أنتج جاليليو منذ السنوات الأولى عددًا كبيرًا من البحوث النافعة لطلبته، وهى بحوث تتناول العمارة العسكرية وبناء الحصون والميكانيكا

والمجال Sphere وباقى متوازى الأضلاع Gnomonics. ولم تُطبع هذه البحوث ولكنها انتشرت بين الطلبة فى هيئة مخطوطات. ومن الأسف أن كثيرًا منها اندثر. ومن المؤسف أيضًا أن بعض هذه الأبحاث وقعت فى أيدى قلة من أصحاب الضمائر الميتة فقاموا بنشرها بعد نسبتها إلى أنفسهم.

كتب جاليليو مبحثه عن الميكانيكا Delle Scienza Meccanica فى عام ١٥٩٤، وتناول فيه الرافعة ومخرطة البكرات واللولب والسرعة وقوانين الأجسام الساقطة. ويبدو أنه اضطر. بسبب رغبته فى إرضاء رؤسائه فى الجامعة ـ إلى تدريس نظرية بطلميوس الفلكية رغم عدم اقتناعه بصحتها، ورغم اقتناعه الشديد بنظرية كوبرنيكوس المنادية بدوران الأرض حول الشمس. ويتضح هذا فى أول خطاب أرسله جاليليو إلى الفلكى الكبير كبلر Kepler، حيث يعترف باقتناعه بنظرية كوبرنيكوس، كما يشيد باقتناع هذا العالم بها. غير أن جاليليو يعترف فى خطابه إلى كبلر بأنه لا يجرؤ على الجهر بنظرية كوبرنيكوس التى تناصبها الكنيسة العداء. يقول جاليليو فى هذا الشأن: «لقد توصلت إلى مُحاجَّات وتفنيدات كثيرة تهدم الآراء المعارضة لنظرية كوبرنيكوس، ولكنى لم أجرؤ على نشرها خوفًا من أن ألقى نفس المصير الذى لقيه الرائد كوبرنيكوس الذى رغم علو شأنه وخلود اسمه بين عدد قليل من الناس، فإن أعدادًا لا نهائية منهم (تتكون من الحثالة الغافلة) تسخر منه وتقابله بصيحات الاستهزاء. ولو كان هناك كثيرون أمثالك لتجاسرت وأذعت خواطرى، وحيث إن الأمر ليس كذلك فسوف أستغرق وقتًا فى التدبر والتفكير فى هذا الموضوع».

وفى صيف عام ١٥٩٣، ألمت بجاليليو نزلة برد شديدة كادت أن تودى بحياته رغم قوة بنيانه. ورغم شفائه فإن آثار هذا المرض لازمته طيلة حياته، الأمر الذى جعله من وقت لآخر يعانى من الإرهاق والآلام الجسمانية ومن النزف والأرق وفقدان الشهية.. ولفت جاليليو بنبوغه الهندسى أنظار الدولة فأسندت إليه بعض المهام الهندسية والأعمال الإنشائية واختراع الآلات، مثل اختراع آلة صغيرة ذات قوة عالية يحركها حصان واحد لرفع الماء وتدفقه فى عدة قنوات. وسجلت مدينة البندقية هذا الاختراع باسمه لمدة عشرين عامًا تبدأ فى ١٥ سبتمبر ١٥٩٤. ووُضعت آلة رفع المياه هذه تحت الاختبار فى حديقة قصر كونتارينى فى البندقية فأثبتت كفاءتها.

وفى عام ١٥٩٧/١٥٩٦، اخترع جاليليو فرجارًا هندسيًا وعسكريًا أثبت فائدته الكبيرة، الأمر الذى جعل العديد من البلاد الأوروبية تطلب إمدادها به. ولهذا قرر أن

يقيم ورشة فى بيته لتصنيعه. ولكن شانئيه لم يتركوه فى راحة فادعوا أنهم الأصحاب الحقيقيون لهذا الاختراع، وأنه لا يعدو أن يكون سارقًا لاختراعهم، وكان بالداسار كابرا Baldassare Capra على رأس هؤلاء الأدعياء. وأمام هذه الادعاءات الباطلة اضطر جاليليو لإثبات ملكيته لهذا الاختراع منذ عام ١٥٩٧ أمام جمع محتشد من أساتذة جامعة بادوا، وهو ما أيدته شهادات ساجريدو وجياكومو بادوفير ومازولينى وجياكو ألفيس كارنارو والراهب باولو ساربى Paolo Sarpi، الذى أرسل خطابًا من البندقية بتاريخ ٢٠ أبريل ١٦٠٧ يؤكد فيه بطلان هذه الافتراءات، وأنه سبق لجاليليو منذ عشرة أعوام إطلاعه على اختراعه فى حديقة بادوا وأنه فيما بعد أهداه نسخة من هذا الاختراع لا يزال يحتفظ بها.

وأمام هذا البرهان الدامغ على زيف ادعاء كابرا قررت جامعة بادوا فى ٤ مايو ١٦٠٧ بالإجماع أن جاليليو هو صاحب الاختراع الحقيقى، واعتبرت أن الاتهام إهانة لجاليليو وجميع أعضاء هيئة التدريس بالجامعة الذين كان كابرا واحدًا منهم. وطلبت الجامعة من كابرا تسليمها جميع نسخ البحث المتبقية التى نسب فيها الاختراع إلى نفسه، وأمرت باتخاذ كافة الإجراءات القانونية ضد طابعه وناشره معًا. وفيما بعد نشر جاليليو مبحثًا مفصلاً تناول فيه ادعاء زميله كابرا الزائف بعنوان: «دفاع ضد وشاية وادعاء بالادسار كابرا». ويرجع سبب وشاية زميله به إلى الغيرة المهنية، فقد ساءه أن يرى غريمه يحقق نجاحًا ساحقًا كمحاضر فى جامعة بادوا.

ومن الواضح من الكتاب الذى نشره جاليليو عام ١٦٢٣ بعنوان: «المجرب» IL Saggiatore أن كابرا انتحل البحث من طالب ألمانى التحق بجامعة بادوا اسمه سيمون ماير الذى ادعى أيضًا بأن جاليليو سرق منه بعض الاكتشافات الفلكية. وحين أدرك هذا الطالب الألمانى أن أمره وأمر أستاذه كابرا قد انكشف قرر مغادرة إيطاليا على جناح السرعة تاركًا هذه الفضيحة الأكاديمية ينوء بها كابرا وحده.

وفى سبتمبر ١٥٩٨، انتهت مدة تعاقد جاليليو الأولى مع جامعة بادوا التابعة لجمهورية البندقية، ولكن مجلس شيوخ البندقية تردد فى تجديد العقد رغم اعترافه بكفاءة جاليليو، حتى لا تضطر الجامعة إلى زيادة راتبه كما تقضى بذلك لوائح التجديد. وعملاً بنصيحة بعض أصدقائه أمثال بنيللى وساجريدو، تقدم جاليليو فى منتصف عام ١٥٩٩ بطلب إلى جامعة بادوا لتجديد التعاقد معه أسوة بما فعلته جامعة

بولونيا مع زميله ماجنينى الذى تقاضى راتبًا يفوق راتب جاليليو بكثير. ويبدو أن المساجلات بين الجامعة وجاليليو استغرقت وقتًا طويلاً، وأثارت لجاجًا كبيرًا لدرجة أن الدوج كونتارينى راعى الجامعة تضايق ضيقًا شديدًا فصاح قائلاً: «إذا كان الراتب الذى يتقاضاه جاليليو لا يعجبه فبإمكانه الاستقالة من وظيفته». وأضاف الدوج أن البروفيسور موليتى لم يتقاض أكثر من ثلاثمائة فلورينة، وأنه من المفهوم أن أساتذة الجامعة يزيدون دخلهم عن طريق إعطاء الدروس الخصوصية.

وفى نهاية المطاف تم تجديد التعاقد معه يوم ٢٨ أكتوبر ١٥٩٩ لمدة ستة أعوام أخرى تبدأ بأثر رجعى فى ٢٧ سبتمبر ١٥٩٨ براتب قدره ٣٢٠ فلورينة، مع التنبيه عليه – من خلال صديقه ساجريدو – بعدم المطالبة بأية زيادة فى الراتب؛ حيث إن مجلس شيوخ البندقية لا يرغب فى أن يتحول تجديد تعيينه إلى سابقة.

وبسبب شهرته العريضة التى طَبقَت آفاق البلاد الأوروبية جاء الطلبة الأجانب زُرَافات ووُحْدَانًا للدراسة على يديه، ومن بينهم الأرشيدوق فيردناند الذى صار فيما بعد إمبراطور ألمانيا، كما تلقى محاضراته أمراء الألزاس ومانتوا وجوستاف أمير السويد. وأغلب الظن أن العالم البريطانى وليم هارفى مكتشف الدورة الدموية تتلمذ على يديه عندما التحق بجامعة بادوا فى الفترة من ١٥٩٨ حتى ١٦٠٢. ومع تحسن ظروفه المالية ترك جاليليو منزله المتواضع ليسكن فى بيت فسيح حوّله إلى بيت طلبة يعيش فيه طلبته الخصوصيون الطليان والأجانب. وبلغ عدد الطلبة القاطنين معه تحت سقف واحد والذين أشرف على إمدادهم بالطعام وضرورات الحياة عشرين طالبًا. وفى عام ١٦٠٣، اشترى حديقة ضمها إلى هذا البيت اهتم بزراعة الكروم والفاكهة فيها. وفى هذه الحديقة الغنّاء كان يعزف عزفًا بديعًا على القيثارة، ويتناقش مع طلبته فى شتى الموضوعات الخفيفة والعميقة على حد سواء، مثل إعداد البذور الصالحة والفائدة الغذائية فى النباتات وصنع الخمور من الكروم، وكان طلبته الذين يستمعون إليه بانبهار يحيطونه بكل مظاهر الود لا فرق بين الطليان والفرنسيين والإنجليز والألمان. وكان المقابل المادى الذى تقاضاه من طلبته يكاد لا يكفى لتغطية نفقات إقامتهم الكاملة. ومن خلال هذه العلاقة توطدت عُرى الصداقة بينه وبين العديد من الدارسين والنبلاء، وهى علاقة استمرت مدى الحياة مثل علاقته الوطيدة ببنيللى والراهب باولو سارى، وبالكثيرين من أترابهم. وانتهز بنيللى فرصة معرفته وتراسله مع

تايكو براهى عالم الرياضيات والفلك الدانماركى المعروف؛ ليوصيه خيرًا بجاليليو واصفًا إياه بأنه «إنسان يجدر بالمرء أن يصادقه». ومن ثَم أرسل تايكو إليه خطابًا بتاريخ ٤ مايو ١٦٠٠، ولكن العلاقة بين العالمين الإيطالى والدانماركى لم تدم؛ حيث إن المَنيَّة وافت تايكو فى براغ فى ١٣ أكتوبر ١٦٠١.

وبالإضافة إلى وليم هارفى تتلمذ عدد من البريطانيين على يدى جاليليو، مثل ريتشارد ديلوبى التلميذ الوفى الذى أقام معه تحت سقف واحد فى بيت الطلبة. وفيما بعد تتلمذ على يديه طالبان اسكتلنديان، هما: جون وودزبورن وتوماس سيجيت اللذان أظهرا شديد الولاء والإخلاص له.

ونحو عام ١٦٠٢، اخترع جاليليو مقياسًا هوائيًا للحرارة، وكان اختراعًا أشبه بالبارومتر منه إلى الثيرمومتر. وفى عام ١٦١٣، قام صديقه ساجريدو بتطويره وتقسيمه إلى مائة درجة. ثم جاء ليوبولدو دى مديسيس فأدخل المزيد من التعديلات عليه حتى أصبح ثيرمومترًا بالمعنى الشائع فى يومنا الراهن. وكعادة ذلك الزمان ادعى قراصنة الفكر نسبة هذا الاختراع إلى أنفسهم.

وفى عام ١٦٠٤، لفت نظر علماء الفلك ظهور نجم جديد ساطع فى مجرة سيرينتاريوس Serpentarius كان الفلكى ميستيلين أول من رصده. ويبدو أن جاليليو لاحظ وجود هذا النجم المتلألئ بعد ذلك بوقت قصير، وحار العلماء فى تفسير ظهور هذا النجم الوضاء وتضاربت تفسيراتهم. وظل جاليليو يراقب بدقة هذا النجم لمدة ١٨ شهرًا قرر بعدها فى أوائل يناير ١٦٠٥ أن يشرح تفسيره لظهور هذا النجم لطلبته. قال جاليليو: إن هذا النجم ليس شهابًا أو مذنَّبًا كما أنه ليس جسمًا سرمديًا فى قِدمه؛ ولكنه نجم جديد سوف ينتهى به الأمر إلى الاختفاء. وعلى العكس من عالمى الفلك الكبيرين تايكو براهى وكبلر اللذين فسرا ظهور النجوم الجديدة والمذنبات بأنها تجمعات مؤقتة للأبخرة الكونية التى تملأ الفراغ، نسبها جاليليو إلى وجود انبعاثات أرضية فى منتهى الوهن على مسافة هائلة من الأرض تعكس أشعة الشمس.

لم يرق هذا التفسير فى عين المدرسيين من أتباع أرسطو الذين آمنوا بكمال السماء وديمومتها على حالها دون أن يطرأ عليها أى تغيير أو تبديل، ومن ثَم فهى فى نظرهم لا تعرف النمو والاضمحلال؛ ولهذا عارضوا القول بظهور نجوم جديدة فى الكون. وكان ظهور هذا النجم سببًا فى تغيير آراء جاليليو، فقبل ظهوره درج على

تدريس نظريات كل من أرسطو وبطلميوس فى الفلك، وهى نظريات تنادى بمركزية الأرض فى الكون وثباتها فى مكانها ودوران الشمس حول الأرض. واحتدم الجدل العنيف بين جاليليو وأساتذة جامعة بادوا حول تفسير ظهور النجم الجديد، وعندئذ قرر جاليليو التعبير بكل وضوح وصراحة عن تشككه فى صحة النظريات الفلكية القديمة التى نادى بها أرسطو وبطلميوس، وانبرى للدفاع بقوة عن نظرية كوبرنيكوس المنادية بمركزية الشمس ودوران الأرض حولها. وفى هذه الملاحاة تصدى أنتونيو دا مونتيو لكيانو لدحض آراء جاليليو الذى استقبل محاجات غريمه بالزراية والاحتقار. وأثمرت هذه الملاحاة بحثًا مكتوبًا بلهجة أهل بادوا سطره جاليليو ونفر من طلبته.

وفى عام ١٦٠٤، انتهى عقد العمل الذى أبرمته جامعة بادوا مع جاليليو فطلب منها تجديد العقد وزيادة الأجر فأحجمت الجامعة عن ذلك كعادتها. وفى عام ١٦٠٥، كان جاليليو يتولى تدريس كوزيمو Cosimo ابن الدوق العظيم، وتوسط هذا التلميذ لدى السفير التوسكانى فى البندقية حتى نجح فى تجديد تعيينه أستاذًا بجامعة بادوا لمدة ثلاثة أعوام أخرى براتب أكبر يصل إلى ٥٢٠ فلورينة، وصدر قرار تعيينه بالجامعة لثالث مرة فى ٥ أغسطس ١٦٠٦، وأقبل عليه المستمعون من كل حدب وصوب. وعند إلقاء جاليليو لمحاضراته كانت أوسع قاعات الجامعة، وهى قاعة أولا ماجا التى تسع ألف شخص غير كافية لاحتواء الحضور، الأمر الذى اضطره أحيانًا إلى إلقاء محاضراته فى الهواء الطلق.

وأثناء وجوده فى بادوا توفر جاليليو على دراسة مبحث ألفه الباحث الإنجليزى الدكتور وليم جلبرت كولتشستر بعنوان: «عن المغناطيس» واتسمت محاجات هذا المبحث بتجاوز آراء أتباع المدرسة الأرسطاطاليسية. فضلاً عن أنه اشتمل على تجارب عن الكهرومغناطيسية، ومن قبل كان أرسطو وبلينى Pliny يعرضان قدرة حجر المغناطيس Loadstone على جذب الأجسام نحوه. فضلاً عن أن الصينيين الأقدمين عرفوا قُطبيَّة المغناطيس باتجاهى الشمال والجنوب، وأيضًا كانت البوصلة معروفة قبل جاليليو. وحالت اهتمامات جاليليو الفلكية دون تقدم بحوثه فى مجال القوة المغناطيسية. وعبر جاليليو فيما بعد عام ١٦٣٢ عن بالغ إعجابه بقول وليم جلبرت إن الأرض فى جاذبيتها للقمر تشبه حجر مغناطيس هائل الحجم.

والطريف أن الدوق العظيم كوزيمو اعتبر جاليليو أعظم عالم رياضيات فى كل المسكونة، فى حين أن زوجة كوزيمو اعتبرته واحدًا من كبار المنجمين. والجدير

بالذكر أن فلورنسا أظهرت منذ وقت باكر اهتمامًا عظيمًا بالتنجيم وقراءة الطالع، وكان التنجيم في خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر مادة تدرس في الجامعات الإيطالية؛ وعلى الأخص جامعتي بادوا وروما. حتى الطبقات المتعلمة آنذاك آمنت بالتنجيم. ويبدو أن جاليليو تولى تدريسه عن غير اقتناع.

قلنا إن جاليليو في فترة وجوده في بادوا مر بضائقة مالية بعد وفاة والده. فقد أصبح العائل الوحيد لأمه وأختيه وأخيه حتى شب عن الطوق. وكان همه الأكبر ينحصر في إيجاد الدوطة (المهر) اللازمة لتزويج أختيه. وعلى الرغم من أن أخاه الموسيقار الذي سعى إلى توظيفه وعد بالمساعدة في نفقات تزويجهما فإنه تخلى عنهما تمامًا وأظهر جحودًا ونكرانًا أثارا استياء جاليليو الشديد، كما يتضح لنا من خطاب التوبيخ الذي أرسله جاليليو إلى أخيه ميكلانجلو في ٢٠ نوفمبر ١٦٠١. وبسبب عجزه عن الوفاء بمبلغ الدوطة الذي وعد به أحد زوجي أختيه كاد جاليليو أن يتعرض للسجن. أرسل جاليليو أربعة خطابات لحث ميكلانجلو على تأدية واجبه نحو أسرته، ولكن هيهات فقد تهرب أخوه من المسئولية الأمر الذي دفع جاليليو إلى تعنيفه، وقاطع جاليليو أخاه لفترة، ولكن قلبه لم يطاوعه فعادت المياه إلى مجاريها بينه وبين أخيه عام ١٦١٠، وازدادت الطينة بلة؛ لأن الموسيقار المبذر ميكلانجلو لم يتورع عن الاستدانة منه حتى بعد أن أصبح له دخل.

وفي عام ١٥٩٩، صادفت سيدة من البندقية اسمها مارينا جامبا هوًى في نفسه فعاشرها وأنجب منها بنتين، هما: فيرجينيا المولودة في ١٣ أغسطس ١٦٠٠، وليفيا المولودة في ١٨ أغسطس ١٦٠١، بالإضافة إلى ابن اسمه على اسم والده فينسنزيو والمولود في ٢١ أغسطس ١٦٠٦. علمًا بأنه أنجب ابنته فيرجينيا دون زواج.

نعود إلى اختراع التليسكوب فنذكر أنه جاء وليد الصدفة في هولندا في أوائل أكتوبر ١٦٠٨، فقد لاحظ صبي يعمل في محل نظارات هناك يملكه هانز ليبرهي، وهو يعبث بالعدسات أنه يمكنه بوضع عدستين في وضع معين أن يرى الأشياء مكبرة ومستوية، وعندما جرب صاحب المحل هذا الأمر استيقن من صحته، ففكر في استغلال هذا الاكتشاف في صنع لعبة أطفال للتكبير عرضها للبيع في فاترينة محله، وتصادف مرور الماركيز سبينولا على المحل فرأى اللعبة فدخل لتجربتها ثم قام بشرائها، ثم أعطاها فيما بعد للأمير موريس ناسو الذي فكر في الاستفادة من فكرة

هذه اللعبة فى مجال الاستطلاعات العسكرية. وتثبت بعض الوثائق التى اكتُشفت مؤخرًا أن ليبرهى صاحب الاختراع طلب من مجلس الدولة الهولندية أن يمنحه وحده براءة الاختراع وحق صنع وبيع أدوات بصرية لتكبير الأشياء البعيدة. ورغم أن مجلس الدولة رفض أن يخصه ببراءة الاختراع؛ حيث إن سره ذاع وانتشر، فإن الحكومة الهولندية تعاقدت معه على توريد عدد من هذه المكبرات عن بعد نظير مكافأة مالية قدرها تسعمائة فلورينة بحيث يستطيع مستخدمها استعمال عينيه الاثنتين وليس عينًا واحدة عند النظر خلالها. وتقدم جيمس متيوس بالتماس لاحق بعد مرور خمسة عشر يومًا على طلب ليبرهى ينسب فيه إلى نفسه هذا الاختراع، ولكن نظارته المكبرة للأشياء البعيدة لم تصل فى درجة إتقانها إلى نظارات ليبرهى. ثم ما لبث أن ظهر منافس ثالث لليبرهى هو صاحب محل نظارات اسمه زاكارياس جانسن، الذى تمكن فى عام ١٥٩٠ من اختراع الميكرسكوب ثم تولى تطويره ليصبح تليسكوبًا على قدر لا بأس به من الكفاءة. ولعلنا نذكر أن فكرة التليسكوب خطرت لجاليليو نحو منتصف يونيو عام ١٦٠٩، وأنه ما انفك يطوره ويدخل التحسينات عليه حتى استطاع فى أوائل يناير ١٦١٠ إنتاج خامس تليسكوب من صنعه يتميز بالقوة لدرجة أنه قرَّب الأشياء البعيدة أكثر من ثلاثين مرة وكبَّرها نحو ألف مرة، وهو التليسكوب الذى اكتشف به جاليليو مجاهل السماء.

كانت العدسات التى قام جاليليو بتصنيعها تفوق فى كفاءتها جميع العدسات التى حاولت البلاد الأوروبية المختلفة صنع مثيلاتها، الأمر الذى جعلها تقبل على شراء عدساته. وقد كتب إليه دانييل أنتونينى فى بروكسل فى أبريل عام ١٦١١ يشكو من أن العدسات التى قامت هولندا بإنتاجها لا تستطيع التكبير أكثر من خمس مرات. حتى باريس وأمستردام والبندقية عجزت حتى عام ١٦٣٤ عن صنع تليسكوب بنفس درجة إتقان تليسكوب جاليليو.

صنع جاليليو أكثر من مائة تليسكوب فى النصف الأول من عام ١٦١٠ قام بتوزيعها كهدايا مرفق بها مبحثه «رسول من النجوم» على أمراء وعلماء كل من إيطاليا وفرنسا وهولندا وألمانيا. وبطبيعة الحال احتفى أعزاؤه وأحباؤه بأكثر التليسكوبات كفاءة، مثل دوق بافاريا والكاردينال ديل مونت ودوق أورينيو، ولكن شريف كولونى أنحى عليه باللائمة؛ لأنه لا يذكر فى مبحثه كيفية صنع التليسكوب وطلب منه إماطة اللثام عن هذا السر، واعدًا إياه بمكافأة مالية كبيرة.

وعندما تسلم البلاط الفرنسى تليسكوب جاليليو أثارت هذه الآلة عظيم اهتمام الملكة مارى دى مديسيس، ومن فرط لهفتها لرؤية القمر من خلال التليسكوب لم تستطع الانتظار حتى يثبتوه على النافذة المفتوحة، فركعت على ركبتيها على أرضية الحجرة وسط ذهول حاشيتها والعامل الإيطالى المرافق للتليسكوب.

أثار التليسكوب دهشة جميع الطليان بلا استثناء على اختلاف طبقاتهم فأقيمت له الاحتفالات وتغنى به الشعراء. وذات مرة عندما رأى المتسكعون فى الميادين جاليليو حاملاً تليسكوبه أعلى برج كنيسة القديس مرقص انتزعوه منه؛ ليروا بأنفسهم العجب العجاب ثم أعطوه لأصدقائهم للفرجة.

والجدير بالذكر أن جاليليو فى مبحثه «رسول من النجوم» لم يدافع عن نظرية كوبرنيكوس بشكل مباشر وصريح، بل عبر عن إيمانه بها دون أدنى مواربة فى محاضراته وأحاديثه. ويذكر كبلر فى رسالته إلى جاليليو التى ظهرت على هيئة مبحث نشره فى براغ، أنه استشاط غضبًا من مارتن هوركى لإنكاره صحة اكتشاف جاليليو لأربعة توابع حول المُشترِى وقرَّعه تقريعًا شديدًا لدرجة أن هوركى طلب الصفح من كبلر الذى اشترط للعفو عنه الإيمان برأى جاليليو القائل بوجود أربعة توابع للمشترى.

ضاق جاليليو ذَرعًا بأعبائه الوظيفية فى جامعة بادوا ومن إضاعة وقته فى إعطاء الدروس الخصوصية، فقرر الاعتزال حتى يتمكن من التفرغ الكامل لأبحاثه. وعاد إلى بلده فلورنسا؛ حيث عينه الدوق العظيم فى ١٢ يوليو ١٦١٠ فيلسوف القصر الملكى وعالم الرياضيات فيه، ولكنه لم يذق طعم الراحة فى بلده فلورنسا بسبب الغيرة والحسد من نبوغه. وكان صديقه ساجريدو Sagredo حصيفًا عندما حذره من المشاكل والمضايقات التى تنتظره فى البلاط الملكى بفلورنسا. وفى غضون أقل من شهر واحد على وصوله هناك اكتشف أن كوكب الزهراء - شأنه فى هذا شأن القمر - يتخذ شكل الهلال؛ وذهب جاليليو إلى أن كثيرًا من الأجرام السماوية ليست مضيئة فى حد ذاتها ولكنها تضىء عندما تنعكس أشعة الشمس عليها، وهكذا استنتج أن هذه الكواكب تدور حول الشمس، وهى حقيقة سبق لفيثاغورث وكوبرنيكوس وكبلر استنتاجها.

والجدير بالذكر أن جاليليو تعلم من تجارب الحياة أن يكتم نتائج أبحاثه وكشوفه

العلمية خوفًا من سطو الآخرين عليها، وكان يبلغ أصدقاءه بها فى شكل شفرات يرسلها إليهم بدت أحيانًا طلاسم لا سبيل إلى فكها، ولكن كبلر تمكن من حل الشفرة التى أرسلها جاليليو إليه بخصوص توابع المشترى الأربعة.

وسوف نتوقف عند هذا الحد؛ لنروى فى فصل مستقل قصة احتدام الصراع بين جاليليو ومناوئيه من أتباع أرسطو قبل مواصلة الحديث عن مسيرة حياته والنكبات التى اعترضتها.

الفصل الثالث

صراع جاليليو مع أتباع أرسطو

فى مارس ١٦١٠، أعلن جاليليو من البندقية للعالم فى مبحثه «رسول من النجوم» بعنوان: Sidereus Nuncius (The Starry Messenger) عن اكتشاف التليسكوب الذى أشار إليه فيما بعد قائلاً: «هذا الكون الذى قمت بتكبيره مائة، بل ألف مرة عما كان الحكماء فى العصور الماضية يعتقدون». وكان جاليليو فى الخامسة والأربعين من عمره عندما اخترع التليسكوب الذى وفر له المجد والشهرة والثروة معًا. وعندما فحص جاليليو الأجرام السماوية بتليسكوب، اقتنع بشكل نهائى وقاطع بأن عالم الفلك كوبرنيكوس كان على حق عندما اعتبر الأرض كوكبًا من الكواكب، وليست مركز الكون. وعلى أية حال، لم تكن هذه الفكرة جديدة عليه لأنه توصل إليها أثناء عمله فى مجال الميكانيكا والبحث عن القوانين التى تحكم حركة القذائف وسقوط الأجسام، وكذلك باستخدام التليسكوب فى مشاهدة القمر والنجوم والسدم والكواكب الأربعة التى تدور بسرعة فى فلك المشترى على مساحات وفترات مختلفة. ولأنه أول من اكتشف هذه الكواكب الدائرة فى فلك المشترى، فقد قرر تسميتها بنجوم عائلة المديسيس الحاكمة Medicean Stars. وترامى إلى مسامع جاليليو - كما أسلفنا - أن صانعًا لعدسات النظارات فى فلاندز يدعى هانز ليبرهى Hans Lippephey اكتشف أن تركيب العدسات المقعرة والمحدبة معًا من شأنه أن يجعل الأجسام البعيدة تبدو قريبة، وأن هذا الصانع أنشأ بالفعل تليسكوبًا عرضه فى الأسواق كلعبة أطفال يلهون بها، وأبلغ أحد الأصدقاء جاليليو أنه شاهد بنفسه هذه اللعبة فى باريس وقام بوصفها له. وفى

مبحثه «رسول من النجوم» وصف جاليليو الخطوات التى اتخذها لتنفيذ هذه الفكرة، فقام بتركيب عدسة مقعرة على عدسة محدبة استطاع بهما أن يرى الأجسام أقرب بثلاث مرات وأكبر من حجمها بتسع مرات. واستطرد جاليليو قائلاً إنه كرر التجربة، ونجح فى صنع تليسكوب أكثر دقة يكبر الأشياء أكثر من ستين مرة، وظل لا يدخر جهدًا حتى تمكن من صنع تليسكوب يكبر الأشياء نحو ألف مرة ويقرِّبها أكثر من ثلاثين مرة. ويقول بافى إن جاليليو استطاع بعبقريته تحويل لعبة الأطفال إلى أداة نافعة لاكتساب العلم والمعرفة. وكان، فى بادئ الأمر يسمى هذا الاختراع نظارة التجسس ولكنه أطلق عليه اسم تليسكوب فيما بعد. وفى البندقية دعا أصدقاءه للصعود أعلى كنيسة القديس مرقص، فاعتراهم الذهول وهم ينظرون من خلال هذه الأعجوبة.

وأبدى جاليليو استعداده لإهداء نسخة مجانية من نظارة التجسس إلى حاكم البلاد، شارحًا له: «نحن نستطيع اكتشاف سفن الأعداء قبل أن يكتشفوا سفننا بأكثر من ساعتين. والجدير بالذكر أنه فى ٧ مايو ١٦١٠، أى بعد مرور شهرين من نشر رسالته عن النجوم، كتب جاليليو خطابًا مطولاً إلى صديقه المخلص بليساريو فينتا Vinta سكرتير دولة فلورنسا تحدث فيه عن مشروعاته العظيمة التى يطمح فى إنجازها بعد أن يتخلى عن التدريس فى جامعة بادوا، كما عبر عن رغبته فى خدمة حاكم البلاد الدوق العظيم. قال جاليليو فى خطابه: «لدىَّ خطط وابتكارات كثيرة أشد ما تكون إثارة للإعجاب لا يمكن تنفيذها إلا بمساعدة الأمراء؛ لأنهم وحدهم هم الذين يشنون الحروب ويبنون القلاع ويدافعون عنها... وفى الأساس، فإن المؤلفات التى أنوى الانتهاء منها هى (نظام العالم وتكوينه) Constitution of the World، وهو مشروع ضخم مفعم بالفلسفة والفلك والهندسة، ثم ثلاثة كتب عن الحركة وهى علم جديد تمامًا».

وهذه هى المرة الأولى التى يذكر فيها جاليليو مشروعه البحثى صراحة بعد أن كان يشير إليه تلميحًا. ويهدف هذا المشروع إلى إثبات نظرية كوبرنيكوس فى ضوء الاكتشافات الجديدة فى علمى الفلك والفيزياء، بعد أن توفر على دراستهما على مدى عقدين من الزمان.

وفى نهاية عام ١٦٠٩، أى قبل ظهور البحث المشار إليه فى عام ١٦١٠، صوب جاليلو تليسكوبه فى ليلة قارصة إلى القمر، وهو على شكل هلال كاد أن يكتمل فلاحظ

وجود بقع على سطح القمر لم يرها أحد من قبله على حد تعبيره، ومن هذه البقع توصل إلى اقتناع بأن سطح القمر ليس أملس أو كامل الاستدارة كما كان قدامى الفلاسفة يعتقدون، بل هو سطح غير مستو، وخشن ومليء بالوهاد والمرتفعات وأقرب ما يكون إلى سطح الأرض التى تغطيها سلاسل الجبال والوديان السحيقة. وقدر ارتفاع جبال القمر بأربعة أميال، وهو قريب من تقدير الفلكيين المحدثين. وعلى عكس الاعتقاد السائد وعد جاليليو أنه سوف يثبت عن طريق عدد هائل من المحاجات فى كتابه القادم The System of The World أن جسم الأرض المتعرج يفوق القمر فى روعته، وأنه ليس مستودعًا لأوساخ الكون وقاذوراته كما كان يعتقد. وعن طريق رصده للقمر استطاع جاليليو القضاء على النظرية القديمة التى تقول إن عناصر تكوين القمر تختلف عن عناصر تكوين الأرض، فعناصر الأرض الأربعة التى تفنى وتُستحدث هى: الهواء والنار والماء والتراب، فى حين أن القمر والأجرام السماوية الأخرى تتكون من مادة الأثير، وهى مادة لا تفنى ولا تستحدث. وحطم جاليليو المعتقدات الفلسفية والعلمية المتوارثة حين أكد أن الأجرام السماوية تتكون من عناصر الأرض نفسها.

ورسم جاليليو فى مبحثه «رسالة من النجوم» رسمًا بيانيًا لتجمعين موجودين فى مجرتين سماويتين، هما نجم الجوزاء Orion، والثريا Pleides واكتشف على مقربة منهما ثمانين نجمًا لم يرها بشر من قبل. رأى جاليليو أن مجرة الثريا لا تتكون من سبعة نجوم، بل من أربعين نجمًا. والجدير بالذكر أن التليسكوبات الحديثة والأكثر تطورًا اكتشفت وجود عدة مئات من هذه الأجرام. وأيضًا اكتشف جاليليو أن مجرة درب التبانة تتكون من مجموعة لا حصر لها من النجوم تتجمع فى شكل عنقودى الكثير منها كبير الحجم نوعًا وشديد اللمعان، بينما النجوم الصغيرة فى هذه المجرة لا تحصى ولا تُعد.

كان يوم السابع من يناير ١٦١٠ يومًا مشهودًا فى اكتشافات جاليليو الفلكية، ففى هذا اليوم استخدم أكثر تليسكوباته إتقانًا ليلاحظ - بجانب كوكب المشترى - وجود ثلاثة نجوم صغيرة شديدة اللمعان اثنان منها شرق المشترى، والثالث فى غربه. وأثار حب استطلاعه بعض الشيء أنه رأى أن هذه النجوم الثلاثة تظهر على خط مستقيم تمامًا، بالتوازى مع مدار الشمس الظاهرى بين البروج، ولكنه لم يعر الأمر عظيم اهتمامه. غير أنه لم ينس النجوم الثلاثة المشار إليها، فقد لاحظ أن وضعها يتغير

بحيث تصبح جميعًا على خط مستقيم إلى الغرب من المشترى، وأنها تقترب من بعضها البعض، وكذلك صارت على مسافات متساوية من بعضها البعض؛ الأمر الذى أثار بالغ اهتمامه وحب استطلاعه. وبدأ جاليليو يشك فى صحة حسابات جميع الفلكيين القدامى القائمة على الاعتقاد بأن المشترى يتحرك فى اتجاه الغرب من النجوم الثابتة فى مكانها. ورأى أنه من الجائز أنه يتحرك شرقًا متجاوزًا النجوم الثلاثة التى سبق أن رصدها، ولكنه لم يتمكن من استجلاء الأمر يوم ٩ يناير ١٦١٠ بسبب الغيوم التى لبدت السماء، وفى الليلة التالية التى توافق ١٠ يناير ١٦١٠ أصبح الجو صافيًا فرأى اثنين فقط من النجوم الثلاثة فى شرق كوكب المشترى. يقول جاليليو فى هذا الشأن إنه اقتنع بأن التغيرات التى لاحظها لا ترجع إلى تحرك كوكب المشترى، ولكن إلى تحرك النجوم التى وضعها تحت المراقبة.

وبمرور الوقت اكتشف جاليليو أن النجوم الصغيرة تتحرك حول كوكب المشترى. وفى ١٣ يناير ١٦١٠، اكتشف جاليليو نجمًا جديدًا رابعًا حول كوكب المشترى واحد منها على الشمال، والنجوم الثلاثة الأخرى إلى الغرب.

أرسل جاليليو نسخة من كتابه «رسالة من النجوم» إلى الفلكى الرياضى كبلر، الذى دفعه الإعجاب به إلى حد العمل على إعادة نشره فى مدينة فرانكفورت عام ١٦١٠، أى فى نفس العام الذى ظهر فيه الكتاب فى إيطاليا.

وتعارضت اكتشافات جاليليو مع آراء الأقدمين وأتباع أرسطو على وجه الخصوص فلم يألوا جهدًا فى مهاجمته. وتضايق جاليليو من هذا الهجوم فكتب إلى أعز تلاميذه الراهب البنيديكتى الشاب بنيديتو كاستيللى Benedetto Castelli، يشكو من الهجوم عليه رغم سطوع الشواهد والأدلة التى يقدمها. ومما زاد من ضيقه أن واحدًا من أقرب أصدقائه وهو رجل وضيع المقام يُدعى سيزار كريمونينى Cesare Cremonini يشغل وظيفة أستاذ كرسى الفلسفة بجامعة بادوا تصدى له بالنقد الشديد من منظور أرسطاطاليسى، رافضًا أفكاره بوجود أربعة كواكب تدور حول المشترى. وشن عليه هجومًا مماثلاً علماء كل من البندقية وتوسكانيا. وتأججت غيرة منافسه فى علم الرياضيات ماجينى، الأستاذ بجامعة بولونيا فأنكر وجود أربعة كواكب تدور حول المشترى. واقتداء بأستاذه ماجينى قام أحد تلاميذه الشبان، واسمه هوركى، بنشر كتاب قاذع ضد جاليليو مما جعل كبلر يتصدى للدفاع عن جاليليو.

وعبر كبلر عن تأييده لنظرية جاليليو فى كتاب ألفه بعنوان: «مبحث عن رسالة من النجوم»، وسارع جاليليو بإرسال خطاب إلى بيليسأريو فينتا سكرتير الدولة فى عهد الأمير كوزيمو الثانى الذى كان جاليليو قد أهداه نسخة من تليسكوبه، وطلب من صديقه فينتا وسمو الأمير وضع كوكب المشترى لمدة ثلاثة أيام متتالية تحت المراقبة؛ حتى يتأكدا بنفسيهما من وجود كواكب تدور حول المشترى.

وذكر جاليلو للأمير أنه سمى توابع المشترى باسم عائلته تكريمًا لأسرة المديسيس الحاكمة. وأضاف جاليليو فى خطابه إلى الأمير أن إعطاء الدروس الخاصة وإدارته شئون بيت الطلبة يضيع وقته ويحول دون تفرغه الكامل للبحث العلمى. وأعرب عن رغبته فى التخلى عن هذه الأعمال المعطلة حتى يتفرغ للمنجزات العلمية، ومنها تأليف عدة كتب تتناول الحركة والميكانيكا والديناميكا كما أسلفنا. وطلب من الأمير مساعدته على التخفف من أعبائه المهنية والوظيفية بتعيينه فى البلاط كفيلسوف وعالم رياضيات.

واستجاب القدر لطموحاته؛ فعينه دوق توسكانيا العظيم كبير الفلاسفة والرياضيين فى بلاطه. وأيضًا فى تلك الفترة من حياته قامت جامعة بيزا بتعيينه كبير علماء الرياضيات فيها دون أن تُلزمه بالسكن أو التدريس فيها.

كان لجاليليو صديق حميم فى البندقية سبقت الإشارة إليه يُدعى ساجريدو دعته مهامه الدبلوماسية إلى الرحيل عن البندقية التى أحبها من سويداء قلبه، ولما عاد ساجريدو إليها اجتاحه الحزن الشديد لأن جاليليو كان قد غادرها. خشى ساجريدو على صديقه من غدر ودسائس بلاط الملوك والأمراء ضده، فنصحه بالابتعاد عن أجوائه الموبوءة، وكذلك نبهه إلى الخطر المحدق به المتمثل فى أعدائه من طائفة الرهبان الجيزويت.

غير أن الباحث الكبير ستيلمان دريك Stillman Drake المتخصص فى جاليليو يرى أن ساجريدو بالغ فى تقدير عداوة الرهبان الجيزويت لجاليليو فى تلك الفترة بالذات، مضيفًا أنهم ناصبوه العداء بعد مرور عدة أيام.

وقبل رحيله عن بادوا اكتشف جاليليو النجم المعروف باسم زحل. ورغم أن التليسكوب لم يساعده على معرفة معالم زحل على وجه الدقة فإنه استنتج فى عام ١٦١٤ أنه بعد الانقلاب الشمسى الشتوى يمكن للمراقب أن يرى توابع هذا النجم،

الأمر الذى يتفق مع نظرية كوبرنيكوس ويدل على صحتها.

ومن المؤسف أن صحة جاليليو اعتلت على نحو ينذر بالشر المستطير عقب عودته إلى فلورنسا؛ وخاصة لأنه كان قد أصيب بالتهاب المفاصل فى فترة إقامته فى بادوا، حيث منعه اعتلال صحته من النوم والراحة لمدة ثلاثة أشهر. وفى ١٢ ديسمبر عام ١٦١٠، أعلن جاليليو أن زحل يمر بوجوه وأطوار شبيهة بوجوه القمر تبدأ على هيئة منجل، وتنتهى بقرص كامل الاستدارة ثم بالعكس، مما يدل على أن هذا الكوكب يدور حول الشمس، وهو الأمر الذى عجز كوبرنيكوس نفسه عن اكتشافه؛ بسبب رصده لحركة النجوم بالعين المجردة. وأثبت اكتشاف جاليليو بشكل قاطع بطلان نظرية بطلميوس القائلة بأن الأرض ثابتة فى مكانها وتقع فى مركز الكون.

ولعلنا نذكر أن جاليليو زار روما فى عام ١٥٨٧ وهو فى الثالثة والعشرين من عمره، يحدوه الأمل فى شغل وظيفة أستاذ كرسى الرياضيات فى جامعة بولونيا، ولكن منافسه جيوفانى أنتونيو ماجنينى فاز بها، ورغم فوزه فإنه لم ينس كراهيته الشديدة لجاليليو. وإذا كان جاليليو فى روما قد خسر صداقة ماجنينى فإنه كسب صداقة عالم رياضيات ألمانى عظيم الشأن اسمه كريستوفر كلافيوس، الذى كان يشغل وظيفة أستاذ الرياضيات فى كلية الجيزويت الرومانية التى أنشأها القديس سانت إجناتيوس لويولا St. Egnatius Loyola عام ١٥٥٢. وكما ذكرنا، ترجع شهرة كلافيوس إلى إصلاح التقويم فى عهد البابا جريجورى الثالث عشر، ورغم أن كلافيوس عارض نظرية كوبرنيكوس التى ناصرها جاليليو فإن الصداقة بين العالِمَيْن دامت حتى وفاة هذا الراهب الجيزويتى فى عام ١٦١٢.

وفى ديسمبر عام ١٦١٠، قام كلافيوس بإبلاغ صديقه جاليليو أن زملاءه فى الكلية الرومانية تحققوا من صدق اكتشافاته الفلكية عن طريق استخدام تليسكوب متطور ودقيق صنعه پادر بليو. وأضاف أن جاليليو هو صاحب الفضل الحقيقى فى هذه الاكتشافات، ومن ثَم فهو يستحق الثناء. وزاد من قيمة هذا الثناء أنه جاء فى وقت عصيب تعرض فيه جاليليو لأشرس الهجمات من جانب أتباع أرسطو، لدرجة أن فيلسوفًا بارزًا فى بيزا اسمه جيوليو ليبرى Guilio Libri رفض دعوة جاليليو للنظر إلى الأجرام السماوية من خلال تليسكوبه بحجة أن المعلم الأول أرسطو الذى لا يأتيه الباطل من خلف أو قدام لم يقل شيئًا عن وجود أية توابع فى فلك المشترى، ومن ثم

فإن هذه التوابع ليست سوى وهم. وعندما توفى جيوليو ليبرى عام ١٦١٠ قال جاليليو بنوع من الفكاهة الجهمة، إنه يأمل أن يرى معارضه جيوليو توابع المشترى أثناء صعود روحه إلى بارئها. أما أكثر المعارضين له عنادًا وتشبثًا برأيه، فهو رجل من خارج الجامعة يدعى لودفيكو ديل كولمبى Ludovico delle Colombe، الذى نشر كتابًا حط فيه من شأن جاليليو. وتكمن خطورة هذا الهجوم فى استناده إلى الكتاب المقدس لدحض النظريات الجديدة التى تذهب إلى دوران الأرض والكواكب الأخرى حول الشمس، مثيرًا بذلك حفيظة الكنيسة والإكليروس. والجدير بالذكر أن صديقه كلافيوس قُبَيل وفاته فى سن السادسة والسبعين تخلىَ عن معارضته لأفكار جاليليو الفلكية وأعلن إيمانه بها.

كان للتليسكوب كما أسلفنا أثره فى تغيير أفكار الناس عن الأجرام السماوية، فعن طريقه أثبت جاليليو أن القمر له نفس التركيب الطبيعى والجيولوجى للأرض، وبذلك اختفت الفروق التى كانت تميز السماء عن الأرض، وعن طريقه أيضًا استطاع أن يكتشف أطوار الزهرة. وكان من الطبيعى أن يثير باكتشافاته ضجة كبرى، ففى عام ١٦١٠ كتب جاليليو إلى كبلر يقول إنه ينتظر بقلق رأى كبلر فى اكتشافاته الفلكية. وسرعان ما تلقى جاليليو رأى كبلر فى هذه الاكتشافات. قال كبلر: «يجب علىّ أن أخبرك بما حدث بالأمس. فقد حضر فى عربته إلى باب بيتى صديقى البارون واكهر فون واتشنفيلز وأخذ يصيح فى اضطراب فى داخل عربته: (هل هذا صحيح؟ هل حقًا صحيح أنه (أى جاليليو) وجد أجرامًا سماوية تدور حول النجوم؟)» وأكد كبلر للبارون أن الخبر صحيح. عندئذ فقط خطا البارون عتبة دار كبلر، وانفرجت أساريره لأن هذا الكشف الفلكى ينطوى على إثبات لصحة أفكار جيوردانو برونو Bruno الخاصة بلا نهائية الكون وتعدد العوالم فيه.

غير أن جاليليو، كما ذكرنا، كان يعبر عن اقتناعه بنظرية كوبرنيكوس على استحياء. يقول جاليليو فى رسالته إلى كبلر التى ترجع إلى عام ١٥٩٧: «لقد اقتنعت بصحة نظريات كوبرنيكوس منذ عدة أعوام خلت، واكتشفت من خلالها أسباب الكثير من النتائج الطبيعية التى لا سبيل مطلقًا إلى تفسيرها فى ضوء النظريات الراهنة. لقد دونت كثيرًا من الأسباب والتفنيدات بشأن هذا الموضوع، ولكنى لم أجرؤ حتى الآن على الجهر بها خوفًا من أن يلحق بى نفس الأذى الذى لحق بكوبرنيكوس، معلمنا الذى

حظى بالشهرة والخلود فى نظر قلة من الناس، والعار والشنار والاستهزاء فى نظر الجماهير العريضة. ولو كان هناك كثير من أمثالك لتجرأت وأذعت أفكارى. ولكنى سوف أكتمها فى صدرى؛ لأنه لا يوجد كثيرون مثلك.

ويُعتبر فرانسيسكو سيزى Sizi واحدًا من أبرز الذين ناصبوا جاليليو العداء، فقد نشر عام ١٦١٠ هجومًا شديد الوطأة على التليسكوب لا يختلف كثيرًا عن الهجوم الذى شنه الدكتور سلوب Slop على اكتشافاته الفلكية، والرأى عند سلوب أن العدسات التى استخدمها جاليليو لا تعدو أن تكون خداعًا بصريًا. ومن الواضح أن الدكتور سلوب تأثر بأفكار بيكو ديلو ميراندولا. غير أن المبحث الذى نشره سيزى بخصوص اكتشافات جاليليو الفلكية أقل سوءًا من تشفى لودفيكو ديل كولومبى فيه واستعداء الكنيسة عليه كما سبق أن ذكرنا، ولكن جاليليو ما لبث أن تخلى عن سلبيته وإيثاره للسلامة عندما استيقن من صحة استنتاجاته الفلكية والرياضية، وشجعه كبلر على الكلام. كتب كبلر إليه يقول:

«كنت فقط أتمنى – حيث إنك تتمتع بنفاذ البصيرة – أن تختار طريقًا آخر. إنك تنصحنا عن طريق قدوتك الشخصية وبأسلوب مغلف بالفطنة والكياسة بالتراجع أمام الجهل العام، وبعدم تعريض أنفسنا للخطر وبالإحجام عن التصدى فى نزق للهجمات الضارية التى يشنها السفهاء على أهل العلم (وأنت فى هذا تحذو حذو أفلاطون وفيثاغورث رائدينا الحقيقيين). ولكن بعد أن جاد زماننا بالعمل الضخم أولاً على يدى كوبرنيكوس، ثم على أيدى كثير من علماء الرياضيات البارزين وبعد أن تأكد لنا أن الأرض تدور، وليس فى هذا أى جديد، أليس من الأفضل أن نتجه نحو هدفنا كى نحققه الآن عن طريق الجهود المشتركة بعد أن اتضحت الصورة وعلت الأصوات القوية فنخرس أصوات السوقة العاجزين فى واقع الأمر عن تدبر المحاجات وفهمها بعناية كبيرة؟ وهكذا قد نتمكن ربما بطرق ذكية من تعريف هؤلاء الغوغاء بالحقيقة، وأنت بما تسوق من محاجات يمكنك فى الوقت نفسه أن تساعد رفاقك الذين تحملوا كثيرًا من الأحكام الظالمة؛ لأنهم سوف يستمدون العزاء من اتفاقك معهم فى الرأى، أو يستمدون الحماية من نفوذك القوى. وليس الطليان وحدهم هم الذين يرفضون الإيمان بأن الأرض تدور بهم حتى وإن كانوا لا يشعرون بذلك؛ ولكن الألمان أيضًا يُحْجمون عن الإيمان بهذه الفكرة. ورغم ذلك فهناك طرق يمكنها أن تحمينا من هذه الصعاب.

«تشجع يا جاليليو وجاهر برأيك. وإذا لم يجانبنى الصواب فإن عددًا قليلاً من

علماء الرياضيات فى أوروبا سوف يخالفونك فى الرأى؛ لأن الحقيقة أشد ما تكون سطوعًا. وإذا كانت إيطاليا تبدو مكانًا غير مناسب لنشر مؤلفاتك، وإذا كنت تتوقع المتاعب فى بلادك فربما توفر لك ألمانيا(*) هذه الحرية».

هذا بالتحديد ما قرر جاليليو أن يفعله، وهو فى فلورنسا بعد أن اطمأن إلى ذيوع أفكاره بين قطاع عريض من الناس، ولكنه تعمد أن يتجنب مخاطبة أساتذة الجامعات، وأن يعبر عن أفكاره باللغة الإيطالية كى يصل إلى الجمهور العريض من القراء الأذكياء. ومع أن امتناعه عن استخدام اللغة اللاتينية فى مخاطبة قرائه حرمه من فرص انتشار أفكاره بين علماء أوروبا قاطبة (حيث إن اللاتينية كانت اللغة الرسمية المستخدمة فى الجامعات الأوروبية)، فإنه آثر أن يقنع الأذكياء من بنى جلدته بصحة أفكاره قبل إقناع الآخرين بها. وشرح السبب الذى دعاه إلى ذلك فى خطاب أرسله فى مايو ١٦١٢ إلى باولو جوالدو، جاء فيه أن هناك كثيرًا من الأذكياء بين الناس العاديين ممن يحجمون عن قراءة المجلدات؛ لأنها مؤلفة باللغة اللاتينية».

وقد سبق لكوبرنيكوس أن عبر عن رأى مماثل منذ سبعين عامًا مضت فى مبحثه الفلكى الذى أهداه إلى البابا. قال كوبرنيكوس إن الكثيرين من ذوى الذكاء المحدود يقبلون على دراسة الفلسفة؛ لأنها تدرّ عليهم دخلاً موفورًا فى حين أنهم يحجمون عن دراسة العلوم لأنها لا تعود عليهم بالنفع المادى، وضرب كوبرنيكوس مثلاً على ذلك بكاتب لاهوتى شهير يُدعى لاكتانيوس لا يفقه شيئًا فى علم الرياضيات، ويقول أشياء سخيفة وخاطئة عن الأرض ويسخر سخرية لاذعة من الذين ينادون بكرويتها.

لقد توقع كل من كوبرنيكوس وجاليليو مقاومة شديدة ضد أفكارهما ليس من جانب السلطات الكنسية وحَسْب، ولكن من جانب أدعياء العلم والأكاديميين الزائفين الذين لهم مصلحة فى استمرار الأفكار القديمة الخاطئة. غير أن هناك فرقًا بين توجهات الرجلين، فقد كان كوبرنيكوس حريصًا على نشر أفكاره بين رجال العلم دون غيرهم، فهو يقول: «يجب أن يقتصر البحث فى الرياضيات على علماء الرياضيات». رأى كوبرنيكوس ضرورة مخاطبة العقل المجرد، فى حين أن الوضع بالنسبة لجاليليو كان مختلفًا: فقد رأى أن استخدام تليسكوبه القادر على تكبير الأشياء، قمين بإقناع ذوى الألباب بصحة نظريته. ومعنى هذا أنه اعتمد على الإبصار فى معرفة الحقائق

(*) كانت ألمانيا تدين بالمذهب البروتستانتى.

الفلكية، فى حين أن كوبرنيكوس أعتمد على العقل فى استجلائها.

لقد اتهم بعض الدارسين جاليليو بالسعى إلى إقناع الجماهير العريضة بصحة نظريته، ولكنه لا ينبغى أخذ مثل هذا الاتهام على عواهنه حيث إنه كان يدرك تمام الإدراك أن السواد الأعظم من الناس مجموعة من الأغنام، وأن الذين منحهم الله القدرة على الفهم والتفكير مجرد أقلية. كما كان يدرك أن الدهماء لا تستجيب لنداء العقل، بل تستجيب لنداء العاطفة الجامحة التى يستطيع الوعاظ والديماجوجيون اللعب بها. غير أن جاليليو آمن فى الوقت نفسه بأن الطبيعة تمنح جانبًا من الناس العاديين القدرة على التفكير المستقل. هذه الفئة الأخيرة هى التى كان جاليليو يطمح إلى التواصل معها، ولا يعرفه أحد على وجه اليقين ما إذا كان قد نجح أو أخفق فى ذلك. ونحن حتى يومنا الراهن لا نزال نجد من يرمى جاليليو بالتهور والنزق وأنه أخطأ خطأ جسيمًا عندما ألف أبحاثه باللغة الإيطالية التى يقرؤها عامة الناس، فى حين أنه كان يتعين عليه أن يتوخى الحرص والحصافة ويؤلف كتبه باللغة اللاتينية التى لا يفهمها غير الدارسين والعلماء، ثم ينتظر حتى يرى مدى استجابتهم لأفكاره. ولكن إحقاقًا للحق لابد أن نعترف أن هؤلاء الأكاديميين أو كثيرًا منهم على أقل تقدير ناصبوه العداوة منذ البداية، ولم يكتفوا بذلك بل سعوا إلى تأليب بعض اللاهوتيين ضده.

ويبدو أن الأمل كان يحدوه إلى توصيل أفكاره إلى الطبقة الحاكمة والأمراء والأشراف ورجال الأعمال فى إيطاليا، الأمر الذى أعطى الفرصة لأعدائه من صفار الأساتذة فى الجامعات الإيطالية أن ينقضوا عليه وينهشوا لحمه.

وجد جاليليو فى الكُتّاب والفنانين والمستنيرين والأذكياء من الناس العاديين أنصارًا له. ويُعتبر الرسام لودوفيكو كيجولى Cigoli واحدًا من أخلص مريديه ممن ساندوه ضد شانئيه فى روما، وفى عام ١٦١١ كتب هذا المريد معبرًا عن فرحته بوصول كتابات الفلكى الألمانى المعروف كبلر إلى روما؛ لأنها تتضمن تأييدًا ومؤازرة لجاليليو. وأيضًا انحى كيجولى باللائمة على الرياضى والفلكى الجيزويتى الثقة الأب كلافيوس؛ لأنه (فيما مضى) رفض ما ذهب إليه جاليليو من وجود جبال ومرتفعات فوق سطح القمر.

والجدير بالذكر أن جاليليو انصرف منذ عام ١٦١١ فصاعدًا إلى نشر النبذات

والكتيبات والخطابات والحوارات والتعليقات لشرح أفكاره. وتلخص أمله في السعى إلى إقناع الفلكيين الجيزويت فى روما، الذين يمثلون الفاتيكان، بصحة نظريته عن الأجرام السماوية. وسرعان ما دعاه هذا الأمل إلى مغادرة فلورنسا؛ ليذهب إلى روما فى نهاية شتاء عام ١٦١١.

وفى بادئ الأمر نجح جاليليو فى اكتساب بعض المسئولين فى روما إلى جانبه، فقد بادر بالكتابة إلى أحد حوارييه، وهو صديقه فيليبو سالفياتى Salviati الذى جعله الشخصية المحورية فى كتابه «حوار» ليقول لصديقه: «إن عظام الكرادلة والأمراء فى روما رحبوا به وأحسنوا وفادته، وعبروا عن رغبتهم فى رؤية الأشياء التى قمت بملاحظتها». وأيضًا كتب بييرو دينى Dini إلى كوسيجو شاسيتى يقول، إن جاليليو ما انفكّ يقنع غير المصدقين بنظريته الواحد تلو الآخر وإنه يغرى المتشككين فى مصداقية وجود توابع تدور فى فلك المشترى، وذلك بالنظر من خلال تليسكوبه كى يشاهدوا هذه التوابع السيارة بأنفسهم.

ويستطرد بييرو دينى قائلاً، إن الكاردينال بيلارمين Bellarmine سأل الرهبان الجيزويت عن رأيهم فى جاليليو فأرسلوا إلىّ خطابًا يثنون فيه عليه عاطر الثناء، ويذكرون أن عُرى الصداقة الوثيقة تربطهم به. وليس أدل على جودة علاقته بالكنيسة الرومانية فى مبدأ الأمر من أن البابا بولس الخامس (١٦٠٥ - ١٦٢١) - رغم تحفظه واحترازه - استقبله فى المقر البابوى علمًا بأن الشك أخذ يساور بعض الفلكيين الجيزويت مثل كلافيوس وجرينبرجر فى صحة الفلك البطلميوسى الذى جاء كل من كوبرنيكوس وجاليليو لإثبات خطئه. وفى البداية كما أسلفنا أحجم الأب كلافيوس عن تصديق جاليليو وسخر منه. غير أنه ما لبث أن غير موقفه عندما استخدم أكثر تليسكوبات جاليليو تطورًا، وأدى اقتناع كلافيوس بصحة نظرية جاليليو إلى ضم جاليليو إلى أكاديمية دى لينسى dei Lincei، فضلاً عن اكتساب صداقة الأمير فردريكو سيسى Cesi الذى شمل برعايته عددًا من أهل العلم. وقد زاد من ازدهار هذه الأكاديمية ما اتسمت به الجامعات آنذاك من احتقار للمناهج الدراسية السليمة، ومقاومة هذه الجامعات لأية معارف جديدة. ويقول لنا سيسى إن الهدف المشترك لهذه الأكاديمية تمثل فى نبذ أساليب التفكير الأرسطاطاليسى التقليدية وتبنى الفلسفة الأفلاطونية عوضًا عنها، وتشجيع الخيال العلمى على الابتكار والتجديد. وكان اهتمام

أعضاء أكاديمية دى لينسى الذين فضلوا أفلاطون على أرسطو ينطوى على المفارقة؛ نظرًا لأن أفلاطون عزف عن دراسة الطبيعة فى حين أقدم أرسطو عليها. والجدير بالذكر، أن الأمير فردريكو سيسى كان يذود عن جاليليو وينصحه ويشد من أزره فى وقت الشدائد.

كان جاليليو آنذاك مشغولاً بتحديد الفترات التى تستغرقها توابع المشترى فى الدوران حوله، وهو الشىء الذى فشل الفلكيون الجيزويت فى الكشف عنه. وسعى سيسى ما وسعه السعى إلى استغلال وجود الجبال والمرتفعات فوق سطح القمر؛ ليثبت بطلان الفكرة القديمة القائلة بأن نجوم السماء كاملة الاستدارة ومستوية فى سطوحها مثل الماسات المتلألئة. حتى الذين استطاع سيسى إقناعهم بصحة نظرية جاليليو عن الأجرام السماوية كانوا يخشون مسايرة النتائج المترتبة على مثل هذا الاقتناع. ولهذا السبب كتب باولو جوالدو فى مايو ١٦١٢ رسالة إلى جاليليو، جاء فيها ما يلى: «بالنسبة لدوران الأرض، فإنى حتى يومنا الراهن لا أجد فيلسوفًا أو فلكيًا على استعداد للموافقة على رأى فخامتكم - ناهيك عن موقف فقهاء اللاهوت منه - لهذا أرجوك أن تفكر مليًا قبل أن تنشر أفكارك وتؤكدها؛ حيث إن هناك كثيرًا من الموضوعات التى يمكن طرحها على بساط البحث والنقاش، والتى لن يكون من الحكمة تأكيدها».

ولكن هذا التحذير لم يحُل دون استمرار جاليليو فى المناداة بصحة أفكاره، فقد اكتشف وجود بقع فى الشمس تشكل جزءًا منها، وليست أجسامًا سوداء تدور حولها كما كان الأب شاينر يزعم.

وفى عام ١٦١٣، نشر جاليليو بعد عودته إلى فلورنسا «رسائل حول البقع الشمسية» تحت رعاية أكاديمية دى لينسى، وهى تطابق نظرية كوبرنيكوس جملة وتفصيلاً، ثم أعقبها برسالة بعنوان: «زحل والزهرة» نشرها فى الأول من ديسمبر ١٦١٣ ليكمل بها منظومة كوبرنيكوس الفلكية. والجدير بالذكر، أنه قبيل نشر هذه الرسالة بثلاثة أسابيع هاجم رجال الإكليروس جاليليو بصراحة لأول مرة، وكان أول من هاجمه من الإكليروس الراهب لورينى Lorini الدومينيكانى أستاذ التاريخ الكنسى فى جامعة فلورنسا.

كان جاليليو يعتزم السفر إلى روما عام ١٦١٠ للترويج لأفكاره واكتشافاته من جهة

ولرؤية صديقه ونصيره الراهب كلافيوس، ولكن مرضه اضطره إلى تأجيل سفره حتى مارس ١٦١١. كان هدفه الأساسى من زيارة روما هو الدفاع عن صحة نظرية كوبرنيكوس، وتحرير الكرسى البابوى وجميع الكرادلة من التبعية الذليلة للمذهبين الأرسطاطاليسى والبطلميوسى. وبسبب غيرة الحاسدين منه ووشاية الواشين به سرت إشاعة أن فلورنسا طردته من أراضيها بسبب نجاح عالم الرياضيات الغريب الأطوار فرانسيسكو سيزى Sizi فى دحض محاجاته التى أوردها فى مبحثه «رسول من النجوم»، ولكن جاليليو استطاع أن يتصدى لهذه الحملات المغرضة ضده بنشر خطابات التوصية التى سطرها الدوق العظيم كوزيمو إلى سفير توسكانيا والكاردينال ديل مونت. وصل جاليليو إلى روما فى ٢٩ مارس ١٦١١ وأثلج صدره ما رآه من زراية العالم كلافيوس وأقرانه بهجوم سيزى عليه، الأمر الذى حفزه فى أول أبريل من العام المذكور أن يكتب إلى بليساريو فينتا سكرتير الدولة فى توسكانيا، مؤكدًا أن آباء الكنيسة الذين التقى بهم كانوا مقتنعين اقتناعًا كاملاً بأن الكواكب التى اكتشفها، وأطلق عليها عائلة المديسيس حقيقة لا مراء فيها مضيفًا أنه سعيد؛ لأنه وجد أن هؤلاء الآباء بعد قضائهم شهورًا فى مراقبة هذه التوابع توصلوا إلى نفس نتائجه.

واستقبلته روما استقبالاً حافلاً يبشر بكل خير، فقد رحب به رجال الكنيسة وأكرموا وفادته لدرجة أن البابا بولس الخامس أمضى معه ساعة كاملة فى مقابلة خاصة، وعبر عن نواياه الطيبة له واعدًا إياه بأن هذه النوايا لن تتغير. وفى روما ألحقه صديقه كلافيوس بأكاديمية دى لينسى على نحو ما أسلفنا، وهى أكاديمية اشتهرت بتحررها من قيود المذهب الأرسطاطاليسى على عكس المؤسسات والجامعات التقليدية التى ظلت خاضعة لنفوذ أرسطو.

وفى روما، أقام الأمير سيسى (وهو غير سيزى الذى ناصبه العداء) والكاردينال فارنيس المآدب تكريمًا له، وفى هذه الاحتفالات تقابل جاليليو مع علية القوم من المدعوين، أمثال الكاردينال روبرت بيلارمين Robert Bellarmine، الذى - كما سوف نرى - لعب دورًا مصيريًا فى حياته، وانتهز جاليليو هذه الفرصة فدعا علية القوم من الضيوف أن يستخدموا تليسكوبه لرؤية أقمار المشترى وتوابعه التى تدور حوله، ونجح عالمنا فى إثارة اهتمام الكاردينال بيلارمين إلى أقصى حد. ويتضح لنا اهتمام بيلارمين العظيم باكتشافاته الفلكية من الخطاب الذى أرسله هذا الراهب فى ١٩

أبريل ١٦١١ إلى الأب كلافيوس وزملائه أعضاء الكلية الرومانية. وفيما يلى نصه: :

«حضرات الآباء المبجلين،

إننى أعرف أن حضراتكم قد سمعتم بأمر هذه الاكتشافات الفلكية الجديدة التى استطاع عالم رياضى كبير (يقصد جاليليو) أن يتوصل لها عن طريق استخدام آلة تعرف بمنظار التجسس أو الأنبوب البصرى (يعنى التليسكوب). وأنا بنفسى رأيت عن طريق استخدام المنظار نفسه بعضًا من الأشياء الرائعة للغاية فى كوكب القمر والزهرة، وسوف أكون ممتنًا لكم لو تكرمتم علىّ بالإفادة بكل أمانة عن رأيكم فى الموضوعات التالية:

١ - هل أنتم تؤكدون القول بوجود العديد من الأجرام السماوية الثابتة التى لا يمكن رؤيتها بالعين المجردة؛ وخاصة إذا كنتم تعتبرون درب التبانة والسدم مجموعة من النجوم الصغيرة للغاية؟

٢ - هل صحيح أن زحل ليس نجمًا بسيطًا، بل ثلاثة نجوم متلاصقة؟

٣ - هل صحيح أن الزهراء يتبدل ويتغير وأنه يكبر ويصغر مثلما يفعل القمر؟

٤ - هل صحيح أن سطح القمر غير أملس وغير مستو؟

٥ - هل صحيح أن أربعة كواكب متحركة تدور حول المشترى، وأن حركة كل منها تختلف عن بعضها البعض وإن كانت جميعها شديدة السرعة؟

إننى أتلهف على الحصول على بعض المعلومات المحددة عن هذه الأمور؛ لأننى أسمع آراء متضاربة بشأنها. وحيث إن حضراتكم مهرة فى علم الرياضيات، فإنه بإمكانكم إخبارى بيُسر ما إذا كانت هذه الاكتشافات الجديدة مبنية على أساس، أو أنها مجرد وهم. ويمكنكم إذا شئتم الإجابة عن أسئلتى على نفس الخطاب.

أخوكم فى المسيح

روبرت كاردينال بيلارمين».

وجاءت الإجابات عن الأسئلة على نفس الخطاب وبنفس الترتيب الذى وردت به. وفيما يلى نص هذه الإجابات:

١ - صحيح أن التليسكوب يكشف وجود عدد هائل من النجوم فى سدم السرطان

ومجموعة الكواكب المعروفة باسم الثريا، ولكنه ليس من المؤكد أن درب التبانة يتكون تمامًا من نجوم صغيرة. ويبدو الاحتمال الأكبر أن بعض أجزاء درب التبانة أكثر كثافة واستمرارية رغم أنه لا سبيل إلى إنكار وجود عدد كبير من النجوم الصغيرة. وفى الواقع، يمكننا مما نراه فى سدم السرطان من نجوم الثريا أن نستنتج وجود أعداد هائلة من النجوم لا يمكن تمييزها بسبب ضآلة حجمها.

٢ – لاحظنا أن شكل زحل ليس باستدارة المشترى والمريخ، بل إن زحل بيضوىّ رغم أننا لم نر هذين النجمين من الجوانب المنفصلة عن المركز على نحو يمكننا من الجزم بأنهما نجمان منفصلان.

٣ – صحيح تمامًا أن كوكب الزهراء يصغر ويكبر مثلما يفعل القمر، وفى أثناء وضعه تحت المراقبة فى المساء وعلى هيئة توشك على الاكتمال لاحظنا أن حجمه يصغر بالتدريج فى جانبه المضىء والمواجه للشمس على الدوام. كما أنه فى نفس الوقت على شكل هلال. وعندما يظهر هذا الكوكب فى الصباح بعد اقترانه بالشمس وجدنا أنه ذو شكل قرنى Horned. واستمرت هذه الإضاءة فى الزيادة بينما صغر قطر الكوكب بالتدريج.

٤ – وبخصوص القمر، لا يمكن إنكار عدم الانتظام الكبير وعدم التساوى فى سطحه. ولكن الأب كلافيوس يرى أن هذه النتوءات مجرد شىء ظاهرى سببه أن كتلة القمر ليست بنفس الدرجة من الكثافة، ولكنها تتكون من أجزاء بعضها أكثر كثافة من البعض الآخر وأنها مجرد بقع عادية يمكن للمرء أن يراها بعينه المجردة. غير أن بعض الناس يرون أن سطح القمر غير مستو بالفعل، ولكنه لا يوجد دليل كاف، حول هذه النقطة حتى الآن يوفر لنا إجابة شافية.

٥ – أما بالنسبة للمشترى فهناك أربعة كواكب يمكن رؤيتها، وهى تدور حوله بسرعة فائقة وأحيانًا تتحرك جميع هذه الكواكب الأربعة إلى الشرق وأحيانًا إلى الغرب فى حين أن بعضها أحيانًا يتحرك فى اتجاه، بينما يتحرك البعض الآخر فى الاتجاه الآخر على خط يكاد أن يكون مستقيمًا. هذه الأجرام لا يمكن أن تكون نجومًا ثابتة؛ لأن حركتها تختلف عن حركة النجوم الثابتة كما أنها تفوقها فى سرعتها. زد على ذلك أن المسافة بين بعضها البعض، وبين المشترى تختلف بصفة مستمرة.

هذا كل ما لدينا للإجابة عن استفسارات جنابكم. ونحن فى الختام نرفع إليكم احتراماتنا المفعمة ونبتهل إلى الله أن يمنحك أقصى قدر من السعادة». ويحمل هذا الرد توقيعات كريستوفر كلافيوس والأب كريستوفر جرينبرجر والأب البلجيكى أودو فان مايلكوت وجون بول لمبو، وقام هؤلاء الموقعون بعقد مؤتمر عام لتكريم جاليليو دُعى إليه الكرادلة والأمراء والعلماء ورجال الفكر والأدب والباحثون على اختلاف تخصصاتهم. وفى هذا الحفل وقف الأب فان مايلكوت ليشيد باكتشافاته وإنجازاته، وأمام هذا الفوز العظيم شعر أتباع أرسطو بالهزيمة والانكسار. وقال مايلكوت لأحد أصدقائه متحديًا الفلك الأرسطاطاليسى: «لقد أثبتنا بكل وضوح وجلاء أن كوكب الزهراء يدور حول الشمس» وطار العلماء والباحثون فى روما فرحًا بجاليليو؛ فكتب الكاردينال ديل مونت إلى دوق توسكانيا العظيم قائلاً: «إن جاليليو يستحق التخليد».

غير أن الكرادلة الثمانية أعضاء المجمع المقدس، ومن بينهم بيلارمين، أظهروا شيئًا من التحفظ وأخذوا يتساءلون ما إذا كان اسمه سبق أن ورد فى التحقيقات التى أجرتها محاكم التفتيش بأى شكل من الأشكال؟!

وبعد انتهائه من زيارة روما عاد جاليليو إلى فلورنسا؛ حيث اصطدم مع أتباع أرسطو حول بعض مسائل الفيزياء رغم أنه استطاع أن يقنع علماء طائفة الجيزويت بخطأ آراء أرسطو فى ديمومة السماء على حالها دون أن يطرأ عليها أى تغيير أو تبديل وخطأ الإيمان بأن الأجرام السماوية أقراص من الكريستال، فذكر أنه فى الحفلة التى أقامها الدوق العظيم للعلماء وعلية القوم دار الحديث بينهم عن السبب الذى يجعل الثلج يطفو على سطح الماء. يقول أرسطو فى هذا الشأن، إن الأجسام تطفو أو تنغمس فى الماء بسبب أشكالها، ولكن جاليليو الذى آمن بنظرية أرشميدس فى طفو الأجسام قرر أن الأجسام تطفو؛ لأن وزنها يقل عن حجم الماء الذى تزيحه هذه الأجسام. والجدير بالذكر، أن هذه الحفلة حضرها اثنان من الكرادلة أحدهما يُدعى مافيو بابرينى Maffeo Babarini الذى أيد تفسير جاليليو للأجسام الطافية ضد أتباع أرسطو من الحضور. ولهذا كان من الطبيعى أن تتوطد علاقة جاليليو بهذا الكاردينال المستنير، الذى انتخب بعد مضى عشرين عامًا بابا روما إيربان الثامن جلاب كل المصائب على جاليلو المسكين. وقد عبر الدوق العظيم كوزيمو عن عظيم إعجابه بمحاجات جاليليو أستاذ الرياضيات فى تدريس حاشيته.

سطر جاليليو عام ١٦١٢ مبحثًا باللغة الإيطالية نشره تحت عنوان: «مبحث عن الأشياء الطافية أو المتحركة على سطح الماء». وأرسل جاليليو نسخة من بحثه إلى الكاردينال بيلارمين الذى أرسل إليه الرسالة التالية:

«السيد النابه،

«تسلّمت خطابك والبحث المرافق له عن الأجسام التى تتحرك أو تبقى طافية فى مكانها على سطح الماء. وسوف أستمتع كثيرًا بقراءته لتأكدى أنه عمل جدير بمؤلف عظيم مثلك، وبينما أشكرك من صميم قلبى على لطف شمائلك التى دفعتك إلى إرساله لى فإنى أحمل لك نفس المودة التى أظهرتها نحوى، وسوف ترى من جانبى استمرارًا لهذه المودة طالما كانت لدىّ فرصة لتقديم أية خدمة إليك. مع عظيم احتراماتى والصلاة لله كى يمنحك كل يُمنه وبركاته».

وفى البداية كان الكاردينال روبرت بيلارمين عند وعده، كما سوف نرى، حين واجه جاليليو المشاكل مع محاكم التفتيش فى روما بعد انقضاء ثلاثة أعوام. ولا غرو، فقد كان بيلارمين يبجل نبوغ جاليليو وعبقريته وعمق إيمانه بالمذهب الكاثوليكى. ورغم أن بيلارمين نشأ وترعرع فى أحضان الفكر الأرسطاطاليسى القائل بأن القمر والأجرام السماوية الأخرى التى تتجاوزه تتحرك فى دوائر باستمرار وتتكون من عناصر جوهرية لا تَفْنَى ولا تُستحدث، فإنه لم يكن مقتنعًا به.

اتسم جاليليو فى ردوده على منتقديه بالحدة والسخرية اللاذعة، وهو أسلوب لم يرق فى عينى بيلارمين، وكان معارضه لودفيكو ديل كولمبى أحد الذين تعرضوا لأسلوبه الجارح اللاذع.

وبعد الأجسام الطافية أَوْلى جاليليو اهتمامه بالبقع الشمسية التى توفر على دراستها كثيرون غيره. وكان أستاذ الرياضيات الجيزويتى كريستوفر تشاينر بجامعة إنجولستدت أحد الدارسين للبقع الشمسية، ولكن استنتاجاته بشأنها جانبها الصواب. وأرسل تشاينر مجموعة من الخطابات إلى صديقه الثرى ويسلر شرح فيها آراءه الخاطئة بشأن البقع الشمسية. وفى الحال، قام ويسلر بنشر خطابات تشاينر وأرسل نسخًا منها إلى جاليليو لأخذ رأيه فيها. كان تشاينر من أتباع أرسطو الذى آمن بأن الشمس والأجرام السماوية لا تتعرض للتبديل أو التغيير، وفسر تشاينر البقع الشمسية بأنها عناقيد من النجوم الصغيرة التى تحيط بالشمس، فى حين أن جاليليو ذهب إلى

أنها ليست نجومًا وإلى أنها قريبة من سطح البقع الشمسية التى رأى أنها تدور على محورها مثلما تدور الأرض، كما أنه فسر البقع الشمسية بأنها بحيرات أو فجوات فى جسم الشمس.

والجدير بالذكر، أن أكاديمية دى لينسى نشرت فى عام ١٦١٣ مبحثًا مكتوبًا باللغة الإيطالية يناصر فكرة جاليليو الخاصة بدوران الأرض حول الشمس تحت سمع وبصر البابا وكرادلته. وأكد جاليليو أن مركزية الشمس ليست افتراضًا، بل حقيقة فيزيائية سوف يعترف بها العالم كله إن آجلاً أو عاجلاً. ولا شك أن نشر هذا البحث باللغة الإيطالية ساعد على ذيوعه وانتشاره وإقبال القراء عليه. والرأى عند البعض أن جاليليو تسرع فى الجهر بأفكاره الفلكية الثورية؛ حيث إن باولو جوالدو والكاردينال بيلارمين نصحاه بالتريث وتوخى الحذر، ولكنه رفض الإصغاء إليهما وإلى غيرهما من المشفقين عليه.

ألف جاليليو كما أشرنا كتابًا عن الهيدروستاتيكا نفدت منه طبعتان عام ١٦١٢، وفيه امتدح نظريات أرشميدس؛ لأنها تقوم على التجربة. والجدير بالذكر، أن البرت أينشتين وصف جاليليو بأنه أبو الفيزياء الحديثة، والرأى عند ستيلمان دريك إنه لم ير ثمة تعارض أو تناقض بين الفكر الرياضى المجرد، وبين إجراء التجارب على أرض الواقع، وفكرته عن علاقة الرياضيات بالفيزياء تختلف عن أفكار أفلاطون وأرسطو، فأفلاطون أعلى من شأن الرياضيات المجردة واعتبرها العلم الوحيد الذى يُعتد به.

ويرى أفلاطون أنه إذا حدث تعارض بين المعرفة الفيزيائية والمعرفة الرياضية، فإن العيب يكمن فى الأشياء الفيزيقية، وليس فى الرياضيات لأن هذه الأشياء الفيزيقية تفتقر إلى كمال الرياضيات. أما أرسطو، فقد عاب على الرياضيات إهمالها الكامل للأشياء الفيزيقية، ولكن أفلاطون وأرسطو كانا على أية حال يدركان أن الأفكار الرياضية المجردة تتناقض مع العالم المادى الملموس، وعلى العكس منهما تنبه جاليليو إلى فائدة الرياضيات فى دراسة الفيزياء، وأن الرياضيات لا تتعارض مع التجربة. وفيما بعد سار ديكارت ونيوتن على نهج جاليليو الذى مزج بين الرياضيات والفيزياء.

قلنا فيما سبق إن الراهب كاستيللى تتلمذ على يدى جاليليو، وكان من أقرب المقربين إليه. وقرب نهاية عام ١٦١٣، قام الدوق العظيم كوزين وزوجته الدوقة

العظيمة كريستينا بدعوته على الإفطار مع عدد آخر من عائلة المديسيس الحاكمة. وتجاذب الحاضرون أطراف الحديث فقال أستاذ فلسفة يدين بالمذهب الأفلاطونى، إن جاليليو ـ الذى لم يكن حاضرًا ـ ارتكب خطأ حين نادى بدوران الأرض؛ لأن ذلك يتعارض مع ما جاء فى الكتاب المقدس. وبعد انتهاء الإفطار طلبت كريستينا من كاستيللى البقاء وسألته كراهب يفقه اللاهوت أن يعلق على ما جاء فى الكتاب المقدس، من أن يشوع أمر الشمس بالتوقف ففعلت. وبعد أن أجاب كاستيللى عن كل أسئلة الدوقة العظيمة قال لها إنه لا بد من أخذ المسائل العلمية فى سياقها، ولا نأخذ فقرات الكتاب المقدس بالمعنى الحرفى.

وأرسل كاستيللى إلى جاليليو المقيم فى فلورنسا آنذاك خطابًا مطولاً يخبره بما حدث، فرد عليه جاليليو برسالة بعنوان: «خطاب إلى كاستيللى» عبر فيه عن موافقته التامة على كل ما جاء على لسان كاستيللى، وكان هذا أول خطاب يسطره جاليليو يعالج فيه حرية البحث العلمى، وعدم زج اللاهوتيين بأنفسهم فى الأمور العلمية المستندة إلى المشاهدة والتجربة. وأكد جاليليو فى خطابه أنه ليس ثمة تعارض بين العلم والكتاب المقدس الذى كثيرًا ما استخدم لغة استعارية حتى يسهل على البسطاء والناس العاديين فهمها.

الفصل الرابع

نذر الخطر تتجمع حول جاليليو

(١٦١٢ - ١٦١٧)

بدأت نذر الخطر تتجمع حول جاليليو نحو عام ١٦١٢، وأخذت تشتد نحو عام ١٦١٣ ثم اتضحت على نحو لا ريب فيه عام ١٦١٦، وهو العام الذى استدعته فيه روما للاستفسار منه عن بعض الأمور. ورغم وثوقه من قدرته على إقناع الكنيسة بصحة آرائه فإنه لم يكن غافلاً عن الخطر الذى يتهدده، وهو ما يتضح من الخطاب الذى أرسله إلى الأمير سيسى فى ١٢ مايو ١٦١٢، قائلاً له: «يساورنى الشك فى أن الاكتشاف الجديد (البُقَع الشمسية) يؤذن بموتى، كما سبق لاكتشافاتى الخاصة بالقمر والأجرام السماوية التى سميتها باسم عائلة المديسيس، وكذلك اكتشافاتى عن زحل والزهراء أن أنذرت بموتى. وإنى أتوقع الآن أن أرى أتباع أرسطو يبذلون جهودًا جهيدة للتدليل على أن الأجرام السماوية ثابتة فى مكانها». وحقيقة الأمر أن الرهبان الجيزويت تضافروا مع أتباع أرسطو لتحطيمه، كما سوف نرى.

وأمام الهجوم عليه التمس جاليليو النصح والمشورة لدى الكاردينال كونتى Conti، الذى كتب إليه فى يوليو ١٦١٢ يقول: «إن ما ورد فى الكتاب المقدس يتعارض أكثر من أنه يتفق مع مبدأ أرسطو الخاص بثبات الأجرام السماوية؛ ولكن التعارض واضح فى حالة مذهب فيثاغورث القائل بدوران الأرض». ومن الواضح فى آراء كونتى أنه لم يجد مانعًا فى الإقرار بحدوث حركة مطردة فى السماء، ولكن من الواضح أيضًا من هذه الآراء أن فكرة دوران الأجرام السماوية لا تتفق مع ما جاء فى الكتاب المقدس. ولكن

كونتى ما لبث أن تحفظ فى أقواله، فأضاف أن مثل هذا التفسير لا يمكن اللجوء إليه إلا فى حالة الضرورة، وبدت له كلمات كونتى وكأنها بصيص من الأمل يداعب طموحه العلمى، حيث إنه شعر أن باستطاعته أن يصل إلى هذه الضرورة فى غضون عدد قليل من السنوات. وشجعته صلته الوثيقة ببعض كرادلة روما أن يتجاهل النقد الذى وجهته إليه أسقفية فلورنسا.

ولعلنا نذكر أن جامعة بيزا التى بدأ حياته بالتدريس فيها عارضت آراءه وحظرت تعليمها. ومن هذا المنطلق حذره تلميذه ومريده كاستيللى أستاذ علم الرياضيات بها فى ٦ نوفمبر عام ١٦١٣ من تدريس الطلبة إن الأرض تدور دورتين: دورة يومية حول محورها، ودورة أخرى حول الشمس. بل إنه حذره من مجرد القول بأنه من المحتمل أنها تدور. والحقيقة، أن أعداء جاليليو نجحوا فى نصب الشرك له حتى يتورط فى النقاش فى أمور اللاهوت والدين، بدلاً من الاقتصار على النقاش العلمى والفيزيائى. وهذا واضح فى خطابه الشهير الذى أرسله إلى كاستيللى فى ٢١ ديسمبر ١٦١٣.

قلنا إن أول رجل كنيسة هاجم نظرية جاليليو هو الراهب لورينى الذى اعتلى منبر الكنيسة عام ١٦١٣ ليقول إن نظرية كوبرنيكوس ـ الذى أخطأ فى نطق اسمه وسماه إيبرنيكوس ـ تتعارض مع تعاليم الكتاب المقدس.

وأيضًا كان جاليليو بسبب شدة وثوقه بنفسه غافلاً عن أمر فى منتهى الخطورة، وهو أن الكاردينال بيلارمين كبير اللاهوتيين فى الكنيسة الرومانية كان يضعه تحت المراقبة الدقيقة، فقد ترامت إليه فى روما أخبار جاليليو. ونظر بيلارمين إلى السماء من خلال التليسكوب، ولم تخف عليه الملاحاة التى ثارت حول نظرية كوبرنيكوس الفلكية التى تعتبر الشمس (وليس الأرض) مركز المجموعة الكوكبية، وترى أن الأرض غير ثابتة بل تدور. كان بيلارمين من النوع المحافظ الذى لا يرحب بالتجديد، فقد سبق له منذ ستة عشر عامًا أن اتخذ قراره المروع الذى أفضى إلى الحكم على الفيلسوف المارق جيوردانو برونو بالحرق حيًا، وانزعج الكاردينال بيلارمين؛ لأن نفس آراء فيثاغورث الفلكية المنادية بدوران الأرض، والتى آمن بها برونو قد أخذت تطل برأسها من جديد.

سبق أن أشرنا إلى أن الكاردينال بيلارمين، رغم رقة حاشيته، كان يراقب جاليليو عن كثب منذ ٢٤ أبريل ١٦١١، فقد سعى جاهدًا لسبر غوره وتكوين فكرة عنه. ويكشف

الأرشيف السرى الخاص باجتماعات المكتب المقدس أن بيلارمين أورد فى ١٧ مايو من نفس العام فقرة صغيرة من جدول الأعمال مفادها «دعنا نَرّ ما إذا كانت هناك أية إشارة إلى جاليليو فى إجراءات محاكمة الدكتور سيزار كريمونينى» ولكن هذا لم يفض إلى شىء؛ لأن كريمونينى لم يُقدم قط إلى المحاكمة. غير أن هذه الإشارة العابرة تدل على أن بيلارمين كان يتربص بغريمه الدوائر، ويقف له بالمرصاد. والجدير بالذكر، أن كريمونينى المؤمن بالمذهب الأرسطاطاليسى تشاجر مع جاليليو ورفض النظر إلى الأجرام السماوية خلال تليسكوبه. وبعد مرور شهور قلائل، أسرَّ الكاردينال بيلارمين إلى السفير التوسكانى منذرًا: «مهما كان الاحترام الذى نكنه نحو الدوق العظيم، فلابد من محاسبته لو أنه استضاف جاليليو لمدة أطول».

تضاربت النصائح التى أسداها الأصدقاء إلى جاليليو: فهناك من نصحه بالاستمرار فى اكتشافاته دون التورط فى مناقشة أصل الكون وماهيته، كما نصحه آخرون بتقديم أدلة وبراهين مقنعة بخصوص الأجرام السماوية من شأنها استقطاب الفلكيين الجزويت إلى جانبه. وفى الشهر الأخير من حياته، بدأ إيمان الراهب كلافيوس بالفلك البطلمى القديم (الذى يرى أن الأرض هى مركز الكواكب الأخرى) يتزعزع. ولم يجد جاليليو صعوبة فى إقناع كل من جرينبرجر وفان مايلكوت ولمبو بصحة نظريته. وفى سجنه فى نابولى كتب إليه الأب كامبانيلا يقول:

«إن كل فلاسفة العالم يتعلمون القانون من كتاباتك. والحقيقة، أنه يستحيل على الإنسان أن يتفلسف دون وجود نظام كونى أكيد كهذا النظام الذى نتوقعه منك.. ومن ثم تسلح بإتقان الرياضيات إتقانًا كاملا. وانبذ لوجه الله من أجل هذا كل ما يشغلك عنها وفكر فقط فى الرياضيات. فأنت لا تعرف ما إذا كنت ستموت أو تحيا غدًا».

ولكن يبدو أن جاليليو رغم رغبته فى الاصطدام بالأفكار التقليدية لم يكن آنذاك على استعداد لهذا. كان جاليليو يدرك أن نظرية كوبرنيكوس، تنهض على أساس بصرى وحركى، وتفتقر صياغتها إلى إطار فلسفة طبيعية متكاملة.

فضلاً عن أنه أدرك أن كبلر ـ رغم إقدامه وشجاعته وقدرته على النضال ـ لا يمكن أن يكون عونًا قويًا له؛ لأنه ألمانى بروتستانتى لا تروق أفكاره للكاثوليك الرومان. شعر جاليليو بحاجته الماسة إلى إقامة بناء فلسفى يمكن لنظرياته الرياضية أن ترتكز عليه؛ ولهذا انصرف بكليته إلى دراسة الفلسفة لعدة سنوات لدرجة أنه قال، إن الفترة التى

أمضاها فى دراسة الرياضيات لا تعدو أن تكون شهورًا، فى حين أن دراسته للفلسفة امتدت لأعوام وأعوام. وبالإضافة إلى ذلك، لم يتمكن جاليليو من تنظيم أفكاره فى علم الديناميكا إلا عام ١٦٣٨ عندما نشر كتابه «الخطاب» Discorsi. ورغم ذلك، فقد كان يدرك أنه يستطيع فى النهاية أن يبرهن على أن حركة الأجرام السماوية تتبع نفس قوانين الحركة التى تتبعها الأرض، وإن هذه القوانين رياضية فى كلتا الحالتين؛ لأن كتاب الطبيعة تمت صياغته فى شكل معادلات رياضية. وعندما استطاع جاليليو أن يفض أختام السماء المستغلقة، أصبح من السهل عليه أن يثبت أنه لا يوجد أى فرق بين السماء والأرض، وأن الأرض فى السماء كما أن السماء فى الأرض.

كان جاليليو يحذق الجدال الهادئ وقادرًا على الإقناع فيه، فعندما قال له الأمير سيسى إنه سوف يكون سعيدًا بالاقتناع بنظرية كوبرنيكوس الفلكية لولا أن هذه النظرية يشوبها القول باختلاف المركز (eccentric)، وكذلك وجود دوائر صغيرة يدور مركزها على محيط الدوائر الكبرى (epicycles)، بادر جاليليو بالرد عليه قائلاً: «ينبغى علينا ألا نرغب فى أن تساير الطبيعة ما يبدو لنا أنه أفضل نظام وأحسن ترتيب، بل يجب على عقولنا أن تتواءم مع أعمال الطبيعة، لأن هذه الأعمال بالتأكيد أشد ما تكون كمالاً وإثارة للإعجاب».

وجاليليو لم يهاجم الفلك البطلمى وحسب، بل هاجم أيضًا الفلك المماثل له الذى وضعه تيكو براهى Tycho Brahe، والذى نادى بدوران الشمس حول الأرض الثابتة فى مكانها، ولسنا نبالغ إذا قلنا إن زرايته بنظرية تيكو الفلكية كانت أشد وأنكى من زرايته بالنظرية البطلمية، ويتضح لنا هذا من الكتاب الذى سطره بعنوان: «حوار Dialogue»، والذى سوف نشير إليه فيما بعد.

ويرجع الفضل إلى جاليليو فى ازدهار عصر النهضة الأوروبية، فهو من أبرز زعماء هذا العصر، ولم تقتصر جاذبيته على العلماء المتخصصين فقط بل امتدت إلى الناس العاديين، شأنه فى ذلك شأن ليوناردو دافنشى. وشعر المدرسيون أن نجاح جاليليو يمثل خطرًا داهمًا عليهم، فلا غرو إذا رأيناهم يتضافرون ضده ويتآمرون عليه. وحيث إنه كان يعيش فى حماية الدوق العظيم، فقد سعوا إلى إيغار صدر زوجته الدوقة كريستينا لورين ضده. وفى مقدمة الذين ناصبوه العداء بوسجاجلبا وكروشيو وديلسى فى مدينة بيزا والفلكى ماجنينى فى بولونيا وجرازيا ورئيس أساقفة فلورنسا وعدد من

الرهبان الدومينيكان فى إيطاليا، ولكن لورينى وكاسينى Caccini وكولمبى Colombe كانوا أخطر المتآمرين عليه طرًا.

أدرك جاليليو أن أعداءه يتربصون به الدوائر، ومن ثَمَّ توخى الحرص فى كل مجادلاته. ويتضح لنا حرصه فى خطابه المؤرخ فى ١٣ ديسمبر ١٦١٣ بعنوان: «رسالة إلى كاستيللى». يقول جاليليو فى هذا الخطاب، إن الكتاب المقدس ينطوى على حقيقة مطلقة، ولكنه فى نفس الوقت يستخدم لغة استعارية فى كثير من الأحيان، مثلما يتحدث عن يد الله وخيمة السماء، وهذا ما ينبغى على المسيحى أن يراعيه عند قراءته؛ حتى لا تتعارض حقيقته المطلقة مع لغته الاستعارية. ومن ثم، فليس هناك ما يضطر الكتاب المقدس إلى مساندة بعض الفلاسفة ممن يجانبهم الصواب ضد بعضهم البعض». ويتساءل جاليليو قائلاً: « من ذا الذى يضع حدودًا للعقل البشرى؟ ومن ذا الذى يجرؤ على التأكيد بأننا نعرف كل شىء؟ ولهذا، فمن الأفضل ألا نكبل معتقداتنا المتعلقة بالخلاص أو ترسيخ الايمان بأية تفسيرات رسمية ليست هناك أية حاجة إليها». ويستطرد جاليليو قائلاً إن الإنجيل يعالج الظواهر الطبيعية بطريقة عابرة وعلى هيئة إشارات، حتى نتذكر أن الإنجيل لا يُعنى بمعالجة هذه الظواهر، بل يعنى بالحديث عن الروح. ويحذر جاليليو المتدينين من قراءة الكتاب المقدس قراءة حرفية، مثل القول بأن يوشع أوقف حركة الشمس.

وبحديثه عن لغة الكتاب المقدس الاستعارية أعطى جاليليو مناوئيه فرصة ذهبية للهجوم عليه، فقد أعلنوا أنه يهاجم سلطة الكتاب المقدس ويُقحم نفسه فى المسائل اللاهوتية، ولهذا طالب أسقف فييزول بالزج بكوبرنيكوس فى السجن دون أن يدرى أن كوبرنيكوس قد مات منذ أمد طويل. وأيضًا انتهز الأب توماس كاسينى الراهب الدومينيكانى هذه الفرصة لإشاعة الفضائح والأراجيف. ففى ٢٠ ديسمبر عام ١٦١٤، ألقى موعظة فى كنيسة سانتا ماريا نوفيلا بعنوان: «يا أهل الجليل، لماذا تقفون محملقين فى السماء؟»، وأضاف أن علم الرياضيات رجس من عمل الشيطان ونادى بنفى علماء الرياضيات من كل الدول المسيحية قائلاً: «إن القول بدوران الأرض أقرب ما يكون إلى الهرطقة».

ويرجع السبب فى هذا إلى أن الرياضيات آنذاك اقترنت فى أذهان عامة الناس بقراءة الطالع. وبعد انقضاء سبعة عشر عامًا عاد بعض أعداء جاليليو فى روما إلى

توجيه هذه التهمة إليه، فقد أُشيع عنه أنه تنبأ بموت البابا. ورغم أنه اتضح أن هذه الإشاعة باطلة وليس لها أي أساس من الصحة فقد نجحت فى إثارة اهتمام السلطة الكنسية بالموضوع، نظرًا لشدة حساسية السلطة لرواج الشائعات أيًا كان مغزاها، ويبدو أن لودوفيكو ديل كولومبى كان العقل المدبر وراء رسم الخطة للوقيعة بين جاليليو والكنيسة. والجدير بالذكر، أن جاليليو كان فى البداية يحظى بمكانة عالية لدى الكرسى البابوى وكاردينالات روما. وسرت فى مدينة فلورنسا شائعة قراءة جاليليو للغيب سريان النار فى الهشيم، الأمر الذى جعل الأب مارافى رئيس طائفة الرهبان الدومنيكان يعتذر له عن دور الرهبان فى نشر الإشاعة. قال هذا الأب، إنه يعتذر عن الحماقات والسخافات التى يرتكبها آلاف الرهبان. ورغم هذا الاعتذار، فقد بدا الانزعاج واضحًا على جاليليو الذى بدأ يتأكد من أن القيادة الدينية فى روما لم تعد متعاطفة معه، وزاد من انزعاجه معرفته بالعلاقة الوثيقة التى تربط الرهبان الدومنيكان بمحاكم التفتيش. وخطر له أن يكتب إلى روما طالبًا منها تصحيح هذا الوضع. غير أن الأمير سيسى وصديقه القديم بييرو دينى رئيس أساقفة فيرمو نصحاه بتجاهل هذا الموضوع حتى لا يعطى فرصة لشانئيه أن يثيروا اللغط حوله، وخاصة لأن معظم المفكرين والفلاسفة فى روما كانوا من المشائين الذين يقتفون أثر أرسطو ويترسمون خطاه. وشعر جاليليو أن أعداءه سوف يتحينون هذه الفرصة للوقيعة به. لهذا آثر التزام الصمت. وتلخصت الخطوة التالية التى فكر فيها أعداؤه فى توريطه فى الاشتراك فى ملاحاة لاهوتية تكون بمثابة الشرارة التى تندلع منها الشائعات والأراجيف.

وانتهز عدوه لورينى هذه الفرصة لتهييج الخواطر ضده وتلطيخ سمعته، فما إن حصل على نسخة من رسالة جاليليو إلى كاستيللى، حتى سارع بإرسالها فى ١٨ فبراير عام ١٦١٥ عن طريق الكاردينال سفوندراتى إلى المسئولين فى محاكم التفتيش. قال لورينى عن أتباع جاليليو دون أن يذكر جاليليو بالاسم: «إن كل رهبان كنيسة القديس مرقص المعروفين بورعهم وتقواهم يتشككون فى نوايا رسالة جاليليو إلى كاستيللى؛ لأن هذه الرسالة تؤكد أن لغة الكتاب المقدس لا تعنى ما تقول، وأن الكتاب المقدس لا يصلح لأن يكون أساسًا لبحث الظواهر الطبيعية ومناقشتها، وأن صلاحيته ينبغى أن تقتصر على نطاق الدين فقط فلا تتعداها إلى ما هو خارج هذا النطاق وأن البراهين الفلسفية والفلكية أكثر مصداقية من كلام الله». وهو يفسر الآيات التى تقول إن يشوع

أمر الشمس بالتوقف بأنها لا تعنى أن الشمس هى التى توقفت، بل تعنى أن يشوع أمر بالتوقف ذلك الغلاف الخارجى الذى يدور حول الأرض كل ٢٤ ساعة. وأضاف لورينى أن مثل هذه التفسيرات للكتاب المقدس تتعارض مع تفسيرات آباء الكنيسة العظام، مما ينم عن عدم توقيرهم وعدم توقير القديس توماس الأكوينى، كما تعنى أن جاليليو وأتباعه يدوسون بأقدامهم فلسفة أرسطو التى كانت أعظم عون للاهوت المدرسى. وطلب لورينى من المسئولين عن محاكم التفتيش التدخل لوضع الأمور فى نصابها وإصلاح ما أفسده جاليليو وأتباعه. ثم يختتم لورينى شكواه بقوله، إنه شخصيًا يعتبر أتباع جاليليو مسيحيين صالحين ومنتظمين؛ ولكن شيئًا من الزهو والخيلاء قد لعب برؤوسهم، مضيفًا أن الدافع وراء شكواه هو شدة غيرته على المقدسات الدينية. والحقيقة، أن لورينى كان فى قرارة قلبه يعتبرهم أرواحًا هالكة لا تستحق الرثاء أو الرحمة، فضلاً عن أنه نسب إلى جاليليو أقوالاً لم يسطرها قلمه قط. فقد قال جاليليو فى رسالته: «توجد فى الكتاب المقدس كلمات إذا أخذت بمعناها الحرفى تبدو وكأنها تجافى الحقيقة»؛ ولكن سوء طوية لورينى جعله يغير هذه الكلمات إلى «توجد فى الكتاب المقدس كلمات زائفة بالمعنى الحرفى لها». وأيضًا وردت فى خطاب جاليليو العبارة التالية« إن الكتاب المقدس لا يمتنع عن أن يلقى بظلاله على العقائد الدينية الأكثر حيوية بأن ينسب إلى الله خصائص أبعد ما تكون عن جوهره، بل تتعارض معه»؛ ولكن سوء نية لورينى جعله يغير عبارة «يلقى بظلاله» إلى (يزيف). ورغم استياء المسئولين فى محاكم التفتيش من كلمتَى «زائفة» و«يزيف»، إلا أنهم لم يروا فى رسالة جاليليو ضلالاً أو انحرافًا عن صحيح الدين. وهكذا أخفق لورينى فى إيغار صدر محكمة التفتيش ضد جاليليو.

ورغم ذلك، فقد بدأت السلطات الدينية تتنبه إلى كتابات جاليليو وتضع عينها عليها، ففى ٢٦ فبراير أصدر المكتب المقدس تعليماته إلى رئيس أساقفة بيزا والمحقق فى محاكم تفتيشها، بالحصول على نسخة ممهورة من رسالة جاليليو إلى كاستيللى بطريقة لبقة وغير محسوسة. بعدئذ بدأ رئيس أساقفة بيزا يهتم فجأة بهذا الخطاب وعبر عن رغبته فى الاطلاع عليه، الأمر الذى أثلج صدر كاستيللى المرسل إليه. غير أن الشك أخذ يساور المرسل منه جاليليو، الذى آثر توخى الحكمة والحذر والتزام الصمت عندما طلب إليه كاستيللى نسخة موقعة من الرسالة؛ ولكنه اضطر أمام إلحاف كاستيللى أن يرسل إليه نسخة غير موقعة منها، طالبًا منه عدم التصرف

فيها أو إعطائها لأحد، وقام كاستيللى بتلاوتها على مسامع رئيس أساقفة بيزا الذى ادعى أنه يكتفى بهذه التلاوة الشفوية.

وانقضى شىء من الوقت قبل أن تسنح للمحققين فى محاكم التفتيش فرصة مواتية، فقد سافر كاسينى إلى روما حيث سارع بالاتصال بالمكتب المقدس عن طريق أحد أعضائه، وهو الكاردينال أراكولى. وفى الاجتماع الذى عقده المكتب المقدس فى ١٩ مارس ١٦١٥، أمر هذا المكتب بالتحقيق مع الأب توماس كاسينى الذى اتهمه الكاردينال أراكولى بمعرفته الوثيقة بأخطاء جاليليو. ثم قام المكتب المقدس فى اليوم التالى باستدعاء كاسينى لأخذ أقواله، فاعترف بأن مدينة فلورنسا أصبحت مليئة بأتباع جاليليو، الذى يوعز لهم بتبادل الأحاديث المغلوطة والمخالفة لصحيح الدين، مثل القول بأن وجود الله مجرد صدفة، وأن الله كائن يحس ويشعر ويضحك وينخرط فى البكاء وأن المعجزات التى يأتى بها القديسون ليست بمعجزات حقيقية. وذهب كاسينى إلى أن مثل هذه الأقوال المارقة ليست بالغريبة على مؤلف «خطابات حول البقع الشمسية» وهى خطابات مليئة بالافكار اللعينة ينتمى صاحبها إلى أكاديمية لينسى السيئة السمعة، كما أنه صديق حميم لساربى Sarpi الملعون الذى يتبادل الرسائل مع علماء الرياضيات الألمان. وأضاف كاسينى، أن الأب لورينى وراهبًا جيزويتيًا آخر أخبراه بأن محاكم التفتيش كادت أن تلقى القبض عليه أثناء وجوده فى روما عام ١٦١١، كما أشار إلى أن الأب لورينى لديه المزيد من المعلومات عن هذا الرجل الضال، وإلى أنه يستطيع إطلاعهم على نص الخطاب الذى كان جاليليو قد أرسله إلى كاستيللى. وعندما أخذ المحققون يدققون فى تحقيقاتهم مع كاسينى بدأ يُظهر حرصًا وتحفظًا واضحين، رغم أنه أكد إيمان جاليليو بنظرية كوبرنيكوس الفلكية. قال كاسينى، إنه سمع آراء جاليليو الملحدة عن طريق الأب إكسيمنيس الذى قال إنه سمع بها من شاب يدعى «أتافانتى» على ما يذكر، وهو واحد من أتباع جاليليو والمدافعين عن نظرياته. واستطرد الشاهد كاسينى ليقول لمحكمة التفتيش، إنه موقن من، أن جاليليو نادى بأمرين: أولهما أن الأرض تدور، وثانيهما أن الشمس ثابتة.

واستغرق المحققون بعض الوقت لمعرفة مكان وجود الأب الإسبانى إكسيمنيس، حيث إنه كان على سفر. وحينما استدعوه لاستجوابه فى ١٣ نوفمبر ١٦١٥ كان حصيفًا فى كل ردوده. اعترف إكسيمنيس أنه يعرف قسيسًا فى أبرشية اسمه جيانوزو أتافانتى

يتفوّه بأشياء فظيعة ومروعة تعلمها من جاليليو نفسه أو من أحد مريديه. قال أتافانتى إن الله موجود بالصدفة، وإن المادة ليست لها أية صفات مستمرة. واستطرد إكسيمنيس قائلاً إنه سمع أتافانتى يقول إن المعجزات المنسوبة إلى القديسين ليست معجزات حقيقية، وإنه ما انفك يكرر هذا القول عدة مرات أثناء صعوده وهبوطه درج دير سانتا ماريا نوفيلا. وأردف إكسيمنيس أن أتافانتى كان يردد أفكار جاليليو ولا تعبر عن آرائه الشخصية.

وبطبيعة الحال استُدعى أتافانتى فى اليوم التالى للإدلاء بشهادة عما هو منسوب إليه، فأجاب عن أسئلة المحققين بكل ثقة. وقال إنه كان يتجادل مع الأب إكسيمنيس حول بعض الموضوعات مثل المطلقات فى أعمال القديس توماس الأكوينى فتنصت عليهما شخص من حجرة مجاورة. وما إن ذكر أتافانتى مسألة دوران الأرض حتى هرول هذا الشخص خارجًا، وهو يصيح إن هذا القول هرطقة وإنه سوف يلقى موعظة يدحض فيها هذه النظرية. ولم ينكر أتافانتى معرفته بجاليليو واعترف بأنه قابله مرات قليلة، وأنهما تحدثا حول بعض الأمور الفلسفية، مثل دوران الأرض وثبات الشمس فى مكانها. وعندما سُئل أتافانتى عن آراء جاليليو اللاهوتية، رد قائلاً بأنه يعتقد أنه كاثوليكى لا غبار عليه ولولا ذلك لما استساغه الدوق العظيم وقربه إليه، وعندما سئل ما إذا كان يعرف كاسينى (الذى وشى بجاليليو)، أكد أنه لا يعرف أى شىء عنه. والغريب أن جاليليو لم يكن يدرى أن كاسينى هو المتآمر عليه، كما أن محكمة التفتيش لم تخبره أن هذا الرجل هو الذى دس له لدى المكتب المقدس. والغريب أيضًا أن كاسينى المنافق زار جاليليو فى روما بعد انقضاء بضعة شهور للتعبير عن وده وصداقته، ولكن جاليليو لم ينخدع برياء هذا الرجل. ويتضح لنا من كتابات جاليليو أنه فهم عدوه كاسينى على حقيقته.

تحدث جاليليو عن هذه الزيارة فقال، إن كاسينى مكث معه أكثر من أربع ساعات تظاهر فيها بالانكسار والتواضع، نافيًا أن تكون له أية علاقة بالشكوى المقدمة ضد جاليليو الذى استطاع بنفاذ بصيرته أن يكتشف جهله وامتلاء صدره بالحقد والضغينة وخلوه من الشفقة. كان جاليليو رجلاً حنكته الأيام، ولهذا أدرك أن شيئًا ما قد بدأ يتحرك ضده. ونصحه سيسى أن ينحنى للعاصفة حتى تهدأ، ولكن جاليليو رأى رأيًا آخر يتمثل فى البحث عن وسطاء يشفعون له لدى السلطات الكنسية. فكتب مرتين فى

فبراير ١٦١٥ ثم فى ٢٣ مارس إلى صديقه دينى Dini، كى يقوم بتوصيل خطاباته إلى أيدى علماء الرياضات والجيزويت وإلى الكاردينال بيلارمين، وكذلك إن أمكن إلى البابا نفسه. وأرسل جاليليو هذه المرة إلى شفعائه نسخة صحيحة وموثقة من مبحثه «خطاب إلى كاستيللى». واعتذر جاليلو لشفعائه عن السرعة التى سطَّر بها هذا الخطاب، وطلب إعطاءه المزيد من الوقت لتنقيحه وصياغته فى قالب فلسفى. وفكر فى نصيحة دينى له بأن يتعلل بأن مركزية الشمس (وليس الأرض حسب الفلكى البطلمى) هى مجرد افتراض رياضى. وكان الهدف من وراء ذلك تهدئة خواطر علماء الرياضيات الرافضين لنظرية كوبرنيكوس الذى اعتبر مركزية الشمس حقيقة فيزيقية، كما اعتبر طامة كبرى أن تحاول الكنيسة فصل الفيزياء عن الرياضيات وتفرض على العقل البشرى الأخذ بحرفية الكتاب المقدس.

وبالنظر إلى أن الكاردينال بيلارمين ذهب فى نقاشه مع دينى إلى أن مزامير داود تثبت حركة الشمس وأنه يجب أن يعرف رأى جاليليو فى هذا الموضوع، فقد وجد جاليليو نفسه مرغمًا على مواجهة بيلارمين على الصعيد اللاهوتى، وصاغ جاليليو رده على بيلارمين فى مذكرة رفعها إلى السلطات الكنسية فى روما، قائلاً إنه يثق فى حكمها وحكمتها وفى حقها فى سحق أفكاره إذا رأت أنها خاطئة، حيث إنه يدرك أن الكنيسة معصومة من الخطأ ولا يأتيها الباطل من خلف أو قدام.

ورغم أن النسيان طواه فى طياته، فقد كان الأب روبرتو بيلارمين ذائع الصيت فى أيامه. فضلاً عن أنه لعب دورًا بارزًا فى الأزمة التى تعرض لها جاليليو بسبب انتقاد نفر من صغار اللاهوتيين له. وتتميز شخصية بيلارمين بروح قتالية عالية، فقد وقف بالمرصاد فى وجه مجلس شيوخ البندقية وأتباع لوثر وكالفن وغيرهم، ممن اعتبرهم مارقين على صحيح الدين. وقد عُرف هذا المقاتل العنيد بشدة دفاعه عن الكرسى البابوى باعتباره أعلى سلطة فى الكنيسة الكاثوليكية فى جميع أنحاء أوروبا.. وقد عرض الأديب الإنجليزى المعروف الدكتور صامويل جونسون وجهة نظر بيلارمين فى النظام البابوى قائلاً: «يتمتع البابا بالسلطان على الأرض والسماء، وجميع الأمراء عبيد له ومن حقه إذا شاء أن يقوم بإلغاء القوانين التى يستنونها. وأيضًا من حقه أن يعزل الملوك إذا اقتضت مصلحة الكنيسة ذلك.. فالبابا إله على الأرض. والشك فى سلطانه هو شك فى سلطان الله».

ولم يكن هذا رأى بيلارمين وحده بل كان رأى جميع الجيزويت، وهو رأى أثار استياء الملك جيمس الأول والملكة إليزابيث الأولى فى إنجلترا الرافضة لمبدأ أحقية البابا فى عزل الملوك والأمراء وطردهم من الكنيسة.

كان جاليليو يضع الكثير من أمله فى طيبة قلب الراهب بيلارمين، الذى عرف عنه الاهتمام بعلم الفلك وتوقير علمائه. والجدير بالذكر، أن بيلارمين ألقى فى عام ١٥٦٤ محاضرات فى فلورنسا عن الأفلاك. وقد أبدى هذا الرجل إعراضًا عن نظرية كوبرنيكوس؛ لأنه اعتبر مسألة ثبات الأرض شيئًا بديهيًا ومفروغًا منه. ورغم ذلك، فقد رأى أنه بإمكان جاليليو أن يجد مخرجًا من أزمته إذا هو تحفظ وقال إن نظريته الفلكية لا تعدو أن تكون افتراضًا. وعلى الرغم من تفاؤل أحباء جاليليو فى روما، فإن جاليليو نفسه شعر بدنو الخطر منه، رغم سعى أصدقائه إلى إدخال الطمأنينة فى قلبه، إلى جانب سعيهم الحثيث إلى إثبات سلامة عقيدته الدينية. وأراد جاليليو أن يدفع الخطر عن نفسه فكتب خطابًا إلى الدوقة العظيمة يذود فيه عن ذاته، قائلاً إن إيمانه بصحة نظرية كوبرنيكوس لا يتعارض البتة مع إيمانه الراسخ بالدين المسيحى. وذهب جاليليو إلى ضرورة فهم نظرية كوبرنيكوس قبل انتقادها، وإلى أنه من غير المعقول أن تسمح الكنيسة لكوبرنيكوس بنشر نظريته ثم ترفضها فى الوقت ذاته.

وقد أولى باولو أنتونيو فوسكارينى من مدينة نابولى - وهو راهب حسن السمعة - نظرية كوبرنيكوس اهتمامه الكبير. ويدل ما كتبه عنها أنه هضمها وفهمها على حقيقتها، حيث إنه ذكر فى خطاب أرسله إلى رئيسه فى الدير أن جاليليو عالم رائد، واقترح أن الأوان قد آن لاعتبار مركزية الشمس بين الكواكب حقيقة، كما اقترح ضرورة التوفيق بين هذه النظرية الفلكية الجديدة وبين الآيات الخاصة بتكوين الكون الواردة فى الكتاب المقدس، وحتى يثبت فوسكارينى للكاردينال بيلارمين أنه راهب يطيع رؤساءه طلب من هذا الكاردينال التعليق على رأيه. ورد عليه بيلارمين بخطاب جاء فيه أنه يمتدح فوسكارينى، لأنه يعتبر نظرية كوبرنيكوس مجرد افتراض وليس حقيقة واقعة، ولكنه أضاف أنه من الخطر اعتبار الشمس مركز الكون وأنها تدور فقط على محورها دون أن تتحرك من الشرق إلى الغرب، حيث إن هذه النظرية من شأنها أن تثير غضب جميع الفلاسفة واللاهوتيين الكاثوليك المدرسيين، فضلاً عن أن من شأنها أن تضر بالعقيدة المسيحية وتتعارض مع الكتاب المقدس.

وينتقل بيلارمين إلى قرارات مجمع ترنت حول تفسير الكتاب المقدس فيقول، إن تفسيرات الآباء والشراح المحدثين لسفر التكوين والمزامير وغيرهما من الأسفار توضح أن الشمس تدور حول الأرض بسرعة هائلة وأن الأرض فى مركز الكون وإنها ثابتة فى مكانها. ثم يستطرد بيلارمين قائلاً، إنه إذا كان هناك برهان على أن الشمس تحتل مركز الكون وأنها لا تدور حول الأرض (حيث إن الأرض هى التى تدور حول الشمس)، فعلينا توخى الحصافة ومراعاة الحجى والحرص فى شرح آيات الكتاب المقدس القائلة بغير ذلك، كما أنه ينبغى علينا الاعتراف بعجزنا من فهم هذه الآيات. وأضاف بيلارمين عدم اقتناعه بوجود مثل هذا البرهان. وتنم طريقة رفض بيلارمين لنظرية كوبرنيكوس على عدم دراسته الوافية لها، ويبدو أنه اكتفى بقراءة مقدمة مبحث كوبرنيكوس الفلكى فى مركزية الشمس دون أن يرمى صاحب هذا المبحث بالغفلة مثلما فعل مارتن لوثر مؤسس المذهب البروتستانتى، والجدير بالذكر أن بيلارمين لم يجد غضاضة فى نظرية كوبرنيكوس؛ لأنه جاء فى مقدمتها أنها مجرد افتراض رياضى وليس بالضرورة وصفًا لحقيقة السماوات. ولم يكن معروفًا آنذاك أن الذى سطر المقدمة لم يكن كوبرنيكوس نفسه، بل القسيس البروتستانتى أوسياندر الذى أراد بها ألا ينفر المتدينون التقليديون من النظرية الكوبرنيكية، ولكن عالم الفلك الألمانى كبلر قد هاجم هذه المقدمة وقال إن مغفلاً كتبها من أجل أن يستخدمها المغفلون الآخرون. ولو أن بيلارمين التفت جيدًا إلى الإهداء الذى سطره كوبرنيكوس إلى البابا بولس الثالث لتنبه إلى أن هذا الفلكى تحدث عن احتمالات سوء الفهم والخلط بين الكتاب المقدس والعلم. ولعل بيلارمين معذور فى عدم تنبهه إلى عواقب الأخذ بنظرية كوبرنيكوس السلبية على الدين المسيحى، فقد كان رجلاً مسنًا معتلّ الصحة يمضى وقته فى الصلاة وطلب المغفرة ولا يفكر فى الفلسفة الطبيعية، بل فى تأليف مبحث دينى بعنوان: «نعى على اليمامة أو فائدة ذرف الدموع».

ومن ناحيته، شعر جاليليو بالحبل يلتف حول رقبته فكتب إلى دينى صديقه يقول، إنه لم يكن يرغب مطلقًا فى الخوض فى المسائل الخاصة بالعقيدة والكتاب المقدس، وعبر فيما يشبه اليأس والقنوط عن رغبته فى إيجاد أسلوب يتجنب به الاصطدام مع آيات الكتاب المقدس. ثم تساءل: «ولكن كيف يتسنى لى أن أفعل هذا اذا أرغمت على إغلاق فمى... وإذا أظهر المشّاءون من أتباع أرسطو الذين يتعين إقناعهم عجزهم عن فهم أبسط وأسهل الأسباب؟».وليس من شك أن هذه الشكوى من جانب جاليليو

تتضمن إدانة لموقف بيلارمين نفسه، ولكن صديقه دينى أراد ألا تثور حفيظة بيلارمين ضد جاليليو فأبقى بنص الخطاب فى أدراج مكتبه. وألح جاليليو (الذى لم يفقد الأمل تمامًا) على دينى أن يطرق مرة أخرى أبواب الرهبان الجيزويت، فاستطرد فى خطابه إلى صديقه دينى: «لازلت أظن أننى إذا حضرت (يقصد إلى روما) وشرحت أسبابى بنفسى، فسوف أحصل على بعض النتائج»، ولهذا قرر وبحوذته خطابات توصية قوية من الدوق العظيم السفر إلى روما فى ٣ ديسمبر ١٦١٥ للدفاع عن نفسه.

قام وزير دولة فلورنسا بإبلاغ سفيرها فى روما بيير جويكياردينى بقرب وصول جاليليو إليها، وتوقع سفير فلورنسا أن يواجه جاليليو المتاعب هناك، فكتب فى رده إلى فلورنسا يقول: «لست أعرف ما إذا كان قد غير نظرياته أم لا.. ولكنى أعرف أن بعض الرهبان التابعين لدير القدس دومينيك وأعضاء المكتب المقدس وآخرين لا يحملون له الود. وليست روما المكان المناسب للتناقش حول القمر، كما أنه بوجه خاص ليس الوقت المناسب لاستحداث أية أفكار جديدة». ورغم ذلك أعد السفير الفلورنسى لجاليليو مكانًا للإقامة فى حدائق السفارة يرافقه سكرتير وخادم خصوصى وبغل صغير.

ولم يلفت وجود جاليليو فى روما الأنظار إليه بسبب انشغالها بالنهضة المعمارية الكبيرة التى اضطلع بها البابا سكستوس الخامس (١٥٨٥ - ١٥٩٠)، والتى غيرت ملامح مبانى وأحياء وشوارع روما بالكامل، وبالفعل لم يكن الكرسى البابوى فى روما يحفل بالأفكار الجديدة، وخاصة لأن البابا بولس الخامس (١٦٠٥ - ١٦٢١) كان من النوع المتصلب فى عقيدته الدينية والذى يرحب بتوفير فرص عمل جديدة للعمال أكثر من ترحيبه بأفكار الباحثين والدارسين الجديدة.

ولكن انصراف الانتباه عنه لم يفتّ فى عضده، ففى ٨ يناير ١٦١٦ كتب إلى وزير الدولة فى فلورنسا يقول: «لقد اكتشفت يومًا بعد يوم مدى جودة الفكرة التى دفعتنى إلى الحضور إلى هنا، حيث إنهم نصبوا لى شراكًا كثيرة لدرجة أنه لم يكن فى مقدورى إنقاذ نفسى منها لو أننى تأخرت عن الحضور». وتتضح لنا طبيعة هذه الشراك من نوعية الاتهامات التى وجهها كاسينى إليه بغية إظهاره بمظهر المجدف على الدين المسيحى ومبادئه المقدسة. وفوجئ شانئوه بحُسن استقبال الدوائر الرسمية له، ولم يرتح لهم بال حين رأوه يصل حاملاً أقوى التوصيات من حاكم فلورنسا. ويتضح لنا من

الخطابات التى أرسلها جاليليو إلى فلورنسا أنه أراد تجنيب أصدقائه وأنصاره الأذى. وبدلاً من توسيط أصدقائه كما كان يفكر، آثر تدوين شروحه وإيضاحاته المؤيدة لوجهة نظره على الورق، وطلب من خلصائه تسليمها إلى الشخصيات الكنسية البارزة التى كان يود مقابلتها إذا أمكن. وقد علمته التجارب أن المسئولين يفضلون قراءة المذكرات المكتوبة على المواجهة الشخصية حتى يتفادوا أى حرج، ويأخذوا راحتهم فى رفض ما يشاءون من الأفكار التى لا تروق لهم. وقد شهد كوبرنجو بقدرة جاليليو على المجادلة والانتصار بحجته القوية على معارضيه وإظهارهم بمظهر يثير الضحك، ورغم حُججه القوية وقدرته الفائقة على الإقناع فقد وجد جاليليو نفسه وحيدًا فى خضم المعمعة، غير أن حاكم فلورنسا الدوق العظيم لم يخذله.

ويبدو أن حماس جاليليو الشديد فى إقناع خصومه بصحة نظرياته هو الذى جلب عليه الكثير من المتاعب والمشاكل التى كان حجمها سيقل، لو أنه لم يستفز خصومه بحماسه المتأجج والمتقد لصحة أفكاره. ومع ذلك، فقد سعى الكاردينال أورسينى إلى الوقوف بجانبه لدى البابا الذى سارع باستدعاء بيلارمين للتشاور معه، وبعد أن استمر الاثنان فى التشاور لفترة وجيزة أصدرا قرارهما بأن أفكار جاليليو خاطئة ومهرطقة. فضلاً عن أنهما قررا أن الصواب يجانب كوبرنيكوس، وطالبا بتصحيح نظرياته حتى لا يفرضا الحظر على نظريته.

لم يكن الباعث وراء استدعاء جاليليو إلى روما عام ١٦١٦ يرمى إلى إدانته، ولكن إلى شد أذنه كما نقول باللغة العربية العامية، ومع ذلك فقد أدى هذا الاستدعاء إلى اتخاذ عدد من القرارات الرافضة لنظرية كوبرنيكوس.

فقد انتهى المكتب المقدس فى ٢٣ فبراير ١٦١٦ إلى قرار يقضى برفض نظرية كوبرنيكوس وما يترتب عليها من عواقب فلسفية ولاهوتية، وأحال المكتب المقدس الأمر إلى مجمع إعداد فهرس الكتب المحظورة فأصدر مرسومًا يمنع تداول الكتب التى تُحبِّذ نظرية كوبرنيكوس. ولهذا السبب توجه جاليليو، كما أسلفنا، إلى روما لإقناع المسئولين هناك بصحة أفكاره. وفى ٢٦ فبراير ١٦١٦، قام المكتب المقدس باستدعائه إلى مقر روبرت بيلارمين الكاردينال فى محاكم التفتيش.

يحتفظ مجمع المكتب المقدس بالوثائق الخاصة بمحاكمة جاليليو فى أرشيف ينقسم إلى ملفين مختلفين، أحدهما يضم قرارات المجمع العام المنوط به الاجتماع ثلاث مرات أسبوعيًا لمراقبة أعمال محاكم التفتيش الإيطالية.

وكان البابا يحضر هذه الاجتماعات مرة واحدة يوم الخميس من كل أسبوع. وكانت هذه الاجتماعات تعقد فى أحد القصور البابوية فى روما. وكانت مهمة المقيّم «أو المُثمِّن» assessor، وهو أقدم العاملين فى المكتب المقدس، أن يسجل ما يتخذ فى هذه الاجتماعات من قرارات، ثم يتولى الكاتب تحريرها ونسخها وجمعها وترتيبها زمنيًا فى مجلدات تحمل عنوان: «قرارات»، أو «مراسيم». وقد وجد الباحثون فى هذه المجلدات القرارات المتعلقة بشأن نظرية كوبرنيكوس إلى جانب «حوار» جاليليو وبعض الموضوعات العلمية الأخرى المتصلة بأمور العقيدة والدين. وأيضًا احتفظت محاكم التفتيش فى حوذتها بمجلدات من نوع آخر تحمل عنوان: «الفهرس»، تتضمن سجلات الإجراءات القانونية التى اتخذتها هذه المحاكم، مثل استجواب المتهمين والشهود والعدول عن المروق والأحكام الصادرة، وهذا النوع الأخير من الملفات يحمل عنوان: «محاكمات». وحتى يومنا الراهن يحمل الملف الخاص بمحاكمة جاليليو أمام محاكم التفتيش نفس الرقم القديم وهو ١١٨١.

وظلت هذه الوثائق حتى عام ١٩٨٠ محفوظة فى الأرشيف السرى لمحاكم التفتيش فى روما، ولكن قوات نابليون التى غزت إيطاليا استولت على هذه الوثائق وقامت بنقلها إلى باريس، ثم أُعيدت إلى الكرسى البابوى فى عهد الملك الفرنسى لويس فيليب. وعلى الرغم من ذلك، فقد استشعر الدارسون الفرنسيون بأهمية المجلد رقم ١١٨١ الخاص بمحاكمة جاليليو، الأمر الذى حفزهم إلى التفكير فى ترجمته ونشره بالفرنسية. وفى عام ١٨٤٣ على وجه التحديد، عاد المجلد ١١٨١ من باريس إلى روما وسط شائعات بعزم الكرسى البابوى على نشر الوثائق حتى يتسنى للباحثين الاطلاع عليها. وحين اندلعت الثورة فى فرنسا عام ١٨٤٨، حضر باحث فرنسى فى المعارف الإيطالية يدعى سلفستر جيراردى إلى سراى المكتب المقدس بروما ليكتشف عدم وجود المجلد رقم ١١٨١، حيث إن البابا نفسه كان يحتفظ به فى مكتبته الخاصة. وهناك ظل المجلد المشار إليه حتى أودعه البابا بيوس التاسع (١٨٤٦ - ١٨٧٨) قبل فراره فى أرشيفات الفاتيكان، وبقى المجلد هناك حتى قام أنتونيو فافارو Favaro بإصدار مجلد يحتوى جميع أعمال جاليليو. وحتى قبل أن يفعل فافارو ذلك سمح الكرسى البابوى - الذى أراد أن ينفى عن محكمة التفتيش تهمة تعذيب جاليليو - لعدد من الباحثين الفرنسيين والطليان والألمان بالاطلاع على جزء من مادة المجلد.

على أية حال، كان سيلفسترو جيراردى أول من نسخ الوثائق الخاصة بملف جاليليو، مما ساعد أنتونيو فافاور على فرزها وتمحصيها واستبعاد ما يثير الشك منها. وأثار المؤرخ إميل فول ويل نقطة شائكة عندما اقترح أن إحدى وثائق المجلد ١١٨١ مزورة، الأمر الذى أثار المزيد من الشكوك حوله صحة بقية وثائق الملف، لدرجة أن البعض ذهب إلى أن محاكمة جاليليو ليست سوى محاكمة قامت محاكم التفتيش بتزويرها من أولها إلى آخرها.

ولكن فافارو لم ير داعيًا للشك فى صحة المجلد برمته. وهو يعترف بما تعرض له المجلد من تغيير وتعديل على يد محاكم التفتيش. ويذكر فافاور أن المجلد ١١٨١ تعرض للفتح بمعرفة محاكم التفتيش حتى قبل عام ١٨١٠، إذ يبدو أنها قامت بفتح الملف الأول وإعادة النظر فيه عام ١٦١٦، أى أثناء محاكمة جاليليو الأولى، فضلاً عن دمج الملفين الأول والثانى فى المجلد ١١٨١. وبعد وفاة جاليليو تعرضت الملفات للفتح مرة أخرى، عندما فكر البعض فى إحياء ذكراه وإعادة طبع حواره، ويؤكد فافارو الاختلاف الذى طرأ على أسلوب المحققين فى تدوين القرارات. كما أن فافارو اشتكى من عدم ترتيب بعض الوثائق ترتيبًا زمنيًا، بالإضافة إلى ضياع بعضها من الملف الأصلى. وأهم هذه الوثائق الضائعة وثيقتان: إحداهما خاصة بالحكم الصادر ضد جاليليو، والثانية خاصة بتراجعه عن أقواله، ويرجع ضياع بعض الوثائق إلى كثرة تنقل أرشيفات محاكم التفتيش من مكان إلى آخر، ومن المحتمل أن بعض هذه الوثائق تعرضت للتدمير. وقد لاحظ الباحثون وجود بعض الثغرات فى هذه الوثائق فسعوا إلى ملئها حتى تتضح الصورة بقدر الإمكان، وتسببت هذه الثغرات فى خلق صعوبات، فى تفسير الوثائق.

يجدُر بالذكر أن الأحداث التى وقعت لجاليليو عام ١٦١٦ مدونة فى ست وثائق مهمة تعالج موقف الكنيسة الكاثوليكية الرسمى من نظرية كويرنيكوس وتداعيات هذا الموقف على قضية جاليليو. وترجع المجموعة الأولى من الوثائق إلى ٢٤ فبراير ١٦١٦ و٥ مارس ١٦١٦ و١٥ مايو ١٦٢٠، أما المجموعة الثانية من هذه الوثائق فترجع إلى ٢٥ فبراير ١٦١٦ و٢٦ فبراير ١٦١٦ و٣ مارس ١٦١٦. ويلقى الخطاب الذى سطره الكاردينال بيلارمين الخاص بمشكلة تفسير الكتاب فى ضوء نظرية كويرنيكوس مزيدًا من الضوء على وضع جاليليو، كما أن بيلارمين سلم رسالة إلى جاليليو بعد تحذير ١٦١٦ دون تبليغ زملائه فى مجمع المكتب المقدس بأمرها.

اجتمع مستشارو المكتب المقدس وأصدروا فى يوم ٢٤ فبراير ١٦١٦ قرارهم بشأن نظرية كوبرنيكوس الفلكية، فيما يلى نصه:

«قام المكتب المقدس فى روما يوم ٢٤ فبراير ١٦١٦ بفحص هذه النظرية بحضور اللاهوتيين الآباء الموقِّعين أدناه، وتمت دراسة وتمحيص الفكرتين التاليتين:

أولاً: أن الشمس مركز الكون وثابتة فى مكانها.

القرار: أقر الجميع بأن هذه الفكرة سخيفة ومضحكة فى مجال الفلسفة ومهرطقة من الناحية الشكلية، حيث إنها تتناقض بوضوح فى كثير من المواضع مع ما جاء فى الكتاب المقدس وفقًا للمعنى الحرفى للكلمات، ووفقًا لتفسيرات ومفاهيم آباء الكنيسة وفقهاء اللاهوت.

ثانيًا: الأرض ليست مركز الكون وليست ثابتة؛ ولكنها تدور حول نفسها بوجه عام كما تدور مرة كل يوم.

القرار: أقر الجميع بأن هذه الفكرة على أقل تقدير فكرة خاطئة من ناحية العقيدة. الموقعون أدناه:

بتروس لومباردوس رئيس أساقفة أرياج،

الراهب هياسنتوس بترونيوس رئيس القصر الرسولى المقدس،

الراهب رفائيل ريبهوز أستاذ اللاهوت والراعى العام لطائفة الدومينيكان،

الراهب مايكل أنجلو سيجيزى أستاذ اللاهوت المقدس وقوميسار المكتب المقدس،

الراهب هييرونيموس دى كاساليماجورى مستشار المكتب المقدس،

الراهب توماس دى ليموس،

الراهب جريجوريوس نانينيوس،

بنيديكتوس جوستيانوس جمعية يسوع المسيح،

الأب رفائيل راستيليوس كاتب حاصل على دكتوراه اللاهوت،

الأب ميشيل من نابولى التابع لمجمع الكاسين،

الراهب إياكوبوس مساعد قوميسار المكتب المقدس.

ومن الواضح أن هذه اللجنة آثرت أن تتجاهل الجانب الرياضى فى نظرية كوبرنيكوس، وخاصة الجانب الذى يردد بعض محاجَّات بطلميوس الرياضية؛ مما يدل على أن رفض هذه اللجنة لأفكار كوبرنيكوس لم يكن كاملاً.

مرسوم الفهرس الصادر فى ٥ مارس ١٦١٦

يَخلُق بنا أن نقول، إن المكتب المقدس لم ينشر تقريع اللجنة الآنفة الذِّكر لجاليليو؛ ولكنه ترك مهمة النشر إلى مجمع الفهارس الذى أصدر فى ٥ مارس ١٦١٦ حظرًا على بعض المؤلفات. وفيما يلى نص هذا الحظر: «وحتى لا يتسرب هذا الرأى الذى يتعارض مع الحقيقة الكاثوليكية، قرر المجمع تعليق كتاب نيكولاوس كوبرنيكوس «عن دوران الأجرام السماوية»، وكتاب «أيوب» الذى ألفه دييجو دى زونيجا حتى يتم تصحيح أخطائهما». فى حين أن المجمع فرض الحظر الكامل على الكتاب الذى ألفه الأب باولو أنتونيو فوسكارينى التابع لطائفة الرهبان الكارميلايت، إلى جانب حظر جميع الكتب الأخرى التى تتضمن أفكارًا مماثلة. ويتضح مما تقدم أن الحظر المفروض على كتاب كوبرنيكوس عن دوران الأفلاك السماوية لم يكن كاملاً.

ومن الأهمية بمكان أن نعلم أن الكنيسة الكاثوليكية، فى واقع الأمر، اكتفت بتعليق الكتاب الذى حاول فيه دييجو دى زونيجا أن يشرح آيات سفر أيوب فى ضوء نظرية كوبرنيكوس، فى حين أنها أدانت إدانة مطلقة الكتاب الذى ألفه الراهب فوسكارينى التابع لطائفة الكارميلايت الذى حاول التنسيق الكامل والمواءمة المنتظمة بين العقيدة المسيحية وبين فكرة ثبات الشمس وحركة الأرض، الأمر الذى يدل على أن الكنيسة كانت ـ إلى حد ما ـ تسمح بتداول أفكار كوبرنيكوس الفلكية، غير أن حدود هذا السماح لم تكن واضحة.

تصحيحات فى كتاب كوبرنيكوس «عن دوران الأفلاك السماوية»، (١٥ مايو ١٦٢٠)

قلنا إن مجمع الفهارس المنعقد فى عام ١٦١٦ سمح بتداول الأفكار التى يتضمنها كتاب كوبرنيكوس «عن دوران الأفلاك السماوية» على نحو غير واضح؛ ولكن هذا المجمع أصدر فى عام ١٦٢٠ مرسومًا آخر سعى فيه إلى ترسيم حدود السماح بتداول أفكار الكتاب على نحو واضح ودقيق، مثلما يتجلى لنا فى الفقرة التالية:

«رغم أن آباء مجمع الفهارس المقدس أنحوا باللائمة على كتاب «دوران الأفلاك السماوية» لنيكولاوس كوبرنيكوس (وهو فلكى ومنجّم محترم) وطالبوا بفرض الحظر الكامل عليه؛ لأن صاحبه لا يشك فى مبادئ حركة الكرة الأرضية المقيتة من وجهة نظر الكتاب المقدس وتفسيره الحقيقى والكاثوليكى (وهو الشىء الذى لا يجوز السماح به عند أى شخص مسيحى)؛ ولكنه يفهم هذه المبادئ على أنها حقيقية تمامًا ولا يتعامل معها باعتبارها افتراضًا. ولكن بالنظر إلى أن هذا الكتاب يحتوى على أشياء كثيرة شديدة النفع والفائدة للمجتمع، فقد ارتضى مجمع الفهارس أن يصدر قرارًا بالإجماع يسمح بطبع كتابات كوبرنيكوس كما كان مسموحًا بطبعها بالفعل، ولكن بعد إدخال بعض التصويبات والتنقيحات، وذلك فى المواضع التى يؤكد كوبرنيكوس فيها مكان الأرض ولا يتعامل معها كافتراضات».

ويشهد المرسوم الصادر عام ١٦٢٠ على الحاجة إلى التوفيق بين القرار الذى أصدرته لجنة فقهاء اللاهوت عام ١٦١٦، وبين الاعتراف العملى بفائدة نظرية كوبرنيكوس. وأكد مرسوم ١٦٢٠ على خطأ المبادئ المتصلة بوضع الأرض وحركتها؛ لأنها تتعارض مع المفهوم التقليدى للكتاب المقدس، ومن ثم فإن واجب المسيحى يقتضى منه الشك المسبق فى هذه المبادئ. ويرجع السبب فى توجيه اللوم إلى كوبرنيكوس إلى عدم إظهاره الشك الكافى فيها. ويبدو فى هذه الآونة أن الكنيسة لم تحاول حظر أفكار كوبرنيكوس ليس لأنه لم يتمكن بعد من إثباتها على نحو علمى قاطع، ولكن لأن إثباتها قمين بإثارة المقت ضد العقيدة المسيحية الحقة، ورغم ذلك فقد أقرت الكنيسة بالفائدة التى تعود بها المعلومات الرياضية الواردة فى كتاب كوبرنيكوس على المجتمع. وكيف يمكن للكنيسة أن تنكر هذه الفائدة بعد أن تبنت بالفعل رياضيات كوبرنيكوس وجعلتها الأساس فى إصلاح التقويم السنوى؟ ولا غرو إذا رأينا مرسوم ١٦٢٠ يقر بفائدة المعرفة الكوبرنيكية، ولكنه فى الوقت نفسه يصر على اعتبار المبادئ التى تُبنى عليها هذه المعرفة مجرد افتراضات. والجدير بالذكر، أن الراهب الدومينيكانى ماجدالينوس عضو مجمع الفهارس هو الذى وقّع على المرسوم الصادر فى عام ١٦٢٠. وفى حين أغفل مرسوم ١٦١٦ الحديث عن الجانب الرياضى المقبول فى نظرية كوبرنيكوس، لم يفت على مرسوم ١٦٢٠ أن يشير إليها. والرأى عند القديس توماس الأكوينى أن الافتراضات الفلكية جائزة وربما تكون محتملة، ولكن لا يمكن اعتبارها حقيقة مطلقة، ومثل هذا النوع من التفكير يشكل ركنًا أساسيًا فى نظرية المعرفة الأرسطاليسية.

وقبل شهور قلائل من اتخاذ فقهاء اللاهوت فى المكتب المقدس قرارهم، كان الكاردينال روبرت بيلارمين قد أرسل خطابًا إلى الأب فوسكارينى الذى أدان مجمع الفهارس كتابه إدانة كاملة، مشيرًا فيه إلى جاليليو. يقول بيلارمين فى هذا الخطاب:

«بادئ ذى بدء، يبدو أن نيافتكم والسيد جاليليو تتصرفان بتعقُّل وحكمة عندما اقتصرتما فى حديثكما على الافتراضات دون المطلقات على النحو الذى كان كوبرنيكوس يسير عليه، فليس هناك أى خطر من الافتراض بأن الأرض تدور وأن الشمس ثابتة فى مكانها،حيث إنه من الأفضل الافتراض باختلاف المركز eccentrics وبوجود دوائر صغيرة يدور مركزها على محيط دوائر كبرى epicycles، وهو الأمر الكافى بالنسبة لعلماء الرياضيات. ولكن الأمر يصبح مختلفًا عند التأكيد على أن الشمس فى الواقع تقع فى مركز الكون، وأنها فقط تدور حول نفسها دون أن تتحرك من الشرق إلى الغرب وأن الأرض فى السماء الثالثة وتدور بسرعة هائلة حول الشمس. فهذا شىء ينطوى على الخطر ومن شأنه أن يثير سخط الفلاسفة المدرسيين واللاهوتيين، كما أنه يسىء إلى العقيدة المقدسة بإظهار زيف الكتاب المقدس.

وفى واقع الأمر، لم يحاول بيلارمين تحليل نظرية كوبرنيكوس فى إطار فلسفى أو من منظور منطقى، فى حين شعر كل من فوسكارينى وجاليليو بالحاجة إلى المواءمة بين هذه النظرية وبين الكتاب المقدس. ولعل هذا ما دعا بيلارمين إلى صياغة أفكاره فى شكل خطاب (وليس فى شكل مبحث)، نصح فيه كلاً من فوسكارينى وجاليليو أن يظلا داخل حدود الافتراضات التى درج علماء الرياضيات على استخدامها، مثل الافتراض بوجود epicycles، أى دوائر صغيرة يدور مركزها على محيط دائرة كبرى ووجود eccentrics، أى باختلاف المركز. هذه الافتراضات فى رأى بيلارمين هى كل ما يحتاج إليه عالم الرياضيات فى عمله. وذهب بيلارمين إلى أن التأكيد على صحة نظرية كوبرنيكوس بشكل مطلق هو تجاوز لحدود الرياضيات ودخول فى مجالات الفلسفة واللاهوت، وهو تجاوز له محاذيره، حيث إنه يؤدى إلى إعادة تفسير الكتاب المقدس. واستطرد بيلارمين فى خطابه قائلاً:

«أنقول لو كان هناك إثبات حقيقى بأن الشمس هى مركز الكون، وأن الأرض تقع فى السماء الثالثة، وأن الشمس لا تدور حول الأرض بل إن الأرض هى التى تدور حول الشمس - فإنه يتعين على المرء أن يتوخى الحذر الشديد وهو يفسر الكتاب المقدس،

الذى يبدو مُتعارضًا مع هذه الأفكار، كما يتعين علينا أن نقول إننا لم نفهم الكتاب المقدس، لا أن نقول ان الإثبات خاطئ ولكنى لن أصدق وجود مثل هذا الإثبات حتى يتمكن أحد من إقناعى به».

ومن الواضح أن بيلارمين فى خطابه لا يميل إلى تكبيل الاكتشافات العلمية، فهو لا ينكر حقيقة الافتراض الكوبرنيكى فى الطبيعة، كما أنه لا ينكرها على الصعيد الفلكى. غير أننا نستشف من كلامه اهتمامه الواضح بإقامة الحدود التى تفصل الرياضيات عن الفلسفة واللاهوت. ويمكن القول، إن موقف بيلارمين لا ينم عن أية شكوك لاهوتية فى التقدم العلمى، فضلاً عن أنه لا ينكر شرعية التعامل مع فرضية كوبرنيكوس على أنه رأى جائز وليس من نسج الخيال، حتى إذا لم يتم بعد إثباته إثباتًا قاطعًا. وفى الوقت نفسه، أظهر موقف بيلارمين حساسية خاصة نحو التعقيدات التى يجرها المذهب الكوبرنيكى على الفكر المؤسسى الدينى، بمعنى أن محاولة إثبات دوران الأرض قد تجر فى أذيالها العدوان على مجالات الفلسفية المدرسية واللاهوت المدرسى، الذى لم يجد أية عوائق أو صعوبات فى ظل الفلك التقليدى. وتتمثل هذه الصعوبات فى أنها تتحدى احتكار القساوسة لتفسير الكتاب المقدس، كما نصت على ذلك مراسيم مجمع ترنت. يقول بيلارمين مخاطبًا فوسكارينى:

«وكما تعلم أقول إن المجمع يحظر تفسير الكتاب المقدس بطريقة مخالفة لما اتفق عليه آباء الكنيسة المقدسون. وإذا كنت نيافتكم لا ترغبون فقط فى قراءة هؤلاء الآباء بل أيضًا فى قراءة التعليقات الحديثة على سفر التكوين والمزامير وسفر الجامعة ويشوع، فسوف تجدها جميعًا متفقة على التفسير الحرفى القائل بأن الشمس فى السماء تدور حول الأرض بسرعة فائقة، وإن الأرض البعيدة جدًا عن السماء ثابتة فى مركز الكون. فلنفكر الآن عما إذا كان بإمكان الكنيسة السماح بتفسير الكتاب المقدس على نحو يخالف تفسير الآباء المقدسين ويخالف جميع الشرَّاح الإغريق واللاتين».

ومع ذلك، يبدو أن كل ما عاد إليه بيلارمين هو توخى الحذر الشديد فى إعادة تفسير الكتاب المقدس وليس الحظر الكامل على إعادة التفسير، حيث إنه يقول: «إننا لا نفهم الكتاب المقدس دون القول بالخطأ فى التدليل على إثبات (نظرية كوبرنيكوس)».

يقول موريبزجو تاجليابو فى هذا الصدد، إن كلمة «افتراض» فى زمن جاليليو لم يكن لها معنى واضح، حيث إنها اقتربت فى معناها من كلمتى «وقتى»، أو «مؤقت»،

وساعد على المعنى الغائم لهذه الكلمة الاعتقاد السائد آنذاك بتصور العقل البشرى وعجزه عن الوصول إلى الحقيقة المطلقة. ونحن نجد أصداء لهذا المعنى الغامض فى المقدمة التى صدَّر بها القسيس البروتستانتى أوسياندر مبحث كوبرنيكوس عن دوران الأفلاك، حيث إن أوسياندر لم يفهم الافتراضات الفلكية على أنها جائزة، بمعنى أنها حقيقة، بل فهمها على أنها تصورات مجردة لا تمتُّ إلى واقع العالم الفيزيقى بأية صلة، وأن الهدف الوحيد من اختراع الإنسان لهذه المجردات هو أن تعينه على الحساب.

ولكن المرسوم الصادر فى عام ١٦٢٠ قدم تفسيرًا أكثر مدعاة للتشكك فى معنى كلمة «الافتراض»، ومن ثم تحدد مجال استخدام نظرية كوبرنيكوس عن ذى قبل. فقد حظر هذا المرسوم مبدأ استخلاص تحديد مكان الأرض وحركتها، الأمر الذى فرض قيدًا على تطوير الافتراض الكوبرنيكى بهدف التيقن من صحته. ومعنى هذا أن منظور المذهب الكوبرنيكى طرأ عليه تغير، فبعد أن وصفه بيلارمين فى خطابه المؤرخ فى عام ١٦١٥ بأنه مذهب خاطئ، أصبح مرسوم ١٦٢٠ يتحدث عن التعارض القائم بين هذا المذهب والكتاب المقدس. وبينما عبر بيلارمين عن قلقه من أن نظرية كوبرنيكوس تنتقص من أحقية الكنيسة وحدها فى تفسير الكتاب المقدس، نرى أن مرسوم ١٦٢٠ يعبر عن شدة قلقه من حدوث صدع بين الحقيقة الفلسفية وحقيقة الكتاب المقدس؛ ولهذا جنح مرسوم ١٦٢٠ إلى حظر مناقشة الافتراض الكوبرنيكى باعتباره حقيقة طبيعية جائزة. ورغم ذلك، فقد سمح هذا المرسوم باستخدام هذا الافتراض باعتباره نموذجًا رياضيًا خاليًا من أى معنى فيزيقى، وأيضًا باستخدامه كبناء مجرد لا يمتُّ إلى العالم الحقيقى بصلة.

وعلى أية حال، فمن الواضح أن الكنيسة الكاثوليكية لم تتخذ موقفًا موحدًا من الافتراض الكوبرنيكى. والواقع، أن موقف هذه الكنيسة اختلف من شخص إلى آخر ومن جماعة إلى أخرى ومن مؤسسة إلى مؤسسة، غير أن هذه الأصوات المتعددة رأت أنه لا محيص أمامها عن الاتحاد فى وجه ثقافة الإصلاح البروتستانتى التى بدأ ساعدها يقوى ويشتد. حتى الكنيسة نفسها وقعت فى تناقض، فقد رأى فقهاء اللاهوت فى المكتب المقدس أن مذهب كوبرنيكوس مضحك على الصعيد الفلسفى ومهرطق على الصعيد اللاهوتى، الأمر الذى استدعى ضرورة ترجمة هذه الإدانة إلى

واقع عملى وملموس. ومع ذلك، فإن أحدًا من المسئولين عن الكنيسة الكاثوليكية لم يرفض تدريس تعاليم كوبرنيكوس الفلكية بصورة صريحة، بل إن الجميع ذهبوا إلى أنه من المسموح به استخدام هذه التعاليم كمجرد افتراضات. وهكذا أصبحت هذه التعاليم من وجهة نظر الكنيسة الكاثوليكية محل جذب وشد وأخذ وعطاء يختلف باختلاف المفسر لها.

لقد اتبع الكاردينال بيلارمين المنهج العقلى الذى وضعه القديس توماس الأكوينى فى تفسير «المعرفة الافتراضية» بأنها تلك المعرفة التى لا تستند إلى برهان منطقى كامل، وهو على أية حال تفسير يسمح بجواز صحة الافتراض، وإمكانية إقامة الدليل عليه. ولكن مرسوم ١٦٢٠ جنح إلى اعتبار الافتراضات الفلكية أشياء مجردة منبتّة الصلة تمامًا بالواقع، يستعين بها الإنسان فى إجراء العمليات الحسابية على نحو ما أسلفنا.

والجدير بالذكر، أن الكاردينال روبرت بيلارمين (١٥٤٢ - ١٦٢١) الذى لعب دورًا بارزًا فى قضية جاليليو كان رجل دين يتسم بالاستنارة والأفق العريض والإحاطة الواسعة بالدراسات الإنسانية والاهتمام بالثقافة الفنية فى عصره، إلى جانب الرغبة فى مواكبة أحدث التطورات العلمية، الأمر الذى أضفى عليه طابع التسامح وجعل منه نموذجًا للكاثوليكى المتفتح فى الفترة المناهضة لعصر الإصلاح الدينى. وقد شب بيلارمين وترعرع فى أحضان طائفة الجيزويت واعتلى أرفع المناصب حتى صار رئيسًا للكلية الرومانية، أعلى المؤسسات التعليمية الجيزويتية فى إيطاليا. وظل بيلارمين حتى وفاته مشغول البال بمشكلتين لاهوتيتين بارزتين، هما: «العناية الإلهية»، و«حرية الاختيار». وعلى النقيض من ذلك، نلاحظ التشدد والتصلب فى أفكار توماس دى ليموس الراهب الدومينيكانى الذى وقع على وثيقة لوم جاليليو الصادرة عام ١٦١٦.

موقف محاكم التفتيش من جاليليو ونظرية كوبرنيكوس

لم تتخذ الكنيسة الكاثوليكية - كما سبق أن قلنا - موقفًا موحدًا من تفسير نظرية كوبرنيكوس، فقد كان لها موقفان متباينان منها: موقف طائفة الجيزويت المتمثل فى بيلارمين، وموقف موظفى محاكم التفتيش المتمثل فى طائفة الدومينيكان. ورغم أن الرهبان الجيزويت تآمروا على جاليليو فى أخريات حياته، فإنه يجدر بنا أن ننوه بأن عددًا كبيرًا من المعادين له كانوا ينتمون إلى طائفة الدومينيكان.

محاضر محاكم التفتيش المؤرخة فى ٢٥ فبراير ١٦١٦

ورد ذكر قرار البابا بولس الخامس بشأن جاليليو فى الوثيقة المؤرخة فى ٢٥ فبراير ١٦١٦، وهى الوثيقة التى قام فيها الكاردينال ميلينى بتبليغ كل من المُقيِّم وقوميسارية المكتب المقدس بالكيفية التى ارتآها البابا مناسبة لمعاملة جاليليو فى ضوء اللوم الموجه إليه. تقول الوثيقة:

«قام سيدنا الكاردينال ميلينى بإبلاغ الأب الموقر المقيم والآباء الموقرين فى قوميسارية المكتب المقدس بعد ذكر الحكم الذى أصدره الآباء اللاهوتيون ضد الآراء التى طرحها عالم الرياضيات جاليليو (ومفادها أن الشمس تقف ثابتة فى مركز الكون، وأن الأرض تتحرك حركة يومية حولها) بأن قداسة البابا أمر نيافة الكاردينال المبجل بيلارمين باستدعاء جاليليو وتحذيره حتى يتخلى عن هذه الآراء، فإذا رفض الامتثال يتعين على الأب القوميسار ـ بحضور الكاتب والشهود ـ إصدار أمره إليه بالامتناع امتناعًا كاملاً عن تدريس مذهبه أو الدفاع عنه، وكذلك الامتناع التام عن مناقشته فإذا لم يرعو يتعين سجنه».

ويدل هذا الخطاب على طريقة عمل محاكم التفتيش آنذاك وفقًا لنصوص القانون، فهى تبدأ بالتحذير ثم النهى ثم السجن. وقد كلف الكرسى البابوى بيلارمين بتوجيه التحذير الرسمى لجاليليو.

موقف الكنيسة غير الموحد إزاء جاليليو والأمر المؤرخ فى ٢٦ فبراير ١٦١٦ .

بعد انقضاء يوم واحد على التبليغ الآنف الذكر بقرار الكرسى البابوى الخاص بجاليليو، سجلت وثيقة مؤرخة فى ٢٦ فبراير ١٦١٦ الإجراءات والتدابير التى اتخذت ضد هذا العالم. وفيما يلى نصها:

«فى القصر الذى يقيم فيه عادةً جناب الكاردينال بيلارمين صاحب المقام الرفيع وداخل حجرات هذا القصر (وفى حضرة الأب الموقر مايكل سيجيزى من لودى والقوميسار العام للمكتب المقدس) وبعد استدعاء المذكور أعلاه جاليليو للمثول أمامه (أى بيلارمين)، قام جنابه المبجل بتحذيره بأن رأيه السابق الذكر رأى خاطئ، ومن ثم ينبغى عليه نبذه. بعدئذ مباشرة أمام عينى وأمام الشهود وبحضور نيافة الكاردينال صاحب المقام الرفيع نفسه قام الأب قوميسار المكتب المقدس، نيابة عن قداسة

البابا وعن كل أعضاء مجمع المكتب المقدس، بأمر جاليليو الذى كان حاضرًا بنبذ رأيه السالف الذكر المنادى بأن الشمس تقف فى مركز الكون وأن الأرض تدور حولها، وأن يمتنع عن اعتناق هذا الرأى أو تدريسه أو الدفاع عنه بأيه طريقة؛ سواء كان ذلك شفاهةً أو عن طريق الكلمة المكتوبة. فإذا لم يمتثل لهذا الأمر فسوف يشرع المكتب المقدس فى اتخاذ الإجراءات ضده (سجلت هذه الوثيقة فى روما داخل القصر المذكور بحضور الشاهدين الأب بادينو نوريس من نيقوسيا فى مملكة قبرص وأجوستينو مونجاردو الراهب فى دير الوردة الواقع فى أبرشية مونتيبو لسبانو، وكلاهما من القاطنين فى قصر نيافة الكاردينال صاحب المقام الرفيع).

وتدل هذه الوثيقة على انتهاك القرار الذى أصدره البابا بتحذير جاليليو قبل اتخاذ الخطوة الأعنف ضده، وهى إصدار الأمر إليه. فالوثيقة - كما نرى - تجمع بين عقوبتى التحذير (وهى الأخف)، وكذلك الأمر (وهى الأعنف) فى وقت واحد. وهو انتهاك ما كان ليحدث، لولا اتفاق المنفذين على ذلك. وفى حين اكتفى بيلارمين بتحذير جاليليو شفاهة بالامتناع عن الأخذ برأى كوبرنيكوس واعتباره حقيقة علمية (ولكنه ترك أمامه مفتوحًا اختيار الدفاع عن هذا الرأى وتعليمه ومناقشته كرأى جائز أو محتمل)، نرى أن المسئول الدومينيكانى عن محكمة التفتيش ذهب إلى ما هو أقسى من ذلك، وهو إصدار أمر مباشر لجاليليو دون إتاحة فرصة الرفض أمامه. علمًا بأن مسئول محكمة التفتيش الدومينيكانى سجل هذا الأمر كتابةً. غير أن المنفذين الدومينيكان لهذا الأمر لم يصروا على إخراسه إخراسًا كاملاً. صحيح أنهم حرموا عليه بوضوح الدفاع عن المذهب الكوبرنيكى أو تعليمه؛ ولكنهم لم يحرموا عليه صراحةً مناقشته. فمصطلح المناقشة الوارد فى قرار البابا ليس له وجود فى توصيف «الأمر» الوارد فى وثيقة ٢٦ فبراير ١٦١٦. ولهذا يرى بعض الباحثين أن المنفذين الدومينيكان لقرار البابا لم يذهبوا فى تلك المرحلة إلى حد الأمر بإخراسه، ومعنى هذا أنه كان بالإمكان حينذاك معاملة المذهب الكوبرنيكى كافتراض مجرد يصلح فقط لإجراء العمليات الحسابية ولا يمت للواقع الفيزيقى أو الحقيقة الفيزيقية بصلة.

محاضر التفتيش المؤرخة فى ٣ مارس ١٦١٦

تشتمل هذه المحاضر على التقرير الذى رفعه الكاردينال بيلارمين إلى المجمع المقدس بشأن «تحذير» جاليليو. ويلاحظ بعض الدارسين أن هذا التقرير امتنع عن

الإشارة إلى «الأمر» الذى أصدرته القوميسارية ضد جاليليو. بل إن بيلارمين تجاهل مسألة «دفاع» جاليليو عن مذهبه أو «تدريسه». وهناك وثيقة يرجع تاريخها إلى ٢٦ مايو ١٦١٦ كتبها بيلارمين إلى جاليليو يدحض فيها الشائعات التى سرت عن إرغام الكنيسة جاليليو على نبذ آرائه. يقول بيلارمين فى هذه الرسالة:

«نحن روبرت كاردينال بيلارمين نما إلى سمعنا أن جاليليو جاليلى يتعرض للتشهير وللزعم بأنه نبذ أفكاره على أيدينا، وأنه تاب توبة نصوحًا عليها. وإحقاقًا للحق نقول، إن جاليليو المذكور أعلاه لم ينبذ فى حضرتنا أو على أيدى أناس آخرين هنا فى روما أو فى أى مكان نعرفه أيًا من أفكاره أو مذاهبه، كما أنه لم يتب عنها توبة نصوحًا أو غير نصوح. على العكس من ذلك فقط، تم إبلاغه بتصريح قداسة البابا الذى تولى المجمع المقدس نشره فى فهرس الكتابات المحظورة، وفحواه أن المذهب المنسوب إلى كوبرنيكوس (بأن الأرض تدور حول الشمس وأن الشمس ثابتة فى مركز الكون لا تتحرك من الشرق إلى الغرب) يتناقض مع الكتاب المقدس، ومن ثم لا يمكن الدفاع عنه أو اتباعه».

وقد اتبع بيلارمين سياسة التمييز بين حظر الأخذ بالمذهب الكوبرنيكى والدفاع عنه من ناحية، وبين تعليمه أو مناقشته من ناحية أخرى دونما فرض الحظر الصريح على تعليمه أو مناقشته، حيث إن بيلارمين ترك لجاليليو حرية الاختيار أو التصرف بشأنهما. ورغم ما يكتنف هذا التمييز من غموض فإن نفرًا من أبرز الباحثين يردون الخلاف فى التفسير إلى خلاف بين الموقف الجيزويتى الذى يمثله بيلارمين، وهو موقف ينشغل انشغالاً كبيرًا بقضية التعليم بخلاف موقف الدومينيكان المتزمت الذى يهمه فى المقام الأول والأخير تنقية العقيدة المسيحية من أية شوائب، حتى لو اقتضى الأمر استبعاد الأفكار الجديدة.

القديس روبرت بيلارمين يهدئ من روع جاليليو

قلنا إنه عندما شعر جاليليو بورطة كتب إلى مريده «دينى» كى يشفع له لدى الكنيسة فى روما، ولكن دينى تأخر بعض الوقت فى الاتصال بالكاردينال بيلارمين الذى طمأنه قائلاً، إنه لا يظن أن مؤلفات جاليليو سوف تتعرض للحظر. كل ما هناك أنه قد يطلب منه إضافة بعض العبارات الملطفة، مثل القول بأن نظرية كوبرنيكوس تهدف إلى شرح بعض الأمور الظاهرية أو أى شىء من هذا القبيل. فبمثل هذا التحفظ

يمكن للسيد جاليليو مناقشة الموضوع دون أية عوائق، الأمر الذى يوحى بأن تعليق مؤلفاته سوف يكون مؤقتًا.

ومن المفارقة أن نعرف أن المبحث الذى ألفه بيلارمين نفسه بعنوان: «مجادلات» تعرض للحظر المؤقت لحين إدخال بعض التصحيحات عليه؛ لأن البابا السريع الغضب سكستوس الخامس (١٥٨٥ ـ ١٥٩٠) رأى أن بيلارمين لم يدافع عن سلطة البابا بما فيه الكفاية.. ولولا وفاة هذا البابا لظل كتاب بيلارمين محظورًا لفترة طويلة. وكذلك أرسل الكاردينال باربرينى والكاردينال ديل مونت عن طريق دينى وكيامبولى، رسائل إلى جاليليو لبث الطمأنينة فى نفسه، فمثلاً قال ديل مونت فى رسالة مؤرخة فى ٢١ مارس ١٩٦٥ (أى قبل تقريع لجنة فقهاء اللاهوت لجاليليو عام ١٦١٦)، إنه لا يسمع فى روما عن أى صدى للضجة المثارة حول أفكاره.

الفصل الخامس

حياة جاليليو فى الفترة من
عام ١٦١٧ حتى المحاكمة عام ١٩٣٣

عاد جاليليو من فلورنسا إلى روما عام ١٩٣٣ ليشعر بالإحباط والكآبة ونوبات الحرص المرضى على صحته التى أخذت فى الاعتلال. واسودت الدنيا فى وجهه، فنصحه صديقه القديم ساجريدو بالامتناع عن معارضة الأفكار الفلكية السائدة، وعدم إثارة الجهلة عليه حتى لا يفتكوا به. ولكن حب جاليليو للمعرفة والحقيقة جعله عام ١٦١٨ ينشر مبحثًا عن حركة المد والجزر أرسل فى ٢٣ مايو من هذا العام نسخة منه إلى ليوبولد أرشيدوق النمسا. وعلى الرغم من أن دراسته اعتمدت على اقتناعه بصحة نظرية كوبرنيكوس، إلا أن المرارة جعلته يقول للأرشيدوق ألا يأخذ مبحثه عن المد والجزر مأخذ الجد، بل مجرد دعابة للتسلية وتزجية وقت الفراغ.

وبناء على نصيحة نفر من أصدقائه، التزم جاليليو الصمت حتى تهدأ العاصفة. وشكا جاليليو من أن الجهل والحقد، وغياب التقوى والورع تقف فى طريقه، الأمر الذى أصابه بالتقزز والاشمئزاز، كما أصابه بالحزن والكآبة. ولكن لم تمض بضعة أسابيع حتى استعاد نشاطه وارتفعت روحه المعنوية، ولكن المرض كان قد عرف طريقه إليه، حيث اشتدت وطأة الآلام الروماتيزمية عليه. وفى تلك الفترة من حياته وضع أسس علم المكيانيكا. ورغم مرضه فقد وجد شيئًا من العزاء فى حياته الريفية فى الفيلا التى أقام فيها والمطلة على مدينة فلورنسا ونهر الأرنو، كما وجد عزاء أكبر فى عنايته بأشجار الزيتون التى اعتبر نفسه بفخر واعتزاز خبيرًا فى زراعتها. أضف إلى ذلك

استمتاعه بصحبة أصدقائه ومعارفه من الأدباء والفنانين. ويصف فينفياتى جاليليو فى أخريات حياته فيقول، إن حديثه امتلأ بالنكتة الطلية والدعابة الذكية، وتميز بالحكمة البليغة والعبارات الحصيفة الثاقبة. ولم يقتصر حديثه على العلوم وحسب، بل امتد إلى الموسيقى والأدب والشعر. وكان يتمتع بذاكرة مذهلة فى قوتها ويحفظ معظم أشعار فيرجيل وأوفيد وهوراس وكتابات سينيكا وكل أشعار بترارك، إلى جانب أشعار بيرى واريوستو الأثير إلى قلبه.

وكان لجاليليو ابنة راهبة فى السابعة عشرة من عمرها معتلة الصحة وراضية بقضاء الله اسمها الأخت ماريا سيليست، التحقت بالدير فى بلدة أريكترى. أحبت هذه الفتاة والدها من أعماق قلبها ووجدت فى خطاباته وزياراته لها أسعد الذكريات. كتبت عن والدها تقول إنها لا تستطيع أن تذوق طعم الراحة إلا إذا جاءتها أخباره، حيث إنها تحبه إلى المنتهى. وعبرت عن قلقها من عودة آلام البرد إليه، كما عبرت عن أمنيتها أن تتمكن من أن ترسل إليه الفوط التى صنعتها بيديها من أجله على وجه السرعة. وشكت الفتاة من البرد القارص الذى يسود غرفة نومها فى الدير، وطلبت من أبيها إرسال بعض المفروشات كى تتدثر بها. كما أنها طلبت منه أن يرسل إليها الكتاب الأخير الذى قام بنشره مؤخرًا، لحرصها الشديد على قراءته. وأشارت الفتاة إلى اضطرارها إلى إرسال الكعكات التى صنعتها له خوفًا من أن تجف؛ لأنه تأخر عليها بسبب ظروفه التى تحول دون زيارتها.

وأراد جاليليو التسرية عن ابنته فانتقل للعيش فى فيلا صغيرة قريبة منها فى موضع يقال له أريكترى. وهى المكان الذى عاش فيه بقية عمره. ومن المؤسف أن خطابات جاليليو إلى ابنته فقدت، حيث إنه كان يروى لها كل ما يحدث له. غير أن خطابات الفتاة إلى والدها لم تضع. وتدلنا هذه الخطابات على أن الابنة أشرفت على ترتيب منزل والدها الجديد والقريب من الدير، كما أشرفت على المزرعة الصغيرة التى يمتلكها. وأيضًا أعدت ما طاب ولذ من الطعام وأرسلته إليه عن طريق مرسال خصوصى. فضلاً عن أنها صنعت له بعض الحلوى والمشروبات وحاكت ملابسه ومفروشاته. وأحيانًا كان جاليليو يزور ابنته فى حجرتها بالدير ويطلى نافذتها بمادة زجاجية؛ حتى تستطيع القراءة على ضوئها المنعكس فى شهور الشتاء المعتمة. وأحيانًا كانت الفتاة تشكو إلى أبيها من بعض المثالب التى تشوب حياة الدير، وتطلب منه

استخدام نفوذه لوضع الأمور فى نصابها. وسوف نفصل حدب هذه الابنة عليه وحنانها الفائق به فى فصل مستقل.

وبسبب ذيوع صيته كثر عدد تلاميذه ومريدوه داخل إيطاليا وخارجها، فأرسلوا إليه طالبين المشورة والإرشاد. وعلى سبيل المثال، تعلم الراهب كافالييرى منه دراسة موضوع «المتناهيات فى الصغر» infintesmals، مما ساعد هذا الراهب على تأليف كتاب بعنوان: «هندسة غير القابل للتجزئة». وأيضًا ساعد جاليليو مريده كاستيللى فى نشر مبحثه الرائد «حركة الماء»؛ ولكن هذه الاستشارات الهندسية لم تعد عليه بعائد مالى له قيمته. غير أن ضيق ذات يده فى أيامه الأخيرة لم يثبط من همته أو يؤثر بالسلب على روحه المعنوية وانشراحه، فهو يكتب من روما مداعبًا «إننى آكل الخيار بسبب طول ساعات النهار، فحافظة نقودى ليس فيها ما يكفى لأكل الشمام أو احتساء الخمر الباردة. وأنا أقضى الأيام الكلابية (أى العجّاف) كيفما اتفق؛ ولكن الوجهاء يقربوننى منهم».

وبعد أن اضطرته صحته العليلة إلى إرجاء العمل فى وضع جداول الكواكب التى تسير فى فلك المشترى لاستخدامها فى قياس خطوط الطول عاد إليه بهمة ونشاط، الأمر الذى اقتضى منه كثيرًا من التراسل مع المسئولين عن الأساطيل الإسبانية الذين أدركوا أهمية هذا المبحث فى الملاحة.

وبسبب توبيخ لجنة اللاهوتيين له، تعلم جاليليو استخدام لغة ملفوفة غامضة تنطوى على السخرية دون أن يتزحزح عن أفكاره قيد أُنملَة. ومعنى هذا أن جاليليو وجد نفسه مضطرًا إلى لبس قناع لم يكن فى الأصل يحب أن يلبسه. وهكذا امتزج احترامه الكامن لشرعية المؤسسة الدينية باحتقاره لأحكامها وأفعالها. وأدرك جاليليو مدى الضرر الذى ألحقه مرسوم ١٦١٦ بالاكتشافات الفلكية التى بدأت تزدهر فى إيطاليا، كما ألحقت الأذى بنظرية مركزية الشمس بعد أن وجدت لها أنصارًا بين أعداد متزايدة من الناس. بل إن التقريع الذى وجهه اللاهوتيون إلى جاليليو أوقف مسيرة نهضة علمية عظيمة لاحت فى الأفق.

وبعد توبيخ اللاهوتيين لجاليليو عام ١٦١٦، أخذ يتحسس طريقه ويتصرف بحذر. ورغم ذلك فعندما طلب إليه ليوبولد أرشيدوق النمسا فى عام ١٩١٨ موافاته بعمل من تأليفه، تجاسر وأرسل إليه المذكرة التى كان قد أعدها عام ١٦١٦ ليبعث بها إلى الكاردينال الشاب أورسينى. وأرفق بهذه المذكرة خطابًا يقطر سخرية فيما يلى نصه:

«مرفق بهذا مبحث عن أسباب حركة المد والجزر كتبته، فى الوقت الذى كان فقهاء اللاهوت يفكرون فى فرض الحظر على كتاب كوبرنيكوس ومذهبه الوارد فيه. وهو مذهب آمنت بصحته حتى شاء هؤلاء السادة حظره، معلنين أنه رأى زائف ويتعارض مع الكتاب المقدس. وعرفت أنه يخلق بنا طاعة أولى الأمر وتصديقهم، حيث إن بصيرتهم التى تفوق البصيرة التى يمكن لعقلى المتواضع الوصول إليها، ترشدهم وتهديهم سواء السبيل. ولهذا، فإنى أعتبر هذا المبحث الذى أرسله إليك مجرد خيال شعرى شاطح أو مجرد حُلم وإنى أرغب من سموكم اعتباره كذلك، حيث إنه ينبنى على الحركة المزدوجة للأرض. ولكن حتى الشعراء أحيانًا يعلقون أهمية على بعض خيالاتهم. وإنى كذلك أعلق شيئًا من الأهمية على الخيالات التى تتراءى لى. وقد أعطيت نسخًا لعدد ضئيل من الشخصيات المرموقة حتى إذا حاول أحد أن ينسب لنفسه الخيالات التى تراءت لى (مثلما حدث فى حالة الكثير من اكتشافاته)، فإن هذه الشخصيات المرموقة التى ترتفع فوق مستوى الشبهات سوف تشهد لى بأنى أول من حلم بها. ومبحثى الراهن مجرد أداء شارد سطّرته على عجل، دون أن أتوقع أن مؤلفات كوبرنيكوس سوف تُدان على أنها خاطئة بعد مرور ثمانين عامًا على نشرها. ولكن صوتًا من السماء هبط علىَّ ليوقظنى ويضع حدًا لكل خيالاتى المرتبكة والملفوفة فى الضباب. ومن ثم، فإنى أرجو سعادتكم أن تتكرموا بقبولها رغم افتقارها إلى النظام والترتيب. وإذا سمحت لى رحمة الله أن أتمكن من بذل شىء من الجهد، فسوف يتوقع سموكم منى شيئًا أكثر تماسكًا وأهمية مما أبعث به إليكم».

شاءت الأقدار أن تقوم الدنيا ولا تقعد عام ١٦١٨، عندما ظهرت المذنّبات التى رأى فيها البعض غضبًا من الله وتنبأ البعض بقرب نهاية العالم، الأمر الذى حفز العالم الفرنسى بيير بايل Bayle أن يؤلف مبحثًا بعنوان: «خواطر عن المذنب» كتبه بسبب مذنب ١٦١٨، ولكنه نُشر فيما بعد بمناسبة ظهور مذنب ١٦٨٠. فضلاً عن أن العالم الجيزويتى الأب هوراشيو جراسى ألقى محاضرة أقل أهمية من مبحث بايل فى المكتبة الرومانية. وقرأ جاليليو نص محاضرة جراسى فضاق ذرعًا بها وبتفاهتها، وبعدم استخدام الأب جراسى للتليسكوب عند دراسة ظاهرة المذنب. استاء جاليليو من جراسى الذى حاول بمحاضرته الغثة أن يدق مسمارًا فى نعش مذهب كوبرنيكوس الفلكى؛ ولكن جاليليو ـ رغم غضبه ـ لم يكن بمقدوره بسبب ظروفه الرد على جراسى. ورأى قنصل الأكاديمية الفلورنسية ماريو جويدوكى أحد أصدقاء جاليليو اليأس

والإحباط الذى أصاب صديقه، فاقترح عليه أن يقوم بنفسه بالرد على جراسى بدلاً منه.

درج الغرب منذ أرسطو على الاعتقاد بأن المذنبات تتكون من انبعاثات الأبخرة الأرضية التى ترتفع فوق مجالات النار، الأمر الذى يجعل سيرها غير المنتظم لا يؤثر فى انتظام الأفلاك السماوية. غير أن العالم الرياضى تيكو Tycho كان قد أوضح أن المذنبات تحتل مكانا أعلى من القمر وأن لها مدارات من نوع غريب، وذلك عن طريق الحسابات التى أجراها بشأن مذنب عام ١٥٧٧. ومن ناحيته ذهب الفلكى المعروف كبلر إلى أن بإمكانه توضيح استقامة مسارات المذنبات؛ ولكن الأب جراسى أصر على أن مدارات المذنبات مسارات دائرية. ورأى جاليليو فى المذنبات رأيًا يتعارض مع جميع الآراء السابقة، فهو يعتبرها آثارًا بصرية ناجمة عن الأبخرة الأرضية. وهو رأى يرى الفلكيون أن الصواب يجانبه. وأيضًا، وافق جاليليو على رأى كل من تيكو وكبلر فى النجوم المتجددة التألق؛ لأن رأيهما عزز اقتناعه بأن الأجرام السماوية ليست ثابتة فى مكانها.

وبسبب ظهور مذنب ١٦١٧ نشر جاليليو فى يونيو عام ١٦١٩ تحت اسم مستعار مبحثًا بعنوان: «مبحث عن المذنبات». واستقبل المتخصصون فى روما هذا المبحث بالمديح والاستحسان، وابتهج له أصدقاؤه لأنهم رأوا فيه حرصًا من جانب جاليليو على العودة إلى أبحاثه. وبلغ الحماس بصديقه الكاردينال مافيو باربرينى (الذى اختير بابا فيما بعد) لهذا المبحث حدًا جعله ينظم قصيدة مديح فيه بعنوان: «التقريظ الخطر». ولكن كيامبولى كتب عن استياء طائفة الجيزويت من هذا المبحث وحشدهم قواهم للرد عليه. وقد قام جراسى بالفعل بالرد عليه فى مبحث مكتوب باللغة اللاتينية بعنوان: «الميزان». وعلى الرغم من أن كثيرًا من أصدقاء جاليليو رحبوا بعودته إلى حلبة البحث العلمى فإنه تلقى خطابًا أرسله إليه صديقه ستيلوتى من روما يحذره من مغبة إثارة حفيظة الجيزويت عليه؛ لأنهم كثرة وسوف يتكالبون عليه ولن يهدأ لهم بال حتى يلحقوا الهزيمة به. ولسوء حظ جاليليو، توفى صديقه وراعيه كوزيمو الثانى فى عام ١٦٢٠ والذى وفر الحماية له وسانده مساندة قوية. وبعد وفاة حاميه كوزيمو وجد جاليليو مساندة أقل من ولية العهد التقية الورعة الدوقة العظيمة. والجدير بالذكر، أن بيلارمين توفى فى عام ١٦٢١، أى بعد وفاة كوزيمو بعام. وزاد من تعرض جاليليو

للشكوك والريب كما زاد من تكميم فمه اشتداد وطأة المرض عليه، وعودة توماسو كاسينى إلى شن الحرب عليه ؛الأمر الذى جعل جاليليو يتوخى حذرًا أكبر فى مسلكه وتصرفاته.

وفى أغسطس من عام ١٦٢٣، حدث تطور درامى مفاجئ يتلخص فى انتخاب مافيو باربرينى بابا الكنيسة الرمانية، وأصبح يُلقب بالبابا إيربان الثامن، الذى كان فى يوم ما محبًا للفنون وعضوًا فى الجمعية الأكاديمية الفلسفية المتحررة المعروفة باسم أكاديمية دى لينسى. ولم ينس الناس تعاطفه السابق مع جاليليو، وأنه سبق له منذ سنوات قلائل أن كتب قصيدة مدح باللغة اللاتينية لجاليليو بعنوان: «الإطراء الخطر» يحييه فيها على نشر مبحثه عن المذنبات، الأمر الذى يدل على وقوفه بجانب التيارات العلمية الحديثة التى يمثل جاليليو واحدًا من أهم أركانها. وبطبيعة الحال، شجع الموقف الفكرى المتحرر الذى تبناه البابا إيربان الثامن كيامبولى على أن يكتب إلى صديقه جاليليو قائلاً: «نحن هناك نشعر برغبة عظيمة فى رؤية المزيد من إنتاج قريحتك. ولو أنك قررت نشر هذه الأفكار التى تدور بخلدك على الناس، فإنى على يقين بأن قداسة البابا سوف يُحسن استقبالها، فهو لا يكف عن الإعجاب بك فى جميع الأشياء، كما أنه يحتفظ بحبه لك سليمًا وبلا شوائب. وينبغى عليك ألا تحرم العالم من إنتاجك طالما أن لديك وقتًا للقيام به». والجدير بالذكر، أن البابا إيربان الثامن قال للأمير سيسى عندما حضر لتهنئته بالبابوية: «هل سيحضر جاليليو؟ ومتى يحضر؟»، الأمر الذى يدل على رغبته فى رؤية جاليليو الذى وافق على الذهاب إلى روما وهو يأمل أن تُكلل جهوده العلمية بالنجاح. غير أنه تأخر فى السفر إلى الكرسى البابوى حتى ينتهى من تأليف كتابه النثرى الرائع «المحليات»، الذى تهكم فيه من العالم لوثاريو سارسى Lothario Sarsi، ساخرًا بشدة من أسلوبه العقيم فى معالجة المشكلات العلمية. وعاب جاليليو على سارسى اعتماده فى محاجَّاته العلمية على سلطة الأقدمين، كما هاجم آراءه فى علمى الفلك والفيزياء.

موقف البابا إيربان من جاليليو

فى نهاية شهر أبريل من عام ١٦٢٤، بعد قيامه برحلة بحرية مكث عقبها أسبوعين فى كنف سيسى فى قصره الكائن فى أكواسبارتا، وصل جاليليو إلى روما حاملاً معه أعجوبته الجديدة المتمثلة فى اختراع ميكروسكوب قادر على تمكين

الإنسان من رؤية الأجسام الدقيقة والمتحركة فى نقطة ماء واحدة. وهناك استقبله البابا بكل الود. وتكررت لقاءات جاليليو بالبابا وتناولا الأحاديث المطوّلة فيما بينهما؛ ولكن جاليليو اكتشف بعد انقضاء ستة أسابيع على المعاملة البابوية الطيبة أنه لم يعد يتعامل مع صديقه القديم الراهب مافيو باربرينى؛ ولكنه يتعامل مع شخص جديد اسمه البابا إيربان الثامن الذى كان يشعر بجسامة المسئولية العامة الملقاة على عاتقه، فهو يريد أن يُحكم قبضته على جميع أرجاء القارة الأوروبية. فلا غرو إذا رأيناه يهتم بإنشاء مصنع سلاح فى تيفولى، فضلاً عن أنه حول مكتبة الفاتيكان إلى مكان لحفظ الذخيرة.

انحدر إيربان الثامن من عائلة فلورنسية جمعت ثروتها من التجارة واندمجت بفضل ثرائها - وليس بفضل حسبها ونسبها - فى المجتمعات الأرستقراطية، وكانت له حاسة أدبية ملحوظة. غير أن حاسته الأدبية كانت من النوع التقليدى. وأيضًا كان متقد الذكاء وواقعيًا فى موقفه من الحياة.

وما إن اعتلى سُدَّة البابوية حتى ظهر خيلاؤه وزهوه الكامنان فيه، وأصبح سريع الغضب كثير الشك فى الآخرين، ولا يجد غضاضة فى تجاهل الأعراف والسنن القديمة التى أرساها أسلافه. فهو يقول: «إن الحكم الذى يُصدره بابا على قيد الحياة أفضل من كل المراسيم التى استنها مائة من البابوات الموتى». وليس أدل على خيلائه من أنه عندما عبر له الأعيان والأشراف عن رغبتهم فى إقامة تمثال تكريمًا له - وهو الأمر الذى كان عادة لا يحدث إلا بعد وفاة البابا - أجاب بقوله: «دعوهم يفعلون هذا، فأنا لست واحدًا من البابوات العاديين».

أحب البابا إيربان الثامن المشروعات الهندسية بقدر حبه لقرض الشعر اللاتينى. ولكن فهمه الحقيقى للعلم المتخصص كان محدودًا. فضلاً عن أنه لم يفهم حقيقة التيارات وصراعات القوى التى تعتمل فى قلب القارة الأوروبية آنذاك. وعلى الرغم من مشاغله العامة الكثيرة، فإنه وجد الوقت لاستقبال جاليليو والتحدث معه لفترات طويلة. ولا أحد يعرف على وجه التحديد ماذا دار فى تلك المحادثات. ومن الشذرات المتبقية يستشف الباحثون أن البابا أثنى عاطر الثناء على المبحث الذى وضعه جاليليو بعنوان: «المجرب» Saggiatore ، قائلاً إنه اعتاد قراءته بصوت عال على مائدة الطعام. وهنا بادر جاليليو بالتهوين من شأن الكتاب، فرد عليه البابا صائحًا أنه يتمنى أن يرى

جاليليو يؤلف المزيد من هذا الإنتاج الرائع . انتهز جاليليو هذه الفرصة ليشير بلباقة وكياسة إلى حقد أعدائه وشانئيه عليه وإلى المضايقات الكثيرة التى يعانى منها؛ فطمأنه البابا قائلاً، إنه ليس هناك ما يدعو إلى القلق طالما أنه ظل ـ كشأنه دائمًا ـ الابن البار للكنيسة المقدسة، ونصحه بأن يترك أعداءه ينبحون دون جدوى كالكلاب. وأضاف البابا أن المؤسسات الدينية المدرسية الذكية لا تخشى على نفسها من العلم الجديد، مؤكدًا أن الحملة ضد جاليليو يشنها أناس حاسدون ومغرضون.

وشعر جاليليو بخيبة الأمل فى ردود البابا التى جعلته يرى أن البابا يهوِّن من شأن هجوم شانئيه عليه، فلجأ إلى معارفه وأصدقائه لتصوير المضايقات التى يتعرض لها على حقيقتها. وعندما قام الكاردينال هوهنزوليرن بزيارة البابا ذكر له قُبيل انصرافه الصعوبات التى واجهها فى إقناع أحد النبلاء الألمان بسلامة موقف الكنيسة من جاليليو، حيث إن هذا النبيل شعر بالصدمة من جراء الحظر الذى فرضه مجمع الفهارس على أفكار جاليليو عام ١٦١٦ . وأصغى البابا إلى كلام الكاردينال هوهنزوليرن بتعاطف واهتمام شارحًا أن الكنيسة لم تُدِن ولن تدينَ مذهب كوبرنيكوس، كما أنها لا تعتبره هرطقة ولكنها تعتبره نزقًا وتهورًا. ومن الواضح أن البابا لم يكن دقيقًا فى كلامه، فقد أخطأ عندما قال إن الكنيسة اعتبرت مذهب كوبرنيكوس تهورًا . وحقيقة الأمر أن مجمع الفهارس وصفه بأنه مذهب زائف. ناهيك عن أن هذا المجمع وصف هذا المذهب بأنه مضحك وسخيف من الناحية الفلسفية ومهرطقًا من الناحية الشكلية. ويبدو أن جاليليو كان يطمع فى أن يعترض البابا اعتراضًا واضحًا على الإجراء الذى اتخذه مجمع الفهارس ضد كتاباته.

وعلى أية حال، فهم جاليليو من كلام عدد من الكرادلة أنه يمكن لأى شخص أن يعتقد فى صحة أفكار كوبرنيكوس كيفما يشاء دون خوف من ملاحقة الكنيسة له، طالما أنه لا يثير أيه فضائح أو مشاكل. وشجعه هذا الفهم على العودة إلى فتح نفس الموضوع فى مقابلاته التالية مع البابا، الذى طمأنه أن المرسوم الصادر ضده لا يهدف مطلقًا إلى تكبيل العقل أو منعه من التجديد؛ ولكنه يمنعه من الخلوص إلى استنتاجات فلسفية خاطئة. وقد سبق لنا أن ذكرنا أن الكنيسة استفادت من أبحاث جاليليو الرياضية فى إصلاح التقويم السنوى فى عهد البابا جريجورى، الذى قطع على نفسه عهدًا بألا يصيب جاليليو أذى طالما أنه حى يُرزق. وعندما قال جاليليو للبابا

إيربان الثامن إن هناك شائعات تقول إن الذين أصدروا المرسوم جماعة من المستشارين الذين يفتقرون إلى العلم والمعرفة بادر قداسته بالقول إن هذا غير صحيح بالمرة، وأضاف أنه شخصيًا اشترك فى صياغته. واعترف البابا بوجود أسباب عليا هى التى دعت إلى إصدار هذا المرسوم، حيث إن إصداره كان ضرورة مُلحَّة ولكنها ضرورة مؤسفة للغاية. هنا جادل جاليليو البابا متسائلاً: أليس من مصلحة العقيدة المسيحية مناقشة الأمر بدقة وموضوعية، لعل السلطة الدينية تعيد النظر فى قرارها وتُصدر قرارًا جديدًا. ووافق البابا على فكرة جاليليو، وطلب منه مواصلة أبحاثه ليصل إلى اقتناع بتعذر التأكد مما يجرى فى السماء. ولم يكف جاليليو عن مجادلة البابا قائلاً: «وماذا إذا تمكن أحد من إثبات صحة الدلائل التى تقوم عليها نظرية فيثاغورث؟ وهى نظرية تؤمن بتناسخ الأرواح وحلول الله فى الطبيعة». عندئذ استشاط البابا إيربان الثامن غضبًا وصاح: «إن فى مقدور الله أن يسيِّر الأجرام السماوية وفق مشيئته كما يتجلى فى الكتاب المقدس. فالله قادر على تسيير شئون السماء وفقًا لمشيئته غير المحدودة التى يعجز العقل البشرى المحدود عن استيعابها». عندئذ أدرك جاليليو أن أسلوبه فى التفكير لا يتفق مع أسلوب البابا إيربان الثامن فى التفكير، وكأن ثمة هوة عميقة تفصل بينهما. فالبابا يرى أن دراسة الإنسان للطبيعة غير مجدية ولا تفضى إلى أى شىء إيجابى. عندئذ التزم جاليليو الصمت وشعر أن المضى فى المجادلة لن يجدى فتيلاً، فالبابا يدعو إلى إجراء البحوث العلمية بغرض مسبق هو الاقتناع بأنها لا تؤدى إلى معرفة أى شىء إيجابى أو مفيد. وأيضًا، بدا من الواضح لجاليليو أن هذا البابا غير قادر على استيعاب الدلائل التى ينطوى عليها العلم الحديث. وبدا لجاليليو أن فكر البابا إيربان الثامن فكر لاهوتى فى جوهره، وليس فكرًا علميًا يستخلص النتائج من المقدمات.

والغريب أن جاليليو لم يقرأ البحث الذى أجراه كبلر حول كوكب المريخ رغم أنه كان يحتفظ بهذا المبحث فى مكتبته، ورغم أن كافالييرى كان يقوم بتدريس آراء كبلر فى جامعة بولونيا. وبينما كان جاليليو مشغولاً فى مقابلاته مع البابا انشغل كبلر بنشر مبحثه «مستمدات من مبحثه الساجياتور»، دافع فيه عن الفلكى تيكو براهى Tycho Brahe ضد اتهامه بعدم الدقة فى نتائجه الرياضية وضد احتقار جاليليو له. وذهب كبلر إلى أن النظام الفلكى الذى توصل إليه تيكو يفضى بالضرورة إلى إثبات صحة

نظرية كوبرنيكوس. وبالنظر إلى أن كبلر كان يعيش خارج إيطاليا فى مأمن من محاكم التفتيش، فإنه لم يفهم محاولة جاليليو التنصل من تبعات الإيمان بصحة النظرية الكوبرنيكية. والجدير بالذكر أن هوة الخلاف اتسعت بمرور الوقت بين الصديقين القديمين جاليليو وكبلر.

نصح سيسى جاليليو بالتحلى بالصبر حتى يجد استجابة فعالة من السلطة الكنسية؛ ولكن جاليليو اشتكى بأن الحياة قصيرة وأنه لا يستطيع الانتظار إلى الأبد حتى يجد مسئولاً يعطيه أذنًا صاغية، فهو لم يعد شابًا ينعم بالقوة والعافية. وناقش جاليليو قلقه مع الأب نيكولو ريكاردى الذى عينه البابا مشرفًا على المقر البابوى. وأيضًا شكا جاليليو إلى صديقه القديم الرقيب بادر موسترو الذى سطَّر تقييمًا متحمسًا لمبحث جاليليو «المجرب»، الأمر الذى شد من أزر جاليليو. وأضاف موسترو قائلاً، إن الملائكة بكل بساطة هى التى تحرك الأجرام السماوية؛ ولكن هذه الحقيقة لا يجب أن تمنع البشر من الوصول إلى اكتشافاتهم المدهشة بهذا الشأن. وطمأن موسترو جاليليو بأن قال له إنه فهم من كلام البابا أنه يريد من جاليليو الاستمرار فى أبحاثه المدهشة ولا يحرم العالم منها.

كان جاليليو آنذاك فى الستين من عمره رجلاً مجربًا عرك الحياة واختبرها، يحدوه الأمل أن تجد أفكاره قبولاً لدى الكرسى البابوى. فأعلن بملء فمه أن حقيقة المذهب الكوبرنيكى ساطعة، وقرر الاضطلاع بمبحثه «حوار حول أكبر نظامين فى العالم». وحاول جاليليو أن يسبر غور السلطة الدينية حتى يتجنب عدوانها، وأن يختبر نواياها نحوه شيئًا فشيئًا، فبدأ بالإعلان عن صحة نظرية كوبرنيكوس المؤكدة؛ ولكنه أرفقه بإعلان آخر عن ولائه الكامل للكنيسة. وسطر خطابًا إلى معارضه فرانسيسكو أنجولى يفند فيه آراءه برقة حاشية ودون أدنى تجريح، وصرح بصحة المذهب الكوبرنيكى دون مواربة. ورغم امتناع جاليليو عن نشر هذا الخطاب فقد ذاع ذيوعًا عظميًا لدرجة أن كيامبولى حصل عليه وقرأ نصه للكرسى البابوى الذى لم يثر أى اعتراض عليه. وعندما اطمأن جاليليو إلى أن البابا وافق على ما جاء فى خطابه إلى معارضه فرانسيسكو أنجولى ازداد جرأة وجسارة، وقرر أنه يعتزم مناقشة مركزية الشمس فى الكون، ليس كمجرد افتراض رياضى بل كنتيجة فيزيقية يتعين علينا قبولها إذا تخلصنا من الاستمساك بالخزعبلات والغيبيات. وعبر عن أمله فى الانتهاء من

كتابة «حوار حول أنظمة العالم الكبرى» فى غضون عامين؛ وخاصة لأنه كان قد أعد بعض أجزائه ولا يحتاج إلا لترتيبها وإعادة صياغتها. ولكن صحته العليلة لم تسعفه؛ فضلاً عن أن انشغاله بإسداء المشورة الهندسية للراغبين فيها كان أحد أسباب تعطيله. ولهذا حثه سيسى وكيامبولى على الإسراع للانتهاء من مبحثه حتى يتمتع به العالم. والعجيب أن طاقة جاليليو الخلاقة توهجت وهو فى الستين من عمره وظلت متوهجة حتى وفاته.

وفى ٢٩ أكتوبر ١٦٢٩، كتب إلى صديقه إليا ديوداتى الإيطالى التوسكانى المهاجر إلى باريس والذى ساهم إسهامًا كبيرًا فى ترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة الفرنسية، يخبره بأنه عاد إلى إجراء البحث عن ظاهرة «المد والجزر فى البحار» الذى كان قد توقف لمدة ثلاثة أعوام، وأنه يتوقع الانتهاء منه فى وقت قصير ليدلل به على صحة نظرية كوبرنيكوس. وفى ٢٤ ديسمبر عام ١٦٢٩، أعلن لأصدقائه فى روما عن انتهائه من تأليف كتابه «حوار حول أنظمة العالم الكبرى».

كتاب «حوار حول أنظمة العالم الكبرى»

يُعتبر هذا المبحث أخطر الأبحاث التى ألفها جاليليو على الإطلاق، وهو أصدق تعبير عن مكونات عقله. والكتاب يفتقر إلى الوحدة والتناسق ويحتوى على موضوعات متفرقة، فهو يجمع بين الفيزياء والفلك وتجارب الحياة والأدب على نحو يمثل عصر النهضة الأوروبية تمثيلاً حقيقيًا. والكتاب ليس مكتوبًا بلغة علمية مستقيمة أو مباشرة، فهو يمزج بين خيالات الشعراء والعواطف المتأججة إلى جانب محتواه العلمى. ويرجع الفضل إلى جاليليو فى هضم نظرية كوبرنيكوس الفلكية المتخصصة وصياغتها فى قالب مستساغ. وهو يقدم مادته على شكل حوار كما لو كان كاتبًا مسرحيًا يخلق لنا شخصيات تتصادم ثم تتصالح، مثل شخصيتى سالفياتى وسيمبلسيو. ولكن شخصية فيليبو سالفياتى هى الأثيرة إلى قلبه والمعبرة عن أفكاره ومكونات نفسه. وهو شخصية مستقاة من الواقع، فقد وُلد عام ١٥٨٢ من عائلة فلورنسية جمعت ثروتها من التجارة. ويبدو أنه كان زميل جاليليو فى طلب العلم فى مدينة بادوا وأنه عاش معه فى البندقية. وبمجرد استقرار جاليليو فى فلورنسا عام ١٦١١، قرر زيارة فيليبو سالفياتى فى قصره الفخيم المطل على وادى نهر الأرنو. وتآلف قلبا هذين الصديقين بسبب اشتراكهما فى حب الشعر، وخاصة الشعر الكوميدى. وكان قصر فيليبو سالفياتى

يحتوى على مرصد استخدمه جاليليو أثناء زيارته لصديقه حيث راقب الصديقان مسيرة كوكب المشترى، كما راقبا فى عام ١٦١٢ بقع الشمس التى يصفها جاليليو فى مبحثه «حوار حول أنظمة العالم الكبرى». وفى العام نفسه أيضًا حضر ساجريدو إلى القصر لزيارة سالفياتى ثم جاء كاستيللى فى وقت لاحق إليه، حيث تناقش فى علم الهيدروليكا مع جاليليو. وفى تلك السنة (١٦١٢)، رشح جاليليو صديقه سالفياتى لقبوله عضوًا فى جمعية دى لينسى الفلسفية المتحررة. ثم رشح سالفياتى بدوره كلاً من ريدولفى وكاستيللى للانضمام إلى هذه الجمعية. وفى عام ١٦١٣، تولى سالفياتى تعريف جاليليو بمريد جديد من جنوة مهتم بدراسة الهيدروستاتيكا اسمه ج. ب. باليانى، الذى أصبح من أبرز الذين تبادلوا الرسائل مع جاليليو. تميز سالفياتى باهتماماته العلمية واحترامه الشديد للعقل، على الرغم من حبه للشعر ومات فى شرخ الشباب وهو فى نحو الثانية والثلاثين من عمره. وفى كتابه «حوار» يرسم جاليليو صورة لساجريدو باعتباره رجلاً عرك الحياة يهتم بالتطورات العلمية الجديدة، فقد استمر لعدة أعوام يكتب عن صناعة عدسات التليسكوبات ومقاييس الحرارة (الترمومترات) وعن المغناطيسية ونظرية الضوء. ومن الثابت أنه كان يتجادل مع جاليليو حول كثير من المسائل العلمية. وقد توفى عام ١٦٢٠، وهو فى التاسعة والأربعين من عمره. وتمثل شخصيته سيمبلسيو فى «حوار» العناد والتشبث العقيم بالرأى والإيمان المطلق بفلسفة أرسطو.

كما أن هذه الشخصية تعبر عن وجهة نظر البابا المنادية باستحالة المعرفة الحقيقية. ونظرًا لافتقاده إلى الكفاءة، نرى سيمبلسيو عاجزًا عن فهم نظرية جاليليو حول ظاهرة المد والجزر فى البحار. وعندما أبلغ جاليليو أصدقاءه فى روما أنه انتهى من تأليف «حوار حول أنظمة العالم الكبرى» فرحوا وتهللوا. وكتب إليه كاستيللى قائلاً له، إن الطريق أمامه أصبح آمنًا ومُعبَّدًا. وأضاف أن بادر ريكاردى المسئول عن القصر الرسولى المقدس وكبير الرقباء وعده بتقديم العون إلى جاليليو، مؤكدًا إمكانية تذليل ما قد يصادفه من عقبات لاهوتية. ولإدخال الطمأنينة إلى قلب جاليليو أرسل إليه كاستيللى خطابًا يبشره فيه بكل الخير، وبأن البابا ذكر فى لقائه مع الأب كامبانيلا Campanella أن الحظر الذى فُرض على جاليليو عام ١٦١٦ أمر يدعو إلى الانزعاج، مضيفًا «إن هذا (أى الحظر) لم يكن فى نيتنا أبدًا.. ولو كان الأمر بيدنا لما صدر هذا

المرسوم.»، وكذلك كتب إليه كيامبولى من روما يقول: «إنهم هنا متشوقون إلى مقدمك أكثر من تشوقهم إلى رؤية أحب الفتيات».

وصل جاليليو إلى روما فى ٣ مايو ١٦٣٠. وفى الثامن عشر من هذا الشهر نراه يكتب متفائلاً: «إن قداسة البابا بدأ يتعامل معى بروح جعلتنى أتعشم فى أن تسير الأمور لصالحى». فقد شجعه البابا على المضى فى إجراء أبحاثه الفلكية، طالما أنها تقوم على أساس افتراضى بحت. والواقع، أن جاليليو بدأ يعرض حواره حول أنظمة العالم الكبرى بفطنة وكياسة كما يتضح من مقدمته المعنونة: «مقدمة إلى القارئ الحصيف». اقترح البابا على جاليليو أن يغير عنوان كتابه من «ظاهرة المد والجزر فى البحار «إلى «حوار أهم نظامين عالميين»، وتم عرض مخطوطة الكتاب على الأب بادر موسترو. الذى لم يطمئن قلبه إلى مضمون المخطوطة. ولأنه لم يكن يفقه كثيرًا فى علم الفلك، فقد كلف موسترو مساعده الأب رفائيلو فيسكونتى Visconti بفحص الكتاب. وبدا لبادر موسترو أن الكتاب ليس افتراضيًا، فطلب من مساعده فيسكونتى المعروف باهتمامه بالرياضيات إجراء ما يراه من تعديلات فيه، فغير بعض الكلمات القليلة هنا وهناك ثم أعطى موافقته على نشر الكتاب. ولكن الأب ريكاردى شعر بعدم الاطمئنان؛ وخاصة لأن أعداء جاليليو أدخلوا فى روعه أن الكتاب سوف يجر المتاعب فى أذياله؛ فأُسقط فى يده. فهو لا يستطيع أن يطلب من جاليليو أن يعيد كتابة مخطوطته؛ فضلاً عن أنه كان عاجزًا عن تصور الطريقة التى ينبغى إعادة كتابة الكتاب بها. ومن ثم قرر ريكاردى أن يقوم بفحص الكتاب بنفسه. وحتى لا يتسبب فى تعطيل طبع الكتاب أكثر من اللازم، وعد بتسليم المطبعة أولاً بأول كل صفحة ينتهى من مراجعتها. غير أنه لم يكن بمقدور المطبعجى أن يبدأ الطباعة دون تصريح، فاضطر ريكاردى إلى إعطائه التصريح المطلوب. وبحلول فصل الصيف شعر جاليليو بأن الحرارة المرتفعة فى روما تخنقه؛ فقرر الرحيل إلى فلورنسا؛ وخاصة لأن وباء الملاريا أخذ ينتشر فى روما آنذاك. ووعد جاليليو بالعودة إلى روما فى فصل الربيع ومعه نسخة جديدة من مقدمة الكتاب وخاتمته.

وبدا لجاليليو أن أموره تسير على ما يرام. ولكنه أصيب بنكسة، فقد وردت إليه الأنباء من فلورنسا أن راعيه وحاميه ونصيره الأمير سيسى قد مات. وكان موته بمثابة ضربة قاضية له، فقد كان سيسى بالنسبة له نعم السند ونعم المعين، فهو الذى يشفع

له لدى السلطات الدينية فى روما من أجل تذليل ما يقابله من صعاب، وفى ٢٤ أغسطس من عام ١٦٣٠، أرسل إليه صديقه كاستيللى خطابًا عاجلاً يدعوه فيه إلى الإسراع بنشر الكتاب فى فلورنسا لأسباب كثيرة لها وزنها ولا يستطيع البوح بها كتابة. وزاد من تعقيد الأمور انتشار الطاعون فى أواسط إيطاليا فى العام المذكور. واستبدت الحيرة بجاليليو الذى لم ير أمامه غير اللجوء إلى الوساطة الحميدة للسفير الفلورنسى فى روما فرانسيسكو نيكولينى المتزوج من ابنة عم الأب ريكاردى. وكانت صداقة وطيدة تربط جاليليو بهذا السفير. وبذل الزوجان نيكولينى وزوجته ابنة عم ريكاردى جهدًا حثيثًا لحمل الأب ريكاردى على الموافقة على طبع الكتاب فى فلورنسا. غير أن ريكاردى رفض فى بادئ الأمر؛ ولكنه ما لبث أن وافق تحت ضغط من قريبته.

وفى فلورنسا، تولى الأب جياسنتو ستيفانى المحقق فى محكمة التفتيش هناك مراجعة الكتاب وغير بعض الكلمات القليلة فيه ثم أجازه، بل إن عينيه اغرورقتا بالدموع عندما شاهد مدى الاتضاع والطاعة التى يظهرها جاليليو للكنيسة. ولكن نشر الكتاب كان متعذرًا بسبب عدم وجود مقدمته وخاتمته اللتين كان الأب ريكاردى يحتفظ بهما فى حوزته. ويتضح لنا من إشارات كاستيللى المهمة أن كلاً من الأبوين جراسى وشاينر نصحا الرهبان المنتمين إلى طائفة الجيزويت بالتحرك للاعتراض على الكتاب. وزادت حيرة الأب ريكاردى، وأصبح نهبًا مقسمًا بين المتحمسين لطبع الكتاب والمعارضين له. وفى حيرته أخذ ريكاردى يرجئ ويسوِّف ويثير مشاكل جديدة ويزعم أن أوراق المقدمة والخاتمة ليست بحوزته، مضيفًا إلى ذلك حرصه على الالتزام بالتعليمات التى أصدرها الكرسى البابوى بشأن الكتاب. وحتى يخرج من ورطته اقترح بأن يتولى مراجعة نص الكتاب فى فلورنسا فقيه لاهوتى غيره، وأصدر تعليماته بضرورة أن ينص المؤلف على طبيعة الكتاب الافتراضية تنفيذًا لأوامر الكرسى البابوى. وبالفعل، قام محقق محكمة تفتيش فلورنسا الأب كليمنت إجيدى بمراجعة الكتاب. ورغم انتهائه من المراجعة وانقضاء ما يقرب من عام، فإن الكتاب كان لايزال تنقصه المقدمة والخاتمة . وغمر جاليليو يأس عميق وقال، إنه على استعداد لأن يثبت لأية لجنة يقوم الدوق العظيم بتشكيلها «بأنه لم يؤمن قط بأية آراء أو أفكار غير تلك التى يؤمن بها آباء الكنيسة الأجلاء». كما أبدى استعداده ـ إذا لزم الأمر ـ أن يصف

نظرياته «بأنها أضغاث أحلام وأشياء جوفاء تتغير كما تتغير الحرباء». وفى قنوطه العظيم صاح جاليليو قائلاً: « إن الشهور والسنوات تمضى وحياتى تذبل وتضيع وقدر لكتابى أن يتآكل ويُصاب بالعفن».

ومن الواضح أن الأب ريكاردى فى حيرته وعجزه لم يشأ أن يزعج البابا بعرض المشكلة عليه. غير أنه اضطر - تحت الضغوط الشديدة - أن يسلم أوراق المقدمة والخاتمة إلى سفير فلورنسا فى روما يوم ١٩ يوليو ١٦٣١.

وأخيرًا وفى فبراير ١٦٣٢، تمكن جاليليو من أن يهدى إلى جناب الدوق العظيم أول نسخه من كتابه الخطير «حول أكبر نظامين فى العالم».

ما إن ظهر كتاب جاليليو «حوار حول أنظمة العالم الكبرى»، حتى أمطره القراء بعاطر الثناء وبيعت جميع نسخه المطبوعة. غير أنه لم يُعرض للبيع فى روما إلا فى يونيو ١٦٣٢ بسبب ظروف انتشار الوباء. وتحمس كامبانيلا للكتاب تحمسًا شديدًا، واصفًا إياه بأنه «بداية حقبة جديدة». وأدرك الأب شاينر Scheiner، الذى ناصب المؤلف العداء، أن الكتاب لن يخلو من انتقاده نقدًا شديدًا.

والجدير بالذكر، أن الألمانى كريستوفر شاينر عالم فلك مرموق ينتمى إلى طائفة الجيزويت، وكانت تربطه بجاليليو صداقة قديمة تفككت عراها بسبب الاختلاف فى الرأى والمنافسة حول أسبقية اكتشاف البقع الشمسية. كان شاينر يزور إحدى مكتبات بيع الكتب عندما سمع راهبًا فى مدينة سيينا يمتدح كتاب جاليليو الجديد إلى عنان السماء فامتقع وجهه وأصابته رعشة، وساءه أن يرى الراهب يعرض على البائع مبلغًا كبيرًا من المال للحصول على نسخة من الكتاب المصادر الذى تكاتف الرهبان الجيزويت للتصدى له.

ويروى صاحب المكتبة، واسمه لاندينى، فى خطاب بعث به إلى جاليليو فى ٧ أغسطس ١٩٣٢ أنه كان فى كنيسة القديس جيوفانى عندما رأى الأب ريكاردى يبحث عنه. ولما وجده طلب منه أن يعطيه كل نسخ الكتاب التى أحضرها معه من فلورنسا، ووعد بإعادة هذه الكتب إليه فى غضون عشرة أيام على أكثر تقدير. ولكن صاحب المكتبة اعتذر عن عدم قدرته على إجابة الأب ريكاردى إلى طلبه؛ لأن خمسًا من النسخ التى أحضرها معروضة للبيع. ولكنه أبدى استعداده لإعطائه نسخته الخاصة به

ونسخة أخرى خاصة بالسيد سيريستورى. وشرح الأب ريكاردى السبب الذى دعاه إلى طلب هذه النسخ، قائلاً إنه أراد الحصول عليها من أجل الدفاع عن الكتاب. وهنا نصح صاحب المكتبة الأب ريكاردى باللجوء إلى المؤلف جاليليو للحصول على النسخ المطلوبة، فهو لن يتردد فى إرسالها إليه؛ لأن نشر الكتاب تم عبر القنوات الشرعية وبعد أخذ موافقة قداسة البابا والمجمع المقدس. وعبر ريكاردى عن تعاطفه مع الكتاب وصاحبه، واصفًا إياه بأنه واحد من أفضل أصدقائه.

ثم مضى يقول إنه يريد الحصول على هذه النسخ بسبب آخر يحتفظ به لنفسه، مفاده أن المسئولين عبروا عن استيائهم من الصورة الرمزية التى تتصدر الكتاب، وهى صورة لثلاثة دلافين يمسك كل منها فى فمه بذيل الآخر. فانفجر صاحب المكتبة ضاحكًا؛ لأنه لم يكن يتصور أن يكون لمثل هذه الصورة الرمزية كل هذا الأثر السيئ فى نفوس قراء الكتاب. وطمأن صاحب المكتبة محدثه بأن جاليليو ليس من النوع الذى يحاول أن يخفى أسرارًا كبيرة تحت مثل هذه الصور الصبيانية. وأضاف أن جاليليو برىء من هذا العبث، وأن المطبعجى هو المسئول عنه. وحين سمع ريكاردى ذلك شعر بالارتياح؛ لأنه لا يريد أن يصيب المؤلف أى مكروه.

واستطرد صاحب المكتبة قائلاً، إن كتاب جاليليو تعرض للملامة والتقريع لأنه لا يطابق مخطوطته الأصلية، حيث إن نهايته أغفلت الإشارة إلى محاجَّتين أو ثلاث كان البابا قد أدخلها على متن الكتاب. وهى محاجات قصد بها البابا إقناع جاليليو بزيف نظرية كوبرنيكوس. واستطرد صاحب المكتبة قائلاً، إن البابا عند رؤيته الكتاب لاحظ أنه يغفل ما اقترحه من إضافات فطلب تدارك الخطأ وإدراجها. ورأى صاحب المكتبة أن هذا لا يعدو أن يكون تعلة، لأن السبب الحقيقى يكمن فى أن الآباء الجيزويت سعوا ما وسعهم السعى لفرض الحظر على الكتاب حسب ما ورد على لسان الأب ريكاردى نفسه، الذى أخبره بأن الجيزويت ينوون التنكيل بالكتاب. ويعلق صاحب المكتبة قائلاً، إنه يبدو أن هذا الأب كان يخشى على نفسه؛ لأنه أعطى مؤلفه تصريحًا بنشر الكتاب، الأمر الذى يدل على أن قداسة البابا لم يكن راضيًا عنه.

وعندما تسلَّم جاليليو خطاب صاحب المكتبة شعر بالغُصَّة تملأ قلبه؛ لأن المرسوم الخاص بتعليق الكتاب كان قد صدر بالفعل. بوغت جاليليو لهذا الحظر المفاجئ ووقع عليه وقع الصاعقة. وجاء محقق محكمة تفتيش فلورنسا بنفسه إلى

مكتبة لاندينى ومعه أمر بإيقاف توزيع الكتاب وتسليم المخزون منه. وهنا ذكر لاندينى، أنه ليس بحوزته أية نسخة من الكتاب الممنوع. ويبدو أن الأب ريكاردى كان غافلاً عما يدور حوله، فقد تفجرت فضيحة الكتاب قبل أن يحاول هذا الراهب أن يجد لنفسه مخرجًا من أزمته. وبينما كانت خطابات التهنئة تنهال عليه، كان جاليليو أشد ما يكون غضبًا من مؤامرات أعدائه عليه. وفى ٢١ أغسطس عام ١٦٣٢، وصله خطاب من صديقه الأب كمبانيلا يؤكد صحة الأنباء السيئة. فيما يلى نصه:

«سمعت أنهم بصدد تشكيل لجنة من اللاهوتيين الغاضبين من أجل حظر كتابك (حوار)، وليس هناك فى هذه اللجنة أى شخص يفقه الرياضيات والأمور العلمية.

«أرجوك أن تدرك أنه قد تم حظر فكرة دوران الأرض دون إيمان من جانبك بقوة الأسباب الداعية إلى حظرها. وهذه قاعدة لاهوتية بالإمكان إثباتها؛ لأن مجمع نيقية أصدر مرسومًا ينص على أنه يمكن رسم صور الملائكة؛ لأن لها فى واقع الأمر وجودًا ماديًا. وهذا المرسوم سليم، وإن كان الدافع إلى إصداره غير سليم؛ حيث إن جميع المدرسيين فى زماننا يقولون بأن الملائكة ليس لها أى وجود مادى». «إننى أخشى العنف الناجم عن الجهل. فالأب مونستر يهيج أبشع الخواطر.. ولكن قداسة البابا لا علم له بذلك، فضلاً عن أنه لا يفكر بهذه الطريقة. وأنصحك أن تطلب من الدوق العظيم أن يطالب بضمى وضم الأب كاستيللى إلى هذه اللجنة المشكلة، أسوة بالدومينيكان والجيزويت والقساوسة العلمانيين. ولكن من المفروض أنه لا علم لى بهذا الأمر.. أو يمكنك أن تطالب بنفسك بوجودنا فى هذه اللجنة. وإنى على يقين من أننا سوف نكسب القضية، فأنا أعرف أن عقل البابا كبير عند إحاطته علمًا بالأمر. وأرجو من الله أن يحفظك».

ما كاد جاليليو يقرأ هذا الخطاب حتى اعتراه شىء من الغم، فهو يعرف أن الأب كامبانيلا من النوع الذى يجلب المتاعب على نفسه وعلى الآخرين. ورغم ذلك، فقد أعد جاليليو رسالة سطرها بكياسة ولباقة يعرب فيها عن قلقه أرسلها إلى الدوق العظيم كى يبعث بها إلى البابا وكأنه هو صاحبها، طالبًا من قداسته تعيين لجنة مشتركة فى فلورنسا مهمتها البحث والاستقصاء فى هذا الموضوع. وكلف الدوق العظيم الراهب نيكولينى بحمل هذه الرسالة إلى المقر البابوى فى ٥ سبتمبر ١٦٣٢. ولكن البابا استقبله بغضب شديد منعه من تقديم رسالة الدوق العظيم إليه. وصرخ

البابا فى وجه الرسول نيكولينى صائحًا: «أخبر جاليليو هذا أنه تجرأ وتدخل فى أمور ما كان ينبغى عليه أن يتدخل فيها، كما أنه تدخل فى أخطر الموضوعات وأجلّها وأكثرها إثارة لحفائظ الناس فى هذه الأيام». ويستمر الرسول نيكولينى فى رواية ما حدث: «فأجبته أن السيد جاليليو لم يقم بطبع كتابه إلا بعد موافقة الفاتيكان». فرد عليه البابا غاضبًا إنه هو والراهب كيامبولى ـ وخاصة الأخير ـ مسئولان عن خداعه. فقد أفهمه كيامبولى أن جاليليو سوف يسترشد بالأوامر البابوية، وأن كل شىء يسير على ما يرام. وأضاف البابا أن هذا كل ما يعرف بشأن هذا الموضوع، دون أن يكون قد رأى الكتاب أو قرأه. واشتكى البابا مر الشكوى من كل من الراهبين كيامبولى وريكاردى؛ ولكنه أضاف أن ريكاردى أيضًا تعرض للخداع عن طريق معسول كلام جاليليو وأنصاره كى يجيز الكتاب أولاً ثم يسمح بطبعه فى فلورنسا ثانيًا، دون اتباع التعليمات الصادرة إلى المحقق فى محكمة التفتيش هناك. وكذلك حشر البابا اسم الراهب ريكاردى الذى ليست له أى علاقة بمنح تراخيص النشر خارج روما. وهنا قال نيكولينى رسول الدوق العظيم للبابا، إنه نما إلى علمه أن لجنة خاصة سوف تُشكل من أشخاص يريدون السوء لجاليليو، وإنه يرجو البابا أن يتعطف ويعطى جاليليو فرصة الدفاع عن نفسه، فأجاب قداسة البابا إن المكتب المقدس فى مثل هذه الأحوال لا يفعل شيئًا غير إصدار حكمه، داعيًا المتهم للتراجع عن أقواله. عندئذ سأل نيكولينى البابا قائلاً: «ألا ترى قداستكم أنه ينبغى إبلاغ جاليليو سلفًا بالمصاعب التى تواجهه بالاعتراضات واللوم الموجه إلى كتابه، وكذلك تبليغه بضيق المكتب المقدس منه». فقال البابا بعنف: «أقول لك إن المكتب المقدس لا يؤدى عمله على هذا النحو ولا يتخذ مثل هذه التدابير. كما أنه لا يبلغ أحدًا بها مسبقًا فهذه ليست عادته. ثم إن جاليليو يعرف تمام المعرفة الصعوبات التى تواجهه إذا كان يبغى معرفتها، حيث إننا ناقشناها معه وقد عرفها جميعًا منا». وبعد أن ذكّر نيكولينى قداسة البابا أن جاليليو أهدى كتابه إلى قداسته وأن المشكلة تخص واحدًا من خدامه الأوفياء توسل إليه أن يأخذ ذلك فى الاعتبار؛ ولكن البابا رد بغضب أنه فى المسائل الخطيرة التى تهدد العقيدة بأوخم العواقب لابد له من الموافقة على عقابها. ومن ثم طلب من نيكولينى الكتابة إلى جاليليو للابتعاد عن هذه المشاكل، إذا أراد الخروج من مأزقه محتفظًا بشرفه.

ولم يغب عن بال نيكولينى تصاعد حدة التوتر السياسى مؤخرًا بين الكرسى البابوى وإقليم توسكانيا الذى تقع فيه فلورنسا. ولكن هذا لم يمنعه من أن يقول للبابا

إنه لايزال يعتقد أن قداسته لن يذهب إلى حد فرض الحظر على كتاب تمت الموافقة عليه دون سماع كلمة جاليليو. وبطبيعة الحال امتعض البابا من هذا التدخل السافر فى شئونه، الأمر الذى جعله يسترسل فى تهديداته. قال إن الحظر أقل شىء يجب عمله، وإنه يجدر بجاليليو أن يعمل حسابه حتى يتفادى استدعاء المكتب المقدس له، وإنه أصدر مرسومه البابوى بتشكيل لجنة من اللاهوتيين ومن الأشخاص الآخرين المثقفين فى مختلف العلوم، مضيفًا أن جميع أعضاء اللجنة أناس أجلاء يتسمون برجاحة العقل وشرف المقصد وأنهم سوف يزنون الأمور فى هذا الموضوع الشائك بميزان العدل والقسطاس. ثم أخذ البابا يجأر بالشكوى من كل من جاليليو وكيامبولى. ثم كلف الرسول نيكولينى أن يبلغ المسئول الدينى بشذوذ مذهب جاليليو. وأضاف أنه تصرف مع جاليليو بكل الاحترام وأنه تجنب تعقيد الأمور بعدم إحالة الموضوع إلى المكتب المقدس، مكتفيًا بعرضه على لجنة خاصة. واختتم البابا قائلاً عن جاليليو: «لقد عاملته بطريقة أفضل من الطريقة التى عاملنى بها لأنه خدعنى».

ومن الواضح أن البابا كسب الجولة الأولى ضد جاليليو حين هدد باستخدام محاكم التفتيش فى حالته، وجعل من شبهة الهرطقة سيفًا مُسلطًا على رقبته.

وانزعج جاليليو دون أن يدرى حقيقة ما جرى. غير أن الأمور الخافية عليه تكشفت له بالتدريج. فقد أبلغ نفرٌ من الجيزويت البابا أنه اتضح لهم بعد الاطلاع على الكتاب أن صاحبه يدافع عن نظام كوبرنيكوس الفلكى. ومن جانبهم قام جراسى Grassi وشاينر وأنصارهما بحشد قوى جمعية يسوع وتسخيرها فى شن حملة سياسية ضد الأفكار الجديدة والمستحدثة التى تنتقص من سيطرة هذه الجمعية على التعليم. وتمكن أعداء جاليليو من تأليب البابا ضده باستغلال زهوه وخيلائه، فقد أفهموه أن جاليليو تهكم عليه عندما أورد محاجته الداحضة لنظرية المد والجزر على لسان شخصية سيمبلسيو البلهاء الساذجة. وهى فكرة لم تخطر على بال جاليليو على الإطلاق. ومما أثار حفيظة البابا إيربان الثامن ضد جاليليو أن هذا البابا كان يعتبر نفسه فيلسوفًا لا يُشق له غبار يحق له القول الفصل فى جميع القضايا. ومن ثم، فإنه لا يطيق معارضة أو مناقشة.

وقد استمر غضب البابا على جاليليو على ما هو عليه حتى بعد وفاة هذا العالم بعشرة أعوام، لدرجة أنه فى كهولته اعترض على اقتراح بإقامة تمثال لجاليليو تكريمًا

له. ولا غرو، فهو يجتر المشاحنات والأخذ والرد الذى دار بينهما. فضلاً عن استشعاره بطبيعة الخطر الذى تمثله أفكار جاليليو على نظام التعليم الكاثوليكى. كما تفهَّم غضب الجيزويت من جاليليو حين اعتبروه أكثر خطورة على الكنيسة الكاثوليكية من كل من لوثر وكالفن البروتستانتيين. ولا شك أن البابا عض بنان الندم على ما أظهره من تشجيع سابق لجاليليو. وحز فى نفسه الشعور بأن جاليليو وأعوانه استغفلوه. وطاش عقله عندما رأى تفاقم الأخطار السياسية القادمة إليه من خارج البلاد. فلم يجد متنفسًا له غير أن يصب جام غضبه على مرءوسيه، مثل الأب ريكاردى الذى أكد براءته بإثبات أنه لم يسلم أوراق كتاب جاليليو إلى المطبعة إلا بناء على تصريح من كيامبولى الذى عجز عن تبرئة نفسه، لأنه اعتمد فى تصرفاته على بعض الكلمات والعبارات التى تفوه بها البابا فى فترة رضاه على جاليليو، الأمر الذى قضى قضاء مبرمًا على مستقبل كيامبولى الكنسى بعد أن كان أثيرًا لدى الكرسى البابوى، الذى قام بترقيته إلى رتبة كاردينال منذ أسابيع قليلة. وأبعده البابا عن الكنيسة وعينه حاكمًا على مدينة صغيرة اسمها مونتالتو ديلا ماركا.

ولم يسمح له البابا بالعودة إلى روما. وفى عام ١٦٣٣، أرسل كيامبولى خطابات إلى جاليليو جاء فيها: «احضر كى ترانى أيها السقراط المضطهد. وسوف نعتنى بصحتك هنا عناية جيدة.. أما عن نفسى فإنى أستمد العزاء والسلوى من دراساتى. ولا زال الأمل يخامرنى أن أؤلف شيئًا يذكره الناس من بعدى». وبعد مضى عشرة أعوام توفى كيامبولى فى الرابعة والخمسين من عمره. أما ريكاردى، فقد كان أوفر حظًا، حيث إنه استطاع الاحتفاظ بمنصبه.

عندما قلب البابا لجاليليو ظهر المجن استشاط هذا العالم غضبًا للتحول المفاجئ فى موقف البابا منه. وزاد من غضبه أنه لم يكتب عن المذهب الكوبرنيكى إلا بعد الحصول على إذن من الكرسى البابوى، فضلاً عن حصوله على موافقة بنشر كتابه من الجهات الكنسية المعنية وحصوله على موافقة أخرى بنشره فى فلورنسا من محقق محكمة التفتيش هناك. ناهيك عن خضوع الكتاب للفحص والمراجعة والتنقيح والتصريح بنشره أكثر من مرة فى كل من روما وفلورنسا. فهل هناك امتثال أكثر من هذا لسلطة الكنيسة؟! وشعر جاليليو أن مؤامرة تُحاك ضده وتؤلب الكرسى البابوى عليه . وهو الأمر الذى أكدته رسالة صديقه فيليبو ماجالوتى إليه: «لا تفزع إذا طلبت

اللجنة المشكلة إلى السلطات أن تعلن أن مذهب كوبرنيكوس ملعون ومهرطق. ولا تخف إذا قررت هذه اللجنة زيف هذا المذهب. وإنى لا أعتقد أنهم سيطلبون من الكرسى البابوى إعلان ذلك. إننى أقول لك هذا لأن أعضاء المكتب المقدس الذين يعالجون شئون العقيدة أخبرونى بذلك. فهم يقولون بوجود مسائل خلافية فى قلب الكنيسة، حيث إنها تنقسم حول رأى الآباء فى مسألة عذرية ولادة المسيح. وهم يؤكدون بأنه بدون ضرورة غاية فى الإلحاح أو بدون عقد مجمع عام، فإن هذه القضايا الخلافية لا تصل أبدًا إلى حد الأزمة. هذا بكل تأكيد مسار الأحداث، كما أن الأب بادر مايسترو يرى أن الأمر سوف ينتهى بإجراء تغييرات طفيفة بإضافة أو حذف أشياء قليلة فى كتابك (حوار)».

ولم يكن الأب فيليبو ماجالوتى وحده هو الذى يهون من شأن عواقب غضب البابا على جاليليو، فقد ذهب نيكولينى إلى نفس الرأى. وأيضًا كتب إليه رئيس أساقفة سيينا أسكانيو بيكولومينى يطمئنه ويقول له، إن قوة حجته وبيانه هى التى أفزعت أقرانه من العلماء فلم يجدوا وسيلة للدفاع عن مناصبهم العلمية إلا الوشاية واستعداء الكرسى البابوى عليه. أما صديقه الراهب كاستيللى، فقد كتب إليه محفزًا: «هذا هو الوقت المناسب كى تتصدى لهم وترد عليهم بنفس الكلمات الجسورة التى سبق لكوبرنيكوس أن قالها للبابا بولس الثالث (١٥٣٤ ـ ١٥٤٩)». ثم أضاف إلى ذلك قوله: «لقد قلت بصراحة إنه إذا تم بالفعل تقديمك أمام محكمة التفتيش وإذا لم تتصرف هذه المحكمة المقدسة العليا بالأسلوب اللائق بها، فسوف تلطخ بذلك سمعتها وتبدد احترام الناس لها. وإذا عَنَّ لها أن تحاكم رجلاً يكتب بمثل هذا الانصياع والاحترام والتحفظ، فسوف يفضى هذا إلى أن آخرين سوف يتصدون لها ويناهضونها بالكتابة المضادة بكل قسوة وحزم».

ومفاد الرسائل التى تلقاها جاليليو لمؤازرته كالتالى: «إنهم لا يستطيعون أن يفعلوا لك شيئًا. لقد خرجت الأمور عن السيطرة لبرهة وجيزة؛ لأن البابا كان مندفعًا فى اتخاذ ما اتخذه من إجراء. فاجلس فى مكانك صامدًا ولا تستسلم إلا بالقدر الذى تقتضيه منك الضرورة. ولكن حَذَارِ أن تتحرش بهم وتثير غضبهم!». وهكذا نصحه أصدقاؤه ومريدوه أن يتكلم بعد أن تهدأ العاصفة. وأيضًا جاءه خطاب من راهب فى

البندقية اسمه فولجنزيو ميكانزيو يشد من أزره ويعضده فى محنته ويقول: «العالم ليس محدودًا بركن واحد فيه، وسوف تشاهد عملك مطبوعًا فى أماكن ولغات كثيرة. إن الذى يقلقنى هو أن أرى نفسى محرومًا من الشىء الذى وضعت جُل أملى فيه، وهو أن أرى حواراتك الأخرى منشورة مثل حوارك (علمان جديدان)».

تلخصت أمنية جاليليو فى شىء واحد وهو أن يعطيه البابا فرصة للدفاع عن نفسه وشرح موقفه. وأراد أن يناقش كتابه نقطة بنقطة مع اللجنة المشكّلة لفحصه. ولم يكن جاليليو مندفعًا أو متهورًا، فقد علمته الأيام فائدة الحكمة والتروى. حتى عدوه بييرو جويكياردينى Piero Guicciardini شهد له بذلك. وأدرك جاليليو أنه يستند إلى موقف قوى من الناحية القانونية، فهو لم ينشر كتابه إلا بعد الحصول على الموافقات اللازمة. ولكنه أدرك فى نفس الوقت ضعف موقفه من الناحية السياسية. وكان بإمكانه أن يتجنب المتاعب بإجراء تعديلات جوهرية على حواره بجعل شخصية الساذج سيمبلسيو يفاجئ الجميع بالتدليل على صحة نظام تيكو الفلكى الذى كان قد أغفل مناقشته، وأن يجعل شخصية سالفياتى يعترف بالهزيمة. وهذه التعبيرات كان من شأنها أن ترضى البابا. وأيضًا كان فى مقدور جاليليو أن يبرئ نفسه بترديد المحاجّات الفيزيائية ـ الرياضية التى استخدمها ريكيولى Riccioli. وهى المحاجّات التى كان من السهل على بوررلى Borrlli تفنيدها فى عام ١٦٦٨. نعم، كان بمقدور جاليليو أن يراوغ ويناور؛ ولكن إهانته جعلته ينطق بالحق دون مداراة.

على أية حال، كان جاليليو فى قرارة نفسه يأمل أن يناصره البابا سرًا ويعاديه جهرًا حتى ينقذ الكنيسة من التورط فى أى مأزق علمى. ومما أثار الشكوك فى نوايا جاليليو، استخدامه اللغة الإيطالية فى كتاباته بدلاً من اللغة اللاتينية؛ فضلاً عن أنه تجاهل مخاطبة الجامعات ـ كما جرت العادة ـ بشأن اكتشافاته العلمية ليخاطب مباشرة القطاع المستنير من الرأى العام الإيطالى. ولو أنه لم يفعل هذا لكانت أقصى عقوبة يمكن إنزالها به هو حظر أعماله فى فهارس الكتابات المحظورة.

وتجمعت خيوط الفاجعة عندما قام محقق محكمة تفتيش فلورنسا بزيارة جاليليو فى بيته فى أكتوبر ١٦٣٢ ليعطيه الأمر الرسمى باستدعاء المكتب المقدس له، على أن يقدم نفسه إلى السلطات فى روما فى غضون ثلاثين يومًا. وأصاب جاليليو الرعب والفزع وأدرك مدى الخطر المحدق به. وشعر بالإعياء والمرض يعتريانه فآوى

إلى فراشه. ثم أرسل خطابًا إلى الكاردينال فرانسيسكو باربرينى ابن عم البابا إيربان الثامن يرجوه إعفاءه من السفر فى فصل الشتاء لما تنطوى عليه رحلة الشتاء من خطر على حياته. ويتضمن خطابه الندم على ما أجراه من أبحاث واكتشافات، فقد جاء فى خطابه: «إننى ألعن الأيام التى كرستها للدراسة وحاولت فيها وأملت أن أبتعد نوعًا ما عن أن أسلك طرق البحث المعتادة. وإنى نادم على أنى أعطيت للعالم جزءًا من كتاباتى. وأشعر بالرغبة فى أن ألقى ما تبقى منها فى اللهب حتى أخفف أخيرًا من كراهية أعدائى المشبوبة ضدى». واقترح جاليليو فى خطابه أن يقوم بمراجعة كتابه بغية مهادنة السلطات وطلب تعيين لجنة فى فلورنسا تتولى هذه المراجعة، واختتم خطابه قائلاً: «إذا لم تكن كهولتى الطاغية أو الأمراض الجسدية الكثيرة التى أعانى منها أو عمق أحزانى أو خطورة الرحلة على من كان فى مثل ظروفى لا تعتبرها المحكمة العليا المقدسة أسبابًا كافية لإعفائى أو على الأقل تأخير سفرى، فسوف أقوم بهذه الرحلة من باب الطاعة والولاء اللذين يزيدان فى قيمتهما عن حياتى».

ولم يفكر جاليليو فى الهرب رغم نصيحة كثير من أصدقائه أن يفعل هذا، ونسى السياسى المخضرم فرانسيسكو مورسينى القطيعة التى حدثت بينهما منذ عشرين عامًا، وعرض عليه بكل شهامة ملاذًا آمنًا فى أراضى البندقية؛ حتى نصيره نيكولينى نصحه بالهرب. ولكن الإنهاك والإعياء كانا قد بلغا به كل مبلغ فلم يعد فى كهولته المريضة قادرًا على مواصلة الصمود والتحدى، وانهار المحارب القديم فيه وشعر بالانكسار وبأنه ريشة فى مهب الريح يحتاج لمن يحميه ويواسيه.

وأيضًا، عقد البابا عزمه على عدم الاستماع إلى صوت جاليليو. فعندما قام الكاردينال باربرينى بتسليم خطاب جاليليو إليه كتب على هوامشه معلقًا: «لقد حسم المجمع الأخير الأمر وليست هناك حاجة إلى أية إجابة أخرى». واستفسر من المقيِّم ما إذا كانت الأوامر الصادرة بهذا الموضوع نُفذت أم لا؟

وفى ١١ سبتمبر ١٦٣٢، قادم بادر ريكاردى وهو ينتفض من الاضطراب بزيارة نيكولينى بهدف إسداء النصح لجاليليو بتوخى العقل والتزام الطاعة، حيث تبين أن كتابه «حوار» ينطوى على العصيان الواضح والصريح. وقال ريكاردى، إنه أخفق فى ضم كامبانيلا وكاستيللى صديقَى جاليليو إلى اللجنة المبدئية المشكَّلة. ورغم ذلك، فإنه وعد ببذل كل ما فى وسعه لمساعدة جاليليو. وأيضًا أفضى ريكاردى إلى نيكولينى بسر

بالغ الأهمية طلب منه عدم إفشائه، وهو أن جاليليو آمن بمذهب كوبرنيكوس وقام بنشره في فلورنسا ولذا تقرر استدعاؤه إلى روما، حيث منعه الكاردينال بيلارمين نيابة عن البابا والمكتب المقدس من مناقشة رأيه. وأضاف أن هذا وحده يكفى لتدميره تمامًا.

وتغير الموقف عما كان عليه بالأمس، فبالأمس ترفق به البابا ونصحه بعدم الإتيان بأى عمل من شأنه أن يدعو المكتب المقدس لاستدعائه. أما الآن فقد أمر البابا بتشكيل لجنة لفحص كتابه، وساعد اللجنة فى عملها أنها وجدت فى أوراق محكمة التفتيش الأمر الصادر فى ٢٦ فبراير ١٦١٦ الذى ينص على «عدم تدريس (مذهب كوبرنيكوس) بأية صورة من الصور». وهو أمر تغافله البابا نفسه عندما سمح له بالكتابة عن هذه النظرية. كان هذا فحوى السر الذى ائتمن ريكاردى نيكولينى عليه.

وقامت اللجنة التى شكّلها البابا بعقد خمس جلسات فى غضون ما يقرب من شهر. ثم رفعت إلى البابا مذكرة عن قضية جاليليو فى ثلاث صفحات وردت فيها الاتهامات الثلاثة الآتية:

أولاً: أن جاليليو انتهك الأوامر الصادرة إليه باعتناق فكرة دوران الأرض وثبات الشمس.

ثانيًا: أنه أخطأ فى نسبة ظاهرة المد والجَزر إلى ثبات الشمس ودوران الأرض.

ثالثًا: أنه مارس الغش والتدليس بامتناعه عن تنفيذ الأمر الذى أصدره إليه المكتب المقدس فى عام ١٦١٦، بالتخلى تمامًا عن الرأى القائل بأن الشمس مركز الكون وأنها ثابتة فى مكانها وإن الأرض تدور. ومن ثَم، فإنه يتعين عليه الامتناع عن اعتناق هذا الرأى أو تدريسه أو الدفاع عنه بأية طريقة سواء أكانت شفاهية أم كتابة؛ حتى لا يقوم المكتب المقدس برفع الدعوى عليه. وهو أمر وافق عليه المدعو جاليليو نفسه ووعد بطاعته.

وأيضًا تدعو المذكرة المرفوعة للبابا إلى تحديد طبيعة الإجراءات الواجب اتخاذها ضد جاليليو وضد كتابه المطبوع، حيث لم ترد فى سجلات محاكم التفتيش أية إشارة إلى نوع هذه الإجراءات. (ويجدُر بنا فى هذا الصدد أن نذكر أن جاليليو سلم مخطوطة كتابه إلى الكرسى البابوى عام ١٦٣٠، ثم قام بنشرها فى فلورنسا عام ١٦٣٢ ثم تم استدعاؤه إلى روما عام ١٦٣٣).

وفيما يتعلق بـ «حوار»، فقد وجهت اللجنة إلى جاليليو صاحبه الانتقادات التالية:

١ ـ أنه بدون صدور أية أوامر وبدون إجرائه أية اتصالات بشأن كتابه قام بوضع خاتم الكرسى البابوى فى روما على الصفحة الأولى.

٢ ـ قام بطبع التصدير ببنط مختلف عن بقية الكتاب، الأمر الذى جعل هذا التصدير غير ذى فائدة وذلك عن طريق فصله عن بقية الكتاب؛ فضلاً عن أنه أورد مغزى الكتاب على لسان شخصية سيمبلسيو الغرير وفى موضع لا يسهل العثور عليه وبشكل يخفى على محدثه، حتى لا يبرز الموضوع وينال ما يستحقه من اهتمام ومناقشة كاملة.

٣ ـ أن معظم الكتاب يخلو من الإشارة إلى أنه مجرد افتراض، بل إنه يؤكد دوران الأرض وثبات الشمس، وكذلك تقديم المحاجَّات التى تستند إليها هذه الآراء على أنها محاجات مفحمة وحقيقية بالضرورة وبطريقة تبدو معها الآراء المضادة مستحيلة.

٤ ـ أنه عالج الموضوع وتركه دون أن يحسمه كما لو كان لهذا الموضوع بقية تشرحه، فى حين أن الواقع يؤكد أنه أورد هذا الشرح.

٥ ـ أنه يحتقر ويزدرى المؤلفين الذين يخالفونه فى الرأى والمؤلفين الذين تستخدمهم الكنيسة أساسًا.

٦ ـ أنه يلحق الضرر عندما يؤكد ويدلل على وجود شىء من المساواة بين عقل الله وعقل الإنسان فيما يتعلق بعلم الهندسة.

٧ ـ أنه ارتكب خطأ عندما نسب ظاهرة المد والجزر فى البحار إلى ثبات الشمس ودوران الأرض. وهما أمران يجافيان الحقيقة.

واختتمت اللجنة التى شكَّلها البابا تقريرها بقولها، إن كل هذه الأشياء يمكن تصحيحها لو صحت قيمة الكتاب. ورغم أن المثالب التى عابتها عليه اللجنة كانت كافية لحظر الكتاب وإثبات أن صاحبه ارتكب جريمة شنعاء فى حق الكنيسة وانتهاكًا لأوامرها الصادرة فى ١٦١٦ ، فإن اللجنة آثرت أن تتجاهل جسامة هذه الاتهامات واكتفت بقبول إجراء التعديلات على كتاب جاليليو، الذى كان موقفه سليمًا من الناحية القانونية نظرًا لحصوله على الموافقات الرسمية اللازمة لنشر مبحثه. واصطدمت اللجنة بمشكلتين ،أولاهما كما ذكرنا أن الكتاب نشر بتصريح كنسى واضح. وثانيتهما

أنه لا سبيل إلى توجيه اتهام إلى مذهب كوبرنيكوس بالهرطقة (والجدير بالذكر أن الأب جويفارا Guevara صرح فى عام ١٦٢٥ بعد أن نشر جاليليو كتابه «المجرب» أن القول بدوران الأرض فى حد ذاته لا يستوجب الملامة والتقريع).

وفى ١٥ سبتمبر ١٦٣٢، صرح البابا أنه مضطر أمام هذه الظروف إلى رفع الأمر إلى محكمة التفتيش. وحذر البابا سفير فلورنسا لدى الكرسى البابوى وحاكم فلورنسا من مغبة الافضاء بهذا السر، وهدد باتخاذ الإجراءات ضدهما. ولعل البابا أراد بذلك إعطاء حاكم فلورنسا فرصة لقطع أية علاقة تربطه بجاليليو. وأيضًا تجاهل البابا مناشدات نيكولينى له لإعادة النظر فى القضية.

وفى يوم ٢٣ سبتمبر ١٦٣٢، أعلن المجمع العام أن جاليليو انتهك الأمر الصادر عام ١٦١٦، وذلك قبل استدعائه رسميًا فى الأول من أكتوبر ١٦٣٠ . وعلم نيكولينى بحالة اليأس التى انتابت جاليليو فسعى ما وسعه السعى لمساعدته، وناشد الكرادلة فى المكتب المقدس مراعاة ظروف جاليليو المسن الصحية وصعوبة سفره فى رحلة تمتد مائتى ميل فى أقصى الظروف الجوية. ولكن مناشدات نيكولينى ذهبت أدراج الرياح فتوجه إلى البابا وتوسل إليه قائلاً لقداسته إن محاكمته فى روما، بل وفى فلورنسا، تمثل خطرًا على حياته؛ لأنه سيقضى نحبه فى الطريق. فأجاب البابا بقوله: «يجب عليه الحضور.. كما يتعين فى واقع الأمر محاكمته هنا فى روما. وليغفر الله له لأنه أوقع نفسه فى شطحات أوهام من شأنها توريطه فى هذه الصعوبات التى أعفيته منها عندما كنت كاردينالاً.». عندئذ تجرأ نيكولينى وقال للبابا، إن المسئولية تقع أولاً وأخيرا على عاتق الرقباء الذين أعطوه تصريحًا بنشر كتابه. فانفجر البابا إيربان الثامن ساخطًا وصب جام غضبه على كل من الرقيبين ريكاردى وكيامبولى. ولكنه فى الوقت نفسه لام جاليليو لأنه يعرف أكثر منهما، ولأنه ورط نفسه فى مثل هذه الموضوعات الشائكة والضارة. وأصر على حضوره إلى روما. وأضاف أنه ينبغى أن يكون بعض قضاته من أعضاء اللجنة التمهيدية التى شكلها. وكان البابا يعنى بذلك المستشارين الثلاثة المكلفين بفحص كتاب جاليليو ووضع تقرير بشأنه.

وفى ١٩ نوفمبر ١٦٣٢، تلقى جاليليو استدعاء آخر فأرسل شهادة مرضية موقعة من ثلاثة أطباء فيما يلى نصها: «وجدنا عدم انتظام فى نبضات قلبه بمعدل ضربة كل ثلاث أو أربع ضربات.. وتصيب المريض بشكل متكرر نوبات دوار ونوبات حزن أسود

وقاتم وضعف فى المعدة وأرق وآلام شديدة فى الجسد، وبه فتاق خطير فى جدار البطن. وجميع هذه الأمراض فى حالة ازديادها ولو بصورة بسيطة قد تشكل خطرًا على حياته».

وأناب البابا أعضاء المكتب المقدس للرد على التقرير الطبى فقالوا إنهم لن يسمحوا بمثل هذا التهرب والتلاعب، وإنه فى حالة تأخره لفترة أطول فسوف يرسلون مندوبًا يرافقه لإحضاره مكبلاً بالأغلال الحديدية. وإذا كان هناك خطر بالفعل على حياته فيجب إحضاره بمجرد تمكنه من السفر كسجين يرسف فى الأغلال. ومن ناحيته، اقترح البابا سفره على وسادة محمولة على الأعناق.

وأمام هذا الموقف البابوى المتشدد نصح دوق فلورنسا العظيم جاليليو بتنفيذ الأمر والسفر إلى روما. ولكن بسبب اعتلال صحة جاليليو وعدم قدرته على تجشم مشاق السفر أمر الدوق بنقله على وسادة محمولة على الأعناق. وكذلك طلب من نيكولينى أن يفعل كل ما يستطيع للدفاع عن جاليليو.

وبعد أن أفاق جاليليو من هول الصدمة بدأ يستعيد روحه القتالية القديمة، الأمر الذى جعله يتصدى بقوة لعالمين فرنسيين، هما: فروادمونت Froidmont ومورين Morin، اللذين نشرا مؤخرًا نبذات تهاجم نظرية كوبرنيكوس، وذلك فى الخطاب الذى أرسله جاليليو إلى إيليا ديوداتى فى باريس فى ١٥ يناير (١٩٣٣). وهو خطاب يدافع بصراحة عن مذهب كوبرنيكوس ويذكرنا بموقفه منه كما عبر عنه عام ١٦١٥ فى خطابه إلى كاستيللى. وأيضًا تساءل جاليليو عن مدى الحرج الذى سوف يصيب الكنيسة إذا جاء فروادمونت أو أى شخص آخر لينكر دوران الأرض، ثم يتضح فيما بعد بالدليل والبرهان إنها تدور.

ولاشك أن هذا التساؤل ينطوى على تعريض بموقف البابا إيربان نفسه، الذى عز عليه أن يوجه إليه جاليليو مثل هذا الانتقاد. والجدير بالذكر، أن المناهضين للبابا إيربان الثامن اتهموه بالتضحية بمصالح الكنيسة فى سبيل طموحه وإرضاء غروره والعمل على إثراء أقربائه، الأمر الذى دفع سفير مودينا فى روما إلى أن يكتب إلى أميرها قائلاً: «هؤلاء الحكام (يعنى البابا والكنيسة) يريدون تحطيم سلطانهم العائلى، وهم يحبون الثراء ويشتهون السلطة. وعندما يتعين عليهم اتخاذ قرار نراهم يتخاذلون عن اتخاذ أية قرارات تمثل خطرًا داهمًا على مصالحهم».

كان البابا إيربان الثامن من الناحية السياسية فى مأزق ولا يعرف السبيل إلى الخروج منه. ففى البداية راهن على قوة الأمة الفرنسية ضد قوة إسبانيا والنمسا السياسية، ولكن تبين له ضعف فرنسا. ولسوء حظ إيربان الثامن استطاعت فرنسا فيما بعد تعظيم قوتها وهيبتها بعد أن توقف البابا عن مؤازرتها. وفى مثل هذا الجو المتوتر وغير المستقر شعر البابا بالمؤامرات تحاك ضده، لدرجة أن أحد المراسلين الدبلوماسيين وصفه بقوله إنه يعيش فى خوف من دس السم له، ويحبس نفسه فى قلعة جوندولو فلا يستطيع أحد زيارته دون الخضوع للتفتيش. وأيضًا كان حراسه بكثافة يجوبون الممر المؤدى إلى القلعة التى يسكنها. وهو يخشى من أن تكون الاستعدادات التى تقوم بها نابولى موجهة ضده، كما يخشى من اعتداء توسكانيا على أراضيه. ويبدو أن اضطراب البابا وتوتره العصبى كان وراء تضخيمه ومبالغته فى حجم الخطر المحدق به. وبأفول قوة فرنسا التى يساندها شعر بأن النمسا سوف تبسط نفوذها عليه. وفى تلك اللحظة التاريخية أراد أن يثبت لنفسه وللعالم أنه لايزال قويًا مهاب الجانب فاتجه إلى مناصبة جاليليو العداء وقرر تأديبه على مروقه، رغبة منه فى استعادة هيبته على صعيد السياسة الدولية. ولم يهدأ له بال حتى تمكنت اللجنة التمهيدية التى عينها من تجميع خيوط القضية ضد ضحيته جاليليو.

بعد رحلة استغرقت ثلاثة وعشرين يومًا، وصل جاليليو إلى روما وهو فى حالة إنهاك وإعياء بالغين فى الثالث عشر من شهر فبراير (١٦٣٣). وبناء على أوامر حاكم فلورنسا استقبلته سفارتها فى روما بدفء وترحاب حيث نزل ضيفًا على السفارة، وتولت زوجة السفير ـ وهى امرأة فى منتهى طيبة القلب ـ العناية بصحته. وبقى جاليليو ملازمًا لحجرته الدافئة لعدة أسابيع لا يزعجه أحد، إلا بعض الزيارات القليلة التى قام بها من آن إلى آخر بعض كرادلة محكمة التفتيش. وقد أظهر المقيم As-sessor السابق بوكابيلا له الود الشديد، كما حاول الأب ساريسترونى مساعدته. وما إن تماثل جاليليو بعض الشىء إلى الشفاء، حتى زار المكتب المقدس ليقدم له احتراماته. وهناك التقى بمقيِّم محكمة التفتيش الجديد الأب فيبى Febei. وحرص الأب نيكولينى على زيارته للاستمتاع بحديثه. وفى التاسع عشر من شهر فبراير ١٦٣٣، كتب نيكولينى يقول: «أظن أننا نجحنا فى رفع روح الجنتلمان العجوز (يعنى جاليليو) المعنوية بأن أوضحنا له كل ما فعلناه من أجل الدفاع عن قضيته».

ولكن جاليليو أحيانًا عجز عن تفهم السبب الذى دعا محكمة التفتيش إلى اضطهاده، ونصحه نيكولينى أن يلتزم بالطاعة ولا يسمح للغضب أن يتملكه.

وبعد أن استعاد جاليليو رباطة جأشه لم تظهر عليه أمارات الخوف التى سبق أن اعترته، بل ظهرت عليه علامات الضيق الشديد والدهشة لما حدث. وكان على استعداد أن يجادل السلطات كبيرها وصغيرها. ويتضح لنا هذا من الخطاب الذى أرسله جاليليو إلى شقيق زوجته حيث يقول: «إننا (نيكولينى وأنا) سمعنا أخيرًا أن الاتهامات الكثيرة والخطيرة الموجهة إلىَّ اختصرت إلى اتهام واحد وأنه تم إسقاط بقية الاتهامات، ولن أجد صعوبة فى التخلص من هذا الاتهام إذا استمعوا إلى دفاعى».

وبعد مرور خمسة أيام قال نيكولينى فى خطاب لاحق على خطاب جاليليو: «بقدر ما أرى، فإن العقبة الأساسية تكمن فى أنهم هنا (أى فى روما) يذهبون إلى أن الأمر الصادر إلى جاليليو عام ١٦١٦ ينص على ضرورة امتناعه عن مناقشة نظرية كوبرنيكوس أو الحديث عنها، فى حين أن جاليليو على العكس من ذلك ذهب إلى أن الأمر لم ينص على هذا».

سعى أصدقاء جاليليو إلى إدخال الطمأنينة إلى قلبه، وخاصة لإدراكه سلامة موقفه من الناحية القانونية. ولهذا تحفز جاليليو للإمساك بتلابيب السلطة الكنسية التى تتهمه، ولكن نيكولينى نصحه بضبط النفس ومنعه من إظهار التحدى.

وبدت بعض بوادر الأمل تلوح فى شهر مارس ١٦٣٢، بعد أن قرأ كبير المحققين الصارم المتجهم الكاردينال ديزيدريو سكاجاليا Desiderio Scaglia كتاب جاليليو بمساعدة كاستيللى الذى شرح له حوار جاليليو نقطة بنقطة. ومن ناحيتهم ندت عن أعضاء المكتب المقدس تلميحات مريحة ومطمئنة، الأمر الذى جعل أحباءه يعتقدون أن الأمور سوف تنجلى لصالحه طالما أنه يظهر الطاعة الواجبة لسلطة الكنيسة؛ فضلاً عن أن دوق فلورنسا العظيم مارس الضغط على البابا لإرجاعه إلى فلورنسا.

ولكن الغم الشديد سرعان ما أصاب الأب نيكولينى وبدد تفاؤله عندما أخبره البابا يوم ١٢ مارس ١٦٣٣ أن المكتب المقدس سوف يستدعى جاليليو للمثول أمامه حين يتحدد موعد محاكمته. وعبثًا توسل نيكولينى إلى البابا كى يتدخل لمنع هذا من

الحدوث؛ ولكن البابا قال بصريح العبارة إنه ليس هناك مفر. قال: «فليغفر الله لجاليليو لأنه أقحم نفسه فى الأمور المتصلة بالمذاهب الجديدة والكتاب المقدس، حيث إن سلامة المرء تقتضى منه الإيمان بالأفكار الشائعة. وأرجو من الله أن يساعد كيامبولى أيضًا لاعتناقه هذه الأفكار الجديدة لأنه يميل إلى الأخذ بها واعتناق الفلسفات الجديدة» ثم أضاف البابا أن جاليليو كان صديقه، وأنهما كثيرًا ما تناولا الطعام على نفس المائدة وأعرب عن أسفه لأنه يسبب له هذه المضايقات. ولكنه حذر من أن المسألة تتعلق بالعقيدة والدين. عندئذ قال له نيكولينى إنه لو استمع إليه لحصل منه على كل ما يريد من شروح وتفسيرات. فأجاب البابا أن جاليليو سوف يستجوب فى الوقت المناسب. حينئذ قال البابا إن هناك محاجة تبقى بلا رد ومفادها: «إذا كان الله قادرًا على كل شىء وإذا كان موجودًا فما الداعى أن نحاول فرض الضرورة عليه»؟ وهنا رد نيكولينى قائلاً إنه لا يعرف كيف يجيب عن هذا التساول؛ ولكنه استطرد قائلاً إنه سمع جاليليو يقول إنه على استعداد أن يتخلى عن اعتقاده بدوران الأرض. ولكن ما الذى يدعوه لإنكار دوران الأرض طالما أن الله قادر على صنع العالم وتسييره بألف طريقة وطريقة. وهنا ظهر الغضب على وجه البابا وأجاب: «لا ينبغى أن نفرض الضرورة على الله سبحانه وتعالى». وخشى نيكولينى من الاسترسال فى الكلام؛ حتى يتجنب أن يثير ثائرة البابا أكثر فأكثر، وحتى يتجنب أن يقول شيئًا من شأنه إلحاق الضرر بصديقه جاليليو، وأيضًا حتى يتجنب أن يوجه إليه المكتب المقدس اتهامات مماثلة.

وعندما أخبر نيكولينى دوق فلورنسا العظيم بالحديث الذى دار بينه وبين البابا تملكت الدوق النشوة الصارمة، فهذا الحديث ينطوى على انتقاد ديبلوماسى مبطن للكرسى البابوى.

ومن الواضح أن البابا أراد بإشارته إلى صداقته مع جاليليو إلى ذر الرماد فى العيون، حيث بات من الواضح أن كراهيته لصديقه القديم أصبحت مشبوبة. وليس أدل على ذلك من أنه بعد مضى عام وصدور الحكم عليه فى عام ١٦٣٤ التمس جاليليو من البابا السماح له بالعودة لتلقى العلاج؛ ولكن البابا رفض أن يجيبه إلى طلبه. قال قداسته «إنه يرفض الاستجابة إلى الطلب المقدم ويحذر المدعو جاليليو كى يتوقف عن كتابة العرائض والالتماسات حتى لا يزج به فى سجون المكتب المقدس»، الأمر

الذى جعل أتباع الدوق العظيم يصيحون: «شىء لا يصدق!» و«شىء لم نسمع به مطلقاً». ويسجل لنا التاريخ بحروف من نار الخطاب الذى أرسله جاليليو إلى ديوداتى Diodati بتاريخ ٢٥ يوليو ١٦٣٤ فيما يلى نصه: «مما زاد من قتامة هذه الفترة فى حياتى خسارتى العظيمة، فأثناء غيابى الذى اعتبرته ابنتى أشد ما يكون خطرًا على حياتى أصيبت باكتئاب عميق كان السبب فى تدمير صحتها التى تأزمت أخيرًا (عقب عودتى بشهرين)، مما أودى بحياتها بعد مرض قصير لم يمهلها سوى ستة أيام وعمرها لا يتجاوز الثالثة والثلاثين تاركة إياى فى حزن يائس. وكانت مصادفة مشئومة حين عدت إلى بيتى عقب زيارة الدير برفقة الطبيب الذى أخبرنى للتو أن حالتها ميئوس منها ولن تعيش حتى اليوم التالى، فقد حدث أن جاءنى آنذاك قسيس محكمة التفتيش لإبلاغى بالأمر الذى أصدره المكتب المقدس فى روما بضرورة المثول أمامه حتى لا يزجوا بى مرة أخرى فى السجن الفعلى التابع للمكتب القدس. وأستطيع أن أستنتج من هذا أن سجنى الحالى لن ينتهى إلا بالمصير الأبدى الذى يلقاه جميع البشر».

إن كل ما استطاع الأب نيكولينى انتزاعه من البابا يوم ١٢ مارس ١٦٣٣ وعد منه بوضع المتهم فى حجرات مريحة ويقوم خادم على خدمته بدلاً من الزج به فى زنزانة، كما هو الحال مع سائر المتهمين.

وأخفى نيكولينى عن صديقه جاليليو خبر الشروع فى تقديمه للمحاكمة، غير أنه قام بزيارة جميع القضاة المكلفين بالنظر فى قضيته. ومن ناحيته قام باربرينى برسم صورة للبابا عن مدى «اعتلال صحة الرجل الطيب العجوز الذى ظل على مدى ليلتين كاملتين يصرخ ويئن من ألم ممض، وعن تقدمه فى العمر وأحزانه». فطمأنه إلى أن المحكمة سوف تأخذ كل هذا فى الاعتبار.

وفى محنته القاسية بدأ المريدون والمعجبون ينفضون من حوله. وأحجم كثير من معارفه عن التوسط له لدى السلطات باستثناء معجب عجوز واحد عديم الفاعلية يدعى بوناروتى. حتى أصحاب السلطان فى فلورنسا تركوه لمصيره المحتوم، فقد كتب أحدهم - وهو كيولى - إلى سفير فلورنسا فى روما ينصحه بعدم التورط فى الدفاع القوى عنه، كما أن حكومة فلورنسا أضافت أنها سوف تتكفل بنفقات جاليليو لمدة

شهر واحد فقط. واحتقر السفير هذه الخسة فكتب إلى بلاده يقول إن نفقات إقامة جاليليو لا تمثل عبئًا، وإنه والراهب نيكولينى على استعداد للإنفاق عليه من مالهما الخاص.

وعندما تم تبليغ جاليليو فى ٨ أبريل ١٦٣٣ بأمر تقديمه إلى المحاكمة رحب بذلك؛ لأنه ظن أن المحاكمة ستوفر له فرصة لمواجهة هيئة المحكمة المشكلة من عشرة كرادلة ومناقشتهم ومقارعتهم الحجة بالحجة. أى أن جاليليو رآها فرصة سانحة لفضح أعدائه على المستويين: اللاهوتى والعلمى. وأسقط فى يد جاليليو عندما أفهمه نيكولينى أن المحاكمة لن تعطيه فرصة للدفاع عن نفسه، ناصحًا إياه بالخضوع والامتثال لكل ما يرغبون فيه فى مسألة دوران الأرض. وتلقى جاليليو هذا الخبر كالصاعقة. ويصف نيكولينى رد فعل الرجل الطاعن فى السن، قائلاً إنه «سقط فى بئر من الأحزان وانهارت قواه منذ ليلة الأمس، لدرجة جعلتنى أنزعج على حياته. كنا جميعًا نحاول أن نهدئ من روعه ونعزيه ونساعده عن طريق معارفنا وما نملك من اتصالات؛ لأنه فى الحقيقة يستأهل كل خير».

الصراع بين الكنيسة وجاليليو يصل إلى ذروته

بدأت فى روما يوم ١٢ أبريل ١٦٣٣ محاكمة جاليليو الثانية والنهائية أمام مفتش عام محكمة التفتيش ومساعديه ومدعى المفتش العام الأب ڤينسنزو ماكيولانو أو ماكولانى Vincenzo Maculano . والدارسون لا يعرفون عن هذا الأب الدومينيكانى سوى النزر اليسير. ويبدو أن البابا اختاره لهذه المهمة بسبب كفاءته الإدارية التى تجلت عند تكليفه بالإشراف على تعزيز قلعة سان أنجلو.

مثل جاليليو فى صبيحة اليوم المذكور أمام المكتب المقدس. وجرت العادة على سجن المتهم سجنًا انفراديًا حتى تنتهى محاكمته، ولكن بالنظر إلى اعتلال صحة جاليليو ومراعاة لقدر ومهابة دوق فلورنسا العظيم سمح له بالمكوث فى مقر محكمة التفتيش الواقع بالقرب من الفاتيكان. ونصت الإجراءات على أن يبدأ المتهم بحلف اليمين. ثم سئل ما إذا كان يعرف أو يخمن السبب فى استدعائه. فأجاب جاليليو قائلاً إنه يفترض أن استدعاءه حدث نتيجه نشره كتابه الأخير (حوار عن نظامين عالميين جديدين). وأظهروا له نسخة من الكتاب فأقر أنه الكتاب موضع المساءلة. وسأله المحققون عن أحداث عام ١٦١٦ (أى أحداث المحاكمة الأولى)، فأجاب أنه حضر إلى

روما فى ذلك العام بمحض اختياره كى يعرف الرأى المناسب الذى ينبغى عليه اتخاذه بشأن الافتراض الكوبرنيكى، وحتى يتأكد أنه لا يدين بأية آراء غير الآراء التى تدين بها الكنيسة الكاثوليكية. ثم سألته المحكمة عن الاجتماعات التى عقدها مع العديد من الكرادلة قبل صدور المرسوم ضده، فأجاب أن هذه الاجتماعات تمت بناء على طلب الكرادلة ورغبتهم فى التعرف على المذهب الكوبرنيكى، وهو مذهب يصعب فهمه على غير المتخصصين.

ثم دار الاستجواب على النحو التالى :

س : ماذا حدث بعد ذلك؟

ج : فيما يتعلق بالجدال الذى احتدم حول الرأى السابق ذكره القائل بثبات الشمس ودوران الأرض، قرر مجمع الفهارس المقدس أن مثل هذا الرأى اذا اعتبر حقيقة مؤكدة يتناقض مع الكتاب المقدس ويسمح به فقط كافتراض، كما هو الحال مع كوبرنيكوس.

س : هل تم تبليغك بهذا القرار؟ ومن قام بتبليغك؟

ج : الكاردينال بيلارمين هو الذى أبلغنى بقرار مجمع الفهارس المقدس.

س : وهل قال لك الكاردينال بيلارمين أى شىء آخر؟

ج : قال لى إن رأى كوبرنيكوس المذكور يمكن الأخذ به كتخمين أو افتراض، كما هو الحال مع كوبرنيكوس. ونيافته يدرك أننى مثل كوبرنيكوس أخذت بهذا الرأى كتخمين، كما يتضح من الإجابة التى أرسلها سيدنا الكاردينال ردًا على خطاب تلقاه من باولو أنتونيو فوسكارينى المنتمى إلى طائفة الرهبان الكارميلايت. وإنى أحتفظ بنسخة من هذا الكتاب الذى وردت فيه العبارة التالية: «يبدو أن جنابكم والسيد جاليليو تتصرفان بحكمة، حيث إنكما لا تتحدثان بحزم ويقين. ويرجع تاريخ خطاب الكاردينال إلى ١٢ أبريل ١٦١٥. وهو يعنى أنه لا يجب الأخذ بهذا الرأى أو الدفاع عنه باعتباره رأيًا مطلقًا».

واستطرد جاليليو قائلاً :

«فى شهر فبراير ١٦١٦، أخبرنى سيدنا الكاردينال بيلارمين أن رأى كوبرنيكوس إذا تم الأخذ به بصورة مطلقة فسوف يتناقض مع الكتاب المقدس. ومن ثم يجب عدم

اعتناقه أو الدفاع عنه، ولكن يمكن الأخذ به واستخدامه على أنه افتراض وطبقًا لهذا، فإننى أملك شهادة من الكاردينال بيلارمين بتاريخ ٢٦ مايو ١٦١٦ يقول فيها، إن رأى كوبرنيكوس لا يمكن الاقتناع به والدفاع عنه لأنه يتعارض مع الكتاب المقدس. وها أنا أقدم نسخة من هذه الشهادة. وعندما سألته محكمة التفتيش عما إذا كان هناك أى شخص أو أشخاص حاضرين أثناء تسلمه هذه الشهادة من الكاردينال بيلارمين، أخذت الشكوك تساور جاليليو حول مغزى هذا التساؤل، خاصة لأن ريكاردى وسير ستورى والبابا لم يشيروا إلى وجود أحد غير بيلارمين. كان جاليليو يعرف عن يقين وعلى وجه التحديد كل ما قاله بيلارمين فى هذا الشأن، ولكن سوء حظه شاء أن يموت بيلارمين منذ ثلاثة عشر عامًا، الأمر الذى يتعذر معه التأكيد على صحة أقواله. ودعاه هذا إلى توخى الحذر فى إجابته.

قال : «عندما عرض سيدنا الكاردينال لما قلته حول آراء كوبرنيكوس كان بعض الآباء الدومينيكان حاضرين، غير أنى لم أكن أعرفهم ولم أرهم من قبل».

س : هل أصدر إليك الآباء الحاضرون أو أى شخص أمرًا آخر بخصوص هذا الموضوع؟

وما إن تلقى جاليليو هذا السؤال، حتى أصابه الذعر الواضح. فقد رأى رئيس محكمة التفتيش يتطلع إلى وثيقه أمامه كان جاليليو يجهل فحواها. وخشى أن يكون المحققون قد أعدوا له شركًا للإيقاع به، كما خشى أن يعارض المحكمة معارضة صريحة. وبدأ يضرب أخماسًا فى أسداس هل سطر بيلارمين شيئًا آخر غير ما أحاطه به علمًا؟ أليس من الجائز أن تكون بعض كلمات بيلارمين قد فاتته؟ وهل لوجود الرهبان الدومينيكان أثناء اجتماع بيلارمين به أى مغزى؟ وفى حيرته وارتباكه أجاب جاليليو بما يلى :

«لا أتذكر أن أحدًا من الحاضرين ألمح إلى هذا الأمر سوى الكاردينال بيلارمين الذى أصدره إلىَّ شفاهة. وأتذكر أن منطوق هذا الأمر هو الامتناع عن الأخذ (بمذهب كوبرنيكوس) أو الدفاع عنه. لست أذكر، فأنا لم أعتد التفكير فى هذا الأمر أو أبذل جهدًا لترسيخه فى ذاكرتى، حيث إننى فيما بعد تلقيت بعد أسابيع قليلة الشهادة التى أبرزتها الآن والمؤرخة فى ٢٦ مايو، والتى تنص بكل وضوح على أمرى بعدم الأخذ أو الدفاع عن «مذهب كوبرنيكوس». وذاكرتى لا تذكر العبارتين الأخريين المضافتين،

وهما «عدم تدريس» و«بأية طريقة»؛ لأننى أفترض عدم ورودهما فى الشهادة المذكورة التى استندت إليها، والتى احتفظت بها خوفًا من النسيان.

س : وهل حصلت على تصريح بكتابة الكتاب الذى تعترف بتأليفه بعد إصدار الأمر المذكور إليك؟

حينئذ ارتعدت فرائص جاليليو الطاعن فى السن، وخشى من الإشارة إلى مسئولية البابا وتشجيعه له حتى لا يعقد الأمور وينهار المعبد فوق رأسه. قال:

أنا لم أطلب تصريحًا بتأليف الكتاب، لأننى لم أر فى كتابته أننى أخالف الأمر بعدم الأخذ برأى كوبرنيكوس أو الدفاع عنه أو تدريسه، ناهيك عن شق عصا الطاعة على هذا الأمر.

س : عندما طلبت الإذن بطبع الكتاب، هل أخبرت المسئول الدينى بالأمر الصادر إليك؟

ج : لم يحدث أننى ناقشت هذا الأمر معه حين طلبت الموافقة على طبع الكتاب، حيث إننى لم أر ضرورة لذلك وحيث إن الشكوك لم تساورنى بشأنه؛ لأننى لم أعتنق أو أدافع فى هذا الكتاب عن دوران الأرض وثبات الشمس. بل إننى نزعت إلى إثبات الرأى المناهض لكوبرنيكوس وأوضحت أن محاجاته واهية وغير نهائية.

وبهذا انتهت جلسة التحقيق الأولى.

وفى الوقت نفسه، حرص المحقق على سؤاله عدة مرات عن الذين أبلغوه بأمر مرسوم ١٦١٦. ولم تتغير إجابات جاليليو فى جميع هذه المرات: إن أحدًا لم يخاطبه فى هذا الشأن سوى الكاردينال بيلارمين. وكان هدف المحقق من هذا السؤال المتكرر أن يزل لسان جاليليو فيعترف بوجود أمر خاص أصدره إليه قوميسار محكمة التفتيش، الذى حضر المقابلة التى أجراها بيلارمين مع جاليليو. فمثل هذا الاعتراف قمين بأن يجعل من ورقة ١٦١٦ وثيقة رسمية وقانونية مائة فى المائة. ولكن جاليليو أصر فى أقواله إن بيلارمين هو الوحيد الذى أبلغه مسبقًا بمضمون مرسوم عام ١٦١٦ الذى كان فى سبيله إلى الصدور.

لم يحالف التوفيق جاليليو حين زعم أنه سعى فى حواره إلى دحض مذهب كوبرنيكوس، حيث إن المحققين شعروا أنه يغشهم ويخادعهم. وتضايق منه المحققون

لكثرة احتجاجاته، وبعد استجوابه لمدة خمسة أيام كتب المحققون تقاريرهم، وهم: المستشار أوجستينوس أوريجيوس Augustinus Oregius (مستشار البابا اللاهوتى)، وملشيور إنشوفير Malchior Inchofer، وزكريا باسكواليجو Zacharias Pasquligo. وأجمعت تقاريرهم الثلاثة على أن جاليليو لم يناقش رأى كوبرنيكوس المحظور وحسب، بل آمن به وعلمه ودافع عنه. وساورهم الشك فى أنه لا يزال يؤمن به حتى ذلك الوقت. ومن ناحيته قدم المستشار إنشوفير تقريرًا من سبع صفحات مفاده:

أولاً: إنه من المؤكد أن المتهم قام بتعليم هذا المذهب، فليس التعليم سوى نقل المعرفة إلى الآخرين. ومن المؤكد أيضًا أن جاليليو مارس تعليمه منذ أن نشر نبذته عن البقع الشمسية وعرض محاجاته على نحو لا يستقيم بدون الاعتقاد بدوران الأرض.

ثانيًا: إنه يدافع أيضًا عن مذهب كوبرنيكوس. لقد اقترح كوبرنيكوس طريقة صريحة لإجراء الحسابات (كما أشار أوسياندر فى تصديره لكتاب هذا الفلكى)، فى حين أن جاليليو سعى إلى تأكيد هذا المذهب وترسيخه وسَوق المحاجات على ذلك، الأمر الذى يؤكد ممارسته الدفاع عنه. ولو كان فى نيته إعمال الفكر، لما أقدم بزهو وصلف على الاستهزاء بأرسطو وبطلميوس وإنكار الحقائق التى لا تروق له. وطالما أنه استهزأ بهما فى كتاباته، فليس هناك أدنى شك فى أنه فعل أكثر من ذلك فى محادثاته.

ثالثًا: إن جاليليو يدين بمذهب كويرنيكوس عن طريق استنتاجاته من ناحية وتأكيداته من ناحية أخرى، وينبغى ألا نأخذ احتجاجاته المتكررة مأخذ الجد للتدليل على أنه لم ينتهك المرسوم الصادر بشأنه. ولو أنه يقصد هذا بالفعل فلماذا لم يقم بالدفاع عن المرسوم الذى أصدره المجمع المقدس. إن هدفه الحقيقى هو تعزيز المذهب الكوبرنيكى بالمزيد من المجادلات والمحاجات. فضلاً عن أنه يستخدم اللغة الإيطالية فى عرض مجادلاته، فى حين أن اللغة اللاتينية هى لغة البحث والاستقصاء العلمى. وهو يسعى باستخدام اللغة الإيطالية إلى اكتساب عامة القراء إلى صفه.

رابعًا: يزعم جاليليو إنه يناقش افتراضًا رياضيًا. لكنه يصيغ هذا الافتراض كحقيقة واقعة، وهذا ما لا يفعله علماء الرياضيات مطلقًا. ولو كان المتهم لا يدين بهذا الرأى بقوة، لما تصدى للدفاع عنه بكل هذه الجسارة، ولما كتب خطابه إلى الدوقة العظيمة

ولما أقدم على السخرية من أصحاب الرأى التقليدى الذين يصفهم بأقزام الفكر ممن لا يتبعون فيثاغورث أو كوبرنيكوس. وهو - على النقيض من ذلك - يمتدح وليم جيلبرت Gilbert المهرطق المارق الكثير المشاحنات والذى يسفسط فى دفاعه عن مذهب كوبرنيكوس.

والجدير بالذكر، أنه بعد مرور أكثر من قرن وفى عام ١٧٤٤ على وجه التحديد، صرح بابا روما بنيدكت الرابع عشر بطبع نسخة منقحة من حوار جاليليو، بالرغم من أن الحظر كان مفروضًا على جاليليو وكوبرنيكوس آنذاك. وفى واقع الأمر، لم يطرأ أى تغيير فى النسخة المنقحة ولكن أضيفت إليها كلمة «إذا» فى مقدمة الجمل والعبارات حتى تبدو افتراضية.

بقى جاليليو حبيسًا فى مبنى محكمة التفتيش يكابد الآلام الممضة الناجمة عن إصابته بمرض عرق النساء ومتاعب المصران. ومرت عليه فى الحبس أسابيع دون أن يحدث شىء، ويبدو من هذا التأخير أن المحكمة احتارت فى أمر هذه القضية. وكان الكاردينال فرانسيسكو باربرينى واحدًا من قضاة المحكمة العشرة، فطلب من قوميساريتها أن تجد مخرجًا لبقًا من هذه الورطة. وذات يوم دخل القوميسار حجرة جاليليو وجلس معه يتجاذبان أطراف الحديث. ويروى قصة هذه المقابلة خطاب أميط اللثام عنه مؤخرًا فى عام ١٨٣٣. يقول كاتب الخطاب الراهب دا فيرنزولا إنه تمكن من إقناع جاليليو بخطئه، وإن جاليليو طلب منه إمهاله بعض الوقت كى يتسنى له إعداد اعترافه بهذا الخطأ. والجدير بالذكر، أن كاستيللى مريد جاليليو ونصيره ذهب إلى مقابلة الراهب فيرنزولا عند بداية المشكلة، وأنه تحدث إلى فيرنزولا بحرية تامة. قال كاستيللى لفيرنزولا إنه لا يجد أدنى غضاضة فى التأكيد على دوران الأرض وثبات الشمس، وإنه لا يوجد مبرر واحد لحظر «حوار» جاليليو فوافقه الراهب فيرنزولا على هذا الرأى، قائلاً إن مثل هذه المسائل لا ينبغى مناقشتها فى إطار الكتاب المقدس. ولكن عندما تفاقمت مشكلة جاليليو وأخذت تتعقد اتسم موقف فيرنزولا من جاليليو بالتصلب والتشدد.

قلنا إن المحققين تضايقوا من كثرة احتجاجات جاليليو، لدرجة أن قوميسار محكمة التفتيش خاطبه قائلاً: «ياعزيزى السيد جاليليو، يبدو أنك لا تدرك حقيقة وضعك. أنت تصر على الحديث عن كتابك، فى حين أننى لم أسألك عنه، وأنت لازلت

تريد منا الاعتقاد بسلامة أفكارك ونقاوة نواياك وتعترف على الأكثر بأنك أسأت فهم التعليمات..».

واستطرد القوميسار مخاطبًا جاليليو يقول، إنه قد يحتج بأن الأمر الصادر إليه عام ١٦١٦ يخلو من توقيعه بالعلم، وبأن السلطات الكنسية العليا شجعته على مناقشة مذهبه وأنه لا يمكن مناقشة أى مذهب بدون تعليم مبادئه وشروطها. وتساءل القوميسار عن دوافع جاليليو، مشيرًا إلى أنها ليست فوق مستوى الشبهات فكل الدلائل تشير إلى إيمانه بالمذهب الكوبرنيكى. وهو ما تؤكده التقارير التى سطرها الخبراء عن كتابه. ثم أضاف القوميسار أن الكاردينال بيلارمين شرح له بكل وضوح نوايا الكنيسة التى وعد بطاعتها ثم ما لبث أن تجاهلها. واتهمه القوميسار بمحاولة خداع القضاة وتأكيد مذهبه الذى يتناقض مع تعاليم الكنيسة. ولام القوميسار جاليليو لأنه أساء استعمال الحرية الممنوحة له بافتراض أمور تنطوى على إنكار العقل الإلهى اللامحدود. ثم لجأ القوميسار إلى لغة التهديد والوعيد، قائلاً إن الإجراءات ضد جاليليو قد اتخذت وليس من السهل وقفها، وهى إجراءات تقتضى استجوابه بمنتهى الدقة والتشدد واستخدام الوسائل المؤسفة لإرغامه على الاعتراف، عندئذ سوف يشمله المكتب المقدس برحمته ويزج به فى سجونه. ولكن القوميسار استطرد قائلاً إن أحدًا لا يريد لهذا أن يحدث. وأيضًا نصح القوميسار جاليليو بالاعتراف بعصيان الأوامر الكنسية وبالاعتذار بالنسيان أو الفخر أو الخيلاء أو أية شرور أخرى (بدلاً من كثرة الاحتجاج والإصرار على براءته).

وبعد مرور يومين سألته المحكمة فى ٣٠ أبريل ١٦٣٣ ما إذا كان لديه ما يضيفه، فأجاب قائلاً إنه واصل التفكير لعدة أيام فى الاستجوابات التى خضع لها يوم ١٢ أبريل من العام الآنف الذكر بخصوص الأمر الذى أصدره إليه المكتب المقدس بمنعه من الاعتقاد فى أو الدفاع عن أو تدريس ـ على أى نحو من الأنحاء ـ المذهب الكوبرنيكى الذى تمت إدانته للتو، الأمر الذى دفعه إلى إعادة قراءة حواره بعد انقضاء ثلاثة أعوام على تأليفه. وكان هدفه من وراء ذلك أن يكتشف ما إذا كانت قد بدرت منه سهوًا أية كلمة قد يستشف منها القارئ أو السلطات عصيانه للكنيسة أو انتهاكه لأوامرها.

ويقول جاليليو، إن السلطات تكرمت بالسماح له بالحصول على نسخة من كتابه فتوفر على قراءتها بعناية فائقة. واعترف جاليليو أن الكتاب ظهر له كما لو كان كتابًا

جديدًا عليه من تأليف مؤلف آخر، كما اعترف بكل صراحة أن كثيرًا من مواضيع الكتاب بدت وكأنها مكتوبة بطريقة توحى للقارئ الذى يجهل هدف الكتاب الحقيقى - وقد يكون له الحق فى ذلك - أن يفترض أننى أسوق المحاجات لإثبات صحة ما هو خطأ وما كنت أنوى دحضه وتفنيده».

ومضى القوميسار يتهم جاليليو بالدفاع بقوة عن محاجتيه، أولاهما خاصة بالبقع الشمسية والأخرى بالمد والجزر، على نحو لا يتفق مع قوله إنهما محاجتان غير نهائيتين وإنه يعتزم دحضهما.

وتم صرف جاليليو من ساحة المحكمة بعد هذا التصريح الذى تفوه به القوميسار، ولكن جاليليو طلب منه السماح بالإدلاء بالبيان التالى :

«من أجل زيادة تأكيدى أننى لا أومن بصحة الرأى الذى تمت إدانته والخاص بدوران الأرض وثبات الشمس، أرجو منحى الوسيلة والوقت اللازمين لشرح موقفى بصورة أوضح، حيث إنى على أتم استعداد أن أفعل ذلك. وسوف تتوافر لدى فرصة أشد ما تكون مناسبة لأن أفعل هذا؛ لأن الكتاب المنشور يتحدث عن أن المتحاورين اتفقوا فيما بينهم على اللقاء مرة أخرى بعد مضى وقت معين لمناقشة مشاكل الطبيعة غير ذات الصلة بالأمور التى سبقت مناقشاتها فى اجتماعاتهم. ونظرًا لأن هذا سوف يعطينى فرصة يوم إضافى أو يومين إضافيين، فسوف أقطع على نفسى وعدًا بمواصلة المحاجات التى سبقت للدفاع عن الرأى المذكور لإثبات خطئها وإدانتها، كى أدحضه بطريقة فعالة للغاية اعتمادًا على بركة الله. وإنى لهذا أتوسل إلى محكمتكم المقدسة أن تساعدنى على تنفيذ قرارى الصعب ووضعه موضع التنفيذ».

كانت كلمات جاليليو الأخيرة كافيه كدليل على نجاح القوميسارية فى أن تنتزع منه ما ترغب من اعتراف. وهكذا نجحت الكنيسة الكاثوليكية فى إذلاله وحمله على إنكار مذهبه. وتقذ فيرنزولا وعده بأن أطلق سراحه من مقر سجنه فى بيت سفير فلورنسا لدى روما، الذى كتب إلى الدوق العظيم معبرًا عن استبشاعه لما تعرض له جاليليو من عسف واضطهاد. قال هذا السفير: «إن التعامل مع محكمة التفتيش شىء مروع، فقد عاد الرجل المسكين (جاليليو) أقرب إلى الموت منه إلى الحياة».

وتم الاستجواب التالى يوم ١٠ مايو فى العام نفسه فى جو يخلو من الرسميات. وطبقًا للقواعد المرعية، سمح فيرنزولا للمتهم أن يقدم ما يشاء من دفاع عن نفسه.

ودافع جاليليو عن نفسه، فقال إنه لم يوضح لرئيس القصر المقدس الأمر الذى سبق صدوره عام ١٦١٦ منذ ما يقرب من ستة عشر عامًا والخاص بحظره من الإيمان أو الدفاع عن دوران الشمس وثباتها؛ لأنه شعر بعدم وجود ضرورة لذلك. وأضاف أنه لا يذكر أن عبارة حظر تدريسه بأى شكل من الأشكال قد وردت فى نص هذا الأمر. ولكن عندما رأى شانئيه يلطخون سمعته، حرص على إظهار نقاوة مقصده الذى لا يعرف الختل والخديعة. كما حرص أن يزوده الكاردينال بيلارمين بشهادة تشرح السبب الذى جعله يستدعيه. وأضاف جاليليو أن حيازته على هذه الشهادة التى سطرها بيلارمين بخط يده، جعلته لا يهتم بأن يتذكر حرفيًا ما سبق للأب بيلارمين أن قاله له شفاهة. وهو لا يذكر ورود عبارة «والامتناع عن تعليم مذهبه بأية طريقة كانت»، فى حين أنه لم يدر بخلده وجود أى خلاف بين النص الصادر إليه شفاهة والنص الذى كتبه بيلارمين بخط يده. بل تصور أن الأمر الذى أصدره مجمع الفهارس لابد وأن يكون مطابقًا للأمر الشفهى، ولهذا لم يفكر فى تبليغ رئيس القصر المقدس وإحاطته علمًا بالأمر القديم.

وأكد جاليليو أنه إذا كانت هناك بعض الشوائب فى كتابه فإنها ترجع إلى زلات القلم، وإلى طموح زائل ورضا عن النفس ورغبة فى إظهار تفوقه فى الجدال على غيره من سائر الكتاب. وهى عيوب هو على أتم استعداد لإصلاحها رغم أنها افتراء عليه من الشانئين والحاقدين. وتوسل جاليليو فى دفاعه إلى قضاته أن يراعوا كهولته فهو فى السبعين من العمر، وأن يراعوا إجهاده من رحلته الطويلة والشاقة التى قام بها فى طقس بالغ القسوة للتخفيف من عقابه على ما ارتكب من وزر، حيث إنه يثق فى رحمة وطيبة قلب قضاته. وأرفق جاليليو بتضرعاته الشهادة التى كان بيلارمين قد كتبها له بخط يده.

ويسجل المؤرخون الأمر الصادر فى عام ١٦١٦، وفيما يلى نصه :

«إنه فى يوم الجمعة الموافق السادس والعشرين من فبراير، تم استدعاء المدعو جاليليو للمثول أمام نيافة الكاردينال بيلارمينو فى قصره ومقر إقامته بحضور مايكلانجلو سيجيرى لودى المبجل الذى يشغل وظيفة القوميسار العام للمكتب المقدس، حيث تم تحذيره من خطأ الرأى السالف الذكر. وأيضًا تم تحذيره لنبذ هذا الرأى. وبعدئذ على الفور وفى حضورى وحضور الشهود ونيافة الكاردينال، قام

القوميسار المذكور بأمر المدعو جاليليو باسم قداسة البابا ومجمع المكتب المقدس بأن ينبذ تمامًا الرأى القائل بأن الشمس مركز الكون وأنها ثابتة وأن الأرض هى التى تدور، وبألا يؤمن أو يعلّم أو يدافع عن هذا الرأى بأية طريقه شفاهة أو كتابة، حتى لا يتخذ المكتب المقدس الإجراءات ضده. وقد وافق المدعو جاليليو على هذا الأمر ووعد بطاعته (تحرر فى روما فى المكان السالف الذكر فى حضور بادينو نوريس Ba-dino Noiras وأجوستينو مونجاردو Agostino Mongardo القاطنين فى قصر الكاردينال المذكور والشهود).

ولمن يرغب فى المقارنة نورد فيما يلى نص الشهادة الخطية التى أبرزها جاليليو أمام قضاته، والتى كان قد طلب من بيلارمين أن يعطيها له:

«نحن الكاردينال روبرتو بيلارمينو قد نما إلى سمعنا عن طريق الوشاية أن السنيور جاليليو جاليلى تراجع عن آرائه واستتيب الاستتابة الصحيحة. وبالنظر إلى أنه طلب إلينا إيضاح حقيقة ما حدث، فإنى أعلن بقدر علمنا أن السنيور جاليليو لم يتراجع فى حضرتنا أو حضرة أى شخص فى روما أو فى أى مكان غير روما عن أى رأى أو مذهب يدين به. كما أنه لم تعرض عليه أية استتابة نصوح، فكل ما حدث أنه تم تبليغه بالإعلان الصادر عن قداسة البابا والذى نشره مجمع الفهارس المقدس، والذى ورد فيه أن المذهب المنسوب إلى كوبرنيكوس والمنادى بدوران الأرض حول الشمس وثبات الشمس فى وسط الكون دون أن تتحرك من الشرق إلى الغرب، يجافى ما جاء فى الكتاب المقدس، ومن ثم لا يمكنه الدفاع عنه أو الإيمان به. وبوصفنا شهودًا على ذلك قمنا بكتابة هذه الكلمات بخط يدنا يوم ٢٦ مايو ١٦١٦».

وبمقارنة الوثيقتين يلاحظ الدارسون أن الوثيقة الأولى تفتقر إلى الانتظام فى الشكل، وأن تعليمات المكتب المقدس إلى بيلارمين ورواية بيلارمين لما حدث فى ذلك تتفقان مع الشهادة التى أعطاها هذا الكاردينال لجاليليو ولا تتفقان مع الأمر الكنسى الخاص بجاليليو الصادر عام ١٦١٦.

تفاؤل كاذب

أطلقت محاكم التفتيش سراح جاليليو فاتخذ فى مايو ١٦٣٣ من فيلاً مديسيس سكنًا له، الأمر الذى أحيا فيه الأمل والتفاؤل، ظنًا منه أن الأيام أخذت تبتسم له.

وتوقع أصدقاؤه انتهاء قضيته بهدوء وسكينة، وكتب الكاردينال كابونى من فلورنسا معبرًا عن يقينه من انتهاء القضية، بل إن جويدوكى وأجيونتى وسينى بعثوا بالتهنئة إلى جاليليو، كما أن رئيس الأساقفة بيكولومينى سأل صديقه جاليليو عن الوقت المناسب كى يرسل إليه مساند نقالة لحمله إلى مدينة سيينا للإقامة فيها.

وأيضًا فرحت ابنة جاليلو الراهبة ماريا سيلست، وتهللت عندما سعدت بسماع نبأ إطلاق سراح والدها. وبسبب شدة انفعالها أصابها صداع عنيف استغرق يومًا وليلة. ودفعها قلقها على والدها إلى نقل جميع أوراقه من منزله حتى لا تقع فى أيدى محاكم التفتيش التى قد تغير على مسكنه متوقعة أوخم العواقب، ومتضرعة إلى الله بعيون لا يجف لها دمع أن يحفظ والدها من الأذى. وأيضًا كتبت إلى والدها تقول، إن خطاباته إليها تثلج صدرها وتعبر له عن سعادتها بعودته إلى بيته. وأضافت أن صحته سوف تتحسن لو أنه مكث مع رئيس أساقفة سيينا. وأيضًا أخبرته ابنته فى رسائلها إليه ببعض الأمور المنزلية، مثل ما فعلت بالنبيذ الذى كان يحتفظ به والبرتقال الذى زرعه والقمح الذى اشترته.

وأيضًا فرح نيكولينى بإطلاق سراح صديقه، ولكن ما عرفه عما ينتظر جاليليو شاب فرحته؛ ففى مقابلته مع البابا فى ٢١ مايو عرف أن القضية لم تنته كما كان مظنونًا. قال عن كتاب «حوار» الذى كان السبب فى إثارة المشكلة: «إننى أخشى كثيرًا أن الكتاب سوف يتعرض للحظر، إلا إذا قام جاليليو بكتابة اعتذار عنه. فضلاً عن أنه سوف يستتاب؛ لأن جاليليو انتهك الأمر الصادر له من بيلارمين عام ١٦١٦». ولكن نيكولينى امتنع عن إخباره بذلك مرة واحدة حتى لا يصدمه، كما أنه نصح أصدقاءه فى فلورنسا بالتزام الصمت تجنبًا لإزعاجه.

ورغم ما أشيع من أن مشكلة جاليليو سوف تجد لها حلاً فى غضون عشرة أيام، فقد مرت الأسابيع دون أى حل.

صحيح أن محكمة التفتيش انتهت من النظر فى قضية جاليليو، ولكنها رفعت تقريرها بشأن القضية للسلطات العليا كى تتخذ القرار الذى تراه مناسبًا، وتضمن هذا التقرير الذى لا يحمل توقيعًا تلخيصًا لكل ما جرى. وقد اعتمد البابا والمجمع على الملخص المشار إليه فى توجيه المحاكمة. وفيما يلى مضمون مقدمة هذا التقرير :

ضد جاليليو جاليلى :

فى فبراير ١٦١٥، تسلم الأب الدومينيكانى نيكولو لورينى من فلورنسا خطابًا كتبه جاليليو وأشاعه فى هذه المدينة متبعًا مذهب كوبرنيكوس، ومحتويًا على آراء مشكوك فيها وطائشة. ويقول الأب المذكور إن الخطاب يهدف إلى معارضة بعض الوعظات التى ألقاها الأب كاسينى حول الإصحاح العاشر من سفر يشوع. وكان المرسل إليه المقصود هو الأب كاستيللى، راهب مونتكاسينو الذى كان آنذاك يدرس الرياضيات فى بيزا. ويحتوى هذا الخطاب على النقاط التالية :

- فى الكتاب المقدس آراء كثيرة زائفة إذا فهمت معانى الكلمات بطريقة حرفية (يقول الدارسون إن لورينى قام بتزوير هذه النقطة بعناية).

- فى المجادلات الطبيعية يجىء الكتاب المقدس فى المرتبة الأخيرة (يقول الدارسون إن أعداء جاليليو غيروا فى أقواله بحيث تتفق مع نواياهم السيئة).

- إن الكتاب المقدس قام بتحريف بعض ركائز مبادئه الأساسية، بأن نسب إلى الله نفسه ما هو أبعد ما يكون عن جوهره ويتعارض مع هذا الجوهر (يقول الدارسون إن لورينى زور كلمة «تحريف»).

- عند مناقشة المسائل الطبيعية يجب على نحو ما أن تسود المحاجة الفلسفية على المحاجات القدسية (أى اللاهوتية).

- إن الأمر الذى أصدره يشوع للشمس (بألا تتحرك) ينبغى فهمه على أنه ليس صادرًا إلى الشمس، بل إلى أقصى منطقة فى الفضاء الخارجى التى تدور حول الأرض طبقاً لنظرية بطلميوس الفلكية Primum Mobile.

- استحالة الحصول على أصل هذا الخطاب رغم كل الجهود المبذولة (يقول الدارسون إن هذا غير صحيح، حيث إن جاليليو سلم هذا الخطاب إلى السلطات فى ١٥ فبراير ١٦١٥ ولكنه لم يضم إلى الملف الخاص بقضيته).

وأيضًا عند استجواب الأب كاسينى شهد بالتالى :

- إن جاليليو قال إن الله صدفة ونسب إليه الضحك والبكاء.. إلخ، وأن المعجزات التى صنعها القديسون ليست معجزات حقيقية. (يقول الباحثون بأنها تهمة زائفة، حيث إن كاسينى لم يقل بطريقة مباشرة إن جاليليو عبر عن هذه الآراء).

- إن جاليليو ذكر بعض أسماء الشهود الذين اتضح من استجوابهم أن مثل هذه الآراء ليست تأكيدية من جانبه وجانب تلاميذه، بل هى مجرد آراء مطروحة للنقاش فقط (يقول الباحثون إن هذه النقطة مجرد ادعاء، فقد أوضح أتافانتى أنه ليست لجاليليو أية علاقة ببعض الآراء التى طرحها أنافانتى كدارس لاهوت على بساط النقاش).

- إن جاليليو فى كتابه عن البقع الشمسية فى روما ذكر رأيين (دوران الأرض وثبات الشمس) (يقول الباحثون عن هذه النقطة إن المصدر الحقيقى لهذين الرأيين ليس جاليليو نفسه، بل الإدانة التى وجهها كاسينى لجاليليو. ولاشك أن الادعاء باستقاء هذين الرأيين من كتاب جاليليو المطبوع وليس من إدانة كاسينى لجاليليو ساعد على تعقيد قضيته).

- وقد تم توصيف هذين الرأيين بأنهما مضحكان من الناحية الفلسفية، فالرأى الأول يتسم رسميًا بالهرطقة لأنه يتعارض تعارضًا مباشرًا مع الكتاب المقدس ومعتقدات القديسين، فى حين أن الرأى الثانى ينطوى على أقل تقدير على إيمان خاطئ من الناحية اللاهوتية الحقة.

- وبناء عليه، قام قداسة البابا فى ٢٥ فبراير ١٦١٦ بأمر الكاردينال بيلارمين باستدعاء جاليليو للمثول أمامه (يقول الباحثون إن هذا يعطى الانطباع بأن جاليليو حضر إلى روما نتيجة الاستدعاء الصادر عام ١٦١٥، الأمر الذى أنكره جاليليو بكل وضوح وجلاء)، آمرًا جاليليو بنبذ - وليس مناقشة بأية طريقة كانت - الرأى الخاص بعدم حركة الشمس وثبات الأرض (يبرز الباحثون ورود خطأين فى هذه النقطة، حيث إن الخطأ الأول يتعلق بدوران الأرض وليس ثباتها. فضلاً عن أن تعليمات بيلارمين لم تشمل عبارة (نبذ مناقشة هذا الرأى بأية طريقة كانت).

- إن الكاردينال بيلارمين لمح لجاليليو فى السادس والعشرين من الشهر المذكور، وفى حضرة الأب قوميسار المكتب المقدس والمسجل والشهود - بهذا الأمر فوعد بطاعته. ومفاد هذا الأمر «أنه ينبغى عليه أن ينبذ تمامًا الرأى المشار إليه، وأن يمتنع عن الاعتقاد به وتعليمه وتدريسه والدفاع عنه بأية طريقة كانت حتى لا يتخذ المكتب المقدس الإجراءات ضده (يقول الدارسون إن ورود المعلومة على هذا النحو يقصد بها التضليل وتشويه الوثيقة الأصلية، حيث إن الذى أورد الأمر الآنف الذكر هو قوميسار المكتب المقدس وليس الكادرينال بيلارمين نفسه. وأيضًا يعلق الباحثون بقولهم إن من

يقرأ هذه الوثيقة كما هى ، لن يتنبه إلى التناقض الموجود بين الأوامر التى أصدرها المجمع المقدس وتنفيذها فى قصر بيلارمين كما ورد فى الوثائق، كما سوف يخفى عليه دفاع جاليليو عن نفسه وهو دفاع له أهميته. وأيضًا يخلص القارئ إلى نتيجة مفادها أن المتهم اعترف بذنبه فى ارتكاب بعض التجاوزات البسيطة من أجل الهروب من اتهامه بالهرطقة).

هذا ما ورد فى مطلع التقرير المشار إليه تحت عنوان: «ضد جاليليو جاليلى». والغريب فى هذا التقرير أنه يذكر تهمة الهرطقة التى سبق أن أضافها كاسينى إلى ملف جاليليو، وهى التهمة التى تجاهلها محققو محكمة التفتيش المنتمون إلى جيل ١٦١٦. وفى حين أن كاسينى لم يجرؤ أن يتهم جاليليو مباشرة بالهرطقة، نجد أن التقرير لا يجد أدنى غضاضة فى إسنادها بكل صراحة إليه.

ويخطئ المرء إذا ظن أن أزمة جاليليو احتلت حيزًا كبيرًا من تفكير الكنيسة واهتمامها. بالعكس كانت أزمته أمرًا ثانويًا، حتى اهتمام البابا بها كان ثانويًا بالنظر إلى كثرة مشاغله وهمومه، فقد كان مهمومًا بالمؤامرات التى تحاك ضده لتمكين الإسبان من التغلب عليه. فضلاً عن أنه عاش حياته مهددًا ويخشى أن يموت مسمومًا. ويقال إن سببًا غير معلن من أسباب غضبه من جاليلو أن جاليليو أجرى مفاوضات مع البحرية الإسبانية تهدف إلى مساعدتها فى استجلاء خطوط الطول. والحقيقة، أن مشغوليات البابا الكثيرة لم تسمح له بمعرفة قضية جاليليو بكل جوانبها وتفاصيلها. فاللذان كانا على علم دقيق بها هما المقيِّم Assessor وقوميسار محكمة التفتيش. حتى القوميسار العام للمكتب المقدس كان غارقًا فى عدة مشاكل تنفيذية أخرى. والشيء الوحيد المؤكد أن البابا كان على علم بالتقرير الباكر الذى رفعته إليه اللجنة التمهيدية، بالإضافة إلى ملخص الاستجوابات.

والجدير بالذكر ،أن جويدو بنتفوجليو Guido Bentivoglio ألف كتابًا صغيرًا بعنوان: «ذكريات» ورد فيه ما يلى : «الله يعلم مقدار أسفى أن أرى أرشميدس زمانه (أى جاليليو) يمر بمثل هذه المحنة المحزنة. كل ذلك بسبب خطئه لأنه سعى إلى نشر الأفكار الجديدة الخاصة بدوران الأرض بعكس ما تراه الكنيسة. فهذه الآراء أفضت إلى مثوله أمام المكتب المقدس فى روما عندما كنت أشغل وظيفة رئيس المحققين الأعلى، وهناك حاولت أن أساعده بقدر استطاعتى».

وفى بداية الكتاب الصغير «حياة جاليليو» الذى ألفه الكاهن جيراردينى Ghe-rardini ونشره مارجيونى يقول المؤلف، إنه عرف جاليليو عام ١٦٣٣ أثناء وجوده فى روما، وإنه عرض عليه المساعدة عن طريق أحد معارفه وهو من أهم أعضاء المكتب المقدس. وأضاف المؤلف أنه حاول إنقاذه من المهانة الكبيرة التى تعرض لها نتيجة المحاكمة. غير أن جاليليو أعرض عن قبول هذه المساعدة بسبب عدم اطمئنانه إلى نواياه، أو لثقته المطلقة فى براءته.

وضمت العناصر المعادية لجاليليو من القضاة إلى جانب سكاجليا كلاً من جينيتى Ginetti وجسى Gessi وفيروسبى Verospi، وهم جميعًا من أهل روما التى احتدمت الشحناء السياسية بينها وبين فلورنسا، فضلاً عن أنهم من أشد المناصرين للبابا. هؤلاء الأعداء كانو يتوقون إلى إحراق كتاب «حوار» المهرطق، وإلى الزج بمؤلفه جاليليو طيلة حياته فى سجن قلعة سانت أنجلو خلافًا لنية البابا. وقد دفعهم سوء الطوية إلى القول بأن رسوم الدلافين المطبوعة فى صدر كتاب جاليليو عبارة عن رموز ماسونية شريرة، وأن جاليليو المنجم تنبأ بوفاة البابا فى عام ١٦٣٠. ويعبر المبحث الذى وضعه الراهب الجيزويتى أنتشوفر بعنوان: Tractus Syllepticus عن العداء السافر لجاليليو. وأيضًا احتوت مذكرة بيوناميكى Buonamici على ما يشبه خواطر جاليليو آنذاك، فقد اعتبر القوميسار فيرنزولا شخصًا شريرًا تحالف مع طائفة الرهبان الجيزويت لاتخاذ الإجراءات ضد جاليليو بسبب حقدهم على الأب ريكاردى. وفيما بعد استيقن جاليليو من أن الجيزويت هم الذين دسوا له وتآمروا عليه.

ومن الأمور التى حيرت الدارسين وجود صفحة واحدة من اليوميات التى سطرها ج. ف. بيوناميكى، الذى صادق جاليليو فى تلك الفترة من حياته وعرفه عن كثب وأدى له كثيرًا من الخدمات. زار بيوناميكى فى الأول من مايو ١٦٣٢ جاليليو بمجرد وصوله إلى سفارة فلورنسا فى روما. وما إن ترك هذا الرجل مقر السفارة فى ٢ مايو من هذا العام، حتى سطر بكل عناية وصفًا دقيقًا لما جرى لجاليليو منذ أحداث عام ١٦١٦. ويخبرنا بيوناميكى عن الوساطة التى اضطلع بها الأب مافيو باربرينى لتلطيف موقف المجمع من جاليليو، وأيضًا بالملاحظات المتعقلة التى أبداها الكاردينال هوهنزولرن عام ١٦٢٤. ويجدر بالذكر، أن صفحة واحدة تبقت من يوميات بيوناميكى، فى حين اختفت الصفحات التالية لها. ويبدو أن سبب اختفاء هذه الصفحات من اليوميات يرجع إلى محاولة إزالة الإشارات إلى المؤامرات التى دبرت ضد جاليليو، تجنبًا لانتقام

السلطة الكنسية من ضحيتها. ويتضح لنا من المذكرة التى كتبها بيوناميكى أن الجميع تنكروا لجاليليو الذى اعتبر القوميسار ألد أعدائه، وأنه تواطأ فى الدسيسة التى دبرها الرهبان الجيزويت مع الرهبان الدومينيكان ضده. والذى لا شك فيه وجود بعض غلاة المتعصبين أمثال أنتشوفر وتربعهم على عرش المؤسسة الدينية. فضلاً عن أن بعض رجال الدين المنافقين من المشتغلين بالسياسة أو العلم أرادوا التزلف إلى السلطة الدينية على حساب جاليليو.

أما جاليليو نفسه فقد احتقر قضاته احتقارًا لا مزيد عليه، وكثيرًا ما جازف بالتصريح بهذا الاحتقار. وكثيرًا ما نسمع جاليليو يردد الكلام عن مؤامرة فائقة التدبير بدافع «الكراهية والرجس والغش والخديعة». وفى هذا الجو المشبوه قال الأب جرينبرجر Grienberger: «لو أن جاليليو عرف فقط كيف يكسب رضا طائفة الجيزويت عنه لحظى بالسؤدد والمجد فى العالمين وتجنب كل المصائب التى حلت به، ولاستطاع أن يكتب ما يشاء فى كل شىء.. حتى عن دوران الأرض».

الفصل السادس

إصدار الحكم وتراجع المتهم عن آرائه

تمت إحالة الملخص الذى وضعته محكمة التفتيش بشأن قضية جاليليو والتقرير الذى وضعته لجنة الخبراء عنها إلى المجمع المقدس فى أوائل مايو ١٦٣٣ لاتخاذ ما يراه من قرارات. ولكن كان لابد لاتخاذها من انتظار عودة البابا من قلعة جوندولفو. وبعد تأجيل النظر فى هذا الموضوع مرتين، أوردت السجلات أن البابا اتخذ فى ١٦ يونيو ما يلى : «استجواب جاليليو لمعرفة نواياه حتى إذا اقتضى الأمر التهديد باستخدام التعذيب معه، ثم إرغامه على التراجع عن آرائه التى تشوبها شبهة الهرطقة القوية فى اجتماع مجمع المكتب المقدس بكامل هيئته. ثم أدانته وأمرت بالزج به فى السجن كما يشاء هذا المجمع، مع إصدار الأمر له بالكف عن معالجة دوران الأرض وثبات الشمس بأية طريقة، سواء بالكلمة المنطوقة أو المكتوبة حتى لا يتعرض لعقوبة الانتكاس (أى الحكم عليه بالموت). وكذلك يجب فرض الحظر على كتابه الذى يحمل عنوان: «حوار جاليليو». وبالإضافة إلى ذلك، لابد - حتى يعلم الجميع بهذه الأمور - من إرسال نسخ من الحكم عليه إلى كافة الرئاسات الرسولية وكل المحققين الذين يتصدون للهرطقة. كما يجب على وجه الخصوص إرسالها إلى محقق محكمة تفتيش فلورنسا، الذى يتعين عليه تلاوة الحكم فى اجتماع حاشد وبحضور معظم المشتغلين بعلم الرياضيات».

وقد كتب لهذا القرار البابوى الغلبة على أسلوب قوميسارية المجمع المقدس فى معالجة المشكلة، وهو أسلوب يرمى إلى انتزاع اعتراف من جاليليو بخطئه ثم استتابته

وتحديد إقامته فى منزله، بشرط أن يتجنب الكتابة فى المسائل الكونية ويستغرق فى تلاوة صلوات الاستغفار والندم. وكان من الواضح أن خطة قوميسارية المجمع فى التعامل مع جاليليو لم تتضمن نشر وإذاعة الحكم الصادر ضده، أو التراجع عن آرائه علنًا أمام الملأ. فالقوميسارية لم تفكر إلا فى تعليق كتاب جاليليو لحين انتهاء مؤلفه من تصويبه.. ومعنى ذلك أن القوميسارية أرادت معالجة الأمر فى ضوء التعليمات التى كان الكاردينال بيلارمين قد أصدرها فى فبراير ١٦١٦ على نحو ما ذكرنا.

ولكن الأمر صار مختلفًا فى عام ١٦٣٣، حيث أصبح من المطلوب استتابة جاليليو علنًا واستصدار أمر رسمى ضده. ومما ساعد على ذلك أن كثيرًا من القضاة أرادوا أن ينزلوا به أشد العقاب. وكما أسلفنا، لعب الرهبان الجيزويت دورًا بارزًا فى التشهير بجاليليو وشن حملة شعواء عليه فى عام ١٦٣٢، ورأوا فى تدميره فرصة سانحة لتدمير منافسيهم من الرهبان الدومينيكان الذين أعطوه تصريحًا بنشر كتابه. ومن ثم كان من الطبيعى أن يسعى الجيزويت إلى محاكمة جاليليو باعتباره مهرطقًا، وأن يجعلوا من الأب ريكاردى كبش فداء ويهددوا بتقديم الأب كيامبولى إلى المحاكمة.

وسارت محاكمة جاليليو عام ١٦٣٣ على هذا النحو : عندما عرضت القضية على البابا لاتخاذ ما يراه مناسبًا قرر البابا والمجمع المقدس ، كما رأينا، ضرورة إخضاعه لاستجواب متشدد، وضرورة تراجعه عن آرائه أمام الملأ ووضعه فى سجن رسمى. وكان لزامًا على المتهم أن يعترف بخطأ نواياه النابع من غروره وخيلائه. وتقرر عدم قبول دفاعه واعتبار أن نواياه الإجرامية تتعارض مع الكنيسة، وساعد على ذلك طبيعة الملخص المرفوع إلى قداسة البابا، فهذا الملخص لم يغفل دفاع جاليليو عن نفسه وحسب، بل أدخل من الحذف والإضافة ما جعل من السهل إثبات أن جاليليو مذنب. أما التهديد بتعذيب جاليليو فقد كان مجرد إجراء شكلى فقط، حيث إن القانون الرومانى كان لا يسمح بتعذيب رجل فى مثل سن جاليليو أو ظروفه الصحية. ولكن هذا لم يمنع من تخويفه بإطلاعه على وسائل التعذيب.

وبعد مرور يومين سعى نيكولينى - مثلما فعل فى الماضى - إلى مقابلة البابا، راجيًا منه سرعة إطلاق سراح جاليليو وفقًا لتلميحات القوميسار. ولكن البابا فاجأه بإخباره أن القضية قد تم النظر فيها وأنه سوف يتم استدعاء المتهم فى غضون أيام قليلة ليسمع بنفسه الحكم الذى أصدره المكتب المقدس عليه. وعندما توسل نيكولينى

للبابا أن يشمل المتهم برحمته، أجاب البابا بأنه لابد من حظر رأيه لأنه خاطئ ويتعارض مع الكتاب المقدس، وأضاف أن جاليليو سوف يودع فى السجن لفترة معينة لانتهاكه الأمر الصادر إليه عام ١٦١٦. ثم وعد البابا بمقابلة نيكولينى مرة أخرى بعد صدور الحكم عليه للتشاور فى أمر تخفيف هذا الحكم. وعندما واصل نيكولينى توسلاته قال البابا إنه لابد من إيداع جاليليو فى دير مثل سانتا كروتشى. وأضاف أنه لا يعرف ما سيسفر عنه حكم المجمع المقدس على وجه التحديد، رغم إجماع أعضائه على ضرورة استتابة المتهم. ويبدو أن مسألة الإجماع لم تكن مؤكدة؛ لأن ثلاثة كرادلة من القضاة العشرة رفضوا فى نهاية الأمر التوقيع على الحكم. ولم يكن بيد الراهب نيكولينى ما يفعله غير الذهاب إلى جاليليو وتبليغه بالأخبار بكل ما يمكن من رقة وعذوبة للتهوين عليه، دون أن يشير إلى مسألة الزج به فى السجن؛ لأن الأمل كان لا يزال يراوده فى إلغاء حكم السجن.

وفى مساء يوم الاثنين الموافق ٢٠ يونيو ١٦٣٣، تسلم جاليليو استدعاء المكتب المقدس له للحضور فى اليوم التالى. وفى هذه الجلسة الأخيرة تم تحت تهديد التعذيب سؤال المتهم عن نواياه بخصوص معتقداته. وفى صبيحة الواحد والعشرين من التاريخ المشار إليه مثل جاليليو أمام القوميسارية. وبعد أن أقسم القسم المعتاد سُئل عما إذا كان لديه ما يقوله، فأجاب بالنفى.

وبسؤاله عن اعتقاده الآن أو فيما سبق بأن الشمس مركز الكون وأن الأرض تدور وتكمل دورانها مرة كل يوم وأنها مركز الكون، أجاب جاليليو قائلاً:

«منذ زمن طويل، أى قبل أن يتخذ المجمع المقدس قراره بحظر هذ الكتاب وقبل صدور الأمر الذى لمحوا لى به، كنت أعتبر رأى كل من بطلميوس وكوبرنيكوس خاضعًا للنقاش وأن كلاً من الرأيين قد يكون صحيحًا، ولكن بعد أن اتخذ المجمع المقدس القرار المشار إليه وبعد استيثاقى من حكمة السلطات، طرحت جانبًا جميع الشكوك التى تساورنى وآمنت - كما لا أزال أؤمن كحقيقة لا تقبل النزاع - بصحة الرأى البطلمى القائل بثبات الأرض ودوران الشمس».

ثم سئل جاليليو عن رأيه المؤيد لنظرية كوبرنيكوس كما جاء فى كتابه «حوار» المنشور فى وقت لاحق، فأجاب بقوله:

«فيما يتعلق بكتابة الحوار المنشور لم يكن دافعى إلى كتابته إيمانى بصحة مذهب كوبرنيكوس، ولكنه كان ببساطة السعى إلى إظهار الفائدة التى تعود من تقديم البراهين المستمدة من الطبيعة والفلك، والتى يمكن أن تساق لتأييد كل من الجانبين. وكنت أهدف إلى توضيح أن المحاجات التى يستند إليها أى من الجانبين لا تحظى بأى برهان نهائى يثبت صحة هذا الرأى أو ذاك. وحتى نسلك سبيل اليقين يجب علينا الالتجاء إلى قرارات التعاليم الأسمى (المسيحية) كما قد يتجلى لنا من مطالعة عدد كبير من الفقرات الواردة فى كتاب (الحوار) موضوع الاستجواب. ولهذا، فإنى أؤكد وأقسم بضميرى أننى الآن لا أعتقد بصحة الرأى المدان، كما إنى لم أعتقد فيه منذ أن اتخذت السلطات قرارها».

وواصل القضاة استجوابهم لجاليليو، قائلين إن المحاجات الواردة فى «حوار» الدالة على صحة نظرية كوبرنيكوس تجعل المرء يفترض أنه يؤيدها أو أيدها عند تأليف الكتاب، الأمر الذى يقتضى منه أن يقترح علاجًا لهذا الأمر، فرد جاليليو بقوله:

«لست أعتنق ولم أعتنق الرأى الذى نادى به كوبرنيكوس منذ التلميح لى بالأمر الصادر بوجوب نبذ هذا الرأى. وأما بخصوص الباقى، فها أنا ذا ماثل بين أيديكم تفعلون بى ما تشاءون».

عندئذ أمرته المحكمة أن يقول الحق حتى لا يتعرض للتعذيب، فقال: «جئت هنا كى أكون خاضعًا لكم. وأنا لم أعتنق هذا الرأى منذ صدور القرار كما سبق أن ذكرت».

وبهذه العبارة أنهى جاليليو أقواله واختتمت هيئة المحكمة جلستها بتدوين العبارة التالية: «وحيث إنه لم يكن هناك أى شىء آخر يمكن عمله لتنفيذ المرسوم (الصادر فى ١٦ يونيو ١٦٣٣) طلبت منه المحكمة التوقيع على أقواله ثم أعيد إلى مكانه». والجدير بالذكر، أن استجوابه الأخير كان مجرد استيفاء شكلى استغرق أقل من ساعة. ولو أن القوميسار الذى ترأس المحاكمة أراد تضييق الخناق عليه لفعل مثلما فعل من قبل كل من باسكواليجو Pasqualigo وأنتشوفر اللذين استندا إلى مقتطفات من كتاب «الحوار» لمحاصرة جاليليو، ولفعل مثلما فعلت اللجنة التمهيدية التى فحصت كتابه لتتهمه فى نهاية فحصه بشبهة الهرطقة. ولو أنهم فعلوا ذلك لوجد جاليليو نفسه فى موقف أصعب وأكثر عسرًا.

وقبع جاليليو فى السجن ينتظر مصيره المحتوم والحكم الذى سوف تصدره المحكمة عليه. وبطبيعة الحال لا يخفى على أحد أن ما حدث لجاليليو كان نذير شؤم على التقدم العلمى والصحوة النهضوية ليس فى فلورنسا وحدها، بل فى جميع أرجاء إيطاليا.

وفى يوم الأربعاء الموافق ٢٢ يونيو ١٦٣٣، اقتيد جاليليو إلى قاعة واسعة فى دير الدومينيكان المعروف باسم سانتا ماريا فى قلب روما، وهو دير مشيد من حطام معبد قديم لعبادة منيرفا إلهة الحكمة عند الأقدمين. وجىء بالمتهم وهو يلبس لباسًا ناصع البياض، للدلالة على استتابته، وركع على قدميه بين قضاته المجتمعين ليستمع إلى تلاوة الحكم الصادر ضده. وفيما يلى نص هذا الحكم :

«بنعمة الله نحن كاردينالات الكنيسة الرومانية المقدسة والمفتش العام فى محاكم التفتيش المنتدب من قبل الكرسى الرسولى المقدس خصيصًا للتصدى لانحطاط الهرطقة فى كل أرجاء العالم المسيحى :

«بما أنك ياجاليليو ابن المرحوم فينسينزو جاليلى والمواطن الفلورنسى البالغ من العمر سبعين عامًا سبق رفع أمرك إلى المكتب المقدس بسبب اعتقادك بصحة المذهب الزائف الذى يروج له البعض والقائل بأن الشمس تحتل مركز الكون وإنها لا تتحرك، وإن الأرض هى التى تدور وتكمل دورتها مرة كل يوم،

«وبما أنك قمت بتلقين تلاميذك هذا المذهب وأنك تراسلت مع نفر من علماء الرياضيات فى ألمانيا بخصوصه، وبما أنك طبعت بعض الرسائل تحت عنوان: «حول البقع الشمسية» حيث ذهبت إلى صحة هذا المذهب، وبما أنك رددت على اعتراضات الكتاب المقدس على هذا الرأى، وهى اعتراضات كانت تساق ضد هذا الكتاب من وقت لآخر، وبما أنك فسرت الكتاب المقدس وفق هواك، وبما أنك سطرت وثيقة فى شكل خطاب من المفترض أنك كتبته من أجل تلميذ سابق لك وفيه قدمت مختلف الآراء المؤيدة لنظرية كوبرنيكوس والتى تتعارض مع العقل وسلطة الكتاب المقدس،

«فإن المحكمة المقدسة التى انتوت التصدى للفوضى والشر الناجمين (عن مذهبك) والذى يمثل تفاقمهما تهديدًا للإيمان المقدس، وبأمر من قداسة البابا وأسيادنا المبجلين من الكرادلة المسئولين عن محكمة التفتيش العليا ـ فإن خبراء اللاهوت وصفوا الرأى الخاص بثبات الشمس ودوران الأرض على النحو التالى :

«الرأى القائل بأن السماء تحتل مركز الكون ولا تتحرك من مكانها رأى مضحك وزائف من الناحية الفلسفية وينطوى على الهرطقة من الناحية الشكلية، حيث إنه يتناقض تناقضًا صارخًا مع الكتاب المقدس.

«وأيضًا الرأى القائل بأن الأرض ليست مركز الكون وإنها غير ثابتة رأى مضحك وزائف من الناحية الفلسفية، كما إنه يعتبر خطأ إيمانيًا من الناحية اللاهوتية على أقل تقدير.

«ولكن حيث كانت هناك آنذاك رغبة فى استعمال الرأفة معك يوم ٢٥ فبراير ١٦١٦ يتولى نيافة الكاردينال بيلارمين إصدار الأمر إليك بنبذ هذا المذهب الزائف نبذًا كاملاً.

«وفى حالة رفضك تقوم قوميسارية المكتب المقدس بإجبارك على التخلى عن المذهب المزعوم ومنعك من تدريسه للآخرين. وكذلك منعك من الدفاع عنه، بل ومن مجرد مناقشته. وفى حالة عدم امتثالك لهذا الأمر يتعين الزج بك فى السجن. وقد قام الأب قوميسار المكتب المقدس آنذاك بوضع هذا الأمر موضع التنفيذ، وذلك فى القصر فى اليوم التالى وبحضور نيافة الكاردينال بيلارمين الذى حذرك برقة أمام المسجل والشهود، وطلب منك التخلى تمامًا عن الرأى الزائف المشار إليه والامتناع فى المستقبل عن الأخذ به أو الدفاع عنه أو تدريسه بأية طريقة كانت، سواء عن طريق النطق أو الكتابة. ثم سمح لك بالانصراف بعد أن قطعت على نفسك عهدًا بالطاعة.

«وحتى يتم تمامًا استئصال هذا المذهب البالغ الضرر ولا يكون سببًا فى إلحاق الأذى بالعقيدة الكاثوليكية، أصدر المجمع المقدس مرسومًا بوضع الكتب الداعية إلى هذا المذهب فى فهرس الكتابات المحظورة وإعلان زيفه، نظرًا لأنه يتعارض تعارضًا تامًا مع الكتاب المقدس.

«وبالنظر إلى ظهور كتاب مؤخرًا فى فلورنسا فى العام الماضى يتضح من عنوانه «حوار جاليليو جاليلى بشأن أعظم نظامين عالميين» أنك مؤلفه. وبالنظر أيضًا إلى أنه تم تبليغ المكتب المقدس فيما بعد بأن الكتاب المنشور ساعد على انتشار الرأى الزائف الخاص بدوران الأرض وثبات الشمس يومًا بعد يوم، فقد أخضعنا الكتاب المذكور للفحص الدقيق. واتضح من انتهاكك الجلى للأمر المشار إليه والمفروض

عليك أنك فى هذا الكتاب دافعت عن الرأى المشار إليه والسابق إدانته. وقيل لك هذا صراحة ودون أدنى مواربة.

«ورغم أنك فى الكتاب المذكور حاولت عن طريق مختلف الحيل أن تترك الانطباع بأن هذا الموضوع لم يحسم وبالتالى فهناك احتمال أن يكون صحيحًا، مما يعد على كل حال خطأً فادحًا للغاية؛ لأنه لا يوجد رأى يصح اعتباره محتملاً طالما أنه من الواضح تعارضه مع الكتاب المقدس.

«ولهذا أمرنا بمثولك أمام المكتب المقدس الذى قام باستجوابك بعد حلف اليمين فاعترفت بأنك مؤلف الكتاب وبأنك قمت بنشره. واعترفت بأنك بدأت بتأليف هذا الكتاب منذ ما يقرب من عشرة أعوام أو اثنى عشر عامًا، حتى بعد إصدار الأمر إليك كما أسلفنا. كما أنك طلبت تصريحًا بطبع الكتاب دون أن تلمح إلى الذين منحوك هذا التصريح أن هناك أمرًا صادرًا يحول دون اعتناقك المذهب المشار إليه، ودون الدفاع عنه أو تدريسه على أى نحو كان.

«وأيضًا اعترفت بأن مواضع كثيرة فى طريقة تأليفك للكتاب توحى لقارئه بأن المحاجات التى سيقت لدعم الجانب الزائف منه من شأنها - بسبب قوة حجتها - أن يقتنع بصحتها أكثر من اقتناعه بصحة دحضها. وتلمست لنفسك العذر لوقوعك فى هذا الخطأ زاعمًا أنه خطأ غير مقصود، عندما قلت إنك ألفت الحوار لإثبات رضاك عن نفسك كشأن أى مؤلف يشعر بالرضا عن نفسه حين يستخدم محاجات بالغة الدقة والنعومة، كى تثبت لنفسك أنك أكثر ذكاء من السواد الأعظم من البشر من حيث مقدرتك على أن تسوق مجادلات بارعة ومعقولة كى تعزز بها الآراء الزائفة.

«لقد أعطيناك فترة مناسبة كى تعد دفاعك عن نفسك فأبرزت شهادة مكتوبة بخط يد جناب سيدنا الكاردينال بيلارمين تؤكد أن هدفك من الحصول عليها هو الدفاع عن نفسك ضد وشايات أعدائك الذين اتهموك بالتراجع عن آرائك، وبأن المكتب المقدس أنزل العقاب بك. وهذه الشهادة تتضمن تصريحًا بأنه لم يحدث أنك تراجعت عن أقوالك وأنك لم تعاقب بالمرة. فالشهادة تبين فقط تصريح نيافته وتبليغك بهذا التصريح الذى أصدره قداسة البابا، والذى تولى المجمع المقدس نشره فى فهرس الكتابات المحظورة. ويتضمن هذا التصريح القول بأن المذهب المنادى بدوران الأرض وثبات الشمس يتعارض مع الكتاب المقدس، ومن ثم لا يمكن الدفاع عنه أو الأخذ به.

وحيث إن هذه الشهادة تخلو من أى ذكر للعبارتين الواردتين فى الأمر وهما اللتان تأمرانك (بعدم تدريس مذهب كوبرنيكوس) و(بأية طريقة كانت)، فقد طالبتنا بأن نصدق أن ذاكرتك لا تتذكر هاتين العبارتين بسبب مضى نحو أربعة عشر أو ستة عشر عامًا على ورودهما فى الأمر الصادر إليك، مما جعلك تغفل ذكره عندما تقدمت بطلب للسماح لك بالترخيص بطبع كتابك. قلت كل هذا ليس على سبيل الاعتذار عن الخطأ الذى ارتكبته ولكنك أرجعته إلى طموحك، وليس إلى شر فى شخصك. غير أن هذه الشهادة التى أبرزتها للدفاع عن نفسك زادت من تفاقم انحرافك؛ لأنه على الرغم من أن الشهادة توضح أن الرأى المذكور يتعارض مع الكتاب المقدس، فإنك تجرأت وناقشت هذا الرأى ودافعت عنه وجادلت بأنه محتمل. فضلاً عن أن التصريح بطبع كتابك والذى انتزعته بالمكر والخديعة لن يفيدك فى أى شىء، حيث إنك أخفيت الأمر الصادر إليك.

«وبما أنه بدا لنا أنك لم تظهر الحقيقة كاملة فيما يتعلق بنيتك، فقد فكرنا أنه من الضرورى إخضاعك للاستجواب الدقيق (بدون الشك على أية حال فى الأمور التى اعترفت بها والمذكورة أعلاه فيما يتعلق بنواياك)، فإنك أجبت فى الاستجواب ككاثوليكى صالح. وبعد أن رأينا المزايا الواردة فى قضيتك وقمنا بدراستها دراسة ناضجة إلى جانب دراستنا الدقيقة لاعترافاتك وأعذارك الآنفة الذكر، وكذلك كل ما ينبغى مشاهدته وأخذه فى الاعتبار - فإننا وصلنا إلى الحكم النهائى الوارد ضدك والمذكور أسفله:

«ولهذا، فإنه بعد استحضار اسم سيدنا يسوع المسيح المقدس وأمه المجيدة مريم العذراء على الدوام من أجل استصدار الحكم النهائى ومشاركتهما منصة القضاء، وبعد مشورة ونصيحة أساتذة اللاهوت المقدس المبجلين وأساتذة القانون والمقيِّمين (أى المثمِّنين)، فإننا نخلص إلى التالى فيما يتعلق بالقضية الماثلة أمامنا بين كارلو سنسرى Carlo Sinceri الفقيه القانونى والمسئول المالى فى المكتب المقدس فى جانب، وبينك ياجاليليو جاليلى الماثل هنا كمتهم تم استجوابه ومحاكمته والإدلاء باعترافاته فى جانب آخر :

«نحن نقول وننطق ونصدر الحكم ونصرح بأنك أيها المدعو جاليليو جعلت نفسك - نتيجة الأمور التى اتضحت من المحاكمة ومن اعترافك الآنف الذكر - خاضعًا لحكم

المكتب المقدس عليك بالهرطقة، والحكم بالذات بأنك آمنت بصحة المذهب الزائف الذى يتعارض مع الكتاب المقدس والقائل بأن الشمس مركز الكون وإنها لا تتحرك من الشرق إلى الغرب، وإن الأرض تدور وليست مركز الكون، فضلاً عن أنك ترى أنه يمكن الاعتقاد برأى والدفاع عنه كشىء محتمل، حتى إذا تقرر وأُعلن أنه هذا الرأى يخالف الكتاب المقدس. وبذلك تكون مستحقًا للوم والعقاب الذى ينص عليه ويفرضه القانون الكنسى والدساتير الأخرى، سواء كانت عامة أو خاصة، والتى تسن لردع مثل هؤلاء المنحرفين. ونحن على استعداد لتبرئة ساحتك إذا قمت بقلب مخلص وإيمان صادق أمامنا بنبذ ولعن ومقت والتراجع عن الأخطاء والهرطقات السابقة الذكر، إلى جانب كل خطأ آخر أو هرطقة أخرى تتعارض مع الكنيسة الرومانية الكاثوليكية الرسولية على النحو الذى نحدده لك.

«وحتى لا يمر ما ارتكبت من خطأ جسيم ومن تجاوزات دون عقاب بالمرة، وحتى تتوخى الحذر فى المستقبل وتصبح عبرة للآخرين حتى يمتنعوا عن ارتكاب انحرافات مماثلة - فإننا نأمر بإصدار مرسوم عام لحظر كتابك (حوار جاليليو جاليلى).

«ونحن ندينك ونزج بك رسميًا فى سجن هذا المكتب المقدس حسبما يتراءى لنا، وكنوع من التوبة النصوح نأمرك خلال السنوات الثلاث القادمة بأن تتلو مرة كل أسبوع مزامير التوبة السبعة. ونحن نحتفظ لأنفسنا بحرية تلطيف وتخفيف وإلغاء - كليًا أو جزئيًا - العقوبات والتوبة الآنفة الذكر .. ولهذا، فنحن نقول وننطق ونصدر الحكم ونعلن ونأمر ونحتفظ بالحق فى استخدام ذلك أو أية طريقة أخرى أو أى شكل آخر نراهما أفضل».

وبعد النطق بالحكم، تسلم جاليليو صيغة التراجع عن آرائه. ويقول بيوناميكى الذى رأى جاليليو مباشرة عقب هذه الأحداث: «وحين رأى جاليليو نفسه مضطرًا إلى عمل ما كان يظن أنه أمر مستحيل - وخاصة لأن حديثه مع الأب فيرزيولا خلا تمامًا من أية إشارة إلى التراجع عن آرائه - توسل إلى الكرادلة فى حالة إصرارهم على أن تكون إجراءاتهم على هذا النحو: أن يحذفوا نقطتين على الأقل يحق لهم بعد حذفهما أن يجعلوه يقول كل ما يحلو له. وتتطلب النقطة الأولى منهم حذف وصفهم له بأنه كاثوليكى غير صالح، حيث إنه كاثوليكى وينوى أن يظل كاثوليكيًا على الرغم مما يشيعه أعداؤه عنه. أما النقطة الثانية، فإنه لا يمكن وصفه بأنه غشاش ومخادع، وخاصة فيما

يتعلق بنشر كتابه لأنه خضع بكل صدق وإخلاص إلى لوم السلطة الكنسية، ولم يقم بطبع الكتاب إلا بعد الحصول على تصريح قانونى بذلك».

وقد عثر الباحثون فى القرن الثامن عشر على نسخة أخرى من مذكرة بيوناميكى نقحها بنفسه، وجاء فيها: «وأضاف جاليليو أنه إذا شاء الكرادلة ذلك، فسوف يقيم بنفسه محرقة للكتاب ويضرم بيديه فيها النار ويصرح بذلك أمام الله ويتحمل كافة النفقات فيما لو ساقوا إليه الدليل على فساد كتابه».

ثم جثا جاليليو على ركبتيه وقرأ بصوت عال الصيغة المعدلة. قال : «أنا جاليليو ابن المرحوم ڤينسنزو جاليلى الفلورنسى البالغ من العمر سبعين عامًا.. المتهم شخصيًا أمام هذه المحكمة والجانى أمامكم أيها الكرادلة الموقرون والمبجلون فى عموم محاكم التفتيش الذين يعهد إليهم باستئصال الهرطقة المنحطة فى جميع أنحاء العالم المسيحى. أقسم على الكتاب المقدس الذى أراه بعينى والمسه بيدى أننى آمنت دومًا ولا زلت أومن وبمعونة الله سوف أومن فى المستقبل بكل ما تدين به وتنشره وتعلمه الكنيسة الكاثوليكية الرسولية المقدسة. ولكن بعد أن أبلغنى المكتب المقدس بطريقة قانونية بصدور أمر مفاده انه يتعين علىَّ أن أنبذ تمامًا الرأى الزائف القائل بأن الشمس مركز الكون وثابتة فى مكانها وأن الأرض هى التى تدور، وأننى يجب على الا اومن أو أدافع أو ادرس بأية طريقة كانت شفاهة أو كتابة المذهب الزائف المذكور، وبعد إبلاغى بأن هذا المذهب المذكور يتعارض مع الكتاب المقدس قمت بكتابة وطبع كتاب ناقشت فيه هذا المذهب الجديد الذى سبق إدانته، وقدمت فيه محاجات شديدة القوة لصالح هذا المذهب دون أن أقدم حلولاً للمشاكل الناجمة عنه. ومن ثم حكم على المكتب المقدس بشبهة الهرطقة القوية، بمعنى أننى اعتقدت أن الشمس مركز الكون وثابتة وأن الأرض تدور حولها.

«ولهذا، فإنى بدافع الرغبة فى اقتلاع أية شكوك مشروعة حولى تساور بقوة عقولكم وعقول كافة المسيحيين المؤمنين. وإنى بقلب مخلص وإيمان صادق أنبذ وألعن وأمقت الأخطاء والهرطقات الآنفة الذكر.. وكذلك كل خطأ آخر وهرطقة أو ملة أخرى تتعارض مع الكنيسة المقدسة. وأقسم إننى فى المستقبل لن أقول أو أؤكد شفاهة أو كتابة أى شىء من شأنه أن يكون سببًا فى إثارة أية شكوك مماثلة حول شخصى. كما أقسم بأن أبلغ المكتب المقدس أو محقق محكمة التفتيش أو أى مسئول

دينى فى أى مكان أوجد فيه عن أى مهرطق أو أى شخص يشتبه فى هرطقته أكون قد عرفته. وبالإضافة إلى ذلك، اقسم وأقطع على نفسى عهدًا بأن أؤدى أداء كاملاً كل أنواع التوبات التى يفرضها المكتب المقدس أو سيفرضها علىَّ فى المستقبل. وفى حالة انتهاكى هذه العهود والحنث بالأقسام (لا قدر الله)، فسوف أستحق كل الأوجاع والعقوبات المفروضة على والتى تنص عليها القوانين المقدسة والدساتير الأخرى العامة منها والخاصة التى تتصدى لأمثالى من المنحرفين. ولهذا، ساعدنى يا إلهى وساعدنى أيتها الأناجيل المقدسة التى ألمسها الآن بيدى».

وبعد تلاوة هذه الاستتابة، قام جاليليو بالتوقيع على صيغة فيما يلى نصها : «أنا المدعو جاليليو جاليلى نبذت وأقسمت وعاهدت وألزمت نفسى بما تقدم، وأشهد بالحق على أننى وقعت بخط يدى الآن على وثيقة العدول عن أقوالى. وأننى تلوت ما جاء فى هذه الوثيقة كلمة بكلمة فى روما فى دير منيرفا بتاريخ ٢٢ يونيو ١٦٣٣».

«الموقع بخط يده أدناه على نبذ ما تقدم جاليليو جاليلى».

وبعد مرور يومين أطلق سراح جاليليو ليقوم سفير فلورنسا بالتحفظ عليه فى فيلا مديسيس. وقد علق صديقة الأب نيكولينى على حالته قائلاً: «بدا جاليليو مهمومًا للغاية بسبب هذا العقاب الذى لم يكن يتوقعه. أما بخصوص كتابه فإنه أظهر اهتمامًا ضئيلاً بحظره، حيث إنه كان يتوقع هذا الحظر منذ وقت طويل».

ويجدر بنا أن نلاحظ أن جاليليو رفض الإقرار بأنه كاثوليكى غير صالح وأنكر أنه استخدم الغش والخداع للحصول على تصريح نشر حواره، رغم أن هذا عرضه للحرق على الخشبة. ورغم الحزن العميم الذى ملأ قلبه ويأسه العظيم من نشر أبحاثه فى المستقبل، فقد استمر يعمل حتى أكمل رائعته البحثية «العلمان». ورغم نجاح المحققين فى حمله على إنكار ما يؤمن به، فإنه احتفظ بومضاته الساخرة دون أن يتمكنوا من القضاء على إيمانه بالمذهب الكاثوليكى، فنحن نراه يداوم على الصلاة ويطلب إلى أصدقائه الصلاة من أجله. كما أنه فكر فى الحج مرة أخرى إلى مزار سيده لورتيو مثلما فعل بعد عام ١٦١٦. غير أن حالته الصحية حالت دون ذلك.

وأرسل جاليليو إلى بيريز Peirese رسالة تدل على اقتناعه الراسخ ببراءته وظلم السلطة الدينية له:

«لست آمل فى التخفيف من كربى فأنا لم أرتكب أى وزر. قد آمل فى العفو والحصول عليه لو أننى أخطأت. إن ولى الأمر يمكنه أن يغفر الأخطاء. ولكن بالنسبة لشخص برىء صدر ضده حكم ظالم، فإنه من المفيد (لولى الأمر) استعمال الشدة للتظاهر بالشرعية الصارمة. ولكن حقيقة نيتى الطاهرة سوف تتضح لو أنه تم الكشف عن الأكاذيب والافتراءات والمناورات وأساليب الخداع التى استخدمت فى روما منذ ثمانية عشر عامًا بهدف خداع السلطات. إنك طالعت كتاباتى وتفهم منها بكل تأكيد الدافع الحقيقى المتخفى وراء قناع الدين عند إشعال الحرب ضدى.. تلك الحرب التى تكبلنى وتعترض طريقى باستمرار فى كافة الاتجاهات بحيث لا تأتينى أية مساعدة من الخارج، كما أعجز عن الدفاع عن نفسى. فقد صدر أمر عاجل إلى جميع مفتشى محاكم التفتيش بعدم السماح بإعادة طبع أى من كتبى التى سبقت طباعتها منذ عدة أعوام، أو بالحصول على إذن بطبع أى كتاب جديد أؤلفه.... وإنى أقول إنه أمر قاس أن يفرض الحظر على كل أعمالى حتى أضطر إلى الإذعان فى صمت، تحت وابل من الهجمات والتعريض والسخرية والإهانات من كل جانب».

وما من شك أن هذه الرسالة تلقى ظلالاً كثيفة على شرعية السلطة الدينية الرومانية التى انتهكت كافة الأعراف والمبادئ المسيحية. والجدير بالذكر، أن جاليليو سرعان ما استجمع قواه وعاد إلى سابق عهده. ففى خلال شهر واحد من مغادرته روما وجدت نسخة من كتابه «حوار» عن طريق وسطاء موثوق بهم سبيلها إلى خارج البلاد؛ لتصل إلى يد الناشر ماتياس تيرنجر فى استراسبورج. وفى عام ١٦٣٧، تُرجمت هذه النسخة إلى اللغة اللاتينية حتى يتمكن جمهور عريض من القراء فى جميع أرجاء أوروبا من الاطلاع عليها، الأمر الذى رفع من روح جاليليو المعنوية. وتنافس كثير من الكاثوليك الأتقياء والقساوسة والرهبان والكرادلة على شراء نسخ كتابه «حوار» من السوق السوداء بعيدًا عن أعين الرقباء ومحاكم التفتيش، الأمر الذى رفع سعره أضعافًا مضاعفة.

ورغم سرية تداول الكتاب فقد تربص الرهبان الجيزويت بصاحبه بمجرد أن صرح أسقف من خارج البلاد بنشر كتابه الجديد «مباحث فى العلمين الجديدين» فى أولتز ثم فى فيينا بأمر مباشر من إمبراطورها، وأخذ الجيزويت أعداؤه القدامى يلاحقونه من جديد. وفى عام ١٦٣٩، كتب جاليليو إلى بالياتى يقول: «لم أتمكن من الحصول على نسخة واحدة من حوارى الجديد المنشور منذ عامين فى أمستردام. ولكنى أعرف

أن جميع بلاد الشمال تتداوله. ولابد أن يكون السبب فى ذلك أن الآباء الجيزويت قاموا بشرائه بمجرد وصوله إلى براغ، لدرجة أن الإمبراطور نفسه لم يتمكن من الحصول لنفسه على نسخة».

والجدير بالذكر، أن كتاب جاليليو الجديد عن علم الديناميكا يعزز نفس مذهب كوبرنيكوس الذى فرضت الكنيسة الحظر عليه.

وفى أخريات أيامه درج جاليليو على الاعتراف أمام كاهن الاعتراف وأخذ التناول بانتظام، الأمر الذى يدل على أن راعيه وأب اعترافه أعطاه الحل بأن يفعل هذا، متغاضيًا بذلك عن موقف الكرسى البابوى والسلطة الكنسية منه. ونتناول فيما يلى كيف أمضى جاليليو البقية الباقية من حياته.

الفصل السابع

جاليليو فى أيامه الأخيرة

(١٦٣٤- ١٦٤٢)

وأخيرًا قررت محاكم التفتيش الزج بالشيخ الفانى جاليليو فى سجن أركيترى Arcetri. وزاد من بؤسه أن ابنته الحبيبة فيرچينيا الراهبة المولودة فى ١٣ أغسطس ١٦٠٠ توفيت فى ٢ أبريل ١٦٣٤، وهى فى الرابعة والثلاثين من عمرها. وحتى ندرك أثر الصدمة عليه يكفى أن نسترجع ما كتبه إلى بعض أصدقائه بشأن وفاتها. فقد كتب إلى صديقه إيليا ديوداتى فى باريس يوم ٢٥ يوليو ١٦٣٤ يقول:

«عشمى أنك تعذرنى ويعذرنى أصدقائى وأصحاب الفضل علىَّ فى باريس عندما تسمعون عن المصائب الماضية والحاضرة التى لحقت بى وعن المصائب التى قد تحل بى فى المستقبل، حتى تعذرنى على تأخرى طويلاً فى الرد على خطابك ويعذرونى على صمتى الكامل. وطبقًا للحكم الذى أصدره المكتب المقدس ضدى، قاموا بسجنى حسب مشيئة قداسته فى قصر الدوق العظيم وحدائقه الواقعة بالقرب من ترينيتا دى مونتى. حدث هذا فى شهر يونيو فى العام الماضى وأفهمونى أننى إذا طلبت العفو الكامل بعد ذلك الشهر والشهر الذى يليه، فسوف يمنحوننى إياه. وفى الوقت نفسه طلبت إعفائى من قضاء كل الصيف وربما جزء من الخريف هناك والسماح لى بسبب سوء الطقس بالذهاب إلى سيينا، حيث أسكنونى فى مقر رئيس الأساقفة. وهناك مكثت خمسة شهور، ثم استبدلوا بالعقوبة النفى إلى هذه الفيلا الصغيرة التى تبعد ميلاً واحدًا عن فلورنسا، مع صدور أمر مشدد بعدم الذهاب إلى هذه المدينة وعدم استقبال زوارى من الأصدقاء الكثيرين وعدم دعوتهم إلى زيارتى. هنا عشت عيشة

هادئة للغاية، وتكررت زياراتى للدير المجاور حيث عاشت ابنتاى كراهبتين. وقد أحببتهما للغاية، وخاصة ابنتى الكبرى التى تميزت بمواهب عقلية غير عادية وطيبة قلب نادرة، والتى أحبتنى من سويداء قلبها. وفى فترة غيابى عنها التى اعتبرتها هذه الابنة خطرًا داهمًا على حياتى أصابها حزن عميق دمر صحتها. وأخيرًا أصابتها دوسنتاريا عنيفة توفيت عقبها بعد مرور ستة أيام، وهى فقط فى الرابعة والثلاثين من عمرها، تاركة إياى فى غم وكرب شديدين.».

تأثر جاليليو تأثرًا بالغًا بوفاة ابنته الراهبة ماريا سيلست، لدرجة أنه شعر بأنه سيلحق بها فى الآخرة على وجه السرعة، وهو ما يبينه خطابه إلى صديقه جير دى بوتشيوينى فى ٢٧ من أبريل من نفس عام الوفاة «إننى أسمعها دومًا تنادينى كى ألحق بها.» وفى هذا الخطاب الذى يقطر حزنًا وأسى نرى هذا الشيخ الفانى يعبر عن وحشته المروعة ودنو الموت منه:

«سوف أكتب إليك عن صحتى التى اعتلت للغاية. وإنى أعانى من الفتاق أكثر من أى وقت مضى، وأشعر بالنبض يتقطع فى عروقى، كما تنتابنى كثيرًا ضربات قلبى العنيفة. وأيضًا أشعر بكآبة أشد ما تكون عمقًا. فقدت شهيتى وكرهت نفسى. وخلاصة القول، إننى أشعر على الدوام بأن ابنتى الحبيبة تنادينى كى ألحق بها.

«ولست أرى فى مثل هذه الظروف أن يبدأ (ابنى) فنسنزيو رحلته الآن؛ لأنه قد تحدث أمور تستدعى وجوده. وإنى إلى جانب ما ذكرت أعانى من الأرق المستمر، الأمر الذى يفزعنى كثيرًا. وأنا أخبرك بهذا حتى تخبر فنسنزيو به إذا وجدت أنه من المناسب أن تفعل ذلك. وأنا لا أرغب فى إرباك خططه، ولكن يبدو لى أنه ينبغى عليه أن يعرف. ولأنك يمكنك التحدث معه بحزم أكبر من حزمى معه، فإنك سوف تقول له ما فيه الكفاية كى يسلك الطريق الأصلح».

وذكر جاليليو فى خطابه أنه فى تلك الفترة من حياته عانى من الفتاق، الأمر الذى جعله يطلب من سفير توسكانيا إذنًا بنقله إلى فلورنسا حتى يتسنى له تلقى العلاج المطلوب. وزاد من محنته آنذاك أن محكمة التفتيش أبلغته برفض المكتب المقدس عودته إلى فلورنسا. وهددوه إذا كرر طلبه أن يقتادوه إلى سجن المكتب المقدس فى روما. وزاد من سوء حالته أن صديقًا عزيزًا عليه فى روما تبرع بالدفاع عنه أمام الأب الجيزويتى كرستوفورو جريمبرجر أستاذ الرياضيات فى الكلية الرومانية، فرد

جريمبرجر أن جاليليو جلب على نفسه النكبات والمصائب عندما جعل طائفة الرهبان الجيزويت تنفر منه وتناصبه العداء.

ويشكو جاليليو فى خطابه إلى صديقه من تحامل أستاذين فى جامعة بيزا عليه، هما: «بيرجارد» و «كيارامونتى». كما أن راهبًا جيزويتيًا هيج الخواطر ضده بنشر كتاب جاء فيه إن القول بدوران الأرض هى بدعة وضلال وأفظع الهرطقات جميعًا، وإنها كخطيئة تفوق فى بشاعتها إنكار خلود الروح وتجسد السيد المسيح، فضلاً عن أن أنتونيو روكو الذى اعترف بجهله فى الرياضيات والفلك سعى إلى النيل منه بالدفاع عن فلسفة أرسطو.

ورغم المحن التى عصفت به، استطاع جاليليو بعد انقضاء شهور قلائل على وفاة ابنته استجماع قواه والبدء فى تأليف واحد من أشهر مباحثه على الإطلاق، وهو «حوار بين علمين جديدين» وهو رهن السجن فى أركيترى. ولم يعدم جاليليو من يدافع عنه ويطلب توفير قدر أكبر من الحرية له. فقد سعى إلى الشفاعة له لدى بابا روما سفير فرنسا الكونت دى نوا إيل وصديقه نيكولو دى بيريس دون جدوى. ونحن نراه يرسل إلى صديقه نيكولو دى بيريس فى باريس خطابًا مؤرخًا يوم ٢١ فبراير ١٦٣٥ يؤكد ظلم الكنيسة له باسم الدين، وأن أعداءه من رجال الكنيسة أعطوا أوامرهم المشددة إلى محاكم التفتيش لمنعه من إعادة طبع أى من مؤلفاته القديمة ومنعه من نشر أى كتاب جديد.

ويدور الحوار بين العلمين الجديدين حول التماسك أو جاذبية الالتصاق ومقاومة الكسور وحول السرعة الثابتة والمتزايدة وحركة القذائف. وانتهى من هذا المبحث فى صيف عام ١٦٣٦. ثم جاءت مشكلة نشره بسبب الحظر الذى فرضته الكنيسة على مؤلفاته. وهو حظر تعسفى شمل استقصاءه عن الأجسام الطافية، وهو موضوع لا يمت بصلة إلى نظرية كوبرنيكوس الفلكية. وحاول جاليليو الالتفاف حول الحظر، فسعى إلى نشر مبحثه فى العلمين الجديدين فى ألمانيا. وأرسل جاليليو مخطوطه إلى صديق له فى ڤيينا يدعى چيوفانى بييرونى ليكتشف أنه لا سبيل إلى نشر أى من كتاباته إلا بموافقة الرهبان الجيزويت، وعلى رأسهم عدو جاليليو اللدود القديم الأب شاينر. ولهذا صرف جاليلو النظر عن ڤيينا كمكان للنشر. ولكن الكاردينال ديتسيريتشين توسط فى الأمر حتى استطاع تمكين بييرونى من طباعة المبحث فى مدينة أولمتز بموافقة أحد

الآباء الدومينيكان ودون علم شانئه شاينر. ولم تعجب بييرونى طبعة أولمتز فعادت المخطوطة إلى ڤيينا حيث اعترض شاينر على نشرها، مما اضطر بييرونى إلى الدفع بها إلى براغ حيث سمح أحد الكرادلة بطبعها فى مطبعة جامعة براغ. ومع ذلك، ظهرت عراقيل جديدة حالت دون طبعها هناك. وأخيرًا قيض لها أن تظهر فى أمستردام بهولندا عام ١٦٣٨. وذرًا للرماد فى العيون، ادعى جاليليو أن الكتاب المطبوع مسروق من نسخة للمخطوط كان الكونت دى نوا إيل يحتفظ بها. وعلى أية حال، كان جاليليو على حق عندما قال لصديقه ڤينتا فى ٧ مايو ١٦١٠ إنه أول من استحدث علم الميكانيكا. ويظهر كتاب «حوار بين علمين جديدين» خطأ نظرية أرسطو فى تحديد سرعة الأجسام الساقطة. فقد أخطأ أرسطو عندما قال إننا إذا قذفنا جسمين من ارتفاع واحد أحدهما يزن ثمانية أرطال والآخر يزن أربعة أرطال، فإن الجسم ذا الأرطال الثمانية يسقط بضعف سرعة الجسم ذى الأرطال الأربعة. والجدير بالذكر، أن المحاورين الواردة أسماؤهم فى كتاب الميكانيكا «حوار حول علمين جديدين» هم نفس المحاورين الذين ظهروا فيما بعد عام ١٦٣٢ فى مبحث جاليليو العظيم الشأن «حوار عن أهم نظامين عالميين». هذان النظامان العالميان هما النظام البطلمى أو البطلميوسى والنظام الكوبرنيكى. ونفس الشخصيات المتحاورة التى ظهرت فى المبحثين هى: صديقه ساجريدو وسالفياتى والغر الساذج سيمبلسيو كما يدل على ذلك اسمه. ويسخر جاليليو فى حواره على لسان سالفياتى من هذه الفكرة، حيث إنه أثبت بالتجربة أن الأثقال المختلفة الوزن تسقط على الأرض بنفس معدلات الزيادة فى السرعة، وأن الأمر يختلف باختلاف الوسط الذى يسقط الجسم من خلاله، ومن ثم باختلاف مقاومة هذا الوسط للجسم الساقط. فالهواء - على سبيل المثال - أقل فى مقاومته للجسم الساقط فى الماء. ولن يكون هناك فرق بين سرعة سقوط الجسمين المختلفين فى الوزن إذا كان الوسط فراغًا. وفى إرسائه لعلم الميكانيكا توصل جاليليو إلى أن الجسم الذى يتحرك فى خط أفقى مستقيم يستمر فى الحركة بنفس السرعة إلى أبد الآبدين (بفرض عدم وجود أية مقاومة له بطبيعة الحال)، وبذلك يكون جاليليو قد مهد الطريق أمام عالم الرياضيات المعروف نيوتن باكتشاف قانون القصور الذاتى. وقد استمر جاليليو فى انشغاله بالديناميكا أو حركة الأجسام حتى بعد أن نشر محاوراته عن العلمين الجديدين، وظل منشغلاً بها حتى وفاته حسبما يقول مريده فيفيانى الذى ألف كتابًا عن حياة معلمه عام ١٦٥٤. يقول فيفيانى:

« فى الأيام الأخيرة من حياته وبينما اشتدت عليه آلام الجسد انشغل عقله دومًا بالمسائل الميكانيكية والرياضية. وفكر فى تأليف حوارين آخرين يضيفهما إلى الحوارات الأربعة التى أتمها. فى أول هذين الحوارين عرض كثيرًا من التجارب والخواطر الجديدة ذات الصلة ببعض الفقرات المتنوعة الواردة فى الحوارات الأربعة الأولى، إلى جانب إيجاد حل لكثير من المشاكل التى تكتنف علم الفيزياء الأرسطاطاليسى، كما أنه اعتزم فى الحوار الثانى مناقشة علم جديد تمامًا وأعنى به قوة مركز الصدم Percussion التى قال إنه اكتشفها.».

وبذلك يكون لجاليليو الفضل فى تمهيد الطريق أمام نيوتن لاكتشاف قوانين الحركة وفى توفير المادة التى اعتمد عليها فى اكتشافاته الخاصة بالقصور الذاتى، وأيضًا يرجع إليه الفضل فى اكتشاف نيوتن لقانونه الشهير «كل فعل له رد فعل مساوٍ له فى القوة ومضاد له فى الاتجاه.» وهو ما يعرف بقانون نيوتن الثالث للحركة، وهو قانون سبق لجاليليو أن ألمح إليه عام ١٥٩٤ فى مبحثه حول علم الميكانيكا وفى أفكاره عن مركز الصدم Percussion التى أملاها على تلميذيه فيفيانى وتوريسللى. وقد نوَّه بهذه الأفكار عالم الفلك المعروف روبرت جرانت فى كتابه «تاريخ علم الفلك الفيزيائى». يقول جرانت: «على الرغم من روعة اكتشافات جاليليو الفلكية، فإنها تستمد أهميتها من مساندتها لنظرية كوبرنيكوس... ولكن عبقرية هذا الفيلسوف العظيم تتجلى بوضوح فى أبحاثه المهمة ذات الصلة بعلم الميكانيكا. فنحن ندرك أن علم الحركة لم يكن له وجود قبله؛ لأن المعرفة الوحيدة التى كانت موجودة عن هذا الموضوع قبل جاليليو كانت تتكون من شذرات مهمة قليلة ومبعثرة فى كتابات أرسطو».

ويستطرد جرانت فى تقريظه لجاليليو قائلاً: «إن عبقريته تكمن فى استخلاص قوانين الحركة من مشاهد الحياة اليومية التى تحدث أمام الناس العاديين فيأخذونها على علاتها ولا يعيرونها أدنى اهتمام. هذه القوانين التى اكتشفها جاليليو هى التى اعتمد عليها نيوتن فى تحقيق إنجازاته وفى اكتشافه لقانون الجاذبية الكونى». وبذلك يكون جاليليو ـ على حد قول جرانت ـ هو الذى وضع الأساس الذى تم تشييد علم الفيزياء الرياضى عليه».

ويذكرنا هذا بقول ألبرت أينشتاين، إن جاليليو هو أب علم الفيزياء الحديث. وبعد أن انتهى جاليليو فى صيف ١٦٣٦ من تأليف كتابه «حوار حول علمين جديدين»،

استأنف أبحاثه الخاصة بتحديد خطوط العرض عن طريق «توابع المشترى». وفى أغسطس عام ١٦٣٦، ترامى إلى سمعه أن التجار الهولنديين رصدوا جائزة قدرها ثلاثون ألف سكودة لمن يدلهم على طريقة مؤكدة لتحديد خطوط العرض فى البحر، فتقدم بخطة فى هذا الشأن إلى المسئولين الهولنديين عبر وساطة ديوراتى فى باريس. ولم يشأ الظهور بنفسه فى المفاوضات الجارية حتى لا يلفت نظر محاكم التفتيش إليه. وفى ١١ نوفمبر عام ١٦٣٦، قامت الحكومة الهولندية بتعيين لجنة مكونة من أربعة أعضاء للاتصال بجاليليو والاستفسار منه عن بعض النقاط الفنية. وأفضى جاليليو إليهم بأدق التفاصيل الخاصة بطريقة وضعه للجداول التى تحدد خطوط العرض. ومن جانبها قررت الحكومة الهولندية إرسال أحد أعضاء اللجنة وهو هورتسبوس، إلى إيطاليا فى يوليو ١٦٣٨ لمناقشة جاليليو فى خطته وجهًا لوجه. ولكننا نعرف من الخطاب الذى أرسله جاليليو إلى ديوراتى والمؤرخ فى ١٤ أغسطس ١٦٣٨ أن الاتصالات بين الطرفين توقفت بسبب اطلاع المكتب المقدس على المفاوضات الجارية، الأمر الذى عرضه لمزيد من الأذى والضرر.

ولكن الجانب الهولندى أراد التعبير عن عظيم امتنانه لجاليليو فأرسل بعض التجار الهولنديين ممن يتاجرون فى فلورنسا ليقدموا إليه سلسلة من الذهب، مرفقًا بها خطاب بعثت به الحكومة الهولندية. وما إن وصل هؤلاء التجار إلى منزله فى ديللا كوستا حتى وجدوه طريح الفراش ومصابًا بالعمى الكامل. وطلب من ضيوفه تلاوة خطاب التقدير الذى أرسلته الحكومة الهولندية على مسامعه؛ ولكنه اعتذر عن عدم قبول السلسلة الذهبية لأن عماه ومرضه سوف يحولان دون إتمام المفاوضات. وعندما رأى شدة اهتمام المسئولين الهولنديين باستجلاء موضوع خطوط العرض، قام بتسليم تلميذه السابق الأب رينيرى أستاذ الرياضيات بجامعة بيزا جميع الأوراق والملاحظات والحسابات والجداول المتصلة بهذا الموضوع، كى يقوم بمراجعتها واستكمالها وتسليمها إلى الحكومة الهولندية. ولكن وفاة بعض الأطراف الهولندية المشاركة فى المفاوضات أدت إلى توقفها تمامًا وضياع الأوراق التى أوصى جاليليو تلميذه بتسليمها إلى الجانب الهولندى، وظلت هذه الأوراق ضائعة نحو قرنين من الزمان حتى تمكن الباحثون من العثور عليها فى وقت لاحق. وقد بدأ جاليليو يعانى من مشاكل الإبصار فى منتصف عام ١٦٣٦. وفى عام ١٦٣٧، كانت عينه اليمنى قد فقدت الإبصار، كما بدأت عينه اليسرى تعتم. ولم يسكت أصدقاء جاليليو ومريدوه عن الظلم والاضطهاد

الواقع عليه، بل حاولوا جاهدين رفعه عنه؛ غير أن صديقه القديم البابا إيربان الثانى وقف له بالمرصاد واستمر فى حقده عليه. وفى نهاية سبتمبر ١٦٣٦، سمحت له محاكم التفتيش بزيارة الدوق العظيم فى قصره خارج فلورنسا؛ ولكنها اشترطت عليه القيام بهذه الزيارة عند انبلاج الفجر والعودة منها آخر الليل تحمله عربة مغلقة حتى لا يتعرف عليه أحد فى الطريق. ولم يرحم البابا اعتلال صحته وشيخوخته وعماه. وعندما تقدم صديقه الأب كاستيللى بالتماس إلى المكتب المقدس فى ٩ يناير ١٦٣٨ للعفو عن أستاذه المحطم، أصدر هذا المكتب تعليماته المشددة إلى المحقِّق المحلى فى فلورنسا برؤية جاليليو وكتابة تقرير دقيق عن حالته الصحية، ومعرفة ما إذا كان لا يزال سادرًا فى غيه ينشر ضلالاته أم لا. وبالفعل، اضطلع الأب فاناتو بهذه المهمة ورفع تقريرًا بهذا الشأن إلى الكاردينال فرانسسكو باربرينى فى ٣ فبراير ١٦٣٨. قال باربرينى فى تقريره: «حتى أقوم بتنفيذ تعليمات قداسته على نحو دقيق توجهت بنفسى على غير انتظار لرؤية جاليليو وبرفقتى طبيب من الغرباء. ولم أفكر فى الاهتمام بتتبع الدراسات والأشغال التى اضطلع بها حتى أتمكن، فى حالة عودته إلى فلورنسا، من أن أعرف ما إذا كانت حالته تسمح بإذاعة المذهب الخاص بازدواجية حركة الأرض الذى كان السبب فى إدانته. ووجدته فاقد البصر تمامًا. غير أنه كان يأمل فى الشفاء من المياه البيضاء التى لم يمض على تكونها أكثر من ستة أشهر. ولكن فى مثل عمره (٧٤ سنة) رأى الطبيب أن حالة عينيه غير قابلة للشفاء. وإلى جانب هذا كان يعانى من فتاق شديد وقاس ومن تعب من الحياة دائم وأرق مستمر، وأكد لنا (والقاطنون معه فى نفس المنزل شهود على ذلك) أن هذا الأرق لا يسمح له بالنوم العميق لمدة ساعة واحدة خلال الأربع والعشرين ساعة. كما بدا من فرط هزاله أنه أقرب إلى الموت منه إلى الحياة. وتقع الڤيلا التى يقيم فيها على مسافة بعيدة من المدينة ويصعب الوصول إليها، لدرجة يصبح معها وجود العلاج الطبى أمرًا نادرًا، فضلاً عما يتكلفه هذا العلاج من نفقات باهظة. وتسببت إصابته بالعمى فى عدم قدرته على مواصلة أبحاثه. ولكنهم كانوا فى بعض الأحيان يقرءون عليه. ولم يعد أحد يرغب فى التحدث طويلاً معه، حيث إن اعتلال صحته جعله لا يكف عن الشكوى من علله وأوجاعه لضيوفه الذين زاروه من وقت إلى آخر. ونظرًا لهذا، فإنى أعتقد أن قداسة البابا إذا تكرم وسمح له بواسع رحمته بالبقاء فى فلورنسا ورأى قداسته أنه يستحق هذا، فلن تكون أمامه فرصة لعقد أية اجتماعات. وحتى إذا توافرت لديه فرصة، فقد بلغ درجة من الذل والهوان تكون معها أية كلمة تحذير قوية كافية لردعه.».

وبناء على هذا التقرير الذى يشهد بأن جاليليو أصبح حطامًا، أظهر له البابا قدرًا ضئيلاً من الرحمة. فسمح له بدخول فلورنسا والإقامة فى منزل ابنه الواقع فى طريق ديللا كوستا بالقرب من سان چيورچيو. وحذرته محكمة التفتيش من الخروج من محل إقامته إلى المدينة حتى لا يزج به فى غياهب السجن ويطرد من حظيرة الكنيسة، كما حذروه من التحدث مع أى شخص عن مذهبه المدان وألا يستقبل ضيوفًا تحوم حولهم الشكوك. وأيضًا طلب المحقق فاناتو من ڤسنزيو ابن جاليليو أن يضع تصرفات أبيه تحت المراقبة وألا يسمح للزوار بالبقاء طويلاً مع والده. ومن فرط الذل والانكسار شعر الابن بالامتنان لمحكمة التفتيش الظالمة؛ لأنها سمحت بمعالجة والده فى فلورنسا. غير أن موقف الدوق العظيم منه كان أكثر رفقًا به، فقد أعطاه معاشًا سنويًا قدره ألف سكودة. لم تسمح محكمة التفتيش لجاليليو بالخروج من منزله فى فلورنسا، لدرجة أنه فى يوم عيد القيامة احتاج إلى إذن من كنيسة روما كى تسمح له بالذهاب إلى كنيسة سان چيورچيو الصغيرة رغم أنها على بعد أمتار من الشارع الذى يسكنه؛ ولكنه فيما بعد تمتع بقدر أكبر من حرية الحركة بين مسكن ابنه فى طريق ديللا كوستا وبين الڤيلا التى يمتلكها فى أركيتري. ويحلول صيف ١٦٣٨، ظن الجميع أن ساعته الأخيرة قد اقتربت. وشعورًا بدنو الموت منه أوصى جاليليو فى ٢١ أغسطس ١٦٣٨ بدفنه فى مقبرة عائلته فى كنيسة سانتا كروتشى بفلورنسا، كما أوصى بتوزيع ما لديه من مال على أفراد أسرته. وفى أوائل سبتمبر من العام المذكور، قام تلميذه السابق الدوق العظيم بعيادته لمدة ساعتين ساعد أثناءهما فى إعداد الدواء الذى يتناوله. وكرر الدوق العظيم زياراته له، وأحيانًا أوفد لزيارته أحد أفراد عائلة المديسيس. وطلب جاليليو أن يسمحوا له بزيارة تلميذه وصديقه الأثير إلى قلبه الأب كاستيللى، فأمر الدوق العظيم يوم ٩ سبتمبر ١٦٣٨ سفيره فى روما بالعمل على تلبية طلبه. وتعهد الدوق العظيم بدفع نفقات الرحلة التى يقوم بها كاستيللى إلى روما. ورد السفير بقوله، إن كاستيللى طلب من تلقاء نفسه من البابا السماح له بزيارة جاليليو، فاشترط عليه البابا أن تتم هذه الزيارة فى حضور أحد أعضاء محكمة التفتيش. وعندما وصل الحبيب كاستيللى إلى فلورنسا فى أوائل أكتوبر ١٦٣٨، أصدرت إليه محكمة التفتيش أمرًا بعدم التحدث مع جاليليو عن مذهبه المحظور. وضاق كاستيللى ذرعًا بالقيود التى فرضتها محاكم التفتيش على زيارته فاشتكى لدى الكرسى البابوى، طالبًا منه السماح له بقدر أكبر من الحرية. فسمح البابا لكاستيللى بها، بعد أن قطع على نفسه عهدًا بإطاعة جميع أوامر الكنيسة ونواهيها.

وفى يناير ١٦٣٩، تحسنت أحوال جاليليو الصحية فتمكن من العودة إلى منزله فى أركيترى الذى لم يغادره حتى وفاته عام ١٦٤٢.

وفى أيامه الأخيرة سمحت السلطات الدينية لهذا الشيخ الفانى أن يقابل أصدقاءه وأحباءه الذين جاءوا للتعبير عن عميق تقديرهم واعترافهم بفضله عليهم، وزاره من باريس معجبون وأصدقاء أوفياء أمثال جاسندى وديوراتى، كما زاره من إنجلترا الشاعر الإنجليزى الكبير چون ميلتون الذى كان آنذاك فى التاسعة والعشرين من عمره ليقول له إن الحوارات التى ألفها عام ١٦٣٢ تجد قبولاً واستحسانًا عند الطبقات المتعلمة فى بلاد الإنجليز . ويتضمن الكتاب الذى نشره ميلتون بعنوان: «أريوباچيتيكا»، والذى يعتبر أروع دفاع عن حرية الرأى والتعبير - الإشارة التالية إلى زيارة ميلتون لجاليليو. والكتاب عبارة عن خطاب وجهه ميلتون إلى مجلس اللوردات والعموم فى بلاده. كتب ميلتون فى هذا الخطاب:

«أستطيع أن أروى ما رأيته وسمعته فى البلاد الأخرى حيث تستبد محاكم التفتيش بالناس وتتكل بهم. وهناك جلست بين رجال العلم فيها (حيث حظيت بهذا الشرف). وكنت أعتبر نفسى محظوظًا لأنى ولدت فى إنجلترا، أى فى مكان من المفترض أن تشيع فيه الحرية الفلسفية، فى حين أنهم لم يفعلوا شيئًا غير النحيب على الحال الذليل الذى وصل إليه علماؤهم، وأن هذه الحالة الحزينة هى التى أدت إلى انطفاء لمعة الذكاء الإيطالى، وأن لا شىء أصبح يكتب هناك طوال هذه الأعوام الكثيرة غير المديح الزائف. هناك وجدت جاليليو الشهير وقمت بزيارته، وقد تقدم به العمر وأصبح سجينًا بناء على أوامر محكمة التفتيش؛ لأن أفكاره الفلكية اختلفت عن أفكار الرقباء من الرهبان والفرنسيسكان والدومينيكان.

ومن المحتمل أن يكون چون ميلتون قد التقى بجاليليو عدة مرات.

وعندما سافر الفيلسوف الإنجليزى توماس هوبز خارج إنجلترا فى الفترة من ١٦٣٤ حتى ١٦٣٧ أمضى بعض الوقت فى فلورنسا نحو عام ١٦٣٥/ ١٦٣٦، حيث التقى بجاليليو وأعجب به أيما إعجاب. والغريب أن ديكارت حين ذهب إلى إيطاليا لم يبد اهتمامًا بمقابلة جاليليو.

والجدير بالذكر، أن عالم رياضيات نابهًا وتلميذًا له فى الثامنة عشرة من عمره جاء فى صيف عام ١٦٣٩ ليعيش مع أستاذه تحت سقف واحد، وظل يلازمه حتى وفاته

عام ١٦٤٢. وقبل وفاته بعامين نشر فورتيونو ليسيتى Fortunio Liceti الأستاذ بجامعة بادوا، مبحثًا يعارض فيه جاليليو ويزعم أن القمر مضىء بسبب طبيعته الفسفورية، وليس بسبب انعكاس أشعة الشمس على سطحه حسب نظرية جاليليو. وبعد تردد كثير قرر جاليليو فى ١٣ مارس ١٦٤٠ أن يملى رده على ليسيتى.

ويبدو مما كتبه جاليليو فى أيامه الأخيرة أنه نبذ إيمانه بنظرية كوبرنيكوس، وأكد أن الكنيسة كانت على حق حين أنكرتها. ولعل هذا يرجع إلى المعاناة النفسية والبدنية التى كابدها. ولعلها نوع من السخرية التى لجأ إليها كثيرًا عند الرد على أعدائه وشانئيه والاستهزاء بهم، وهى التظاهر بمسايرة خصومه فيما يعتقدون من آراء خاطئة.

إن عبقرية جاليليو لم تخنه أو تفارقه مدى الحياة. فقبل وفاته بوقت وجيز فكر فى النصف الثانى من عام ١٦٤١ من الاستفادة من البندول فى تنظيم عمل الساعة. وشرح فكرته لابنه ڤينسينزو وأملى عليه رسمًا توضيحيًا لعمل البندول. ولكن وطأة المرض اشتدت عليه قبل أن يتمكن بمساعدة ابنه من وضع فكرته موضع التنفيذ. وبعد وفاة والده واصل الابن أبحاث أبيه الخاصة بالبندول، حتى تمكن من صنعه قبل وفاته هو الآخر فى ١٦ مايو ١٦٤٩.

وفى الشهور القلائل السابقة على وفاته سعى أصدقاؤه ومريدوه الأوفياء إلى التخفيف عنه بقدر ما يستطيعون. وأظهر الدوق العظيم اهتمامًا بالغًا بصحته وأمده بما لذ وطاب من الطعام والشراب. ومما خفف من بؤسه وشقائه، مجىء صديقه وتلميذه الصدوق كاستيللى فى نهاية سبتمبر ١٦٤١ إلى سكنه للإقامة معه بعض الوقت والتناقش معه فى الأمور العلمية ذات الاهتمام المشترك. وأيضًا فى منتصف أكتوبر ١٦٤٢ حضر التلميذ الفيلسوف تورشيللى ليلازمه ليل نهار، حتى حانت ساعته وشيعه إلى مثواه الأخير. وكذلك أحاطه تلميذه المخلص فيفيانى بكل الرعاية والحب.

وبحلول ٢ نوفمبر ١٦٤٢ داهمت الحمى جاليليو وآلام الأطراف الممضة، الأمر الذى أقعده عن الحركة تمامًا. ورغم معاناته من الأرق والآلام الروماتيزمية وضربات القلب العنيفة والمضطربة ظل عقله صافيًا حتى نهاية العمر، لدرجة أنه فى فترات زوال الألم عنه ناقش المسائل العلمية لساعات طوال مع كل من تورشيللى وفيفيانى اللذين بادرا بتدوين آرائه فى هذه المناقشات، التى دارت حول الميكانيكا وفلسفة أرسطو وخواص الأشكال الدويرية وقوة الصدم Percussion. ولكن آراءه فى أيامه

الأخيرة التى سبقت موته بشأن هذه الموضوعات اندثرت، باستثناء آرائه فى قوة الصدم والتى أضيفت على شكل حوار سادس إلى مبحثه «حوارات حول علمين جديدين». وفى ٨ يناير عام ١٦٤٢، وهو نفس العام الذى شاهد فيه مولد نيوتن، صعدت روح جاليليو إلى بارئها وهو فى عمر يناهز الثامنة والسبعين. وبسبب غيرة وحسد شانئيه منه نراهم يسعون سعيًا حثيثًا إلى منع مواراة جثمانه الثرى فى أرض الكنيسة حتى لا يدنسها. ولكن أصدقاءه الأمناء والأوفياء نجحوا فى الانتصار على قوى التعصب والجهالة، وجمعوا ثلاثة آلاف كرونة لإقامة شاهد على قبر هذا الرجل العظيم فى كنيسة سانت كروتشى، الأمر الذى أثار حفيظة البابا إيربان الثامن الذى ظل على سابق كراهيته وعداوته المشبوبة له، فاستدعى نيكولينى السفير التوسكانى ليبلغ حاكم البلاد بأنه لا يليق إحاطة رفاته بكل مظاهر التبجيل والتقدير، لأن الكنيسة تتشكك فى صحة عقيدته. ونصح السفير حاكم البلاد بالتريث فى إحاطة المتوفى بكل هذه الحفاوة البالغة. وخوفًا من أن يتعرض جثمان الراحل العظيم للأذى قرر أحباؤه دفنه فى مكان غير ظاهر فى الكنيسة. واستمر هذا الوضع نحو اثنتين وثلاثين سنة، حتى وافت المنية ألد أعدائه البابا إيربان الثامن. عندئذ تجاسر فيفيانى وبقية مريدى جاليليو فأحاطوا قبره بقدر أكبر من التكريم. ولكن فيفيانى لم يقبل هذا التكريم المتواضع لأستاذه فأقام عام ١٦٩٣ شاهدًا كبيرًا على قبره، ووضع تمثالاً من البرونز على باب منزله. ولم يكتف الوفى فيفيانى بهذا، بل أوصى قبل وفاته فى عام ١٧٠٣ ابن عمه (الذى ترك له ثروته) بإقامة شاهد فخم من المرمر يليق بمكانة الفقيد. ومن جانبه تولى جيو باتستانيللى منفذ الوصية الاستفسار عام ١٧٣٤ من السلطات الدينية عن وجود أية مراسيم أو تعليمات تحظر إقامة شواهد تكريم لجاليليو. فردت الكنيسة فى ١٦ يونيو ١٧٣٤ بعدم وجود مثل هذا الحظر، بشرط عرض كلمات الشاهد على الجهات المختصة. وأخيرًا تم نقل جثمانه فى ١٢ مارس ١٧٣٧ فى حضرة رجال الأكليروس وأساتذة المدارس والجامعات فى فلورنسا وبيزا، وكذلك حضور العلماء والأدباء والفنانين الوافدين من جميع أرجاء إيطاليا محاطًا بكل مظاهر العظمة والأبهة والتكريم، إلى مثوى عظماء فلورنسا الواقع فى الجناح الشمالى من كنيسة سانت كروتشى. ولم يكتفوا بنقل رفات جاليليو إلى هناك وحسب؛ بل نقلوا معه رفات تلميذه الوفى فيفيانى الذى أوصى أن يدفن بجوار أستاذه. وتحول رفات جاليليو إلى ما يشبه بقايا القديسين والشهداء، فحرص البعض على اقتناء جانب من هذه البقايا، ومن بينها إصبعه الذى كان يستخدمه فى تأليف أعماله العظيمة .

هذه قصة حياة العالم الجهبذ الذى ظل يكابد أوجاع الأمراض نحو خمسين عامًا دون أن يفت هذا فى عضد طموحه العلمى أو يفتر حماسه للعمل. والجدير بالذكر، أن جاليليو أحب الريف والطبيعة من سويداء قلبه واعتبرهما حافزًا لنشاط الذهن وانطلاق الفكر؛ ولهذا كان يجد متعة خاصة فى العناية بحديقة منزله وزراعة الفواكه والكروم فيها.

وقد ظل طول حياته لا يبخل على حدائقه بجهد أو مال. كما كان يأخذ بيد الدارسين النابهين الفقراء.

ورغم اعتراضه على فيزياء أرسطو، فإنه لم يحاول أن يسفه أفكاره أو يحط من شأنها مثلما فعل الآخرون. وبالعكس عبر عن شديد إعجابه بمبحثَى أرسطو فى علمى «الأخلاق» و «البلاغة»، وأيضًا أعلى من شأن أفلاطون وأرشميدس، واعتبر علم الهندسة ركيزة مهمة وأساسية فى فهم كتاب الطبيعة.

أهم الأحداث فى حياة جاليليو وتواريخها

- ولد فى بيزا بإيطاليا يوم ١٥ فبراير ١٥٦٤.
- التحق بالتعليم فى دير فالومبروزا فى الفترة من ١٥٧٥ ـ ١٥٧٧.
- التحق بدير فالومبروزا غير أنه تركه فى عام ١٥٧٨.
- بدأ دراسته فى جامعة بيزا فى عام ١٥٨١.
- اخترع الميزان الهيدروستاتيكى فى عام ١٥٨٦.
- كتب مبحثًا عن مركز الجاذبية فى الجوامد استقبل بالحفاوة عام ١٥٨٨.
- حصل على وظيفة أستاذ رياضيات فى جامعة بيزا بمساعدة جويدو بالدو ديل مونت فى عام ١٥٨٩.
- استقال من جامعة بيزا بعد صراعه مع أتباع أرسطو عام ١٥٩١؛ ولكن ديل مونت ساعده مرة أخرى فى أن يعين أستاذ كرسى الرياضيات فى جامعة بادوا.
- كتب إلى كبلر يقول له إنه أصبح منذ سنوات عديدة يؤمن بنظرية كوبرنيكوس (١٥٩٧).
- أنجب ـ بدون زواج ـ ابنته فرجينيا (التى أصبحت الراهبة ماريا سيلست ١٦٠٠).

● أنجب ابنته الثانية ليفيا التى أصبحت الراهبة أرشانجيلا (١٦٠١).

● عاد إلى فلورنسا خلال فصل الصيف الدراسى لتدريس الأمير كوزيمو (١٦٠٥).

● أنجب ابنه ڤينسنزيو فى عام ١٦٠٦.

● اخترع الهولندى هانز ليبرشى التليسكوب فى عام ١٦٠٨.

● فى فبراير عام ١٦٠٩، تولى الأمير كوزيمو منصب دوق توسكانيا المعظم، وفى يوليو/ أغسطس من هذا العام، أنشأ جاليليو تليسكوبًا أخذ يراقب به الأجرام السماوية.

● فى مارس ١٦١٠، نشر مبحثه «رسول فى النجوم».

● فى يونيو من العام نفسه استقال من جامعة بادوا، وفى سبتمبر عاد إلى فلورنسا ليعمل فيلسوفًا وعالم رياضيات فى بلاط كوزيمو الثانى.

● وفى عام ١٦١١، سافر إلى روما منتصرًا، حيث أيد الفلكيون الجيزويت صحة اكتشافاته. وتم انتخابه عضوًا فى أكاديمية دى لينسى، ثم عاد إلى فلورنسا لينخرط فى نقاش محتدم حول حركة الأجسام فى الماء.

● فى عام ١٦١٢، نشر مبحثًا عن الأجسام الطافية وكتب خطابات عن البقع الشمسية، ويتهم الأب لورينى بمهاجمته من فوق منبر الكنيسة.

● فى عام ١٦١٣، تولت أكاديمية دى لينسى نشر خطاباته عن البقع الشمسية، كما أخبره الأب كاستيللى أن مذهبه يجد اعتراضًا عليه فى بلاط الدوق العظيم على أساس تناقضه مع الكتاب المقدس، الأمر الذى جعله يكتب خطابًا إلى كاستيللى.

● فى عام ١٦١٤، تصدى الأب كاسينى للهجوم العلنى عليه.

● فى عام ١٦١٥، أبلغ شانئوه المكتب المقدس استنكارهم للخطاب الذى أرسله إلى كاستيللى؛ ولكن الحكم جاء لصالحه. وأيضًا نشر الأب فوسكارينى كتابًا يحاول فيه التوفيق بين الكتاب المقدس وعلم الفلك الجديد. وفى نفس هذا العام، أرسل الكاردينال بيلارمين خطابًا إلى فوسكارينى ليحذره ويحذر جاليليو معه أن يبقيا فى دائرة الافتراضات حتى يتمكنا من التدليل على صحة مذهبيهما. ويذهب جاليليو إلى روما للدفاع عن موقفه. وكذلك كتب توماس كامبانيلا «دفاعًا عن جاليليو» بناء على طلب الكاردينال جيتانى.

● فى ١٩ فبراير ١٦١٦، تم استدعاء مستشارى المكتب المقدس اللاهوتيين لأخذ رأيهم فى نظرية كوبرنيكوس.

● فى ٢٣ فبراير من هذا العام، اتهم هؤلاء المستشارون مذهب كوبرنيكوس بالهرطقة.

● فى ٢٥ فبراير، كلف البابا بولس الخامس الكاردينال بيلارمين بالتنبيه على جاليليو أن ينبذ هذا المذهب ولا يحاول الدفاع عنه.

● فى اليوم التالى (٢٦ فبراير)، أصدر قوميسار المكتب المقدس العمومى أمره الشهير الموجود فى ملفات هذا المكتب إلى جاليليو بالامتناع عن مناقشة كوبرنيكوس بأى شكل من الأشكال.

● فى ٣ مارس، أعطى الكاردينال بيلارمين شهادة تمكنه من دحض الأكاذيب والأراجيف التى أثيرت حوله.

● فى ٥ مارس، فرض مجمع الفهارس حظرًا يمنع تداول كتاب كوبرنيكوس عن «دوران الأجرام السماوية» حتى يتم تصحيح ما ورد فيه من أخطاء، وحتى يتم توضيح أن الآراء التى تضمنها هذا الكتاب لا تعدو أن تكون مجرد افتراضات ليس لها أساس من الواقع.

● فى عام ١٦١٨، تظهر المذنبات فيحتدم حولها الجدل.

● فى عام ١٦١٩، اشترك جاليليو فى هذه الملاحاة بنشر مبحثه الذى نسبه إلى تلميذه ماريو جويدوكى تحت عنوان: «مبحث عن المذنبات».

● فى عام ١٦٢٠، نشر مجمع الفهارس قائمة بالتصويبات التى أدخلت على كتاب كوبرنيكوس وجعلته صالحًا للقراءة من الناحية الدينية.

● فى عام ١٦٢١، تسوء أحوال جاليليو بوفاة البابا بولس الخامس والكاردينال بيلارمين والدوق العظيم كوزيمو الثانى. وأيضًا يقوم جاليليو فى هذا العام بكتابة مبحث يحمل عنوان: «المجرب» للرد على بحث «الميزان الفلكى» للأب جراسى.

● فى عام ١٦٢٣، تم انتخاب مافيو كاردينال باربرينى بابا روما ليصبح البابا إيربان الثامن فيهديه جاليليو مبحثه الأخير «المجرب».

● فى عام ١٦٢٤، سافر جاليليو إلى روما لإلغاء الحظر المفروض على نظرية كوبرنيكوس، وتحدث بهذا الشأن محادثات طويلة ست مرات مع البابا إيربان الثامن الذى شجعه على المضى فى الكتابة، ونبهه ألا تتجاوز أفكاره حدود الافتراضات.

● فى عام ١٦٢٥، بدأ جاليليو فى تأليف مبحثه «حوار حول أعظم نظامين فى العالم» الذى لم يخف فيه تأكيده لصحة نظرية كوبرنيكوس، ولكن المرض الذى ألم به فى الفترة من ١٦٢٦ حتى ١٦٢٩ منعه من إتمام المبحث السالف الذكر.

● فى يناير عام ١٦٣٠، أتم تأليف هذا المبحث. وفى مايو من هذا العام توجه إلى روما، حيث اتفق مع الأب ريكاردى على نشر الكتاب، وفى شهر أغسطس توفى صديقه الحميم الأمير سيسى مؤسس أكاديمية دى لينسى.

● فى عام ١٦٣١، أرسل جاليليو إلى روما يطلب منها السماح بنشر المبحث الآنف الذكر فى فلورنسا. واستطاع نيكولينى السفير التوسكانى أن يقنع ريكاردى بإعطاء جاليليو الإذن بنشر مبحثه.

● فى فبراير عام ١٦٣٢، تم نشر الكتاب ولكن المكتب المقدس ما لبث أن حظر نشره وتداوله فى أغسطس من العام نفسه. ثم استدعى جاليليو إلى روما فى أعقاب ذلك فى شهر أكتوبر.

● فى فبراير عام ١٦٣٣، وصل جاليليو إلى روما وسمحت له السلطات بالنزول فى سفارة توسكانيا. وفى أبريل من العام نفسه ، قام الأب فيرنزولا بالتحقيق معه مرتين. وكان فيرنزولا وابن عم البابا كاردينال باريرينى يميلان إلى استعمال اللين والتسامح مع جاليليو. وفى مايو دافع جاليليو عن نفسه أمام المجمع المقدس. وكان التقرير المرفوع إلى البابا بشأن هذه التحقيقات مضللاً، ولهذا أصدر البابا إيربان الثامن فى ١٦ يونيو مرسومًا يقضى بأن يتراجع جاليليو علنًا عن آرائه ويفرض الحظر على كتابه. وفى ٢٢ يونيو تراجع جاليليو عن أفكاره، فخفف الحكم الصادر ضده وأطلق سراحه بحيث يتحفظ عليه أساقفة سيينا.

● فى ديسمبر عام ١٦٣٣، يعود إلى مسكنه فى أركيترى بالقرب من فلورنسا.

● فى عام ١٦٣٧، فقد جاليليو البصر فى كلتا عينيه ويتوجه للعيش فى فلورنسا حيث يواصل تأليف كتابه الجديد بعنوان: «علمان جديدان».

- وفى عام ١٦٣٨، نشر مبحثه عن العلمين الجديدين فى مدينة ليدن بهولندا .
- فى ٨ يناير ١٦٤٢، رحل جاليليو عن الدنيا.

الفصل الثامن

رد الاعتبار إلى جاليليو

فى خريف عام ١٩٩٢، عرف المشاهدون لشاشات التليفزيون وقراء الصحف فى العالم أن البابا بول الثانى قام برد الاعتبار إلى جاليليو. وبذلك تكون الكنيسة الكاثوليكية قد اعترفت بخطئها واعتذرت رسميًا عن هذا الخطأ. وفى نظر العالمين ببواطن الأمور لم يكن هذا الموقف من جانب الكنيسة جديدًا، حيث إن فهرس الكتب الممنوعة الذى أصدرته عام ١٧٥٨ - أى بعد مرور أكثر من قرن على وفاة جاليليو - رفع الحظر عن الكتابات المدافعة عن دوران الأرض. صحيح أن نفرًا من العاملين فى الفاتيكان فى روما حاول فى عام ١٨٢٠ أن يسوق بعض المحاجات القانونية لمنع نشر أحد المؤلفات الفلكية؛ ولكن محاولته سرعان ما ذهبت أدراج الرياح. ونتيجة لهذا، تم استبعاد «حوار» جاليليو من فهرس الكتابات المحظورة الصادر بعد التاريخ المشار إليه. وقد أسهم الكاثوليك الرافضون لإدانة جاليليو بنصيب وافر فى الكتابة عن قصة الصراع بين العلم والدين. ومن الخطأ أن نظن أن هذا الصراع المحتدم قد انتهى عقب وفاة جاليليو، فقد تجلى بعد ذلك فى صور متنوعة وأوقات مختلفة.

اجتماع مجمع الفاتيكان الثانى

استمر مجمع الفاتيكان الثانى الذى يضم جميع أساقفة الكنيسة الرومانية فى الانعقاد لنحو شهرين فى فصل الخريف، فى الفترة من عام ١٩٦٢ حتى عام ١٩٦٥. وأسفرت هذه الاجتماعات عن نشر دستور كنسى بعنوان: «الكنيسة فى عالم اليوم» تطرق بطبيعة الحال إلى موضوع العلاقة بين العلم والدين. وبالنظر إلى أن شيئًا من

التغير طرأ على موقف الكنيسة الكاثوليكية من هذه المسألة، حيث إنها لم تعد ترى ضرورة لوجود صراع بين العلم والدين، فإن هذا التغير ساعد على استقلال العلوم والنشاط الذهنى والفنى بوجه عام. وفى هذا السياق كان من الطبيعى أن تهتم الكنيسة بما حدث لجاليليو. وفى واقع الأمر، أشار الكثير من الأساقفة المجتمعين فى كلماتهم واقتراحاتهم إلى جاليليو، ورأوا فى معاملة الكنيسة له جورًا لا ينبغى تكراره. واشتكى أسقفان فى هذه الاجتماعات من الضجة المبالغ فيها التى اصطنعتها الكنيسة بشأن قضية جاليليو. وارتفعت أصوات كثيرة تثنى على جاليليو، من بينها صوت الأسقف إلتشنجر العامل فى استراسبورج، وذلك فى خطاب ألقاه فى مجمع الفاتيكان الثانى فى ٤ نوفمبر ١٩٦٤. قال: «كثير من علماء العالم يحتفلون بذكرى مرور أربعة قرون على ميلاد هذا الرجل العظيم. ولكن أحدًا لم يصلح الخطأ الذى اقترف فى حق هذا الرجل التعس الذى أدين ظلمًا. ومن ثم، فإن إعادة الكنيسة الاعتبار إلى جاليليو فى تواضع ولياقة سوف يكون عملاً رائعًا».

ومع ذلك، فقد فشل الأسقف إلتشنجر فى رد الاعتبار إلى جاليليو. ورغم هذا الفشل؛ فإن الأساقفة المدافعين عنه استطاعوا حمل زملائهم فى المجمع على إدخال تذييل يحتوى على سيرة حياة جاليليو، وهى خطوة مهدت بطبيعة الحال إلى رد الاعتبار إليه.

خطبة بمناسبة مرور قرن على ميلاد أينشتاين

انتهز البابا چون بول فرصة مرور مائة عام على مولد أينشتاين ليلقى خطابًا عن جاليليو باللغة الفرنسية، بتاريخ ١٠ نوفمبر ١٩٧٩ أمام الأكاديمية الثانوية للعلوم (التى وصفها بأنها خليفة أكاديمية دى لينسى التى كان جاليليو واحدًا من أبرز روادها، والتى ناصبتها الكنيسة العداء أيام جاليليو)، وأيضًا أمام الكلية الأكليريكية. وتركز خطاب البابا على ترحيب الكنيسة الكاثوليكية بالعلم وإعجابها بمنجزاته. وفى معرض خطابه أشار البابا إلى أن عظمة جاليليو تضارع عظمة أينشتاين، وأن هذه العظمة لا تخفى على أحد. وأوضح البابا فى هذا الخطاب ما تعرض له جاليليو على يد رجال الكنيسة الكاثوليكية من تنكيل واضطهاد. ولعل الفقرة التالية من أهم الفقرات التى اشتمل عليها الخطاب البابوى:

«حتى نتحرك قُدُمًا إلى الأمام ونتجاوز ما خلص إليه المجمع، أحب أن يتوفر اللاهوتيون والعلماء والمؤرخون مدفوعين بروح التعاون الصادق على مزيد من الدراسة

لقضية جاليليو، وأن يتوخوا الحيدة فى التعرف على أية أخطاء أيًا كان مصدرها، وأن يزيلوا من عقول الكثيرين العراقيل التى جعلت قضية جاليليو سببًا فى غياب التناغم المثمر بين العلم والدين وبين الكنيسة والعالم. وإنى أعبر عن تأييدى الكامل لهذه المهمة التى سوف تجعل من العلم والدين حقيقة محترمة، وتفسح الطريق أمام المزيد من التعاون بينهما.».

ثم أردف البابا قائلاً، إن جاليليو الذى يستحق لقب مؤسس علم الفيزياء الحديث صرح بجلاء أن الدين لا يتعارض مع العلم. وحين قام مجمع الفاتيكان الثانى بإقرار هذه الفكرة نجده يستخدم نفس تعبيرات جاليليو الواردة فى «خطاب إلى كاستيللى». وأشار البابا أيضًا إلى شدة تقوى جاليليو وورعه، كما ينصح فى كتابه العلمى «رسالة من النجوم». كما استند البابا إلى «خطاب إلى الدوقة العظيمة»، الذى ذهب فيه جاليليو إلى ضرورة التوفيق بين الكتاب المقدس والعلم. ورغم أن البابا چون بول لم ينادِ عام ١٩٧٩ برد الاعتبار رسميًا إلى جاليليو، فإنه أقر بعظمة منجزاته العلمية ودوره الشجاع فى محاولة التوفيق بين العلم والدين.

عودة إلى «حوار» جاليليو المُصادَر

أسفرت الخطبة التى ألقاها البابا چون بول بمناسبة مرور مائة عام على مولد أينشتاين، عن تشكيل لجنة بابوية متعددة التخصصات بتاريخ ٣ يوليو ١٩٨١ لإجراء مزيد من البحث والاستقصاء حول قضية جاليليو. وفى خلال عقد من الزمان قام أعضاء اللجنة بإصدار سلسلة من المطبوعات المهمة عن الوثائق الخاصة بقضية جاليليو ودلالاتها. وبينما كانت اللجنة تضطلع بعملها، أكد لها البابا ضرورة تضافر جهود العلماء واللاهوتيين لكشف الحقائق بحيدة وموضوعية كاملة. وانتهز البابا فرصة مرور ثلاثة قرون ونصف على نشر جاليليو حواره ليكرر مؤازرته له. وفى ٩ مايو ١٩٨٣، ألقى البابا خطابًا أمام جمع من علماء البلاد المختلفة والكرادلة المقيمين فى روما، بالإضافة إلى عدد من رجال الدين المرموقين، قال فيه إن الكنيسة «تعلمت من قضية جاليليو فهمًا أدق لسلطتها». وعبر مجمع الفاتيكان الثانى عن تأييده لحرية البحث العلمى وتأكده من عدم وجود تعارض بين العلم والدين. فكلاهما كما قال البابا ضرب من المعرفة يفضى إلى معرفة أكبر بالله الذى هو أصل كل حقيقة. ولم ينس

البابا فى حكمته أن يذكّر الحاضرين بأن الأب بيلارمين لم ير داعيًا لوجود توتر بين العلم والدين، أو داعيًا للجمود والتزمت فى فهم الكتاب المقدس.

النتائج التى توصلت إليها اللجنة البابوية المتعددة التخصصات

فى يوم ٣١ أكتوبر عام ١٩٩٢، قدم الكاردينال بول بوبارد Poupard النتائج التى توصلت إليها اللجنة البابوية بإيجاز، إلى قداسة البابا چون بول. وقد بين الكاردينال أن اللجنة لم تكن بصدد إعادة محاكمة جاليليو، ولكن التساؤلات التى أثارتها هذه اللجنة توضح وجود خلل فى الإجراءات القانونية التى اتخذت فى محاكمة جاليليو الأولى عام ١٦١٦.

كان أول ما فعله الكاردينال بوبارد القيام بتوضيح إصرار بيلارمين عام ١٦١٦ على انتفاء وجود برهان حقيقى على صحة مذهب كوبرنيكوس، حيث لابد من الوصول إلى مثل هذا البرهان قبل الحديث عن ارتكاب إساءة إلى الكتاب المقدس أو إساءة فى إعادة تفسيره. والرأى عند بيلارمين أن جاليليو عجز عن الإتيان ببرهان دامغ على صحة هذا المذهب، كما أن معارضى جاليليو فشلوا فى الإتيان ببرهان دامغ يثبت عدم صحته. ولهذا السبب نصح بيلارمين كلاً من جاليليو وفوسكارينى بتوخى الحذر. وفى الوقت نفسه، توخى بيلارمين نفسه الحصافة عندما أوضح الإجراءات التى ينبغى على الكنيسة اتخاذها فى حالة وجود براهين دامغة. ولم يجانب الكاردينال بوبارد الصواب عندما ذكر أن بيلارمين نبه علماء اللاهوت إلى ضرورة إعادة تفسير فقرات الكتاب المقدس موضع الخلاف، فى حالة وجود دليل على صحة المذهب الكوبرنيكى. ولم يكن بيلارمين مستعدًا للنظر فى أمر إعادة تفسير الكتاب المقدس، طالما أنه لا يوجد دليل قاطع على صحة النظرة الكوبرنيكية. ومن هذا المنطلق نصح بيلارمين كلاً من جاليليو وفوسكارينى بتوخى الحكمة. وأشار بوبارد بإيجاز إلى رفع الحظر عن الكتب المدافعة عن المذهب الكوبرنيكى وإزالته من فهارس الكتب الممنوعة. والجدير بالذكر، أنه تمت إزالة العداء الرسمى للمذهب الكوبرنيكى فى عام ١٨٢٢، غير أن اللجنة لم تتمكن من إعطاء إجابة شافية عن تأخر الكنيسة فى إدراك الخطأ الذى تورطت فيه.

وتوصلت اللجنة المذكورة إلى نتيجة مفادها أن جميع المشاركين فى محاكمة جاليليو بدون استثناء لهم الحق فى اعتبار أنفسهم من المؤمنين بصحيح الدين

المسيحى؛ لأن الجانب المؤيد لمذهب كوبرنيكوس والجانب المعارض له لم يتمكنا من إثبات صحة وجهة نظرهما. ولا شك، أن عدم قدرة رجال اللاهوت الكاثوليكى على النأى بأنفسهم عن التفسير الحرفى للكتاب المقدس جعلهم يناقشون المسائل العلمية من منظور لاهوتى، كما جعلهم يخلطون بين اللاهوت والعلم. ومما زاد فى ضبابية الرؤية أن الذين حاكموا جاليليو فى المرة الأولى عام ١٦١٦، كانوا كرادلة لا تربطهم بالعلم أية صلة.

وعلى أية حال، انتهت اللجنة التى شكلها البابا چون بول للبحث فى قضية جاليليو إلى التالى:

«إن القضاة الذين أصدروا الحكم على جاليليو فى إطار ظروفهم التاريخية والثقافية، عجزوا عن فصل الدين عن الفلسفة الكونية القديمة التى أصابتها الشيخوخة، واعتقدوا ـ وهم مخطئون فى ذلك تمامًا ـ إن ثورة كوبرنيكوس الفلكية التى لم تكن قد استقرت بعد وظهر الدليل القاطع على صحتها سوف تدمر التقاليد الكاثوليكية، وأن واجبهم اقتضى منهم حظر تعليمها. هذا الخطأ فى الحكم الذى لا يتحرى الموضوعية والواضح لنا تمامًا فى يومنا الراهن دفعهم إلى اتخاذ إجراءات عقابية كبدت جاليليو الكثير من العذاب، ويجب الاعتراف بصراحة بهذه الأخطاء كما طالبت يا قداسة البابا».

خطاب البابا چون بول

فى الخطاب الذى ألقاه البابا چون بول للرد على أعضاء الأكاديمية البابوية وأمام ضيوفه البارزين، قدم شكره للكاردينال بوبارد وجميع الذين اشتركوا معه فى أعمال اللجنة. وأيضًا وجه إليهم شكره الخاص على مطبوعاتهم ذات الطابع العلمى المتميز مما حظى بعظيم تقديره. وهكذا أرسى البابا چون بول تقليدًا مهمًا فى كيفية التعامل مع أية مشاكل علمية قد تواجه الكنيسة فى المستقبل. وأضاف البابا بأنه اهتم بموضوع جاليليو رغم انقضاء كل هذا الزمن، حتى تصبح الكنيسة مؤهلة لمواجهة مثل هذه المشاكل ومؤهلة للمصالحة بين العلم والدين.

واستطرد البابا قائلاً، إن جاليليو ـ شأنه فى ذلك شأن معظم أعدائه ـ لم يكن يميز بين المعالجة العلمية للظواهر الطبيعية والتفكير الفلسفى الذى تتطلبه عادة مثل هذه المعالجة. ولهذا نراه يرفض الاقتراح الذى عرضوه بأن يأخذ بالنظام الكوبرنيكى

كافتراض، طالما أنه لا يوجد إثبات قاطع على صحته. ثم أثنى البابا على جاليليو ثناء عاطرًا بقوله: «من المفارقة أن نرى المؤمن الصادق جاليليو يفوق فى إيمانه الثاقب معارضيه من علماء اللاهوت».

ولكن البابا أعطى أعداء جاليليو شيئًا من العذر، عندما اعترف بصعوبة تقبُّل اللاهوتيين آنذاك لفكرة مركزية الشمس فى الكون. قال:

«إن القرار الكنسى الذى تتطلبه نظرية كوبرنيكوس كان من الصعب اتخاذه، حيث إن الاعتقاد بمركزية الأرض فى الكون بدا جزءًا من تعاليم الكتاب المقدس نفسها... دعنا نقول بطريقة عامة إنه أصبح لزامًا على الأكليروس أن يظهروا جسارة حقيقية ويتفادوا السقوط فى شرك التردد أو الحكم المتعجل؛ لأنه يمكن لكليهما التسبب فى إلحاق الضرر الجسيم».

وموقف البابا چون بول هنا لا يختلف كثيرًا عن موقف بيلارمين الذى أبلغ جاليليو به عن طريق دينى Dini. وأيضًا يشير هذا البابا إلى الحاجة إلى فهم جديد للكتاب المقدس فى ضوء التطورات العلمية، الأمر الذى يتطلب من عالم اللاهوت أن يكون ملمًا بهذه التطورات. وبرد الاعتبار إلى جاليليو صارت الكنيسة الكاثوليكية تعتبره «عالم فيزياء لامع» و«أنه من الناحية العلمية مؤسس الأسلوب التجريبى». ولم يغفل البابا أن يشير فى خطابه إشارة مبتسرة إلى أن «الإنجيل لا يُعنى باستقصاء تفاصيل العالم الفيزيقى»، وهو بذلك يردد ما كان جاليليو نفسه يسعى جاهدًا إلى توضيحه.

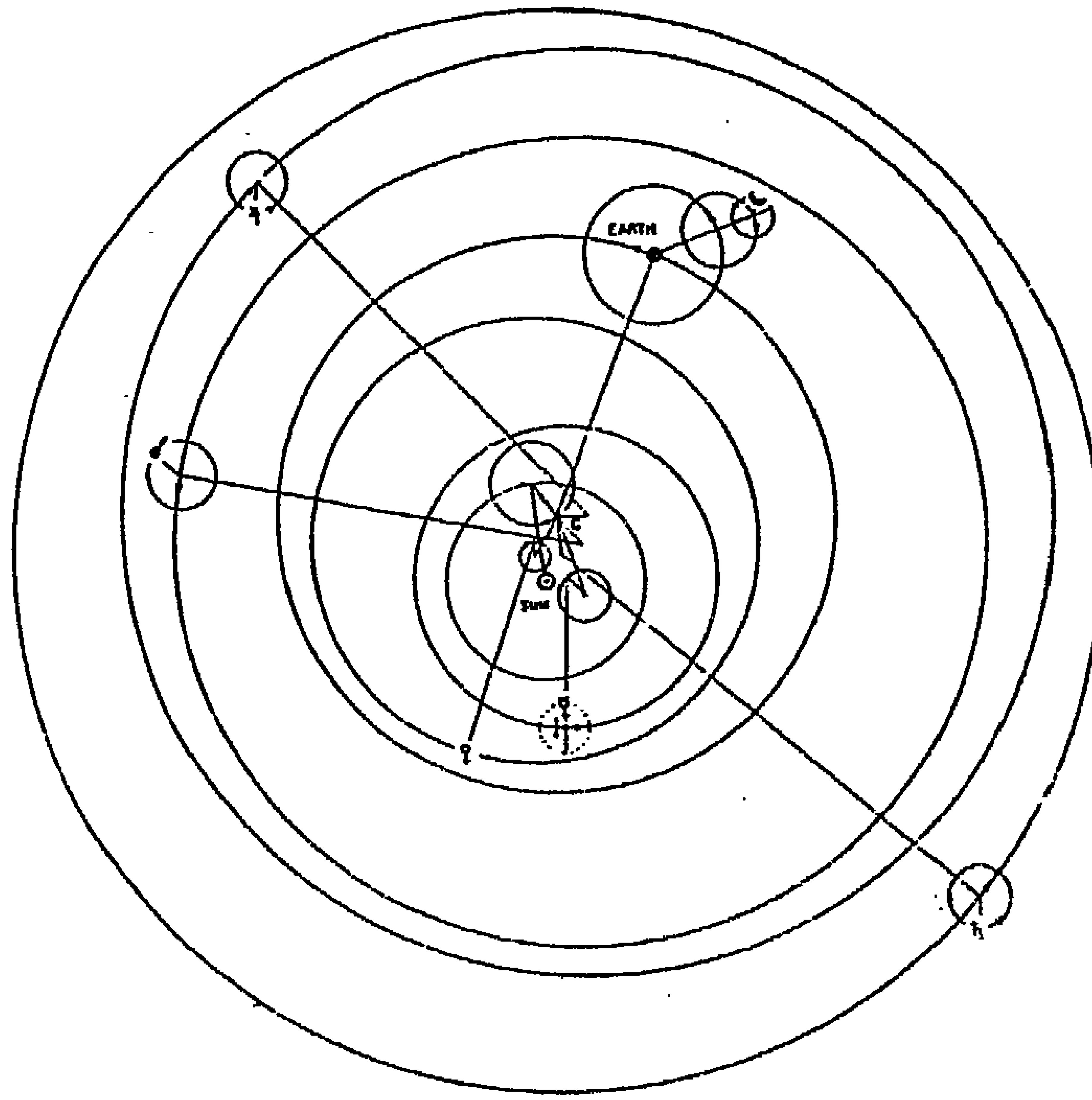
يقول البابا فى هذا الشأن:

«هناك نوعان من العلم: نوع يعتمد على التنزيل، ونوع آخر يعتمد على ما يستطيع العقل اكتشافه باستخدام طاقاته. والعلوم التجريبية والفلسفة على وجه الخصوص تنتمى إلى النوع الثانى.. ولا ينبغى فهم الفرق الموجود بين هذين النوعين من العلم على أنه ينطوى على التناقض. فالنوعان ليسا غريبين عن بعضهما البعض، حيث إن هناك نقاط تلامس بينهما».

ويذهب البابا إلى أن الأكاديمية البابوية مسئولة عن تقدم المعرفة وعن احترام الحرية المشروعة اللازمة لإجراء البحوث العلمية. ويستطرد قائلاً: «فوق كل شىء تكمن أهمية النظرية العلمية أو الفلسفية فى ضرورة كونها نظرية حقيقية، أو أنها على أقل تقدير نظرية جادة تقف على أرض صلبة. والهدف من أكاديميتكم فى حالة العلم

الراهنة وحدوده المضبوطة هو على وجه التحديد والتمييز والتعريف بكل ما يمكن اعتباره حقيقة مكتسبة، أو على أقل تقدير حقيقة تتمتع بدرجة من الاحتمال تجعل من رفضها ضربًا من الغفلة والبعد عن المعقولية. وبهذه الطريقة يمكن تجنب الصراعات غير الضرورية.

وهكذا اعترفت الكنيسة الكاثوليكية بعد انقضاء نحو أربعة قرون، بأنها أساءت إساءة بالغة إلى واحد من أذكى وأخلص وأبر أبنائها.



رسم يبين نظام كوبرنيكوس الشمسى. وفيما يلى الرموز الخاصة به والمذكورة بالرسم

☉	Sun	الشمس	♁	Earth	الارض
☿	Mercury	عطارد	♂	Mars	المريخ
♀	Venus	الزهرة	♃	Jupitir	المشترى
☾	Moon	القمر	♄	Saturn	زحل



جاليليو في سن الستين



البابا إيربان الثامن عندما تولى سدة الكرسي البابوي



الكاردينال بيلارمين

الموت شنقاً فحرقاً

جيرولامو سافونارولا

(١٤٥٢ - ١٤٩٨)

طفولة وحيدة حزينة

والطريق إلى الرهبنة

ينحدر جيرولامو سافونارولا Girolamo Savonarola (١٤٥٢ ـ ١٤٩٨) من إحدى عائلات بادوا الإيطالية. وكان أحد أسلاف هذه العائلة، أنتونيو سافونارولا، محاربًا مغوارًا حارب ببسالة منقطعة النظير نحو عام ١٢٥٦ ضد طاغية يدعى إيزيلينو دا رومانو Ezzelino da Romano. وتخليدًا لبطولته، أطلق اسمه على إحدى بوابات بادوا التى لا تزال تحمل اسمه حتى الآن. وفى منتصف القرن الخامس عشر، انتقل أحد فروع هذه العائلة إلى مدينة فيرارا فى إيطاليا. وكان عاهل هذه المدينة نيكولو دست أو نيكولو الثالث عاشقًا للفنون والآداب، وراعيًا للعلم يحرص على اجتذاب العلماء المرموقين إلى بلاطه. ولهذا دعا الطبيب المحسن الورع ميشيل سافونارولا لحضور مجلسه. ولكن يبدو أن هذا الرجل كان يحتقر حياة البذخ فى البلاط الملكى ويسخر منها فى قرارة نفسه وفى بعض كتاباته غير المنشورة؛ فضلاً عن تأليفه بعض الكتب عن الطب وحياة التقشف. ويبدو أن حفيده جيرولامو ورث عنه الزهد والبعد عن زخرف الحياة الزائل. وتميز هذا الجد التقى بحدبه الشديد على حفيده جيرولامو سافونارولا. وقد عمل هذا الرجل الطيب القلب والعطر السيرة طبيبًا فى بلاط كل من ليونيلو وبورسو إست اللذين خلفا والدهما المتوفى عاهل فيرارا. ويذكر أن هذا الجد استقر فى فيرارا عام ١٤٤٠ ومارس التدريس بنجاح فى جامعتها، الأمر الذى جعل الجوائز تنهال عليه حيث عينه بابا روما نيكولاس فارسًا على أورشليم، كما أغدق عليه ورثة الماركيز نيكولو الثالث المال وأقطعوه الأرض والضياع. واصطفاه ليونيلو خليفة

الماركيز نيكولو كى يكون طبيبه الخاص، وأعفاه من كل المشاغل والواجبات حتى يتفرغ للكتابة.

وكان لهذا الطبيب الناجح ابن متلاف قال عنه المؤرخ فيلارى إنه بدد ما تركه له والده من مال؛ ولكنه أظهر حرصًا غير عادى على تعليم جيرولامو. ورغم ضآلة المعلومات التى يملكها الدارسون عن إيلينا زوجة هذا المسرف ووالدة جيرولامو، فإن الدلائل تشير إلى نبل أخلاقها وشدة تعلق جيرولامو بها؛ إذ كان فى وقت الشدائد والأزمات يكتب إليها كى يزيح عن نفسه الكرب والضيق. ونحن لا نبالغ إذا قلنا، إن جيرولامو كان يحب أمه لدرجة العبادة.

ولد جيرولامو سافونارولا فى ٢١ سبتمبر ١٤٥٢، وهو المولود الثالث فى سبعة أطفال. واتسم منذ طفولته بالجدية وغمره الإحساس بالوحدة إلى جانب زهده الفطرى فى الحياة. وتدل القصيدة التى نظمها عام ١٤٧٢ بعنوان: «حطام الدنيا» على مدى إعراضه عن بهرج الحياة وزخرفها. وتمنى والدا جيرولامو أن يصبح ابنهما طبيبًا. وكان من الطبيعى أن يحيطه جده الطبيب ميشيل بالرعاية والاهتمام منذ نعومة أظفاره. ومما شجع جده على هذا الاهتمام ما أظهره حفيده من رغبة عارمة فى طلب العلم وحب عميق للكتب، حتى ولو كانت أعلى من مستواه وقدراته على التحصيل أو الفهم.

توفى جد جيرولامو فجأة تاركًا إياه لإرشاد والده الذى أخذ يعطيه دروسًا فى الفلسفة، والجدير بالذكر، أن مدينة فيرارا آنذاك شاهدت بزوغًا للفلسفة الأفلاطونية إلى جانب بعض الترجمات الأمينة لأعمال أرسطو فى اللغة الإغريقية. وحمل الأب ابنه على التوفر على دراسة مؤلفات القديس توماس الأكوينى والشروح العربية لفلسفة أرسطو. واستهوته أعمال القديس توماس الأكوينى فاستغرق استغراقًا كاملاً فى تأملها، وانصرف عن الطب إلى دراسة كتابات الأقدمين ونظم الشعر ودراسة الرسم والموسيقى ويجد الباحثون عسرًا شديدًا فى تتبع تطوره الفكرى حينذاك، نظرًا لوجود ثغرة فى سيرته فى تلك الفترة من حياته.

وعندما شب جيرولامو وترعرع فى مدينة فيرارا التى بلغ تعدادها مائة ألف نسمة، كان البلاط الملكى هناك مبهرًا فى بهرجته واحتفالاته ومباهجه. فضلاً عن أنها كانت مزارًا للأمراء والأباطرة والبابوات. وبعد نيكولو الثالث اعتلى أريكة الحكم فى فيرارا ولداه غير الشرعيين اللذان اعترف بشرعيتهما فيما بعد، وهما: ليونيلو وبورسو،

مفضلاً إياهما على ابنه الشرعى إركول. تولى ليونيلو الحكم بعد وفاة والده عام ١٤٤١، ثم خلفه بورسو عام ١٤٥٠. وكانت فترة حكمهما تمور بالمشاكل والاضطرابات، وارتبط ليونيلو بصداقات وطيدة مع العلماء والدارسين وشجع جامعة مدينته على الازدهار، كما استهواه نظم الشعر والسوناتات باللغة الإيطالية وتدبيج الخطب باللغة اللاتينية. وأحاط ليونيلو نفسه وحاشيته بكل مظاهر البذخ والأبهة. والشيء نفسه تكرر فى حياة خلفه بورسو؛ ففى عام ١٤٥٢ زار بلاطه الإمبراطور فردريك الثالث برفقة ألفى تابع، وهو فى طريقه إلى روما فأكرم بورسو وفادته وأقام له الأفراح والليالى الملاح لمدة عشرة أيام متواصلة. وعند عودته من روما قام الإمبراطور فردريك بمنحه لقب دوق فأقام له بورسو المزيد من الاحتفالات المبهرة.

شاهد جيرولامو بأم عينيه فى طفولته كل هذا البذخ والإبهار. وبدت هذه الاحتفالات والولائم نشازًا؛ لأنها واكبت سقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣ فى يد الأتراك وما مثله هذا من خطر على العالم المسيحى. وفى هذا الجو المشحون بالتوتر ترأس البابا بيوس الثانى (١٤٥٨ ـ ١٤٦٤) اجتماعًا فى مانتوا؛ من أجل العمل على محاربة الأتراك. ومن أجل تحقيق هذا الهدف تحرك فى عام ١٤٥٩ موكب البابا تحيط به كل مظاهر العظمة والأبهة، يتبعه عشرة كرادلة وستون أسقفًا وعدد كبير من الأمراء لزيارة المدن الإيطالية. وتنافست المدائن لاستقبال موكب البابا بكل مظاهر الحفاوة اللائقة بالأباطرة والملوك. وعندما وصل الموكب مدينة فيرارا، استقبله أهلها بسدة أو أريكة مصنوعة من الذهب. وفرشت أرض المدينة بالأقمشة والبُسُط التى تناثرت عليها الزهور. وصدحت الموسيقى وارتفعت العقائر بالغناء. وفى مدينة مانتوا ألقى البابا يوم ٢٧ مايو ١٤٥٩ فى بلاغة منقطعة النظير خطابًا ناريًا عن المحنة التى ابتلى بها المسيحيون الذين يعيشون فى القسطنطينية؛ ولكن الصراعات التى احتدمت بين أمراء إيطاليا حالت آنذاك دون نجاح البابا بيوس الثانى فى إرسال حملة صليبية إلى بلاد الشرق. غير أن فشل البابا فى استنهاض الهمم لم يقلل من حفاوة فيرارا البالغة به عند عوته إلى هذه المدينة. وهكذا رأى جيرولامو سافوناورلا هذه الاحتفالات المبهرة التى أقامها حاكم فيرارا لاستقبال رأس الكنيسة الكاثوليكية. ولعل رؤيته لاهتمام البابا بزخرف الدنيا وبهرجها ترك فى نفس الصبى جيرولامو أسوأ الأثر.

وبعد وفاة بورسو فى التاسع من أغسطس عام ١٤٧١، استطاع إركول (الابن الشرعى لنيكولو الثالث) أن ينصب نفسه ملكًا على مدينة فيرارا بعد أن أراق دم الموالين لسلفه. وفى اليوم التالى للمجازر التى ارتكبها، أقام إركول الاحتفالات الصاخبة. ورغم أن الدارسين لا يعرفون على وجه التحديد أثر هذه الحفلات بالذات على نفسية الصبى جيرولامو، فإنه من المقطوع به أن نفسه عافت مثل هذا الجو الصاخب، وأنه عانى من الوحدة والحزن منذ نعومة أظفاره. ونذر حياته منذ ذلك الوقت الباكر للصوم والصلاة والعبادة ودراسة الكتاب المقدس وكتابات القديس توماس الأكوينى والعزف الحزين على قيثارته كلما سنحت له الفرصة، أو كتابة القصائد التى تعبر عن شدة كآبته. ويبدو أن حياة القصور والسرايات المترفة لم ترق له وأنه عزف عن حياة الرغد والترف، فعندما صحبه أبواه فى صباه ذات مرة إلى قصر الدوق، صمم تصميمًا لا هوادة فيه ألا تخطو قدماه عتبة هذا القصر مرة أخرى. ولا غرو، فقد بدا له رمزًا للفساد والطغيان. وفى بدرومات القصر وأقبائه المظلمة كان السجناء يرسفون فى أغلالهم تندُّ عنهم التأوهات والآهات ويتلوون من الألم والعذاب، فى حين كان سيد القصر وحاشيته يتراقصون ويتمايلون على أنغام الموسيقى ويحتسون كؤوس الخمر. ولاشك، أن هذه المفارقات كانت تمزق نياط قلب جيرولامو سافونارولا فلا يجد راحة أو ملجأ إلا فى الكنيسة يبلل مذبحها بدموعه، وهو منبطح أمامه لساعات طوال لعله ينسى فساد هذا العالم وشره.

وزاد من غمه أن نبيلاً من فلورنسا نفته هذه المدينة إلى فيرارا كانت له فتاة غير شرعية وتقيم فى نفس الشارع الذى يقطنه جيرولامو فى فيرارا. وانبهر الفتى بحسنها وجمالها وتصور أن زواجه منها سوف يضمن له السعادة على الأرض؛ فتقدم إلى خطبتها فنهرته فى استعلاء مهين، الأمر الذى صدمه وأثار حنقه الشديد وعمق فيه الشعور بالوحدة والوحشة. وكان من الطبيعى أن يلتجئ إلى الخالق يلوذ به. كان جيرولامو سافونارولا آنذاك فى العشرين من عمره. وضاق ذرعًا بالحياة الدنيا ونذر حياته للآخرة وآثر أن ينخرط فى حياة الرهبان الدومينيكان. ولكنه أخفى قراره بالرهبنة عن والديه حتى لا يعترضا عليه. وخشى الشاب أن يضعف أمام اعتراض أهله على قراره. والغريب أن أمه أحست بما يختلج فى صدره وينوى فعله وصارحته بهذا يوم ٢٣ أبريل ١٤٧٥. وفى اليوم التالى أقامت فيرارا احتفالاً عظيمًا بعيد القديس

چورچ فذهب أبواه لحضور هذا الاحتفال. واختار جيرولامو هذا الوقت للهرب من البيت إلى بولونيا للالتحاق بدير الدومينيكان هناك. وإمعانًا فى الاتضاع وإذلال النفس، طلب من رئيس الدير إسناد أحقر الأعمال إليه وأكثرها نَصَبًا وتعبًا، بزعم أنه جاء إلى الدير ليكفر عن ذنوبه. ولكنه تذكر أهله بمجرد دخوله قلايته فى الدير، فقام دون إبطاء يوم ٢٥ أبريل ١٤٧٥ بإرسال خطاب إلى والديه يطمئنهما فيه على نفسه ويبرر هروبه من المنزل. وقال فى الخطاب إنه عجز عن تحمل ما يستشرى فى العالم من فساد وشرور وآثام. وأكد أن قراره بالالتحاق بالدير ليس وليد نزوة أو رغبة عابرة، بل هو نتيجة التأمل الطويل والعذاب الممض. واعتذر لوالده عن عدم قدرته على مصارحته بنيته فى الرهبنة؛ لأنه خشى أن تثنيه المواجهة عن عزمه. وطلب من والده التخفيف عن والدته المكلومة، كما طلب من أبويه أن يدعوا له باليمن والبركات. وأخبر الابن أباه أنه ترك بعض الأوراق التى دون فيها خواطره بجوار نافذة حجرته. فبحث الأب عن هذه الأوراق حتى وجد مبحثًا سطره ابنه بعنوان: «احتقار العالم» يبرز فيه الفساد الذى يعيث فى أرجاء إيطاليا، وصلى إلى الله أن يشق مياه البحر الأحمر مرة أخرى كما فعل أيام موسى وأن يغرق الأشرار فيها. والجدير بالذكر، أن عائلة من مدينة فلورنسا ظلت تحتفظ بمخطوط هذا المبحث بناء على الرغبة التى أبداها ماركو سافونارولا عام ١٦٠٤.

كان جيرولامو سافونارولا ذا طبع نارى ممرور وجهاز عصبى شديد التوتر؛ فضلاً عن تمتعه بقدرة مذهلة على التصميم والحزم وقوة الإرادة. ورغم صرامة وجهه وقسوة ملامحه، فقد ارتسمت على وجهه ابتسامة حزينة وطيبة قلب تخلب الناظر إليها وتعطيه إحساسًا بالثقة والأمان فى حضرته. ورغم بساطة لغته وخشونتها، فإنه كان عندما يتحمس لشىء يتحدث بحرارة شديدة كفيلة بإقناع من يسمعها.

وفى الدير عاش جيرولامو سافونارولا عيشة الزهد والتقشف والصمت والتأمل الروحى مكثرًا من التوبة والصيام، لدرجة أصابت جسده بالنحول والهزال. والغريب أن رؤساءه فى الدير سعوا فى مناسبات عديدة إلى كسر حدة حماسة، حيث إن مأكله لا يكفى لاستمراره فى قيد الحياة. وتعمد أن ينام على فراش القش ويغطى نفسه بملاءة واحدة. ورغم خشونة لباسه، فقد احتفظ دومًا به نظيفًا. واحتار رؤساؤه فى الدير من فرط ورعه وتقواه.

أمضى سافونارولا سبعة أعوام (١٤٧٥ -١٤٨١) فى قلايته فى دير الدومينيكان فى بولونيا، حيث لفت نظر رؤسائه إليه بغزارة علمه ومواهبه العقلية. وأسند إليه الدير مهمة تعليم الرهبان الجدد وإرشادهم. ورغم أن هذا العمل المتواضع منعه من تكريس كل وقته للابتهال والصلاة، فإنه قبله عن رضا بدافع الطاعة التى هى أول واجبات الرهبنة. ولكن هذا الرضا لم يكن كاملاً، فقد اعتمل السخط فى نفسه كلما تذكر فساد الكنيسة الكاثوليكية. وفى هذه الفترة من حياته نظم قصيدة بعنوان: دمار الكنيسة. وجد سافونارولا فى بابوات روما وحاشيتهم تجسيدًا للفساد المروع الذى بلغ ذروته على يد البابا ألكسندر السادس (١٤٩٢- ١٥٠٣)، وبولس الثانى (١٤٦٤- ١٤٧١)، وسكستوس الرابع (١٤٧١- ١٤٨٤)، ذلك البابا الذى عين أبناء عمه الأربعة فى أرفع المناصب المدنية والكنسية. ولعل أسوأهم جميعًا كان ابن عمه الشاب الأثير إلى قلبه بيترو رياريو البالغ من العمر ستة وعشرين عامًا الذى نصبه عمه البابا فى منطقته بطريرك القسطنطينية ورئيس أساقفة فلورنسا، إلى جانب تعيينه كاردينالاً. وقد وصلت أخبار بذخ هذا الشاب بقية البلاد الأوروبية، وبلغ إسرافه حدًا جعله ينفق مائتى ألف فلورينة فى أقل من عام واحد، الأمر الذى اضطره إلى استدانة ستين ألف فلورينة. وتدهورت صحته بسبب تهالكه على الشهوات والملذات، مما عجل بوفاته فى ٥ يناير ١٤٧٤. وظل البابا سكستوس الرابع على فساده حتى وفاته عام ١٤٨٤. حتى أمراء الممالك الإيطالية كانوا سادرين فى غيهم وضلالهم.

وفى هذا الجو العام الذى يسوده الفساد العميم دبت فى البلاد الفوضى والاضطرابات وكثرت المؤامرات والاغتيالات. ففى مدينة فيرارا، على سبيل المثال، حاول نيكولو دست بمساندة عصابة مكونة من ستمائة شخص أن يطيح بحكم أخيه الدوق أركول، ولكن المحاولة باءت بالفشل وفقد جميع المتآمرين حياتهم. وأدت هذه الفوضى الضارية أطنابها إلى المزيد من طغيان الحكام الطليان واستبدادهم بشعوبهم. ولعل أفظع هذه المؤامرات وأكثرها ترويعًا، تلك المؤامرات التى حاك خيوطها بازى فى فلورنسا، فقد طعن هذا الرجل غريمه جوليانو دى مديسيس داخل كاتدرائية هذه المدينة أثناء أداء طقس التناول. واستطاع رفيقه لورنزو أن يتفادى الطعنات وامتشق حسامه فى وجه أعدائه حتى شق طريقه إلى النجاة. ويقول أنجلو بوليزيانو الذى ساعده على النجاة ، إن الضجيج هز أركان الكنيسة التى بدت وكأنها تسقط وتنهار على رؤوس المصلين. ومما يدعو للدهشة أن عدد القساوسة المنخرطين فى هذه

المؤامرة كان كبيرًا، وأن زعيم المؤامرة ضد لورنزو دى مديسيس فى كل من فلورنسا وروما كان رئيس أساقفة سالفيانى، وأن المحرض عليها كان البابا سكستوس الرابع نفسه الذى سعى من وراء المؤامرة إلى توفير المزيد من أسباب البأس والسلطان لأولاد أخيه. وعندما استيقن البابا من إخفاق سعيه أعلن بدون مواربة أن أهل فلورنسا أعداؤه. هذا هو الجو الذى شب فيه سافونارولا وترعرع، والذى أراد الهرب منه فلجأ إلى السلوى والعزاء فى الصلاة والانكباب على الدراسة. وتقديرًا من رؤساء الدير له، قاموا بترقيته من معلم للرهبان المستجدين إلى واعظ. واضطلع بوظيفته الجديدة بكل نشاط وحماس معتمدًا اعتمادًا كاملاً على الكتاب المقدس، وليس على أساليب الخطابة والبلاغة التقليدية. ولا يسجل لنا التاريخ أثر هذه الوعظات على المستمعين إليه. فكل ما نعرفه فى هذا الشأن أن أستاذه للفلسفة فى جامعة بولونيا لامه؛ لأنه نبذ أسلوب الخطابة الكلاسيكى واعتمد اعتمادًا مطلقًا فى وعظه على الكتاب المقدس.

وفى عام ١٤٨١، عينه رؤساؤه واعظًا فى مدينة فيرارا التى نشأ فيها، وهناك نأى بنفسه عن الاتصال بأهله وأصدقائه ومعارفه، حتى لا يضعف أمامهم ويعاوده الحنين إلى دنياهم. ويبدو أن أهل فيرارا لم يقيموا وزنًا لوعظاته تحقيقًا للحكمة الشائعة «لا كرامة لنبى فى وطنه»، ويبدو أن سافونارولا لم يصبح بعد واثقًا من نفسه متمكنًا من أدواته ومدركًا لمواهبه. ومع ذلك، فقد ظهرت فى هذه الآونه الباكرة ومضات من المواهب المتأصلة فيه، كما نستدل على ذلك من الحكاية التالية. ذات يوم استقل سافونارولا قاربًا على نهر البوكى ينقله من مدينة فيرارا إلى مدينة مانتوا. وكان على ظهر القارب ثمانية عشر جنديًا يقامرون ويغلظون فى قسمهم ويملئون الدنيا صياحًا وضجيجًا دون أدنى احترام لوجود راهب بينهم. واستشاط سافونارولا غضبًا وتحدث إليهم بخشونة تركت فى نفوسهم أعمق الأثر، فقد جثا أحد عشر جنديًا منهم على ركبهم، طالبين منه الصفح والمغفرة.

وفى نفس العام (١٤٨١)، لاحت نذر إعلان الحرب على فيرارا فلاذ بالفرار عدد من سكانها وأغلقت جامعة فيرارا أبوابها، ورأى رئيس الدير أنه من الأصلح إبعاد رهبانه عن الخطر وأمر سافونارولا بالتوجه إلى فلورنسا. وقبل رحيله إليها ودع أهله وصحبه فى فيرارا وشاء القدر أن يكون هذا وداعه الأخير لهم؛ لأنها كانت المرة الأخيرة التى رآهم فيها. ورغم أن هذه الحرب كانت فى الأساس موجهة ضد دوق

فيرارا، فقد اتسع نطاقها حتى شمل شبه الجزيرة الإيطالية بأكملها التى انقسمت إلى معسكرين متطاحنين. وفى حقيقة الأمر، كان وراء هذه الحرب دافعان، أولهما: رغبة البندقية فى توسيع مجال سيطرتها ونفوذها حتى يشمل قلب إيطاليا، وثانيهما: رغبة البابا فى توسيع رقعة الأراضى التابعة لأولاد أخيه الفاسدين. وشعر سافونارولا بالغصة تملأ فؤاده وتألم كثيرًا عندما رأى بابا روما يشعل نار الحرب خصيصًا من أجل توسيع رقعة نفوذ أولاد أخيه الفاسقين فى وقت بدا خطر الغزو التركى لإيطاليا قريبًا وماثلاً. وما إن وطأت أقدام سافونارولا أرض فلورنسا عام ١٤٨١، حتى التحق بدير القديس مرقص. واحتفظ هذا الدير بمكتبة عامة عظيمة تضم مجموعة ثمينة من المخطوطات النادرة، التى حصل عليها الدير عن طريق الشراء أحيانًا والإهداء أحيانًا أخرى.

وكان من حسن حظ فلورنسا أن يقوم القديس أنتونين بتأسيس عدد كبير من مؤسسات البر والإحسان فيها، كما أن مشاعر هذا القديس النبيلة دعته إلى تحويل جمعية بيجالو التى أسسها القديس بطرس الشهيد إلى جمعية خيرية بهدف تصفية المارقين الذين خضبوا شوارع فلورنسا بدماء الحرب والاقتتال؛ فضلاً عن أن القديس أنتونين أسس جماعة الصالحين التى تجمع العطايا والمساعدات لتوزيعها على ما نسميه فى مصر بالعائلات المستورة، وهى العائلات التى غدر بها الزمان وتخجل من الاستجداء. وكان من عادة هذا القديس السير فى شوارع فلورنسا ممتطيًا ظهر حمار يوزع الخبز والملابس على الفقراء. ورغم وفاته عام ١٤٥٩، فإن أريج ذكراه العطرة ظل يفوح ليتنسمه سافونارولا عند قدومه إلى المدينة عام ١٤٨١، ويتنسمه الرهبان الآخرون الذين اعتبروا أنتونين تجسيدًا للفضيلة ونبراسًا لهم. وفى فلورنسا الجميلة بمناظرها الطبيعية الخلابة وتلالها البديعة وطيبة قلب البسطاء فيها استبشر سافونارولا خيرًا وأحس أن السعادة فى انتظاره. ورأى سافونارولا فى الفن الذى اشتهرت به هذه المدينة تعبيرًا عن الانسجام المقدس وعلى روعة العبقرية المستوحاة من الإيمان والعقيدة. حتى زملاؤه الرهبان كانوا على درجة رفيعة من الثقافة والحس المرهف؛ فأنساه هذا ما سبق أن كابده من حزن ويأس وإحباط.

أحوال فلورنسا

فى زمن سافوناورلا

عندما حضر سافوناورلا إلى فرنسا كانت مقاليد الحكم فى يد لورنزو «الرائع»، الذى كان آنذاك فى أوج سلطانه وشهرته. ونعمت فلورنسا تحت حكمه بالرخاء والرفاهية رغم قسوة هذا الحكم. نجح لورنزو فى اغتصاب الحكم عن طريق سفك الدماء والاستبداد، واختلس لنفسه أموال الدولة كى ينفقها على ملذاته وشهواته وعلى حفلات الفسق والمجون. ولم يكتف بهذا، بل سعى بشتى الطرق إلى إفساد شعبه. غير أنه نجح فى استتباب الأمن ونشر السكينة وإخماد كافة القوى المتمردة على حكم عائلة المديسيس. وانشغل أهل فلورنسا بالرقص والغناء وإقامة الحفلات ولم يعودوا ينشدون الحرية من الطغيان الذى يرزحون تحت وطأته.

أسهم لورنزو بنصيب وافر فى إقامة احتفالات الرقص والغناء وتشجيع محكوميه على الانخراط فيها، لدرجة أن قام بنفسه بتأليف بعض الأغانى البذيئة والفاحشة ليتغنى بها الوجهاء والأشراف فى الكارنفالات. اتسمت هذه الأغانى ببذاءة تفوق حد الوصف، الأمر الذى يعطى الدارس صورة لمدى استشراء الفساد فى مدينة فلورنسا الجميلة. ورغم ما اتصف به لورنزو من فساد عظيم، فقد تحلى بفضيلة لا يمكن إنكارها تتمثل فى رعايته للفنون والآداب. ورغم ما اتسمت به فلورنسا فى عهده من فسق وفجور، فقد شاعت فيها الثقافة الرفيعة فاطلع الكثيرون على الكلاسيكيات وآداب الأقدمين، كما أن كثيرًا من النساء أتقنَّ اللغتين الإغريقية واللاتينية ونظمن القصائد بها. ناهيك عن ازدهار فنى العمارة والرسم، فارتفعت الكنائس الفخيمة والقصور المتينة والأبنية الأنيقة. أى أن العمارة والفنون ازدهرت رغم استشراء الفساد

والبعد الكامل عن الدين والأخلاق. ولم يكن هذا الانحلال الخلقى وليد اعتناق فلسفة هدامة أو مذهب متشكك، بل كان انحلالاً من أجل الانحلال. وبعد سقوط القسطنطينية فى يد الأتراك فر منها إلى الغرب الباحثون القادمون من اليونان واستقر بعضهم فى فلورنسا، حيث أحيوا الاهتمام بالتراث الكلاسيكى وكثرت الزيارات إلى اليونان للاطلاع على تراث الإغريق؛ فضلاً عن الاهتمام بجمع المخطوطات القديمة. غير أن الفنون التشكيلية كانت أوفر حظًا من الأدب والدراسات الفلسفية، حيث أصبح الإقبال على الرسامين والنحاتين والمشتغلين بالعمارة عظيمًا.

وعلى أية حال، كان هذا هو الوضع قبل وصول عائلة المديسيس إلى الحكم، ومن الخطل أن نظن أن لورنزو هو الذى أخذ بيد الفنون حتى ترعرعت، حيث إن هذا الاهتمام بآداب الأقدمين وفنونهم ظهر فى وقت باكر منذ زمن الأديبين المعروفين بترارك (١٣٠٤ ـ ١٣٧٤) وبوكاشيو (١٣١٣ ـ ١٣٧٥). أى أن عائلة المديسيس وجدت هذا الازدهار الفنى والأدبى والثقافى قائمًا قبل اعتلائها سدة الحكم؛ ولكنها دفعته قُدمًا إلى الأمام وسعت إلى الاستفادة منه. كان لورنزو يتمتع بحس شعرى صادق وذوق فنى رفيع؛ فضلاً عن سموق مستواه الثقافى: فقد تعلم فن الشعر من لاندينو، ودرس الفلسفة الأرسطاطاليسية على يد أجيروبولوس، والمذهب الأفلاطونى على يد ميسينو. فلا غرو إذا رأيناه فى قصره يستضيف أفضل العقول فى زمانه. وأيضًا كان لورنزو عجيبًا فى مزجه الثقافة الرفيعة بأحط رغبات الجسد وشهواته، فبعد كل ممارسة للبطش والطغيان أو الحكم بالإعدام على أعدائه يذهب إلى الأكاديمية الأفلاطونية ليناقش مع علمائها الفضيلة وخلود الروح، ثم يجوب شوارع المدينة بصحبته شباب عربيد يشاركونه الفسق والمجون ثم يعود إلى قصره ليستقبل الشعراء وينافسهم فى تلاوة الشعر ومناقشة أصوله وقواعده.. وكان ينغمس فى كل هذه الأنشطة المتعارضة بدرجات متساوية من الحماس. وكان الشاعر أنجيلو بوليزيانو الذى بدأ ترجمة إلياذة هوميروس فى الخامسة عشرة من عمره من أقرب المقربين إليه. ونظرًا لثقة لورنزو فيه، عينه أمين مكتبته ومربيًا لأولاده، واستضافه للإقامة الدائمة فى القصر. وكذلك كان ميسر لويجى بولسى من المقربين إلى لورنزو الذى شاركه المجون والعربدة. وامتدت رعاية هذا الأمير العربيد إلى الرسامين والنحاتين. وإليه يرجع الفضل فى تأسيس حديقة القديس مرقص التى زودها بأجمل التماثيل، وأمر بفتح أبوابها لدارسى الرسم والتحف. والجدير بالذكر، أن الفيلسوف مارسيليو فيكينو Marsilio Ficino الذى طبقت شهرته الآفاق ورئيس الأكاديمية الأفلاطونية كان صديق لورنزو.

أول إقامة لسافونارولا فى توسكانى ورحلاته إلى لومباردى وعودته إلى فلورنسا فى الفترة من ١٤٨١ إلى ١٤٩٠

لم تمض أيام قلائل على مكوث سافونارولا فى مدينة فلورنسا حتى عاوده شعوره القديم بالوحدة، وأحس بالغربة بين سكان هذه المدينة التى دخلها والأمل الكبير يحدوه فى العثور على آذان صاغية له؛ فإذا به أمام شعب لا يكترث بالعقيدة المسيحية فى قليل أو كثير ويختلفون فيما بينهم ويتشاحنون حول أفكار الفيلسوفين أفلاطون وأرسطو، دون أن يكون للدين المسيحى فى رأيهم أى اعتبار. وكواعظ، لم يرق سافونارولا فى عيون أهل فلورنسا، فهو يستخدم لغة خشنة تميل إلى البساطة النابعة مباشرة من القلب وتخلو من الاقتباس من كلاسيكيات الأقدمين وتعتمد ـ كما أسلفنا ـ اعتمادًا مطلقًا على نصوص الكتاب المقدس. وتضايق أهل فلورنسا من الغضب العارم الذى صبه سافونارولا على رءوس الأشرار والفاسقين، وعلى قلة إيمان رجال الدين المسيحى والعلمانيين على حد سواء.

وعندما التحق سافونارولا بدير القديس مرقص فى عام ١٤٨١، كلفه رئيسه بتدريس الرهبان الجدد، فكرس كل وقته وجهده وحماسه لهذه المهمة والقيام بها على خير وجه. وكان دومًا يحث تلاميذه على الانكباب على دراسة الإنجيل، وهو يتحدث إليهم بعيون منفوخة تملؤها العبرات من شدة السهد وكثرة السهر وتلاوة الابتهالات والصلوات. ويبدو أن أسلوبه فى الوعظ البسيط والنابع من القلب خلب لب مستمعيه من الشباب، الأمر الذى جعل رئيسه فى الدير يطلب منه فى الصوم الكبير الذى يسبق عيد الفصح بأربعين يومًا إلقاء عدد من الوعظات فى كنيسة القديس لورنزو، أمام

جمهور يحلل كلماته بكل برود ولا تسهل إثارته، كما هو الحال مع الشباب، وهو جمهور يفضل البيان والبديع والبلاغة على التلقائية، الأمر الذى انتهى بانصراف المستمعين عنه حتى انخفض عددهم إلى خمسة وعشرين شخصًا.

وأدرك سافونارولا على الفور السبب فى فشله كواعظ فى التأثير فى جمهور الكبار فى فلورنسا، ذلك الجمهور الذى لا يأبه بالمفاهيم المسيحية ولا يقيم لها وزنًا، فهو يحب الخُطَب التى تتضمن بعض الإيماءات الفاحشة ولا تخلو من الاستشهاد بأقوال الوثنيين القدامى. وآلمه كثيرًا انفضاض المستمعين عنه، وخاصة لأنه كان يتحرق شوقًا لتصل كلمته إلى العالم الشرير الذى يريد منه أن يتحلى بالفضيلة والإيمان المسيحى الصادق. وارتسمت على شفاه مستمعيه ابتسامات ساخرة أصابته بالإحساس بالعجز والشلل. ونصحه البعض بالتخلى عن ممارسة الوعظ والعودة إلى تعليم الكتاب المقدس وتفسيره. وقبل سافونارولا هذه النصيحة الموجهة وقرر تنفيذها، فاعتلى المنبر ليعلن أمام عدد ضئيل من الجمهور تخليه عن الوعظ.

ومن حسن حظه ـ آنذاك ـ أن رؤساءه فى الدير أرسلوه مندوبًا عن دير القديس مرقص إلى ريجيو إميليا لحضور قداس يقيمه الرهبان الدومينيكان فى هذه المدينة، فسافر إلى هناك وهو شديد الغم والهم لفشله كواعظ. وزاد من غمه أنه عرف أثناء سفره باندلاع الحرب فى مسقط رأسه فيرارا. واستاء كثيرًا أن يرى بابا روما يحرض على هذه الحرب التى مزقت إيطاليا؛ من أجل توسيع ودعم سلطة أولاد أخيه الفاسدين. وصل سافونارولا إلى ريجيو والدم يغلى فى عروقه. والجدير بالذكر، أن نفرًا كبيرًا من علية القوم فى مجالات الدين والعلم والأدب حضروا الاجتماع.

وكان من أبرز الحاضرين جيوفانى بيكو Pico كونت ميراندولا الذى ذاع صيته فى العالمين كرجل متبحر فى العلم وهو دون العشرين من عمره. تكررت زيارات بيكو للجامعات الرئيسية فى كل من إيطاليا وفرنسا، حيث أظهر حماسًا عظيمًا للدرس والتحصيل. ولم يكتف بإتقانه المدهش للغتين اللاتينية والإغريقية اللتين حذقهما أكثر من الإيطالية لغته الأم، بل اشتهر بحرصه الشديد على دراسة اللغات الشرقية؛ فضلاً عن تعمقه فى علمى اللاهوت والفلسفة، وراوده حلم بإجراء مصالحة بين المسيحية والوثنية والجمع بينهما فى صعيد واحد. فكر بيكو فى إجراء جولة ذات طابع فلسفى يلتقى فيها بكل من يريد الاستفسار منه عن أهم النقاط العلمية والفلسفية التى

لخصها فى تسعمائة نقطة اختلف معها وأدانها جميعًا البابا أنوسنت الثامن (١٤٨٤ ـ ١٤٩٢)، الأمر الذى جعل بيكو يتخلى عن فكرته. واضطر بيكو إلى تقديم اعتذار إلى الكرسى البابوى؛ ولكن البابا سامحه بعد لأى. ومع ذلك، فقد شاعت شهرة بيكو فى أرجاء إيطاليا؛ ولكن هذه الشهرة اضمحلت بمرور الزمن واعتبرته الأجيال اللاحقة أدنى مرتبة فى الآداب من بوليزيانو Poliziano وفى الفلسفة من فيكينو Ficino. واستطاع يهودى أن يشكك فى ادعائه بالإحاطة باثنتين وعشرين لغة. ومن الأخطاء النقدية التى ارتكبها بيكو، أنه اعتبر قصائد لورنزو دى مديسيس أعلى شأنًا من أعمال بترارك ودانتى. ورغم أخطائه وسطحيته، فقد نبه الأذهان إلى أهمية الاستشراق ودراسة اللغات الشرقية. ومما زاد من شهرته، تمتعه بتقاطيع وجهه الجميلة وسلوكه المهذب وشبابه النضير وذلاقة لسانه. هذا هو بيكو الذى حضر الاجتماع الدينى المنعقد فى ريجيو والذى حضره سافونارولا مندوبًا عن دير الدومينيكان.

ورغم التباين العظيم والتناقض الهائل فى شخصى بيكو وسافونارولا، فقد شعر الواحد منهما بالانجذاب نحو الآخر. ومن ثم نشأت بينهما علاقة وثيقة. وعندما طرحت بعض المسائل اللاهوتية المدرسية للنقاش فى ذلك الاجتماع الكنسى، لم يعن سافونارولا بالاشتراك فيها. ولكن بمجرد أن ثارت مشكلة انضباط رجال الدين فى مسلكهم حتى هاج وماج وأرغى وأزبد وانطلق فى هجوم قاس على مفاسد الكنيسة ورجالها، لدرجة أذهلت الحاضرين الذين وقعت كلماته عليهم وقع الصاعقة. وأحس المستمعون أنهم أمام رجل ذى مواهب عقلية فذة. وسعى الكثيرون، وعلى رأسهم بيكو، إلى التعرف إليه وكسب وده. وتوطدت فيما بعد عرى الصداقة بين الرجلين. ولم يخف بيكو تيهه وإعجابه بسافونارولا.

وبعد رجوعه إلى فلورنسا رأى سافونارولا إن إقلاعه عن التبشير والوعظ مستحيل، فنبذ قراره بالإمساك عنهما. وفى البداية ألقى وعظاته على عدد ضئيل من رواد كنيسته دير موريت؛ غير أن وعظاته لم تترك أى أثر فى مستمعيه من أهل فلورنسا الذين راقت لهم أقوال الأقدمين الوثنيين وأعلوا من شأن الحذلقة فى شئون الفلسفة واللاهوت. وكان لسافونارولا حينذاك منافس فى فلورنسا هو الراهب ماريانو، ربيب عائلة المديسيس والذى بنى لورنزو «الرائع» ديرًا خصيصًا له. وكان من عادة لورنزو التردد على هذا الدير والانخراط فى مناقشات لاهوتية مع هذا الراهب الذى تدفق

عليه المعجبون والمريدون من الأدباء ومن حاشية الأمير. واستطاع هذا الراهب المفوّه أن يخلب ألباب مستمعيه ببلاغته وانسجام إيقاع كلماته وأن يصرفهم عن وعظات سافونارولا، الأمر الذى حدا بتابعه الوفى جيرولامو بنيفينى أن ينصحه قائلاً: «إن المرء يا سيدنا لا يستطيع إنكار صدق مذهبك ونفعه وضرورته. ولكن طريقة كلامك تفتقر إلى الرشاقة؛ وخاصة بالمقارنة اليومية بطريقة الراهب ماريانو.» فأجابه سافونارولا غاضبًا: «إن زخرف القول ورشاقة اللفظ سوف تندحر أمام المذهب الصحيح الذى يتوخى بساطة التعبير.» ولكن هذا لم يقلل من ازدياد شعبية منافسه الذى انهال عليه الثناء من كل جانب، والذى بهر الجمهور ببلاغته وذلاقة لسانه واقتباساته من شعراء اللاتينية ومن فلسفتَى أرسطو وأفلاطون. فضلاً عن أنه كان يزين حديثه بالطُّرَف والمُلَح التى تدخل السرور والبهجة فى قلوب مستمعيه.

ولكن النجاح العظيم الذى أصابه غريمه لم يفت فى عضده أو يثنيه عن عزمه، وزاده انصراف الجمهور عنه تصميمًا. وتضايق من غفلة جمهور المصلين فى فلورنسا، الذى فضل بلاغة شيشرون والأقدمين على صدق الكتاب المقدس وآباء الكنيسة وشهدائها. وأيضًا زاد هذا من اقتناعه بسلامة عقيدته وأنه ليس لنبى كرامة فى وطنه. وكذلك دعاه هذا الزيف والادعاء أكثر وأكثر إلى التصدى لفساد الكرسى البابوى والكنيسة الكاثوليكية، إلى جانب الإيمان بأن الله اختاره لمحاربة الفساد واستئصال شأفته. وجعله هذا الإيمان يكرس حياته للصوم والصلاة والعبادة. وتجلت له فى تصوفه رؤى كثيرة. ففى إحدى المناسبات بينما هو يتجاذب أطراف الحديث مع راهبة، إذا به يرى السماء تنشق وتمر أمامه كل المصائب التى حلت بالكنيسة. وسمع صوتًا يأتيه من علٍ يأمره بالكشف عن أوشاب الكنيسة وأدرانها للناس. وفى غمرة اضطرابه رأى العالم ينهار من حوله على نحو ما رآه يوحنا البشير.

وبعد أن توفى البابا سكستوس الرابع عام ١٤٨٤، ألف سافونارولا قصيدة مديح للسيد المسيح يطلب فيها أن يشمل إيطاليا بغفرانه ورحمته، فإذا بالكرادلة فى روما يختارون رجلاً أسوأ من سلفه هو أنوسنت الثامن. وكان لهذا البابا الجديد أبناء غير شرعيين ادعى أنهم أولاد أخيه أقطعهم الأرض وأقامهم أمراء على البلاد. ولم يكتف هذا البابا بانحلاله الشخصى وممارساته الشهوانية، بل سمح باستشرائها بين رجال الكنيسة القريبين منه. فلا غرو إذا رأينا روح سافونارولا تتمزق من الوجيعة والألم.

وانفرجت أحوال سافونارولا عندما أرسله رؤساؤه فى الدير فى عامى ١٤٨٤ و١٤٨٥ للوعظ والتبشير فى فترة الصوم الكبير السابق لعيد الفصح، إلى جمهورية سان جيميجناتو الواقعة في أحضان تلال مدينة سيينا. وكان جمهور المصلين فى هذه الجمهورية يختلف عن جمهور المصلين فى فلورنسا، فهم أناس بسطاء لا يستهويهم زخرف القول أو جميل الكلمات أو بلاغة الأقدمين. وبطبيعة الحال، وجد سافونارولا نفسه على سجيته بين هؤلاء البسطاء. وتركزت وعظاته هناك على موضوعين، هما: الفساد العظيم الذى يعيث فى الكنيسة، وضرورة استئصال هذا الفساد. والجدير بالذكر، أن رغبته الطاغية فى استئصال هذا الفساد جعلته يتحدث بطلاقة وحرقة نابعة من صميم قلبه ووجدانه. ووجدت كلماته النارية ضد فساد البابا والكنيسة صدى عميقًا فى نفوس البسطاء. وأعطاه هذا ثقة فى نفسه وصحة رأيه؛ فعاد إلى فلورنسا وهو مطمئن إلى سلامة أقواله ومواقفه. واستمر فى الاحتفاظ بوظيفته المتواضعة كمعلم للرهبان الجدد فى فترة الصوم الكبير الذى يدوم أربعين يومًا فى عام ١٤٨٦. وأسند إليه هذا العمل فى مختلف مدن لومباردى، وعلى وجه الخصوص فى بريشيا. وارتكز تدريسه على سفر الرؤيا الذى ساعده كثيرًا فى التأثير فى مستمعيه مهددًا جميع الإيطاليين بغضب الله الآتى، داعيًا إياهم إلى التوبة ونشدان رحمة الله ومغفرته. وتنبأ سافونارولا بالمصير الأسود الذى ينتظر بريشيا التى أنذر أهلها بالمذلة والانكسار أمام أعدائهم، ويغرق شوارعها فى نهر من الدم، ويسبى زوجاتهم واغتصاب عذاراهم وسفك دماء أطفالهم أمام عيون أمهاتهم. ونجحت نبوءاته المرعبة فى بث الفزع فى قلوب أهل بريشيا. وعندما تمكن أعداء بريشيا من الاستيلاء عليها عام ١٥١٢، قام قائدهم جاستون دى فوا بقتل ما يقرب من ستة آلاف منهم بحد السيف، الأمر الذى جعل أهلها يتأكدون من صدق نبوءات الرجل العجوز الذى جاءهم من مدينة فيرارا مبشرًا ونذيرًا. وهكذا ذاعت وعظاته فى جميع أرجاء إيطاليا ولم تصبه الشهرة العريضة بالغرور، بل زادته اتضاعًا وزادته استغراقًا فى الصوم والصلاة إلى درجة الذهول والغياب الكامل عن الدنيا، الأمر الذى جعله يختار الأماكن الموحشة والنائية عن الناس يلقى فيها وعظاته.

ظل سافونارولا فى منطقة لومباردى حتى يناير عام ١٤٨٩، وكتب خلال فترة بقائه هناك من مدينة بافيا خطابًا إلى أمه يفيض رقة وودًا وحنانًا يطلب منها أن تسامحه، وقال لها إنه لم يعد يملك غير الصلاة من أجل عائلته. وجاء فى خطابه ما يلى: «لقد

هجرت هذا العالم وأصبحت أخيرًا فى كرمة سيدنا يسوع المسيح متنقلاً بين كثير من المدن ليس من أجل إنقاذ روحى، بل أيضًا من أجل إنقاذ أرواح الآخرين، وإذا كان الرب قد وثق بى وأعطانى وزنته فإنه ينبغى على أن أستخدمها وفقًا لمشيئته» وأضاف أنه على يقين من أنه سيخدم الله بعيدًا عن مسقط رأسه أفضل من خدمته له فى بلده الأصلى فيرارا. وفى خطابه يخبر سافونارولا ذويه بعزمه على السفر إلى جنوة. ولكن وعظاته فى جنوة تظل مجهولة. وكل ما نعرفه عنه فى تلك الفترة أن رؤساءه قاموا باستدعائه إلى فلورنسا عام ١٤٨٩ بناء على رغبة الأمير لورنزو دى ميديسيس. ويبدو أن الأمير استدعاه إرضاء لصديقه الأثير إلى قلبه بيكو ديلا ميراندولا. كان بيكو آنذاك يمر بأزمة كادت أن تعصف به. فالبابا ينذره ويحذره ويهدده بالطرد من الكنيسة. وفى محنته أراد بيكو أن يلتمس نصيحة رجل دين موثوق به فتذكر سافونارولا الذى شن هجومًا عاتيًا على مباذل الكنيسة، والذى كان قد قابله وأعجب به فى ريجيو على نحو ما أسلفنا. ولهذا، مارس بيكو الضغط على صديقه الأمير لورنزو كى يستدعى سافونارولا إلى فلورنسا؛ لأن استدعاءه شرف كبير له وللأمير والمدينة بأسرها.

وإنها لمفارقة ما بعدها مفارقة أن يصبح سافونارولا عدو عائلة مديسيس اللدود، الذى تمكن فيما بعد من القضاء على سلطانها. وبناء على توجيهات الأمير لورنزو أصدر رؤساء الدير أمرًا إلى سافونارولا بالعودة إلى العمل فى كنيسة القديس مرقص. ولم يدرك الأمير لورنزو أنه بدعوته سافونادولا يحفر بيديه قبره وقبر عائلته. ومن ناحيته، شعر سافونارولا أن الله يريد منه أن يخدم فى فلورنسا التى أشاحت فيما مضى بوجهها عنه واستقبلته واستقبلت وعظاته بفتور وعدم اكتراث. ولكن رحلة العودة إلى فلورنسا كانت شاقة عليه، فقد انهارت صحته ولم يعد قادرًا على مواصلة السفر لولا الرؤيا التى شاهدها فيما يشبه المنام، إذ رأى رجلاً غريبًا يظهر له على الطريق ويقيله من عثاره ويعيد إليه شجاعته وقوته، ويرافقه إلى بيت ضيافة الغرباء ويرغمه على ازدراد الطعام حتى تمكن من استرداد عافيته ثم صحبه إلى فلورنسا. وما إن أوصله الغريب على باب هذه المدينة حتى ودعه قائلاً: «تذكر أن تفعل مشيئة الله الذى أرسل فى طلبك.» ثم اختفى عن ناظريه.

وفى بداية الأمر اقتصرت دروس سافونارولا على الرهبان لتمتد شيئًا فشيئًا إلى جمهور العلمانيين، الذين طلبوا منه هذه المرة أن يلقى وعظاته من فوق منبر الكنيسة.

كان ذلك فى اليوم الأول من شهر أغسطس عام ١٤٨٩، حيث امتلأت مقاعد الكنيسة عن آخرها، مما اضطر البعض إلى الوقوف. واستفاض سافونارولا الذى طبقت شهرته آفاق إيطاليا فى شرح سفر الرؤيا، شرحًا ملك أفئدة الحاضرين. ونظرًا لأنه كان دائمًا ينذر ويتوعد ويتحدث عن الشؤم الآتى، فقد ضاق به ذرعًا عدد من مستمعيه واتهموه بالجهل وضيق الأفق والتعصب. ولكنه استطاع هذه المرة أن يتغلب على شانئيه ويردهم على أعقابهم ويخرس ألسنتهم. ومن المؤسف أن وعظاته آنذاك اندثرت، مما يجعل من الضرورى الرجوع إلى كتاباته للوقوف على فلسفته.

فلسفة سافونارولا

ترك سافونارولا وراءه عددًا ضئيلاً للغاية من المقالات الفلسفية التى كان قد سطرها من أجل تعليم الرهبان الجدد. وهاجم النقاد هذه المقالات التى لم تحظ باحترام سافونارولا نفسه واتهموها بأنها تقليد خانع لأرسطو والقديس توماس الأكوينى. ويرى بعض الدارسين أن فحص مقالاته قمينٌ بأن يظهر لنا أن سافونارولا لم يكن يقلد فلسفة أرسطو تقليدًا أعمى، حيث إنه اتهمها بالمادية فى العديد من المناسبات. فضلاً عن أنه ما فتئ يكرر قوله: «إن أرسطو لم ينجح حتى فى إثبات خلود الروح. كما أنه ليس على يقين من بعض النقاط المهمة، لدرجة أننى فى الحقيقة أعجز عن فهم المجهود الذى تضيعونه فى دراسة كتاباته».

كانت إيطاليا فى عهد سافونارولا تسيطر عليها مدرستان فلسفيتان، هما: المدرسة الأفلاطونية والمدرسة الأرسطاطاليسية. وتوطدت أركان المدرسة الأفلاطونية التى أسستها أكاديمية فلورنسا فى الجنوب الإيطالى. وقد تأثر جيوردانو برونو بمثاليتها، فى حين انتشرت المدرسة الأرسطاطاليسية فى الشمال، وبالذات فى جامعات بولونيا وبادوا وبافيا. وقد ظهر أثرها جليًا فى أفكار العالم الفلكى المعروف جاليليو جاليلى. وتفرعت من هاتين المدرستين مدرسة ثالثة أسسها برناردينو تيلسيو Telesio وتوماسو كامبانيلا Campanella. درس تيلسيو فى جامعة بادوا، حيث تعلم الفيزياء والفلسفة التجريبية وتصدى لفلسفة أرسطو. أما كامبانيلا، فقد حبَّذ التجربة ونسب إلى الحواس جانبًا كبيرًا من المعرفة الإنسانية، الأمر الذى جعله يبدو ماديًا فى منحاه لولا تسليمه بأهمية الحدس فى اكتساب المعرفة.

وعلى الرغم من أن سافونارولا درس بعض الشيء أفكار أرسطو فى وقت باكر من حياته، إلا أنه احتضن الفكر الأفلاطونى الجديد عندما ذهب إلى فلورنسا، حيث دفعته نزعته إلى التصوف إلى مخالطة مارسيليو فيكينو وبقية أعضاء الأكاديمية هناك. وفى مجال نظرية المعرفة يذهب سافونارولا إلى أنه يسهل على الإنسان معرفة ما هو غير معروف عن طريق دراسة ما هو معروف، ومن ثم يمكنه الوصول إلى الحقيقة. ويرى سافونارولا أن الحواس سهلة الإدراك،حيث إنه يمكنه استخلاص قواعد أو تجارب عامة من المحسوسات الفردية. ولهذا؛ فإن الحكمة تقتضى من الإنسان أن يتقصى الأسباب الأولية وأن يحول المحسوسات فى نهاية الأمر إلى أفكار. يقول سافونارولا فى هذا الصدد: «إن الإنسان يخزن مدركاته الحسية على هيئة صور فى مخيلته، حيث يتلقفها العقل ويحولها إلى أفعال ذهنية.» ومعنى هذا أن الإنسان يستمد المعرفة من المدركات الحسية. ومع ذلك يرى سافونارولا أن العقل وحده لا يستطيع تحويل المحسوسات إلى أفكار دون وجود معرفة ذهنية مسبقة، يصبح العقل بغيرها مجرد قوة غير قادرة على تحقيق المعرفة وعاجزة حتى عن فهم معانى الكلمات. نادى سافونارولا بأهمية الاستقراء واستنتاج الكليات من الجزئيات وما هو غير معلوم مما هو معلوم. ويبدو أن فلسفته تقوم على مزج المذهب الأفلاطونى والمذهب الأرسطاليسى بأفكار توماس الأكوينى اللاهوتية، دون دمجها فى نسيج واحد متسق ومنسجم. ولعل عذره فى ذلك أنه لم يكن يومًا ما فيلسوفًا بالمعنى الحقيقى للكلمة.

حذا سافونارولا فى مبحثه عن الفلسفة والأخلاق حذو توماس الأكوينى؛ غير أنه أظهر ميلاً نحو أفكار المدرسة الأفلاطونية الجديدة؛ فضلاً عن الأثر الذى تركه فيه كل من فيكينو والأكاديمية. يقول سافونارولا فى هذا الصدد: «إن هدف الإنسان الأخير بلا ريب هو استشراف القداسة. وهو ما لا يتم عن طريق الاستغراق فى التأمل بقدر ما يتم فى رؤية الله الصافية. ونحن هنا فى هذا العالم نستطيع فقط أن نرى صورة بعيدة ونائية وظلاً ضعيفًا وواهيًا لاستشراف القداسة، فى حين أنه يمكننا أن نتمتع به فى اكتماله وحقيقته فى العالم الآخر. ورغم أن الجهد البشرى وحده لا يكفى لاستشراف القداسة، فإنه يتعين على الإنسان بذل الجهد من أجل تحقيق هذا الاستشراف. وهو جهد لا يمكن بذله إلا عن طريق ممارسة الفضائل والأعمال الصالحة. والجدير بالذكر، أن سافونارولا آمن بأهمية الأعمال الصالحة كما آمن

بحرية الاختيار، الأمر الذى جعله يهاجم المنجمين وقراء الطالع فى النجوم والأبراج. فالله فى نظره قد ترك للإنسان حرية الاختيار ولا يحاول أبدًا أن يقوض هذه الحرية.

ووجه شانئو سافونارولا إليه عددًا من الاتهامات، منها أنه يسعى إلى ادعاء النبوة كى يتبعه الناس أذلاء خانعين.

كتب سافونارولا نبذته «تقسيم جميع العلوم» للرد على من يتهمونه باحتقار الشعر والفلسفة معًا. ولهذا، رسم جدولاً للعلوم والمعارف المختلفة أراد به التعبير عن احترامه لهما جميعًا مهما تدنت مرتبتهما. وهذا الجدول يعلى من شأن الميتافيزيقا ويعتبرها سيدة العلوم، لأنها تبحث عن الحقائق السامية. وهو يعتبر اللاهوت لب المسيحية، حيث إن كافة العلوم تعالج أشياء خاصة من نواح خاصة، فى حين أن اللاهوت هو العلم الأول الذى يتتبع كل الأشياء ويردها إلى المحرك الأول وهو الله.

وفى تصنيفه لأقسام العلم الأساسية نراه يضع الشعر فى خانة المنطق. ورغم غرابة هذا التصنيف، فقد درج المدرسيون على فعل ذلك. وعلى كل حال، عاب سافونارولا على الشعراء اقتداءهم بالأقدمين وتقليدهم لهم، ورأى فى هذا افتقارًا إلى التجديد وضعفًا فى الحجة. ولهذا، أولى سافونارولا ظهره للقدماء واتبع ما يمليه عليه عقله. هذا الموقف الرافض لسلطة الأقدمين إلى جانب وعظاته ومباحثه السياسية واللاهوتية، تنم بجلاء عن استقلاله فى الرأى. ويؤكد كتابه المهم «انتصار الصليب» هذه النزعة الواضحة للاستقلال فى الرأى ورفض التقيد بالتقاليد وسلطة الأقدمين؛ كما يؤكد ضرورة استخدام الإنسان للعقل. ونحن نراه يكرر نفس المحاجة التى سبق أن رددها من قبل قائلاً: «يجب أن نصل إلى معرفة الأمور غير المرئية عن طريق الأمور المرئية. وسائر المعرفة الإنسانية مستقاة من المدركات الحسية التى تشمل فقط الخصائص الجسدية والخارجية، فى حين أننا عن طريق العقل الذى يتسم بالدقة والنعومة نستطيع أن نخترق المادة التى تتكون منها الأشياء الطبيعية، ويمكننا بعد تمحيصها أن نصل إلى معرفة الأمور غير المرئية».

ويظهر سافونارولا نفس الوضوح والاستقلال فى الرأى فى وعظاته ودعوته إلى الفضيلة والإصلاح السياسى. ويذهب الدارسون إلى أنه تمتع بالقدرة على إبداء الرأى المستقل منذ طفولته فشهرة هذا الكاتب أو ذاك لا تؤثر فيه، حيث إنه يهتدى بعقله ويجعل منه منارة تضىء له الطريق. ويبدو أن شانئيه كانوا على حق عندما اتهموه

باحتقار الفلسفة. ورغم ذلك، فإن دفاعه عن استقلال العقل ساعد الفسلفة فى زمانه على التحرر من إسار الأقدمين وأغلالهم. ورغم أنه صرف نظره عن العلم وأشاح بوجهه عنه، فإن إسهامه فى عصر النهضة أمر لا يرقى إليه شك، ويتمثل هذا الإسهام فى احترامه للعقل والاستقلال فى الرأى، حيث إنهما ركيزة كل تجديد. علمًا بأنه أشاح بوجهه أيضًا عن الفكر والأدب الوثنيين اللذين درج أعلام عصر النهضة على الإشادة بهما.

كتيبات سافونارولا عن الدين المسيحى وتفسير الأناجيل

يعتبر سافونارولا واحدًا من أعلام عصر الإصلاح الدينى الذى شاهدته أوروبا فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر. واستهدف الإصلاح الدينى تقريب الإنسان إلى خالقه دون حاجة إلى وساطة رجال الدين. ولم يشغل بال سافونارولا غير شىء واحد ملك عليه كل وجدانه هو الشوق العارم للقرب من الله ومعاينته، وحث الآخرين على السعى إلى ذلك. ويتضح لنا هذا بجلاء من الكتابات الدينية التى سطرها سافونارولا عام ١٤٩٢ . ومعظم هذه الكتابات عبارة عن كتيبات أو نبذات، مثل كتاباته عن التواضع والصلاة ومحبة السيد المسيح. ومن الطبيعى أن تكون هذه النبذات ذات طابع أخلاقى تدعو إلى الزهد والتقشف. وفى النبذة التى سطرها سافونارولا عن الصلاة نراه يعتبرها أنجح وسيلة إلى اكتساب التواضع؛ لأن الصلاة بدون اتضاع وإحسان تصبح عديمة الجدوى. ويطور سافونارولا هذه الفكرة فى نبذة ألفها عن الصلاة الذهنية. وفى هذه النبذة نراه يحث الإنسان على البحث عن الله، ليس فى السماء أو على الأرض بل فى دخيلته، كما يحثه على الشعور بأن الله موجود فى دخيلته وأن يقوم بالتركيز عليه. والرأى عنده أن الكلمات لا تصنع الصلاة، فالذى يصنعها هو الاستغراق الكامل فى الذات الإلهية. فالصلاة فى حقيقة الأمر تنبع من الذهن، لا الكلمات. والله لا يلتفت إلى طول الصلاة، بل إلى حرقة الابتهال، ويهتم بالداخل ولا يكترث بالخارج.

ويدل مبحثه عن محبة يسوع المسيح الذى توالت طبعاته بجلاء شديد على نزعته الصوفية التى تدفعه إلى الاتحاد الروحى مع المسيح والعيش معه فى ملكوته، واستلهام

هذا الملكوت من الداخل وليس مجرد تقليده من الخارج، فضلاً عن مشاركته العذاب الذى كابده على الصليب. هذا فى نظره هو الطريقة الكفيلة باتحاد المخلوق المحدود بخالقه غير المحدود. ويذهب سافونارولا إلى أن هذا الحب هو فيض من لطف الله بعباده، وينبع من ممارسة العباد للخير والإحسان. ويختتم سافونارولا مبحثه عن محبة يسوع بعدد ضئيل من التأملات يحدثنا فيها عن رحمة الله وخيره علينا، وعن تشوف روح الإنسان إلى الاتحاد به وإلى أن يلقى نفس مصيره، فتخترق جسده على نفس الصليب نفس المسامير التى اخترقت جسد المسيح، كما يلبس نفس تاج الشوك الذى لبسه.

وتتضمن النبذة التى نشرها سافونارولا بعنوان: «كتاب حياة الأرامل» فى أوائل عام ١٤٩١ نصائح أخلاقية سديدة يزجيها إلى الأرامل. وهو ينصحهن بأن يهبن كل حياتهن لله، ويستمسكن بالطهر والعفاف، ويقضين بقية حياتهن فى وحدة ونحيب على أزواجهن الذين فقدنهن. أما إذا كانت الأرملة غير قادرة على مقاومة رغبات الجسد أو تحمل شظف العيش وتريد أن تجد بعلاً يتولى إعالة أولادها من زوجها السابق أو تعليمهم، فيمكنها الزواج برجل آخر . ولكن الأجدر بها الامتناع عن الزواج، وأن تمضى بقية حياتها تبكى على زوجها الذى مات وتنوح عليه.

تحدث سافونارولا إلى رعيته كما لو كان ملهمًا من السماء، ومن ثم فإنه لم يكن بحاجة إلى تفسير ما يقول. وكما أسلفنا نبذ الاستشهاد بالقدماء والاستناد إلى سلطتهم، واعتمد اعتمادًا مطلقًا على سلطة الأناجيل التى حفظها عن ظهر قلب وأدخلت على قلبه السلوى والعزاء. والرأى عنده أن الكتاب المقدس يحتوى على تفسير لكل شىء على وجه البسيطة، وأن الله يرسل من وقت إلى آخر أناسًا يختصهم بالنعمة والبصيرة المنورة فيقومون بهداية العالم وإنارة الطريق أمامه. غير أن الرؤى القاتمة والخيال الجامح كانا يأخذانه بعيدًا عن الدنيا، فنسمع منه نذر الشؤم التى تهدد إيطاليا وكنيستها الفاسدة بالويل والثبور وعظائم الأمور. ولاشك أن طبيعته النارية القاطعة شجعته على المضى فى طريق النبوءات، دون أن يشك لحظة واحدة فى صدقها.

سافونارولا يعظ أهل فلورنسا ويحض على كراهية حاكمها لورنزو «الرائع»، عام ١٤٩١

اكتظت كاتدرائية القديس مرقص فى فلورنسا بالمستمعين لوعظات سافونارولا فى فترة الأربعين يومًا السابقة على عيدالفصح فى عام ١٤٩١. وبات من الواضح أنه أصبح يخلب ألبابهم بوعظاته، ويسبى عقولهم بوعيده وتهديده بغضب الرب الآتى لا محالة. وشن سافونارولا هجومًا شديد الوطأة على الفساد المتفشى فى ربوع البلاد وبين علية القوم، الأمر الذى ضايق الحاكم لورنزو دى مديسيس وحاشيته. وخطر له حينذاك أن يتوقف عن الحديث عن الغضب الإلهى القادم وأن يقتصر وعظه على الأخلاق والدين ؛ ولكنه وجد استحالة فى أن يفعل ذلك . يقول سافونارولا فى هذا الشأن، إنه قرر أثناء وعظه فى كنيسة الدومو عام ١٤٩١ أن يتجنب الحديث عن الرؤى التى يراها عن الخراب الذى ينتظر الطليان بوجه عام، وشعب فلورنسا بوجه خاص عقابًا لهم على آثامهم. وألفى نفسه مسهدًا لا يذوق طعم النوم طول الليل بسبب الصراع الذى احتدم بداخله إثر اتخاذ هذا القرار. وأخذ يصلى بحرقة، فإذا بصوت يقول له: «أيها الأحمق، ألست ترى أن إرادة الله هى التى تفرض عليك مواصلة السير فى نفس الدرب»؛ ولهذا توفر على إعداد وعظة هاجم فيها بمنتهى الشدة طمع رجال الكنيسة فى الذهب ومتاع الدنيا الزائل، كما هاجم إهمالهم لنموهم الروحى وأسهب فى الانقضاض على فساد الأكليروس فى عصره، حيث إنه يدفعهم ويدفع أبناءهم إلى تقلد الوظائف الكنسية ليس حبًا فى الكنيسة، ولكن طمعًا فى متاع الدنيا. وأيضًا استفاض سافونارولا فى حديثه عن ظلم الأغنياء للفقراء وفرضهم الضرائب والمكوس

الباهظة عليهم بهدف استنزاف كل ما لديهم؛ ولهذا وصف فلورنسا بأنها مغارة لصوص والدم المسفوك. واستطرد قائلاً، إن رجال الكهنوت يناصبونه العداء ويؤلبون الناس ضده لاحتقاره والاستهزاء به. ولكنه أكد أن انفضاض الناس عنه لن يثنيه عن عزمه لاستئصال شأفة الفساد والاقتداء بالمسيح، الذى استطاع من خلال فئة ضئيلة من المؤمنين به أن يغير وجه التاريخ الإنسانى. وقد وجدت وعظاته عام ١٤٩١ صدى عميقًا به فى نفوس الناس، كما يتضح من أحد مريديه الراهب دا بريسكيا الذى تسلم خطابًا منه مؤرخًا فى ١٠ مارس ١٤٩١ يقول سافوناورلا فيه: «إن عملنا يحرز تقدمًا كبيرًا لأن الله يساعدنا بصورة رائعة، رغم أن كبار رجال المدينة يناصبوننا العداء... وإنى أثق فى الله الذى يعطينا كل يوم قدرًا أعظم من الشجاعة والمثابرة. وإنى أبشر ببعث الكنيسة وتجديدها، وأجعل من الأناجيل هاديًا لى».

وليس أدل على نجاحه آنذاك من أن لورنزو استضافه فى قصره كى يلقى وعظة بمناسبة عيد القيامة المجيد، فاعترف بأنه وجد نفسه مضطرًا إلى مراعاة الكياسة والتحفظ فى الكلام، الأمر الذى جعله على غير سجيته بالمرة، قائلاً إنه يؤثر الوعظ فى الكنيسة حتى يأخذ راحته فى الهجوم على الطغاة. واستفز هذا التصريح لورنزو وأثار غضبه، الأمر الذى زاد من إقبال الناس على سافوناورلا ومن شهرته فتقرر تعيينه فى وظيفة كهنوتية رئيسية فى كنيسة القديس مرقص فى يوليو عام ١٤٩١، وهى وظيفة وفرت له قدرًا أكبر من الاستقلال. وكان أول شىء فعله فى وظيفته الجديدة أنه رفض على الفور ما درج عليه السابقون له، وهو الذهاب إلى الحاكم للتعبير عن طاعتهم وولائهم، قائلاً : «إننى أعتبر أن الفضل فى اختيارى يرجع إلى الله وحده، وإنى أقسم بطاعة الله وحده.» وبسبب هذا التصريح المستفز صاح لورنزو غاضبًا: « ألا ترون أن هذا الغريب الذى جاء إلى دارى يرفض مقابلتى.» وكظم لورنزو غضبه وسعى إلى استمالة غريمه عن طريق المعاملة الحسنة. وذهب لورنزو عدة مرات لحضور القداس الذى يقيمه سافوناورلا فى كنيسة القديس مرقص، وتعمد بعد القداس أن يتمشى فى حديقة الكنيسة، ولكن سافوناورلا رفض أن يبرح بناء الكنيسة لمقابلة لورنزو. وعندما أبلغه الرهبان بوجود الأمير أجابهم قائلاً: «طالما أنه لم يطلب منى أن أقابله فدعوه يبقى أو ينصرف على راحته.».

عندئذ سعى لورنزو إلى أسلوب آخر هو محاولة خطب وده بشتى الطرق، فأغدق على الدير المال الوفير والهدايا النفيسة. ولكن موقف سافوناورلا لم يتغير قيد أنملة،

وظل يحتقر لورنزو لطغيانه وظلمه وفساده. بل إنه فى وعظاته أشار من طرف خفى إلى محاولة الأمير التقرب إليه قائلاً، إن الكلب لا يكف عن النباح دفاعًا عن سيده إذا ألقى أحد عظمة إليه . ورغم ذلك، فقد ترك لورنزو فى صندوق النذور مبلغًا كبيرًا من القطع الذهبية . فأمر سافونارولا على الفور بتوزيعها على الفقراء والمساكين، بحجة أن الدير لا يحتاج إلى كل هذا البذخ. وهكذا تأكد لورنزو أنه مهما فعل، فلن يستطيع زحزحة سافونارولا عن موقفه الرافض له.

ولكن لورنزو واصل سياسة مهادنة هذا الراهب العنيد فأرسل إليه وفدًا مكونًا من أهم خمسة أشخاص فى فلورنسا، لحثه على تغيير مسلكه وأسلوبه فى الوعظ حتى لا يتعرض هو والدير للأخطار. ولكن سافونارولا أسكتهم قائلاً: «أعرف أنكم لم تحضروا بمحض إرادتكم ، ولكن بناء على مشيئة لورنزو. فاطلبوا منه التوبة عن خطاياه؛ لأن الله لا يحترم مراتب الأشخاص ولا يستثنى من عقابه أمراء العالم». وعندما ألمح وفد الأمير إلى نفيه خارج البلاد أجابه بأنه لا يخشى النفى، وأن مذهبه الجديد سوف ينتصر وينهض على أنقاض المذهب القديم. ثم أردف قائلاً: «على الرغم من أننى غريب عن المدينة وأن لورنزو مواطنها، بل مواطنها الأول، فسوف أبقى فيها فى حين أنه سوف يرحل عنها» ثم أخذ يستفيض فى حديثه عن فساد الحكم فى فلورنسا، لدرجة أدهشت الوفد من معرفته الوثيقة ببواطن السياسة ومجريات الأمور. حينئذ تنبأ سافونارولا أثناء وعظه فى كنيسة القديس مرقص بالتغيرات الهائلة التى ستشهدها إيطاليا، وبقرب نهاية حياة لورنزو الرائع وبابا روما وملك نابولى.

وبمرور الأيام كثرت الرؤى الصوفية التى تجلت له، والتى ظهر أثرها فى وعظاته لشعب فلورنسا التى تنبأ بانهيارها وسقوطها. واستطاع بصدقه وإخلاصه وحماسه أن يجعل المستمعين إليه يرون نذر الشؤم التى تلوح فى الأفق، وأن يحثهم على الانخراط الكامل فى الحياة الروحية وعدم الاكتفاء بأداء الطقوس والشعائر. وأدرك لورنزو خطورة الموقف عليه فأوعز إلى الراهب ماريانو دى جينازانو لاستئناف وعظاته التى كان قد توقف عنها، وأن يهاجم فى هذه الوعظات طريقة سافونارولا فى ادعاء النبوة واستيحاء السماء. وقبل الراهب ماريانو أن يلعب هذا الدور، ولا غرو فقد كان منافقًا مرائيًا وعميلاً للورنزو .

وقلب ماريانو لسافونارولا ظهر المجن، فبعد أن كان يتظاهر بصداقته له انقض عليه فى وعظة ألقاها فى الدير فى يوم صعود السيد المسيح إلى السماء. وجاء

للاستماع إليه حشد كبير من أهل فلورنسا بدافع حب الاستطلاع، وكان لورنزو وأشراف فلورنسا من بين الحاضرين. وما إن اعتلى ماريانو منبر الكنيسة، حتى اجتاحه الغل والعداء لسافونارولا فأخذ يرميه بأقذع التهم فى لغة مقززة نفرت الناس منه. وبسبب غلظته وخشونته فى القول وافتقاره إلى التهذيب واللياقة، قرر عدد من أعلام المدينة التوقف عن حضور وعظاته والذهاب لسماع وعظات سافونارولا، الذى خرج من هذه المنافسة أكثر قوة وبأسًا عن ذى قبل. وباندحار ماريانو أمام منافسه أحس الأمير لورنزو بالغصة تملأ قلبه كما غمرت المرارة قلب ماريانو، الذى زاد من مرارته أن اندحاره كان مهينًا أمام الرجل الذى اكتسحه ببلاغته ونجح فى صرف الناس عنه فى بادئ الأمر، وذلك عندما وطأت قدما سافونارولا أرض فلورنسا لأول مرة. ومن ثم قرر الانتقام منه والتآمر عليه، حتى نجح فى وضع نهاية له . أما الأمير لورنزو، فقد شعر بالعجز والانكسار العميق أمام سافونارولا ، كما أن الأمراض والعلل أصابته فقرر أن يترك عدوه الذى يحترمه فى قرارة نفسه وشأنه ولا يتدخل مطلقًا فيما يلقيه من وعظات. وقد كانت «رسالة القديس يوحنا» هى أولى وعظاته المنشورة نحو عام ١٤٩١.

موت لورنزو دى مديسيس والبابا إنوسنت الثامن ورحلة سافونارولا إلى بولونيا والإصلاحات التى تمت فى الدير (١٤٩٢- ١٢٩٣)

تدهورت صحة لورنزو دى مديسيس تدهورًا كبيرًا وبات من الواضح أن الأمير مشرف على الموت. وأكثر من زيارته أعز صديقين، وهما: فيكينو وبيكو، كما لازمه طيلة الوقت أكثر أصدقائه وفاء وإخلاصًا، وهو أنجيلو بوليزيانو الذى بكاه بكاء مرًا عندما لفظ أنفاسه الأخيرة. وأصاب لورنزو فى أيامه الأخيرة تغير عظيم، فقد انصرف اهتمامه إلى الدين واحترام الكهنوت. وفى أيامه الأخيرة قبل أن تفيض روحه مثلت أمامه جميع الذنوب والآثام التى ارتكبها فى شبابه، فامتلأ قلبه بالرعب وأحس بوخز الضمير يمزقه فى مماته . ولم يعد يثق بأى واحد من القساوسة؛ لأنهم كانوا جميعًا طوع بنانه يفعلون وفق مشيئته ويوافقونه على معاصيه. وفجأة تذكر وجه عدوه اللدود سافونارولا المتجهم ، ذلك الرجل الذى تحداه فى عز جبروته دون أن يخشى بطشه وتهديداته فصاح لمن يلتفون حول فراش موته: «لست أعرف سوى قسيس صادق واحد» ثم عبر عن رغبته فى الاعتراف فى حضرته بذنوبه، طالبًا من المولى الصفح والغفران. وفى الحال جاء رسول من القصر إلى كنيسة القديس مرقص لاستدعاء سافونارولا، واندهش رئيس الدير من هذا الاستدعاء العاجل. ومن ناحيته، رفض سافونارولا إجابة الأمير إلى طلبه؛ لأنه كان يعرف أنه لا يعير كلامه اهتمامًا. ولكنه على الفور قبل السفر مع الرسول عندما عرف منه أن لورنزو فى النزع الأخير.

وقبل أن تفيض روحه طلب لورنزو الذى كدره السقم رؤية جليسه وأنيسه بيكو ديلا ميراندولا الخفيف الظل، والذى استطاع بملحه وطرائفه أن يزيح بعض الغم عن كاهل

المريض المشرف على الموت، وأن يجعل الابتسامة الباهتة ترتسم على شفتيه. وأثناء خروج بيكو من غرفة الأمير دلف سافونارولا إليها. واعترف لورنزو للراهب بأن ذنوبه تجثم فوق صدره، ومن بينها السلب والنهب وانتقامه الدموى من المتآمرين ضده. واعترى روح الأمير اضطراب عظيم فسعى سافونارولا إلى تهدئته والتخفيف عنه، مذكرًا إياه بأن الله غفور رحيم؛ ولكنه اشترط على لورنزو ثلاثة شروط، أولها الإيمان الكامل برحمة الله فوافقه الأمير المحتضر . وكان شرط سافوناورلا الثانى أن يعيد الأسلاب بالكامل إلى أصحابها الأصليين، وأن يوصى أبناءه بذلك. ورغم أن الغم ظهر على وجه لورنزو لهذا الشرط القاسى، فإنه أومأ برأسه للدلالة على موافقته. وأخيرًا طلب سافوناورلا من لورنزو أن يعيد الحرية إلى أهل فلورنسا؛ عندئذ ظهر الامتعاض على وجه المحتضر واستجمع كل قوته كى يدير جسمه ليعطى الراهب ظهره، دون أن ينبس ببنت شفة. ولهذا غادر سافوناورلا دون أن يعطيه الحل أو الغفران. وظل لورنزو يتمزق من عذاب الضمير حتى أدركته المنية فى ٨ أبريل ١٤٩٢.

وكان لموت لورنزو أعمق الأثر ليس فى توسكانيا وحدها، بل فى جميع أرجاء إيطاليا؛ فقد كان هذا الأمير بارعًا فى إدارة شئون السياسة وتوازناتها، الأمر الذى مكنه من الحفاظ على علاقات معقولة مع غيره من الأمراء. غير أن ابنه وخليفته بييرو كان على نقيض والده تمامًا، فهو ينغمس فى الرياضة وألعاب القوى والفروسية والملاكمة ولعبتى كرة القدم والتنس، إلى جانب انغماسه فى الشهوات دون أن يحذق لعبة السياسة. كما افتقر بييرو إلى تهذيب والده الذى جعل منه رجلاً محبوبًا رغم كل عيوبه. وبسبب طباع الابن السيئة فقدت فلورنسا مكانتها الرفيعة بين الممالك الإيطالية، وزاد الطينة بلة أن بييرو حرم شعبه من البقية الباقية من مظاهر الحرية التى كان أبوه الداهية يحرص على إعطائها للناس تجنبًا لتمردهم عليه. وبسبب سياسة الابن الخرقاء انفض عنه كثير من الموالين لوالده ولحكم عائلة دى مديسيس عمومًا.

وبعد هذه الحادثة التف حول سافوناورلا كل المعارضين لحكم عائلة دى مديسيس، واعتبروه رمزًا لهذه المعارضة. وزاد من قدره فى عيون الناس أن الأمير لورنزو المحتضر طلب منه أن يكون كاهن اعترافه فى اللحظات الأخيرة من حياته. وتذكر الشعب نبوءة الراهب عن وفاة لورنزو والبابا وملك نابولى، فازدادوا اقتناعًا بقداسته. وخارت قوى البابا إنوسنت الثامن وأصبح أقرب إلى الموتى منه إلى الأحياء، فاقترح

طبيب يهودى إجراء عملية نقل دم متطوع شاب فى كامل صحته وعافيته إلى عروق البابا، وأن ينقل فى المقابل دم البابا إلى الشاب. ولكن هذه التجربة التى طبقت لأول مرة على البابا بعد تطبيقها على الحيوانات باءت بالفشل. وتكرر إجراؤها ثلاث مرات دون جدوى، الأمر الذى أدى إلى وفاة الشباب الثلاثة الذين ضحوا بدمائهم فى سبيل إنقاذ البابا. وعقب فشل العمليات الثلاث لاذ الطبيب اليهودى بالفرار، وانتهى الأمر بوفاة البابا إنوسنت الثامن فى ٢٥ يوليو عام ١٤٩٢. وتداول كرادلة الفاتيكان الأمر فيما بينهم لانتخاب بابا جديد تحركهم الرشوة والشهوة وعوامل الفساد. وكان ألكسندر السادس البابا الجديد والمنتخب لا يقل فسادًا عمَّن انتخبوه من الكرادلة؛ فهو ليس شهوانيًا وزير نساء وحسب، بل كان أيضًا يعبد الذهب ويعشق اكتنازه بكافة الطرق غير المشروعة، لدرجة أنه أقام علاقات طيبة مع الأتراك والمغاربة واليهود ممن اعتبرتهم الكنيسة الكاثولكية أعداء السيد المسيح. وعند انتخابه بابا روما، كان ألكسندر السادس على علاقة آثمة بامرأة سيئة السمعة تدعى فانوزا أنجب منها عددًا من الأطفال. ويقال إنه كان عشيق أمها قبل ذلك، وبعدئذ وجهت إليه تهمة مضاجعة لوكريزيا ابنته من فانوزا . وكان نجاح هذا الرجل الفاسد فى اعتلاء كرسى البابوية سببًا فى إصابة كل الإيطاليين باليأس والقنوط. ورغم هذا الفساد العظيم، فقد قام البابا الجديد بإدخال شىء من النظام والانضباط فى هذه الفوضى الضاربة أطنابها فى جميع أرجاء البلاد. ولم يكن هدفه من وراء ذلك الإصلاح، بل إحكام قبضته على العباد والبلاد حتى يتمكن من استنزافهم عن طريق فرض الضرائب عليهم وتنصيب أولاده - رغم شهوانيتهم وجرائمهم وغلظة قلوبهم - ولاة على المدائن والممالك. عندئذ تذكر سكان إيطاليا نبوءة سافونارولا التى تحققت عن انتشار الشر المستطير فى كل أرجاء إيطاليا والكنيسة. وساد الإيطاليين رعب من المستقبل، كما ساد بينهم الاعتقاد بأن سافونارولا نبىّ موحى له من لدن الله، الأمر الذى جعل سافونارولا نفسه يقتنع بصحة نبوءاته وصدق الرؤى التى تتجلى له. ففى عام ١٤٩٢، تجلت له رؤييان نزلتا عليه من السماء، حيث شاهد فى إحداهما يدًا فى كبد السماء تلوح بسيف وسمع أصواتًا تأتى من عل تبشر الصالحين وتنذر الخطاة بأن غضب الله آت فى الطريق، وفجأة رأى سافونارولا السيف يتجه نحو الأرض واكفهرت السماء وأظلمت وأمطرت سيوفًا وسهامًا وألسنة لهب. فأصبح كل العالم منخرطًا فى الحرب يكابد المجاعة والأوبئة. وانتهت هذه الرؤيا بسماع أمر يأتيه من السماء، آمرًا إياه بإعلان هذا على مستمعيه حتى يعودوا إلى خشية الله ويبتهلوا إليه كى ينقذهم من الغضب الآتى.

وأيضًا شاهد سافونارولا فى رؤيا أخرى صليبًا أسود يرتفع فى روما حتى يصل إلى السماء ويمد ذراعيه حتى اشتمل على المعمورة بأسرها. ومرة أخرى أصبحت السماء حالكة الظلام، وانبعثت ومضات البرق، وشق الرعد حجاب السماء وهبت عاصفة عاتية هوجاء من الريح والبرد. ولكن صليبًا من الذهب ارتفع فى أورشليم المقدسة وسطع نوره فأضاء أرجاء المعمورة، فجاء الناس زرافات ووحدانًا من كل فج عميق مبهورين عابدين. واستمر سافونارولا فى الحديث عن رؤاه طوال عام ١٤٩٢، وبالذات فى فترة الصوم التى تسبق عيد الفصح . ثم ألقى بعدئذ أحاديثه الشهيرة عن فلك نوح فى عام ١٤٩٤؛ فأصابت نجاحًا عظيمًا.

أصبح سافونارولا كثير الغياب عن فلورنسا . ففى شهرى فبراير ومايو ١٤٩٢ قام بزيارة البندقية عدة مرات، كما أنه زار بيزا حيث ألقى عددًا ضئيلاً من الوعظات فى دير سانت كاترين، وعقد صداقة وثيقة العرى مع ستيفانو دا كموديونت، الذى صار فيما بعد من أخلص أتباعه ومريديه. وفى فترة الصيام السابقة على عيد الفصح من عام ١٤٩٣، طال غيابه عن فلورنسا حيث ذهب للتبشير فى بولونيا. وضاق بييرو حاكم فلورنسا ذرعًا به وبوعظاته وسعى إلى وضع حد له وتقليص شعبيته وتصرف معه بنزق، حيث إنه افتقر إلى حكمة وحصافة ودبلوماسية والده لورنزو، الذى تحمله رغم شدة ضيقه منه. ورأى بييرو ضرورة التخلص منه، فسعى إلى نقله من فلورنسا ووضع منافسه القديم الراهب ماريانو محله. وشعر شعب فلورنسا باليتم نتيجة إبعاده فكان يرسل إليهم الخطابات مواسيًا. وفى خارج فلورنسا شعر سافونارولا بأنه مثل السمكة التى تخرج من الماء، فجاءت وعظاته باردة بلا روح. وأصبح معظم المستمعين إليه من النساء.

ومن بين هؤلاء النساء حضرت يوميًا إلى كنيسته زوجة نبيل يدعى بنيتفوليو اعتادت المجيء متأخرة، تتبعها حاشية كبيرة من الوصيفات والفرسان والخدم والحشم. وعبثًا حاول الراهب سافونارولا تنبيهها إلى ضرورة احترام مواعيد الصلاة. ولكنها لم تكترث به واستمرت فى الحضور المتأخر وإزعاجه أثناء إقامة الشعائر، الأمر الذى اضطره إلى الإشارة إلى خطيئة إزعاج المصلين والمؤمنين. واغتاظت هذه السيدة من جرأته وتجاسره عليها، فأمعنت فى تأخرها وفى كمية الجلبة التى تحدثها، وتصرفت بتكبر واستعلاء بدون احترام الكنيسة ونظامها. وأخيرًا أحدثت المرأة ضوضاء عالية وهو فى

قمة انفعاله وانشغاله بإلقاء وعظته؛ فلم يتمالك نفسه وصاح غاضبًا: «انظروا! ها هو الشيطان قد جاء ليقاطع حكمة الله» واستشاطت المرأة غضبًا من هذا التوبيخ الواضح، فأمرت اثنين من خدمها بقتله أثناء إلقاء كلمته من فوق المنبر؛ غير أن الخادمين رفضا طاعتها . وأضمرت له السيد السوء، فأرسلت فيما بعد اثنين آخرين إلى قلايته لتأديبه وضربه ضربًا مبرحًا. ودخل الرجلان عليه في القلاية؛ ولكنه واجههما بكل ثقة وحزم ورباطة جأش وتحدث إليهما بلهجة تتسم بالوقار، فانصرفا في اضطراب عظيم دون أن يمساه بسوء.

ثم قرر سافونارولا العودة إلى فلورنسا . وعندما وصل إليها وجد أن حالتها قد ساءت عن ذى قبل بسبب نزق وحماقة حاكمها بييرو. ووجد هذا الراهب نفسه في مأزق؛ لأن توجيه النقد لبييرو معناه نفيه من فلورنسا . واكتشف سافونارولا أن دير كنيسة القديس مرقص في فلورنسا لم يكن حتى عام ١٤٤٨ تابعًا لسلطة حاكمها، وأنه انضم إليه عقب تفشى وباء الطاعون الذى أتى على الأخضر واليابس. وحتى لا يكون الدير تحت رحمة بييرو حاكم هذه المدينة سعى سافونارولا إلى إعادته إلى سابق استقلاله. ورغم أنه استطاع إقناع حاكم فلورنسا بالتخلى عن سيطرته على الدير، فإن الاعتراض على استقلال الدير كان كبيرًا. وجاء هذا الاعتراض من رهبان مملكة لومباردى والبندقية وروما. ولكن المصادفة البحتة هى التى رجحت كفة سافونارولا على معارضيه، فعندما عرض الأمر على البابا في مايو ١٩٤٣ أعلن أنه على غير استعداد في ذلك اليوم لختم أية مذكرة ترفع لقداسته . فانصرف مرءوسو البابا من الغرفة تاركين إياه على انفراد مع أحد أنصار سافونارولا، هو كاردينال نابولى الذى كان في الوقت ذاته أثيرًا إلى قلب البابا. وكان مزاج البابا صافيًا فتبادل المزاح والنكات والضحكات مع صديقه وضيفه. واقتنص كاردينال نابولى هذه الفرصة السانحة وأخرج من جيبه مذكرة كان قد أعدها بشأن موافقة البابا على استقلال الدير وقدمها إليه كى يختمها؛ ولكن البابا المازح رفض ضاحكًا.

فضحك الكاردينال أيضًا وقام بسحب الخاتم من إصبع البابا وختم به على الموافقة باستقلال الدير. وما إن حدث هذا حتى جاء رسل من لومباردى يطلبون منه عدم الموافقة على استقلال الدير . غير أن السيف كان قد سبق العذل، وأسقط في يد البابا ولم يستطع العدول عن ختمه. وهكذا شاءت الأقدار تحقيق رغبة سافونارولا في استقلال دير القديس مرقص.

وعبثًا حاول رهبان لومباردى إلغاء المرسوم البابوى، يساعدهم فى ذلك حاكم فلورنسا بييرو الذى غير رأيه. وأمر رئيس الرهبان بنقل الراهبين سافونارولا ودومينيكو إلى فلورنسا، حيث تم انتخاب سافونارولا رئيسًا للدير، الأمر الذى رسخ مكانته وثبت أقدامه. وبعد حصوله على استقلال دير كنيسة القديس مرقص، لم يكن بوسع أحد أن يتدخل فى شئونه. وبذل سافونارولا كل ما فى وسعه لإصلاح الكنيسة الكاثوليكية. وبعد عودته إلى ديره فرض على جميع رهبانه الالتزام بمبدأ الفقر والعوز، أى العودة بالدير إلى أهدافه الأصلية، حيث إن تغيرات جوهرية طرأت على قوانين الدير. فبعد أن كان مؤسسه القديس دومينيك يحظر على الرهبان امتلاك أى شىء، بمرور الوقت تخفف رهبان دير القديس مرقص من شرط الفقر وأخذت ثرواتهم تتضخم؛ ولهذا أمر سافونارولا ببيع كل ممتلكات الدير، كما فرض على رهبانه لبس الملابس الرخيصة الخشنة والامتناع عن حيازة الذهب والفضة. ثم طلب من الرهبان أن يكسبوا قوت يومهم بعرق جبينهم والعمل فى الحقول والمزارع. فضلاً عن أنه فتح المدارس لتعليم الرسم والنحت والعمارة ونسخ المخطوطات وتزيينها بالنقوش والرسوم. وعهد سافونارولا إلى رهبانه المخضرمين بتعليم الرهبان الجدد والعمل ككهنة اعتراف، وأيضًا كلف الرهبان ذوى القدرات العقلية المتميزة والملمين بعلوم اللاهوت أن يمارسوا التبشير وينتقلوا للوعظ من بلد إلى آخر. وحتى لا يصبح الراهب المبشر تحت رحمة المتصدقين وأهل البر، أمر شخصًا عاديًا بمرافقته والكد ليل نهار لإعالته؛ حتى لا تدفع الحاجة الراهب إلى الانحراف فى القول أو الفعل . وبناء على أوامره اقتصرت الدراسة فى الدير على ثلاثة موضوعات، هى: اللاهوت والفلسفة وعلم الأخلاق. فضلاً عن الانكباب على دراسة الكتاب المقدس فى ضوء اللغتين الإغريقية والعبرية، وأيضًا فى ضوء اللغات الشرقية تمهيدًا لهداية الكفار الأتراك.

كان سافونارولا نموذجًا للرهبنة يحتذيه الرهبان، فهو أقسى وأكثر تشددًا على نفسه من قسوته على الآخرين: فلباسه وسريره أكثر خشونة من لباسهم وأسرَّتهم وقلايته أسوأ القلايات جميعًا. واستطاع سافونارولا بقدوته الحسنة وحماسه الملتهب أن يخلق حركة إصلاحية تحارب الفساد وتنبذ متاع الدنيا وتدعو إلى الزهد والتقشف، فسار على دربه المريدون من الفقراء والنبلاء على حد سواء ممَّن نذروا أنفسهم للرهبنة . وتدفق سيل من الناس الراغبين فى خدمة الدير فلم يعد يسعهم. وانتشرت عدوى حماسه فى فلورنسا إلى الأديرة فى أرجاء توسكانيا الأخرى، بل إن رهبان بعض

الأديرة الأخرى المنتمية إلى طوائف دينية مختلفة عبروا عن رغبتهم فى ترك أديرتهم للالتحاق بدير كنيسة القديس مرقص. وهو ما رفضه سافونارولا؛ لأن فى قبولهم تجاوزًا لسلطاته وصلاحياته الكنسية؛ فضلاً عن أنه لم يرغب فى أن يوغر صدور الآخرين ضده.

بذل سافونارولا جهدًا جهيدًا لتوحيد نظام الرهبنة فى بلاده؛ ولكن هيهات فقد كانت إيطاليا نهبًا مقسمًا بين الأحزاب المتطاحنة، لدرجة أن مدينة سيينا ناصبته العداء وأساءت استقباله، الأمر الذى جعله يعود إلى فلورنسا حصنه الحصين وقلعته المنيعة التى دانت له بالولاء.

سافونارولا يواصل الوعظ فى فلورنسا

(١٤٩٣ - ١٤٩٤)

عندما استمر سافونارولا فى إلقاء وعظاته فى مدينة فلورنسا فى الفترة المشار إليها كان على سجيته تمامًا فى معركته ضد الفساد، فلم يعد هناك ما يخشاه بعد حصول ديره على الاستقلال، كما أن بييرو حاكم فلورنسا الجديد لا يستطيع إيذاءه والإضرار به، الأمر الذى زاده ثقة واطمئنانًا واقتناعًا بسلامة نبوءاته. واستأنف هجومه العاتى على فساد الكنيسة الكاثوليكية؛ فضلاً عن أنه ناقش فى وعظاته فى تلك الفترة بعض جوانب اللاهوت المسيحى المهمة. وتعتبر هذه الوعظات من أفضل وعظاته على الإطلاق.

بدأ سافونارولا وعظاته فى تلك الفترة بتعريف الإيمان بأنه هبة من الله ونور من لدنه يضىء عقل الإنسان، وإذا كان الله يهدى إنسانًا دون آخر فتلك هى مشيئته، فالإنسان لا يحصل على الخلاص بسبب ما يتصف به من خير، بل يخلص بسبب خير الله ونعمته عليه. فقد وضع المسيح بطرس الذى أنكره ثلاث مرات على رأس الكنيسة، كما أنه وهب الخلاص لمريم المجدلية الخاطئة. ولا يعنى هذا فى رأى بعض الدارسين أن الخلاص يأتى نتيجة اللطف الإلهى وحده، حيث إنه ينبغى على هذا الإنسان أن يتعاون بأفعاله وإرادته مع هذا اللطف الإلهى للحصول على الخلاص. ويحدثنا سافونارولا عن أهمية الحب فى تحقيق الخلاص، فالمسيح كابد كل ما كابده لأنه أحب البشر.

وأضاف سافوناروللا أن الوعاظ المسيحيين يلجئون إلى التأثير فى مستمعيهم وإبهارهم بالحديث عن أرسطو وأفلاطون وفيرجيل وبترارك، دون أدنى اهتمام بخلاص أرواحهم. وتعجب من أن هؤلاء الوعاظ لا يحفلون بالإشارة إلى الإنجيل، رغم أنه النبع الصافى الرقراق الذى ينبغى على كل مسيحى أن يرده . ثم يتحدث عن رجال الكنيسة الذين يقولون ما لا يفعلون، فهم يبشرون بالنقاء والطهارة رغم أنهم زناة وأَثَمة، ويتظاهرون بنبذ الدنيا فى حين أنهم مستغرقون فى متاعها.

وبعد هذا الهجوم الشديد على رجال الكنيسة فى إيطاليا تناول حكامها وأمراءها بالنقد اللاذع؛ لأنهم يحيون حياة الفسق والمجون والبطش ويحيطون أنفسهم بالمداحين والمرائين، ويجدون بين القساوسة من ينافقهم ويسير فى ركابهم. ومن الواضح أن هجوم سافونارولا على فساد رجال الكنيسة والحكام يتضمن فى ثناياه هجومًا على فساد حكم بييرو دى مديسيس وبطانته، ذلك الحكم الذى تنبأ بانهياره وسقوطه. ويضيف أن الأكليروس فى إيطاليا يخطئون عندما يحفلون بالبلاغة ويقيمون وزنًا للفصاحة وذلاقة اللسان، ويظنون أنه بالإمكان هداية أرواح المسيحيين عن طريق الاستشهاد بأقوال الشعراء والخطباء أمثال فيرجيل وهوراس وشيشيرون. كما أنه ينحى باللائمة عليهم ؛ لأنهم يثقون بالمنجمين والراجمين بالغيب. وأيضًا يعيب على المسيحيين اهتمامهم بالظاهر وعدم اكتراثهم بالباطن، فهم يزينون كنائسهم ويزوقونها ويلبسونها أقشب حلة ويتفننون فى زخرفتها دون عناية بالارتقاء بالجانب الروحى فى حياتهم. فضلاً عن أن كهنتهم يترنمون بكل جد ووقار بأعذب الترانيم التى ترافقها أعذب الألحان الكنسية، ليغطوا بذلك على ريائهم وفقرهم الروحى . ويمضى سافونارولا فى المقارنة بين حال الكنيسة فى بدايتها وحالها فى الوقت الحاضر، فيقول إنها فى الماضى كانت أصدق وأنقى تشيح بوجهها عن عرض الدنيا الزائل، ويأسى لما آلت إليه الكنيسة من انكسار وهوان بسبب استغراق رجالها فى المفاسد والشهوات والملذات، لدرجة جعلتهم يندحرون أمام الأتراك الذين انتزعوا منهم القسطنطينية . فضلاً عن أن ضعفهم وهوانهم أدى إلى فقدهم اليونان والبلاد الآسيوية.

وفى العام التالى (١٤٩٤)، واصل سافونارولا وعظاته التى تحمل عنوان «فلك نوح»، وهى الوعظات التى كان قد بدأها فى عام ١٤٩٢. والفلك إشارة واضحة إلى النجاة من

طوفان شر هذا العالم ومن غضب الله الآتى. وفى ٢١ سبتمبر عام ١٤٩٤ على وجه التحديد، ألقى سافونارولا وعظة عن الطوفان كان لها أعظم الأثر، ليس فى حياة هذا الراهب وحسب، بل فى جميع أرجاء فلورنسا . كان يوم هذه الوعظة يومًا مشهودًا، فعندما صعد سافونارولا إلى المنبر وبدأ يتكلم بصوت جهورى، ران الصمت والوجوم على جميع الحاضرين وغمرهم اضطراب عظيم وسرت رعدة فى أوصالهم، حتى اضطراب سافونارولا نفسه كان لا يقل عن اضطراب المصلين. فقد وردت أنباء على التو بأن جيشًا فرنسيًا عرمرمًا عبر جبال الألب بهدف غزو إيطاليا والاستيلاء عليها. وانتشرت إشاعة مرعبة انتشار النار فى الهشيم فحواها أن جنود هذا الجيش عمالقة صناديد لا يقهرون، وأن ضراوتهم فى القتال بلا حدود. ولم يكن أى أمير فى إيطاليا باستثناء ملك نابولى مستعدًا للتصدى لهؤلاء الغزاة. وشعر الإيطاليون بالهول والفرق يخلع قلوبهم، وتوقعوا أن تغرق الشوارع فى حمامات الدم. وفى رعبهم لاذ أهل فلورنسا بسافونارولا يلتمسون لديه النصح والمشورة، فقد تحققت نبوءاته المشئومة عن غضب الله الآتى. وبين عشية وضحاها غدا هذا الرجل أملاً ورمزًا للخلاص ترنو إليه إيطاليا من دانيها إلى قاصيها، وتحول سافونارولا إلى رمز سياسى يتطلع إليه الطليان فى محنتهم الأليمة.

الغزو الفرنسى لإيطاليا
عام ١٤٩٤

بعد وفاة لورنزو دى مديسيس واعتلاء ألكسندر السادس سدة الكرسى البابوى (١٤٩٢ ـ ١٥٠٣)، تدهورت الأحوال فى إيطاليا تدهورًا كبيرًا بسبب جشع هذا البابا وطمعه فى تمزيق أوصال بلاده لصالح أبنائه غير الشرعيين. كما أن لودفيكو المغربى الذى اغتصب حكم ميلانو كان يفاخر بخسته ودهائه. وقيل إنه قام بسجن ابن أخيه جيوفان جاليزو فى بافيا، وإنه قتله بدس السم البطىء المفعول له بهدف اغتصاب أملاكه. ولم تسكت إيزابيلا أراجون ابنة ألفونسو حاكم نابولى (وحفيدة فرديناند) على هذا الاعتداء على مصالح زوجها، وطلبت من والدها وجدها التدخل لإعادة الأمور إلى نصابها واستعادة ما اغتصبه لودفيكو المغربى من زوجها. وجن جنون لودفيكو عندما أحس بالخطر يتهدده من كل جانب، واتخذ حاكم فلورنسا لورنزو دى مديسيس موقفًا معتدلاً وحكيمًا من هذا الصراع المحتدم، وحاول أن يصلح ذات البين بين الطرفين المتنازعين وعقد معاهدة تحالف بين ممالك نابولى وميلانو وفلورنسا، واستطاع أثناء حياته الحفاظ على حياده واللعب على الحبل للمحافظة على استمرار هذا التحالف الذى اختل بعد وفاته واعتلاء ابنه والعرش. وعنَّ للئيم لودفيكو أن يختبر قوى المتحالفين معه، فاقترح أن يلتقى سفراء الدول الثلاث المتحالفة فى نفس الوقت فى روما لتقديم واجب الطاعة والولاء للبابا الجديد ألكسندر السادس. ولكن بييرو أراد أن يتنصل من هذه الشراكة ويستقل عنها وأن يصل إلى روما على رأس بعثة خاصة به رائعة وفخمة ومهيبة لمقابلة البابا، ولهذا سعى إلى إغراء ملك نابولى برفض اقتراح

لودفيكو. وانتهز فرديناندو بن ألفونسو ملك نابولى هذه الفرصة لرد الصاع صاعين وتصفية حساباته القديمة مع لودفيكو الذى اغتصب حكم جيوفان جاليزو زوج إيزابيللا. وأخذت الشكوك تساور لودفيكو فتآمر بأن دعا فرنسا إلى غزو مملكة نابولى. وكان هذا الغزو بداية لسلسلة من المصائب والنكبات التى حلت بإيطاليا، وكانت سببًا فى القضاء على تقدمها وازدهارها الأدبى والتجارى والثقافى. وزاد الطينة بلة أن إيطاليا - آنذاك - كانت نهبًا مقسمًا بين حكامها الطامعين نتيجة القلاقل التى عصفت بها خلال القرن الخامس عشر.

وبينما تمزقت أوصال إيطاليا اشتد ساعد بعض البلاد المجاورة لها مثل تركيا، التى قويت لدرجة أنها تمكنت من وضع قدمها فى قلب أوروبا، ومثل فرنسا وإسبانيا اللتيين استطاعتا احتلال أجزاء من شبه الجزيرة الإيطالية. ناهيك عن سويسرا التى تميزت - آنذاك - بامتلال أقوى سلاح مشاة فى جميع أرجاء أوروبا. وشعر كثير من الدول الأوروبية بالغيرة مما أصابته إيطاليا من تقدم فى مضمار الفنون والآداب والعلوم فوقفت لها بالمرصاد تتحين الفرصة لإلحاق الهزيمة بها، فقد عز عليها أن تكون إيطاليا مصدر إشعاع حضارى وثقافى فى البلاد المحيطة بها. ونظرًا لقرب إيطاليا منه، فإن شارل الثامن ملك فرنسا الشاب المغامر كان يطمع فى الاستيلاء عليها توطئة إلى غزو تركيا.

ووجد هذا الملك المغامر أن نابولى لقمة سائغة يسهل عليه ابتلاعها. وشجع الفرنسيين على غزو إيطاليا ما كانت تعانى منه من قلاقل وعدم استقرار. وعندما دعاهم لودفيكو المغربى لاحتلال نابولى رأوا الطريق أمامهم ممهدًا . حتى البابا ألكسندر نفسه رحب بهذا الغزو لأنه رآه فى صالحه . غير أنه غير رأيه عندما دفع ألفونسو ملك نابولى له ثلاثين ألف دوقة وأغدق العطايا والهدايا على أولاده. واستشعر الفرنسيون أن جماهير فلورنسا، على وجه التحديد، كانت ترحب بقدومهم للتخلص من حاكمهم البغيض الطاغية بييرو دى مديسيس . وتضامنًا مع جماهير فلورنسا المطحونة والراغبة فى الإطاحة بملكهم النزق، اعتلى سافونارولا المنبر ليدعو الفرنسيين إلى عبور الألب وغزو إيطاليا. وأراد ملك فرنسا شارل الثانى تأمين جيشه فعقد معاهدة مع إسبانيا حتى لا تهاجمه من الخلف أثناء تحرك جيشه إلى الأمام. ورغبة فى كسب ود الإسبان، اضطر إلى تقديم الكثير من التنازلات، الأمر الذى أغضب

الشعب الفرنسى منه. ونظرًا لسوء أحوال فرنسا المالية آنذاك، فقد تعهد لودفيكو المغربى بأن يدفع لها مائتى ألف دوقة، واعدًا إياها بالمزيد . فضلاً عن اضطرار ملك فرنسا إلى الاقتراض من بنوك جنوة بأسعار فائدة مرتفعة مقابل رهن مجوهراته ومجوهرات النبلاء. وتميز الجيش الفرنسى البالغ تعداده ما يقرب من ستين ألف محارب شديد المراس على الجيوش الإيطالية بحسن إعداده .

وفى يوم ٢٢ أغسطس عام ١٤٩٤، قرر ملك فرنسا أن يبدأ حملته التى قادها بنفسه، فاخترق الحدود الإيطالية وتوقف عند بلده أستى حيث استقبله بالترحاب كل من لودوفيكو المغربى وزوجته إلى جانب دوق فيرارا. وتوغلت القوات الفرنسية فى الأراضى الإيطالية حتى وصلت إلى فلورنسا التى يحكمها بييرو الذى أسقط فى يده فلم يعرف ماذا يفعل أمام هذه القوة الضارية التى لا قبل له بها، وخاصة بعد أن هجره الجميع . وحتى ينقذ هذا الحاكم الواجف نفسه من الموت، طلب من الفرنسيين أن يمنحوه ملاذا آمنًا مقابل تعهده بدفع ألف فلورينة، وهكذا تحققت نبوءة سافونارولا بانتهاء حكم عائلة المديسيس واندحارها المهين نتيجة جبروتها وطغيانها.

الفرنسيون يطردون عائلة المديسيس الحاكمة من فلورنسا وسافونارولا يزور معسكرات الجيش الفرنسى (نوفمبر ١٤٩٤)

عندما انهارت قلاع فلورنسا فى نوفمبر عام ١٤٩٤، سقطت جميع أراضى إقليم توسكانيكا فى يد الجيش الفرنسى، الأمر الذى أثار حفيظة أهل فلورنسا على تردى الأوضاع وتخاذل ملكهم بييرو وجبنه أمام الأعداء. وعبر الأهالى عن غضبهم عن طريق التظاهر والتجمهر فى الشوارع، وعقدوا العزم على التخلص من نير البطش والاستبداد اللذين عانوا منهما طيلة أكثر من نصف قرن حتى يستنشقوا نسيم الحرية. ولم يعرف أفراد الشعب الساخط والمتجمهر فى الشوارع والميادين ماذا يفعلون بحريتهم الجديدة بعد أن تخلصوا من استبداد حكم المديسيس، ولمَن من القادة والزعماء يسلمون قيادهم. وشخصت أبصارهم جميعًا إلى الراهب سافونارولا والتفوا حوله لعله يهديهم سواء السبيل. ولا غرو، فقد أصبح هذا الراهب الملاذ الوحيد الذى يحسون معه بالأمان والاطمئنان. وكان بإمكانه بكلمة تحريض واحدة أن يلهب مشاعر الجماهير المتعطشة للانتقام ضد من ظلموهم وسلبوا أموالهم؛ ولكنه حرص على الامتناع عن تهييج خواطرهم رغم عطفه الشديد عليهم. واكتفى بالتبشير بالسلام والإحسان والوحدة وتذكير أهل فلورنسا وجميع سكان إيطاليا بذنوبهم وحثهم على التوبة، وحذرهم من الغضب الإلهى القادم. وسقطت كلمات الراهب على قلب الشعب المطحون بردًا وسلامًا وأدخلت فيه الهدوء والسكينة.

وفى الرابع من نوفمبر عام ١٤٩٤، دعا حاكم فلورنسا أشرافها إلى حضور اجتماع يقال له مجلس السبعين، لتدارس خطورة هذا الموقف المتدهور والعواقب الوخيمة

المترتبة عليه. وأخيرًا نهض بييرو دى جينو كابونى على قدميه فسكت جميع الحاضرين وكأن على رءوسهم الطير ، وفى كلمات شديدة الإيجاز قال: «إن بييرو دى مديسيس لم يعد صالحًا لحكم الدولة، ومن ثم يجب إقامة نظام جمهورى.» وأعلن الرجل أن حاكمهم هو السبب الحقيقى فى كل ما حلَّ بفلورنسا من بلاء، وأن أهلها يحملون مشاعر الود نحو الفرنسيين. ثم طلب إرسال سافونارولا للتفاوض مع سلطة الاحتلال؛ نظرًا لما يحظى به من احترام ملك فرنسا؛ وخاصة بعد أن ترامت إلى مسامعه نبوءاته عن قرب غزو فرنسا لفلورنسا.

وفى ٥ نوفمبر عام ١٤٩٤، تكون وفد من السفراء من: باندولفو روسيلدى، وجيوفانى كافالكانتى، وبييرو كابونى، وتابانى ويلزلى وسافونارولا لمقابلة ملك فرنسا للتحدث معه عن ضرورة إقامة نظام جمهورى فى فلورنسا يحل محل النظام الملكى المتهاوى. وقبل سفره سيرًا على الأقدام كعادته للانضمام للوفد، ألقى سافونارولا خطابًا فى شعب فلورنسا حثهم فيه على التزام الهدوء والسكينة وعدم القيام بأعمال الشغب حتى يزيح الله عنهم الكرب الجاثم فوق صدورهم، كما أنه عرض فى خطابه لغُمَّة الجبروت والتسلط المتمثلة فى حكم بييرو دى مديسيس التى أزاحها الله عن كاهلهم وبشرهم بعهد جديد من الحرية. ثم سافر إلى بيزا للحاق بالوفد الذى يزمع التفاوض مع ملك فرنسا. وأحس بييرو حاكم فلورنسا بالخطر الداهم يتهدده فطلب العون من ملك فرنسا؛ واعدًا إياه بأن يدفع له على الفور مائتى ألف دوقة. واستعدادًا للمقاومة أمر بييرو الحاكم أورسينى بحشد قوة تتبعه إلى فلورنسا، حيث توجه برفقة عدد كبير من الحاشية إلى قصره لدعوة برلمان شعبى إلى الانعقاد لاسترداد سيطرته على البلاد . ولكن المعارضين له نصحوه بدخول القصر بصحبة عدد ضئيل من المرافقين، وطلبوا منه تسريح الجنود الذين حشدهم حتى تتجنب البلاد حمامات الدماء. فتراجع بييرو عن اقتحام القصر وانصرف من المكان . ولكنه لم يهدأ له بال فحاول نفر مدجج بالسلاح أن يدخل القصر عنوة، فقام مناوئوه بإغلاق مداخل القصر فى وجهه وطلبوا منه دخوله بمفرده بعد تجريده من السلاح. وانصرف بييرو وهو يستشيط غضبًا ؛ ولكن أحد الموالين له استوقفه وطلب منه الرجوع ، الأمر الذى أثار غضب الجميع منه. وشجع هذا التصرف المتعاطف بييرو على إعادة محاولة اقتحام القصر بالقوة؛ ولكن حارسًا استطاع أن يرده على أعقابه ويغلق الباب فى وجهه وهو يكيل له الإهانات.

وما إن شاهد شعب فلورنسا هذا، حتى بدأ ينخرط فى أعمال الشغب. ووجهت الجماهير إلى بييرو دى مديسيس صيحات الاستهزاء، وألقى عليه الصبية فى الشوارع وابلاً من الحجارة. ودقت أجراس مدينة فلورنسا فهرع أهلها جميعًا إلى الشوارع ليروا فى الميدان فرانسيسكو فالورى الذى جاء لتوه من المعسكر ممتطيًا ظهر بغل، وقد تعفر وجهه بغبار السفر. كان فالورى فى بادئ الأمر صديقًا لبييرو؛ ولكنه ما لبث أن انقلب عليه بسبب سوء حكمه وصار متعاطفًا مع الجماهير التى قاست الأمرين من مظالمه ومفاسده. وتوسم شعب فلورنسا فى فالورى زعيمًا شعبيًا، فأحاطت به الجماهير تسأله عن آخر أنباء الغزو الفرنسى لإقليم توسكانى. وقام فالورى بإلقاء خطبة ملتهبة أثارت حماس الجماهير ضد بييرو، فتبعوه وساروا خلفه للاستيلاء على قصر عائلة المديسيس.

وعبثًا حاول أفراد عائلة المديسيس إيقاف هذا الطوفان الكاسح من المتظاهرين المدججين بالسلاح، فقد حاول أخو بييرو الكاردينال جيوفانى أن يجمع الناس حوله ويستنهضهم لمناصرة عائلة المديسيس. ولكنهم انفضوا من حوله وأظهروا العداء له. ووقعت عيناه على فالورى وهو على رأس مظاهرة حاشدة تلوح بالسلاح فتراجع ليكتشف أن أخاه بييرو أيضًا فر هاربًا؛ حتى أتباعه وأنصاره تخلوا عنه. وما إن خرج بييرو من المدينة، حتى أوصد الشعب أبوابها لمنعه من العودة إليها. ووصل بييرو إلى بولونيا حيث استقبله بنتيفوجليو بمزيج من البرود والاحتقار، وعنفه قائلاً:

«إننى أفضل أن تمزق أوصالى من أن أتخلى عن دولتى بهذه الطريقة». وأخيرًا استقر بييرو فى البندقية التى أحسنت استقباله. ومن المفارقة أن يكون جبن بييرو السبب الحقيقى فى سقوطه المهين، فلو أنه أظهر شيئًا من الشجاعة والحزم والتصميم لاستطاع أن يستفيد من تعاطف ملك فرنسا شارل الثامن معه. وليس أدل على هذا التعاطف من أن الملك أرسل إليه فى البندقية رسلاً لدعوته إلى العودة؛ ولكنه رفض لأنه لم ينس الإهانات وصيحات الاستنكار التى صمت أذنيه من شعبه.

وأعلن أعداء عائلة المديسيس عن مكافأة قدرها ألفا فلورينة لمن يأتى بجثتى بييرو وأخيه الكاردينال، وخمسة آلاف فلورينة لمن يأتى بهما أحياء. وفى الوقت نفسه، قام الثائرون بتحطيم كل ما يذكرهم بالظلم والاستبداد الذى مارسته هذه العائلة. ووقعت أحداث نهب وسلب لنفائس هذه العائلة وممتلكاتها الثمينة. ولكن

أحداث الشغب وسفك الدماء كانت محدودة بفضل دعوة سافونارولا وأعوانه إلى السلم ونبذ الصراعات وسفك الدماء.

وأخيرًا ذهب سافونارولا لزيارة معسكر الجيش الفرنسى، حيث قابل ملك فرنسا وقد أحاط به قواده. فاستقبله الملك وقواده برفق وود شديدين. ومن ناحيته، خاطب سافونارولا الملك قائلاً: «أيها الملك المعروف بتمسكه بالمسيحية، أنت أداة فى يد الله أرسلك كى تخفف أوجاع إيطاليا على نحو ما تنبأت به لأعوام عديدة. إن الله أرسلك من أجل إصلاح الكنيسة التى تمرغت فى التراب. وإذا عجزت عن أن تظهر الاحترام لنساء مدينة فلورنسا وتعطى أهلها حريتهم، وإذا نسيت ألواجب الذى أرسلك الله لأدائه، فإن الله سبحانه وتعالى سوف يختار غيرك لأدائه وسوف ينزل ضرباته عليك ويعاقبك عقابًا شديدًا ومروعًا. وإنى باسم الله أقول لك هذه الأشياء.» وبدا على الملك وقواده شدة التأثر من وعيد سافونارولا وتهديده، كما بدا أنهم يؤمنون كل الإيمان بما تفوه به. بل إنه شعر بالرعب من هذا الراهب الذى تحققت نبوءاته؛ ولهذا قرر أن يحسن معاملة أهل فلورنسا.

ثورة بيزا ودخول ملك فرنسا شارل الثامن فلورنسا وجلاؤه عنها (نوفمبر ١٤٩٤)

ساءت أحوال إقليم فلورنسا سوءًا ملحوظًا. ففى نفس اليوم الذى تم فيه طرد عائلة المديسيس من فلورنسا، قام أهل بيزا بثورة مكنتهم من استعادة حريتهم بالقوة من قبضة فلورنسا عليهم. ومن ثم فرح أهل بيزا وهللوا لقدوم الفرنسيين وانتعشت آمالهم فى حياة أفضل. وسعى لودفيكو المغربى إلى الصيد فى الماء العكر، فحرض أهل بيزا على الثورة ضد فلورنسا بغية توليه سدة الحكم فى بيزا. وبمجرد دخول الملك الفرنسى شارل الثامن مدينة بيزا ثارت هذه المدينة فى وجه كل الرموز التى تمثل فلورنسا، وقام الثوار بطرد ممثل السلطة الفلورنسية ونهب بيوتهم وسلبها. ورفعت بيزا على الفور ألوية الحرب والاستقلال ضد فلورنسا، الأمر الذى تسبب فى إنهاك المدينتين معًا.

ووقف ملك فرنسا موقف المتفرج من هذا الصراع المحتدم بين الجانبين، وفى بادئ الأمر شجع ملك فرنسا سكان بيزا على الثورة ضد فلورنسا، ولكنه ما لبث أن غير موقفه عندما رأى أهل بيزا يتمادون فى ثورتهم ويصرون على شق عصا الطاعة على سلطة فلورنسا. ولم يفطن ملك فرنسا إلى عاقبة تشجيع أهل بيزا على الثورة، فقد شجع هذا أهل فلورنسا على إعلان عصيانهم على حاكمهم، كما شجع على اندلاع نيران الثورة فى مدن أخرى مثل أريزو ومونتبو لسيانو. واستمر ملك فرنسا فى توغله فى الأراضى الإيطالية وتوقف لبضعة أيام فى سيجنا، ليعطى فرصة للهدوء كى يسود فلورنسا التى كانت تمور بأعنف الاضطرابات منذ أن تم طرد عائلة المديسيس

الحـاكمـة منهـا، بينـمـا وقف جيش ملك فـرنسـا على أبواب هـذه المـدينة. وفى ذروة هذا الاضطراب بشر سافونارولا بعمل البر والإحسان، ودعا إلى اتحاد الأمة وسلامها. وبسبب الأخطار التى تتهددها أصبحت فلورنسا فى حالة تأهب. وأرسلت رسلها إلى ملك فرنسا لسبر غوره ومعرفة نواياه. وكان الجيش الفرنسى القابع خارج أسوار فلورنسا يرسل بعض جنوده داخل المدينة، ليضعوا علامات بالطباشير على المساكن التى تصلح كثكنات لمعيشة العساكر، وانبهر هؤلاء الفرنسيون بروعة المبانى وفخامة القصور والأبراج التى بدت كالقلاع الحصينة. وسرت - آنذاك - شائعة بأن حاكم فلورنسا البغيض بييرو دى مديسيس عاد أدراجه ليدخل المدينة، وأمام هذا التوجس دقت أجراس فلورنسا واحتشدت جماهيرها فى الشوارع وهم مدججون بالسلاح. وهب الشعب الثائر للدفاع عن المدينة وأقاموا الحواجز والمتاريس فى الشوارع وأوصدت أبواب القصر، حتى لا يتمكن سيده من العودة إليه. وعندما تأكد للشعب الهائج أن الإشاعة ليس لها أساس من الصحة، انصرف بنفس السرعة التى تجمع بها. وتبين للجنود الفرنسيين الذين دخلوا فلورنسا لوضع علامات على البيوت لإقامة الجيش الفرنسى أن غزو فلورنسا لن يكون أمرًا سهلاً؛ وخاصة لأن روحًا قتالية شجاعة دبت فى أهلها بعد نجاحهم فى الإطاحة بحاكمهم الطاغية بييرو دى مديسيس وتحرروا من ربقة استعباده.

وفى الوقت نفسه، أقيمت فى قصر المديسيس الاستعدادات لاستقبال الملك الفرنسى شارل الثامن استقبالاً رائعًا وحافلاً، واصطف أشراف ونبلاء فلورنسا للترحيب به. ولكن هطول الأمطار كاد أن يفسد جو الاحتفالات البهيج. ولكن ضابطًا من سلاح فرسان فلورنسا سارع بإنقاذ جو الاحتفال من التعكير، فقد سارع ممتطيًا جواده وشق الصفوف التى سادها الاضطراب واقترب من الملك الفرنسى ليلقى على مسامعه خطبة قصيرة ترحب بمقدمه، وهكذا دخل شارل الثامن مدينة فلورنسا مظفرًا وفى معيته عدد قليل من القواد، إلى جانب كاردينال سانت بييرو وكاردينال سانت مالو، ومن خلفه تبعه جيشه الفريد فى إعداده وتكوينه وتعدد جنسياته، والذى قدر البعض تعداده بما يقرب من اثنى عشر ألف جندى. والجدير بالذكر، أن الملك شارل الثامن أرسل فى الوقت نفسه قوة أخرى من سلاح المدفعية باتجاه روما.

وبعد دخول ملك فرنسا مدينة فلورنسا دخول الغزاة الظافرين وسط الأهازيج وزينات الفرح ونغمات الموسيقى الصادحة، تقدم الملك الظافر إلى قصر المديسيس

الفخيم.

أمضى أهل فلورنسا يومين متتاليين فى إقامة الأفراح والليالى الملاح، بعدها أخذ الجميع يفكرون فى نوعية المعاهدة التى يزمعون إبرامها مع ملك فرنسا. واختارت فلورنسا وفدًا للتفاوض مع هذا الملك يضم كوكبة من ألمع أشرافها وأكثرهم كفاءة واقتدارًا وأرفعهم سمعة، مثل جويد آنتونيو فيسبوكى، ودومينيكو بونسى، وفرانسيسكو فالورى وبييرو كابونى. ووقع عبء المفاوضات الثقيل على كاهل كابونى، ذلك الأرستقراطى الشجاع الذى كان من أشد الناس مناصرة لحكم لورنزو، والذى لم يعجبه حكم ابنه بييرو فناصب حكم المديسيس مر العداء لما رآه فى بييرو من تخاذل وتردد وجبن. وكان ملك فرنسا يميل إلى استمرار عائلة المديسيس فى الحكم؛ نظرًا لما أبدته والدة بييرو وزوجته من الاستعداد لمشاركة الفرنسيين فى حكم فلورنسا، الأمر الذى جعل ملك فرنسا يعامل بخشونة وفظاظة المبعوثين الذين بعث بهم فلورنسا للتفاوض معه.

وفى تكبر واضح واستعلاء جلى أفهم الملك الغازى الوفد المفاوض بأنه أصبح سيد البلاد وأنه يأمر فيطاع، الأمر الذى أساء إلى مشاعر مواطنى فلورنسا وتسبب فى تعثر المفاوضات. وعندما تفوه ملك فرنسا ببعض الكلمات التى تنم عن مساندته لبييرو حاكم فلورنسا المكروه، تجهمت وجوه أعضاء الوفد الفلورنسى المفاوض وبدا عليهم الضيق الشديد والرغبة فى التصدى المسلح لملك فرنسا. وتدهورت العلاقة بين الغزاة الفرنسيين وأفراد الشعب الفلورنسى، فكثرت بينهم المشاجرات والمشاحنات التى تنذر بالانفجار.

وبالفعل، وقع هذا الانفجار عندما حدث عراك أدى إلى اشتعال فتيل الأزمة، فقد قام بعض الجنود الفرنسيين بتقييد بعض سجناء الحرب الإيطاليين بالحبال وجرهم فى الشوارع وإرغامهم على الاستجداء من المارة حتى يتمكنوا من دفع الفدية اللازمة لإطلاق سراحهم، مهددين إياهم بالقتل إذا فشلوا فى جمع الفدية المطلوبة. وأشعل هذا المنظر مراجل الغضب فى عروق الإيطاليين الذين آلمهم أن يستذل الفرنسيون بنى جلدتهم إلى هذا الحد. وتجرأ واحد من الطليان فقطع الحبال وأطلق سراح الأسرى. وهاج الفرنسيون وماجوا وحاولوا بدون جدوى إعادة القبض على الفارين. ونشب عراك بين الأهالى وجيش الاحتلال الفرنسى، واستطاع الأهالى الذين تجمعوا

وتكاثروا الصمود أمام أعدائهم، بل إنهم تمكنوا من ردهم على أعقابهم. ولكن السلطة المسئولة فى فلورنسا خشيت من تفاقم الموقف، فأمرت مواطنيها بالكف عن الشجار.

ولقنت هذه الحادثة ملك فرنسا درسًا جعل قناته تلين، فوافق على عقد اتفاق مع وفد فلورنسا. ورغم موافقة الطرفين على معظم البنود الواردة فى الاتفاقية، إلا أن الخلاف احتدم بينهما حول نقطة بالغة الحيوية. فقد كان ملك فرنسا يطمع فى الحصول على قدر هائل من المال أكبر من قدرة أهل فلورنسا على الوفاء به. وعبثًا حاول الوفد حمل الملك على التخفيف من قسوة هذا الشرط. ولكن ملك فرنسا تشبث به، الأمر الذى جعل الدم يغلى فى عروق كابونى المفاوض الإيطالى. وأخيرًا أمر ملك فرنسا سكرتيره بتوجيه إنذار إلى الجانب الإيطالى الذى عزت عليه كرامته فرفض قبول هذا الإنذار. فهدده شارل الثامن بقرع طبول الحرب. عندئذ احتقن وجه كابونى من الغضب وانتزع الإنذار من يد سكرتير الملك وقام بتمزيقه فى وجه الملك نفسه، قائلاً قولته الشهيرة: «ونحن سندق أجراسنا».

ويبدو أن حدة لهجته هى التى حملت ملك فرنسا على تقديم بعض التنازلات لتجنب اندلاع ألسنة الحرب بالموافقة على معاهدة مقبولة من الطرفين. ونصت هذه الاتفاقية على تأكيد أواصر الصداقة بينهما وتبادل الحماية. وأن يلقب ملك فرنسا بأنه الذى أعاد الحرية إلى فلورنسا ووفر لها الحماية، وعلى أن يدفع أهل فلورنسا إليه ١٢٠ ألف فلورينة على ثلاثة أقساط. وأيضًا نصت الاتفاقية على مصادرة ممتلكات بييرو لحين وفائه بالدين المستحق عليه وأن يظل منفيًا على مبعدة مائتى ميل من حدود توسكانيا، ونفى إخوته على مبعدة مائة ميل من هذه الحدود.

وعلى الرغم من توقيع هذه المعاهدة، فإن جو القلاقل والاضطرابات ظل يرفرف على المدينة؛ لأن ملك فرنسا لم يرحل مع جنوده بل ظل مرابطًا فى فلورنسا، الأمر الذى جعل اندلاع شرارة القتال ممكنة فى أية لحظة. وكثرت جرائم السرقة والقتل فى المدينة، وتوجه المسئولون إلى سافونارولا كى يتدخل لحفظ الأمن والنظام. والذى لا شك فيه أن سافونارولا لعب دورًا بارزًا فى إقرار الهدوء والسكينة، فقد عاد إلى الحديث مع شعب فلورنسا عن الرخاء العام ونبذ الأحقاد والمطامع والخلافات حرصًا على المصلحة العليا للبلاد ووحدة شعبها. وتركزت وعظاته على الدفاع عن حرية جمهورية فلورنسا التى نالتها مؤخرًا، وعلى وحدة الصف الفلورنسى والبعد عن التنابذ.

وعندما طلب منه المسئولون أن يذهب إلى ملك فرنسا ليحثه على الرحيل، رحب بهذه المهمة وسارع إلى أدائها. وعندما اقترب الراهب سافونارولا من القصر الذى يعيش فيه ملك فرنسا شارل الثامن فكر حراسه فى منعه من الدخول لمقابلة هذا الملك، ولكنهم خشوا من غضبه عليهم لأنهم كانوا يعرفون مدى تبجيل الملك له، واستقبله الملك بكل رقة حاشية. ولم يضع سافونارولا أى وقت فى المقدمات، بل خاطب الملك فى الموضوع مباشرة قائلاً له: «أيها الأمير المسيحى، إن بقاءك هنا يسبب الأذى الكبير لمدينتنا ولمشروعك الذى تضطلع به. إنك تضيع الوقت ناسيًا الواجب الذى أناطته بك العناية الإلهية، الأمر الذى يلحق الضرر بازدهارك الروحى وسمعتك فى الدنيا. فلتستمع إلى صوت خادم الرب الماثل أمامك. استمر فى رحلتك بدون إبطاء، ولا تسعَ إلى خراب هذه المدينة حتى لا تثير غضب الله عليك».

وبالفعل، استجاب ملك فرنسا إلى مطالب سافونارولا فرحل عن فلورنسا يتبعه جيشه الجرار؛ ولكنه فعل هذا بعد أن نهب وأعوانه نفائس القصر الذى يقيم فيه. وتنفس أهل فلورنسا الصعداء بعد رحيلهم. وبعد رحيل الفرنسيين عن فلورنسا أصبحت الصورة مغايرة تمامًا عما كانت عليه، حيث لم يبق لعائلة المديسيس أو أنصارها أى وجود، بل أصبح حزب الشعب يحكمها فى حين أصبح سافونارولا زعيم البلاد الروحى بلا منازع، فهو الذى تنبأ بغزو الفرنسيين لفلورنسا وهو الذى أقنع ملك فرنسا بالقصد والاعتدال في معاملة الفلورنسيين، كما أنه أقنعه بالرحيل عن المدينة المحتلة. فلا غرو إذا صار سافونارولا النبى الذى يقول فيفصل، والذى يلتمس الجميع مشورته ويتحركون بتوجيهاته. وهكذا صار دير القديس مرقص مقر سافونارولا واهب الحرية لأهل فلورنسا، بفضل دفاع هذا الراهب المجيد عن هذه الحرية.

حالة فلورنسا بعد جلاء القوات الفرنسية عنها
واقتراح سافونارولا بإقامة شكل جديد للحكم (ديسمبر ١٤٩٤)

ينحى بعض الدارسين باللائمة على سافونارولا، لأنه تورط أكثر من اللازم فى شئون فلورنسا السياسية. ويتضح من وعظاته أنه آمن إيمانًا راسخًا بأنه الرسول الذى أرسلته العناية الإلهية لإنقاذ فلورنسا من الوهدة السياسية التى تردت فيها. أكثر من هذا أنه تنبأ بالمصير البائس الذى ينتظره. يقول سافونارولا فى إحدى وعظاته، إنه سمع الله يقول له إن مصيره سيكون شبيهًا بمصير السيد المسيح الذى صلبه اليهود على الخشبة. وكما سنرى بذل سافونارولا مجهودًا مضنيًا كى يتجنب أهل فلورنسا سفك الدماء بعد نجاحهم فى التخلص من بييرو دى مديسيس، حاكمهم الطاغية.

الجدير بالذكر، أن مفهوم المواطن الفلورنسى عن الحرية تلخص فى رغبته فى المساهمة الفعلية بصورة أو أخرى فى إدارة شئون الحكم. هذه الرغبة العارمة من جانب المواطن الفلورنسى فى تداول السلطة، تفسر تغيير القضاة كل بضعة شهور وكثرة عدد اللجان التى تتولى إدارة البلاد. فعلى سبيل المثال، كان أعضاء مجلس المدينة (السيجنورى Signory) يعينون لمدة شهرين، كما كانت هناك لجنة الثمانية التى تمثل صناع فلورنسا وتجارها. بالإضافة إلى لجنة تعرف بلجنة العشرين Accoppiatori يتم تعيينها كل ستة أشهر، وهى اللجنة التى يُناط بها إعلان الحرب أو إقرار السلام، وأيضًا هيئة الثمانية التى تختص بالنظر فى الجرائم والجنايات ويعين أعضاؤها كل أربعة شهور. ناهيك عن مجلس المدينة وهيئة أخرى تعرف بالكوليجيو Collegio. وفوق كل هذا وذاك كان هناك البرلمان Parlamento أو المجلس الشعبى الذى يجتمع كلما

مرت المدينة بأزمة ودق ناقوس الخطر، وهو ناقوس كبير يسمع فى شتى أرجاء المدينة فى وقت المحن. وفى الماضى كانت عائلة دى مديسيس الحاكمة تعمل على استبعاد أعدائها ومناوئيها السياسيين من هذه اللجان والهيئات، بغية الاستئثار بالسلطة.

وبعد طرد بييرو دى مديسيس من فلورنسا طرأت بعض التغييرات على هذه اللجان والهيئات، مثل إلغاء عدد منها بأمر من البرلمان أو المجلس الشعبى الذى حل محل مجلس العشرين، والذى اتخذ الإجراءات الكفيلة بعدم عودة بييرو دى مديسيس إلى فلورنسا، وهو الشىء الذى كان سافونارولا قد دعا إليه فى الوعظة التى ألقاها يوم الاثنين الموافق ٨ ديسمبر ١٤٩٤. والجدير بالذكر، أن سافونارولا دعا جمهور الشعب فى فلورنسا إلى السير فى موكب لتقديم الشكر إلى الله والاحتفال بهذه المناسبة. ويلاحظ الدارسون أن الوعظة التى ألقاها سافونارولا يوم السبت الموافق ٦ ديسمبر ١٤٩٤ شاهدت انتقاله الواضح من الحديث عن الشئون الروحية إلى التركيز على السياسة ولكن فى سياق دينى، وفى إطار الحض على البر بالفقراء والإحسان إليهم وجمع التبرعات من أجلهم. وترجع الأهمية البالغة لوعظته فى ٦ ديسمبر إلى أنه طالب فيها بتغيير الدستور، واستحداث نظام حكم جديد على غرار الحكم فى البندقية. ومن المرجح أن سودرينى Soderini سبق سافونارولا إلى هذه الدعوة التى لم توضع موضع التنفيذ إلا بعد أن دعا إليها سافونارولا من فوق منبره.

ولم يمضِ أسبوع واحد حتى احتدم النقاش فى فلورنسا حول ضرورة إصدار دستور جديد للبلاد؛ ولكن سافونارولا حسم الجدال الدائر بشأنه فى الوعظة التى ألقاها فى ١٤ ديسمبر ١٤٩٤ وحضرها مجلس المدينة وجميع القضاة وعلية القوم. قال سافونارولا فى وعظته الشهيرة هذه، إن حكم الفرد هو الأفضل إذا كان هذا الفرد ممدوح الخصال. أما إذا كان الحاكم الأوحد سيئًا أو شريرًا، فإن حكم الفرد هو الأسوأ بلا منازع. وأردف سافونارولا قائلاً إن حكم الفرد الواحد لا يصلح فى إيطاليا وبالذات فى فلورنسا، حيث نجد فى مواطنيها وفرة فى الحيوية والعقول الراجحة والنفوس القلقة غير المستقرة. فمثل هذا الحكم من شأنه أن يتحول إلى أداة قسر واستبداد. ثم شن سافونارولا هجومًا عاتيًا على الفرد الحاكم المستبد؛ لأنه يغتصب حقوق غيره من الناس ويدمر روحه وروح الشعب الخاضع له. ومن ثم فلابد من التصدى للاستبداد

واستئصال شأفته، ولابد من التخلص من الأنانية وإيثار مصلحة الجماعة على مصلحة الفرد. هذا فى رأى سافونارولا هو الطريق ليس لإصلاح فلورنسا وحدها، بل لإصلاح العالم بأسره. وبعد أن تحدث سافونارولا عن ضرورة التزام نظام الحكم الجديد بكلمة الله ، أضاف أن إيثار المصلحة العامة على المصلحة الخاصة يقتضى إنشاء «المجلس الأعظم» واتباع دستور شبيه بالدستور القائم فى مدينة البندقية.

وكما أسلفنا، كان سودرينى سفير فلورنسا لدى البندقية من أشد الناس تحمسًا ودفاعًا فى ضرورة الاقتداء بدستورها. ولكن جويد نتونيو فيسبوكى كان من غلاة المعارضين له، بحجة أن كثرة أعضاء المجلس المشار إليه سوف تحول دون ممارسة عمله بالكفاءة المطلوبة. ومن ثم حبذ أن تتولى مقاليد الحكم فى البلاد أقلية أرستقراطية. وبطبيعة الحال، وجدت دعوته صدى لدى عائلات فلورنسا المرموقة التى عارضت انضمام شرائح من الناس العاديين إلى هذا المجلس المقترح. وهو الموقف الذى تبناه معظم أعضاء الكوليجيو.

غير أن سافونارولا الذى كان يحبذ توسيع قاعدة المجلس الأعظم، اقترح فى الوعظة التى ألقاها فى ١٤ ديسمبر ١٤٩٤ أن تطرح طوائف الهيئة القضائية المختلفة نظامًا للحكم، ثم ترفع جميع الآراء المقترحة إلى الكوليجيو لاتخاذ ما يراه مناسبًا. وهو ما تم بالفعل فى ١٩ ديسمبر ١٤٩٤. واقترحت لجنة العشرة التى كان سودرينى أبرز زعمائها إنشاء مجلس موسع. وصادف اقتراحه هوى لدى أغلبية الناس. ولعل أهم ما جاء فى الدستور الجديد تعيين «مجلس أعظم» يتكون من ثلاثة آلاف عضو يدعون إلى الاجتماع مرة كل أسبوع، وتعيين مجلس أقل عددًا يتكون من ثمانين عضوًا يكونون على أهبة الاستعداد للاجتماع وفقًا لمتطلبات مجلس المدينة. وعند دعوة سافونارولا لهذا المجلس دافع بحرارة عند خطة سودرينى، الأمر الذى عجل بالموافقة عليها ووضعها موضع التنفيذ فى ٢٣ ديسمبر ١٤٩٤.

غير أنه من الخطأ أن نظن أن «المجلس الأعظم» كان مؤسسة ديموقراطية تمامًا، فقد كانت غالبية أعضائه من علية القوم، ولكن عدد أعضاء هذا المجلس فى بداية كل عام كان يتزايد بإضافة ستين عضوًا منتخبًا جديدًا. وكان المجلس الأعظم يتمتع بالسلطة التشريعية. وكانت الإجراءات الجديدة تناقش أولاً فى مجلس الكوليجيو ثم تحول بعد الموافقة عليها إلى مجلس آخر يعرف بالأوتانتا Ottanta، ثم تحول أخيرًا إلى «المجلس الأعظم» للموافقة عليها أو رفضها، وليس لمناقشتها.

أراد سافونارولا أن يضع حدًا للشحناء والتنابذ السياسى فى فلورنسا، وأن يتجنب انتقام النظام الجمهورى الوليد من عائلة دى مديسيس المخلوعة وأنصارها. ولهذا، لم يكف عن الحديث عن ضرورة التسامح وإعلان العفو العام عن الجرائم السياسية، فضلاً عن أنه اقترح أنه يحق للمحكوم عليهم فى جرائم خطيرة بناء على رأى ثلثى أعضاء مجلس المدينة الاستئناف ضد الحكم الصادر عليهم. ويعرف هذا التشريع الجديد بقانون الاستئناف أو قانون الحبات الست، حيث إن الاقتراع فى فلورنسا كان يتم عن طريق استخدام حبات الفول أو الفاصوليا. وبالنظر إلى أن مجلس المدينة كان يتكون من تسعة أعضاء، فإن أى حكم فى الأمور الجسيمة كان يتطلب موافقة ستة أصوات عليه على الأقل.

ورغم معقولية هذا الاقتراح، إلا أنه قوبل بالمعارضة من جانب بعض الهيئات مثل مجلس المدينة الذى رأى فى تنفيذه انتقاصًا من سلطانه وتقليصًا لصلاحيته. وأيضًا يرجع اعتراض البعض على قانون الاستئناف إلى التخوف من أنه قد يتيح الفرصة لبييرو دى مديسيس للعودة إلى حكم البلاد. والواقع، أن عائلة المديسيس والأرستقراط التابعين لها رحبوا ترحيبًا عظيمًا بقانون الاستئناف واعتبروه فاتحة خير. وتزعم جبهة المعارضة واعظ فرانسيسكانى هو دا بونزو المعروف بعلمه الغزير وفساده الكبير.

واستدعى مجلس المدينة كلاً من سافونارولا المؤيد لقانون الاستئناف ودومينيكو دا بونزو المعارض له، إلى جانب رئيس دير الدومينيكان سانتا ماريا نوفيلا الراهب توماسو دى ريينى. وطلب مجلس المدينة من سافونارولا أن يثبت أن الله أوحى له بوعظاته التى تتناول الموضوعات السياسية. وبعد أن استمع سافونارولا إلى شهادة الشاهدين الآخرين دار على عقبيه، قائلاً إنه يعرف جيدًا ما يقول، وإن الوقت قمين بإماطة اللثام عن الحقيقة، ومحذرًا من النكبات التى سوف تحل عليهم إذا امتنعوا عن الأخذ بنصيحته. وهى نصيحة من الواضح أنها تتمشى مع روح العدل. وقال سافونارولا، إنه لا يجوز لمجلس المدينة التفكير فى إلغاء الاستئناف أو الإعراض عنه، لأن هذا من شأنه تشجيعه على ممارسة الظلم. ومع ذلك، فقد نجح مجلس المدينة فى تأجيل استنان هذا القانون. ولكن بعد إعادة تشكيل هذا المجلس تغير موقفه، حيث أصبح عدد كبير من أعضائه راغبين فى الأخذ به. وشجع على هذا تلك الحرب التى

دارت رحاها بين كل من فلورنسا وبيزا، لأن خوف فلورنسا من الحرب أنساها خوفها من عودة عائلة دى مديسيس إلى الحكم، كما أن المجتمع الفلورنسى كان بحاجة إلى تماسك طوائفه بغض النظر عن الاختلافات السياسية. وفى هذا الجو المتوتر بسبب اندلاع الحرب مع بيزا، خفت المعارضة ضد استنان قانون الاستئناف. واستمر سافونارولا فى الضغط على حكومة فلورنسا لتمرير إعلان العفو العام وإصدار قانون الاستئناف. وبالفعل تم هذا؛ ولكن قانون الاستئناف لم يوافق عليه بنفس الصورة التى اقترحها سافونارولا، حيث إن النظر فى الاستئناف أُسند إلى «المجلس الأعظم»، وليس إلى لجنة الثمانين كما كان يريد. ويرجع هذا التغيير إلى المناورات السياسية التى حاكها عدد من شخصيات فلورنسا المرموقة. ويبدو أن سبب التغيير يرجع إلى رغبة الكثيرين فى التأكد من عدم عودة عائلة المديسيس إلى سدة الحكم، حيث إن «المجلس الأعظم» فى عمومه كان يحمل لها البغضاء والموجدة. وعلى أية حال، لم يثر سافونارولا أى اعتراض على التغيير فى اقتراحه الأصلى.

ونتيجة للتغير الذى طرأ، لم يكن هناك مناص من حل اللجنة المعروفة باسم الأكوبياتورى. وفى بادئ الأمر اعترض بعض أعضائها على فضِّها؛ غير أن سافونارولا استطاع إقناعهم بالاستقالة من مناصبهم وحل أنفسهم بأنفسهم. وهكذا تم حل هذه الهيئة فى ١١ يونيو ١٤٩٥. وحتى يضمن أنصار الدستور الجديد عدم الرجوع فيه، كان لابد من استنان قانون يمنع دعوة البرلمان أو مجلس الشعب للانعقاد؛ نظرًا إلى أن هذا المجلس يتكون من الدهماء المتقلبين الذين يسيرون وراء أهوائهم.

إن الفضل كل الفضل فى إصدار الدستور الجديد يرجع إلى سافونارولا الذى اعتبر هذا الدستور تجسيدًا لمشيئة الله، وتدل وعظاته فى تلك الفترة (١٤٩٥ - ١٤٩٦) على شدة مؤازرته له، كما تدل على هجومه الضارى على البرلمان أو مجلس الشعب الذى طالب بإلغائه ووصفه بأنه أداة للدمار. وفى يوم ١٣ أغسطس ١٤٩٥، تم إلغاء أحقية البرلمان أو مجلس الشعب فى نظر حالات الاستئناف، كما نص هذا الإلغاء على توقيع عقوبة الإعدام على كل متآمر يدعو البرلمان إلى الانعقاد، وتخصيص مكافأة قدرها ثلاثمائة فلورينة لكل مكتشف لهذا التآمر. لم يكن سافونارولا الذى كرس كل وقته للصلاة والابتهال لله راغبًا فى الانصراف عن صلاته من أجل الانشغال بأمور فلورنسا الدنيوية. ولكن البؤس المحيط به دفعه مرة أخرى إلى الزج بنفسه فى خضم السياسة.

صحيح أنه استمر فى إلقاء وعظاته التى تدعو القادرين إلى الإحسان والبر بالفقراء؛ ولكنه عندما رأى الوجوه البائسة من حوله تلتمس لديه طوق النجاة من حياتهم السياسية والاجتماعية المضطربة، قرر فى ١٢ ديسمبر ١٤٩٤ أن يلقى بنفسه فى معترك السياسة. فناصب أى حكم مطلق فى فلورنسا العداء؛ لأن أهلها يتميزون بالحجى والحيوية معًا. قال إن فلورنسا تحتاج إلى حكومة حديثة شعبية تلفظ حكم الفرد والطغيان؛ لأن الحاكم الطاغية يدمر روحه مثلما يدمر روح الشعب الذى يحكمه. واعتبر سافونارولا أن الحرية مقدسة، وأن القضاء على الحكم القائم على الاستبداد سوف يؤدى بالضرورة إلى إصلاح حال إيطاليا التى يمكن أن تصبح نموذجًا يحتذى به جميع الأمم. وكعادته دائمًا، أكد سافونارولا أن الله هو الذى يوحى إليه بهذه الأفكار. فالله يريد من شعبه أن يكون حرًا فى اختيار حكامه وفى تنفيذ القوانين التى يرى أنها تناسبه. وأضاف سافونارولا ضرورة الاقتداء بنظام الحكم السائد فى مدينة البندقية، وهو حكم ديمقراطى يتولى المجلس الأعلى مقاليده. وأيضًا دعا هذا الراهب إلى تخفيف الضرائب عن كاهل الشعب، كما طالب بأن يكون شغل جميع الوظائف المهمة قائمًا على الانتخاب، والجدير بالذكر أن مجلس مدينة فلورنسا دأب على الاسترشاد برأيه واستشارته فى شئون الدولة والسياسة. وإلى جانب دعوته إلى إقامة حكومة شعبية، دعا سافونارولا إلى نبذ التناحر والشحناء وتغليب مصلحة الجماعة على مصلحة الفرد، وإلى التصالح بين حكام فلورنسا الجدد وحكامها القدامى. ويجمع المؤرخون على أن دعوة سافونارولا إلى الوحدة الوطنية والسلام الاجتماعى جنبت فلورنسا كثيرًا من ويلات الانشقاق. وهكذا التف شعب فلورنسا حوله واعتبروه زعيمهم الذى يرشد خطاهم نحو تحقيق الحرية وخدمة الله فى آن واحد.

ولابد للمؤرخ الذى يريد أن يتتبع الإصلاحات السياسية التى أدخلها سافونارولا على نظام الحكم فى فلورنسا أن يطالع الوعظات التى ألقاها هذا الراهب فى الفترة من ١٤٩٤ حتى ١٤٩٥. ففى كل مرة أراد أن يسن قانونًا جديدًا كان يمهد له فى الوعظات التى يلقيها. ويجتمع الساسة ورجال القانون على رأى واحد، مفاده أن الإصلاحات التى أدخلها سافونارولا على نظام الحكم كانت الأفضل من نوعها فى كل تاريخ فلورنسا الملىء بالاضطرابات. والجدير بالذكر، أن سافونارولا رأى فى إصلاحاته خطوة تمهد لإصلاح الكنيسة الكاثوليكية بأسرها. فلا غرو إذا وجدناه يخلط مقترحاته عن الإصلاح السياسى بالحض على انتهاج الفضيلة والأخلاق الحميدة.

وقرب نهاية شهر ديسمبر عام ١٤٩٤، اقترح سافونارولا استئناف قانون يقضى بإنشاء مجلس عظيم أو «المجلس الأعظم» يحق له تعيين القضاة والمستشارين وكبار رجال الدولة، كما يحق له اعتماد القوانين والموافقة عليها، وبهذا يصبح المجلس الأعظم أكبر سلطة فى البلاد. ولم يكن المجلس الأعظم حكرًا على طبقة دون الأخرى، بل افترض فيه أن يضم كل مواطن صالح يبلغ سن الرشد ويدفع ما عليه من ضرائب. واتضح فى أول انتخابات أجريت فى فلورنسا أن عدد الأشخاص المؤهلين لعضوية المجلس الأعظم يصل إلى ثلاثة آلاف ومائتى شخص من مجموع سكانها البالغ عددهم تسعين ألف نسمة. وكان اجتماع هذا المجلس لا يعتبر قانونيًا إلا بحضور ثلثى الأعضاء. وتم إدخال تعديل عليه كى يسمح بانضمام العناصر الشابة إليه، وبمقتضى هذا التعديل أصبح المجلس الأعظم ينص على ضم ستين مواطنًا وأربعة وعشرين شابًا فى سن الرابعة والعشرين يتحلون بالفضيلة والأخلاق الحميدة، حتى تكون الفضيلة نصب عين أهل فلورنسا على الدوام. وابتداء من ١٥ يناير ١٤٩٥ أصبح من حق المجلس الأعظم أن ينتخب ثمانين مواطنًا فى سن الأربعين، لتشكيل مجلس يقال له مجلس الثمانين يجتمع على الأقل مرة كل أسبوع لتسيير شئون المدينة، مثل ترشيح السفراء وقاد الجيش وتجنيد المرتزقة.

وهكذا أصبحت الحكومة الجديدة تتشكل من المجلس الأعظم ومجلس الثمانين. وهذان المجلسان كانا مسئولين أمام مجلس الشعب أو البرلمان. وأنيط بمجلس الثمانين والمجلس الأعظم مهمة اعتماد القوانين حتى تصبح سارية المفعول. ومن الإصلاحات البالغة الأهمية التى أدخلت على نظام الحكم فى فلورنسا، تجميع القوانين الجديدة وإصدارها فى مجلد منفصل حتى لا تختلط بالقوانين القديمة فيتوه المرء بين قديمها وجديدها.

ومن الإصلاحات الجديرة بالذكر تشكيل لجنة مكونة من عشرة مواطنين مهمتها إصلاح الجهاز الضريبى، وفرض الضرائب على القادرين حتى لو كانوا من رجال الأكليروس وإعفاء غير القادرين. أولى سافونارولا عظيم اهتمامه بمراجعة قوانين الضرائب، وتتضمن وعظاته إشارات مستمرة إلى ضرورة مراجعتها. وأصدر المجلس الأعظم القوانين الخاصة بإصلاح الضرائب فى ٥ فبراير ١٤٩٥ بناء على توجيهات هذا الراهب المصلح، واتسمت القوانين الجديدة بالعدل والحكمة. ونص القانون

الجـديد على أن يدفع المـواطن الفلورنسى ١٠٪ من إيراده الفـعلى. وكـان تقـدير الممتلكات الفعلية للمواطن يتم سنويًا تجنبًا لأى ظلم أو إجحاف قد يلحق به.

وبالإضافة إلى هذا، أدخل سافونارولا إصلاحين مهمين، أولهما ينص على العفو العام حتى تتحد عناصر الأمة المختلفة وتتخلى عن أى شحناء أو تنابذ قد تخلفه صراعات الماضى. وقد دعا جميع المشتغلين بالقانون آنذاك إلى المطالبة بإنشاء محكمة استئناف، وهو اقتراح صادف قبولاً لدى سافونارولا الذى اقترح بدوره تشكيل سلطة الاستئناف من مجلس مكون من ثمانين شخصًا يتم اختيارهم من بين أعضاء المجلس الأعظم.

وكذلك هاجم سافونارولا استخدام التعذيب مع المتهمين والمساجين.

اتسمت حركة سافونارولا الإصلاحية بطابع دينى وأخلاقى تمثل فى: محاربة اللواط والتجديف على الله، ولعب الميسر والكتابات والأعمال الفنية الشهوانية والدعارة والأعمال المسرحية البذيئة. وأيضًا، تمثلت هذه الحركة فى الدعوة إلى الإحسان والبر بالفقراء وإقرار العدل بين الناس وزيارة المرضى فى المستشفيات.

ويجدر بالذكر، أن اليهود فى فلورنسا كانوا يشتغلون بالربا الفاحش، لدرجة أنهم دأبوا على الإقراض بفائدة مركبة تصل إلى ٣٢,٥٪، الأمر الذى أثار غضب الأهالى منهم. ورغم هذا، فقد امتنع سافونارولا عن الهجوم عليهم بحجة أنه يسعى إلى ترغيبهم فى اعتناق الدين المسيحى. غير أن فلورنسا استنّت فى ٢٨ ديسمبر ١٤٩٥ قانونًا لوضع حد لهذا الاستغلال اليهودى البشع. وفى ١٥ أبريل عام ١٤٩٦، تم إعداد قانون ينص على طرد المرابين اليهود من فلورنسا فى غضون عام من صدوره، وأقام سافونارولا هيئة لإقراض المال للمحتاجين بفائدة سنوية تتراوح بين ٥٪ و ٧,٥٪ بشرط عدم إنفاق القرض فى القمار. بل إنه ذهب إلى أكثر من هذا، فأوصى بالإقراض دون فوائد. ولكن التجارب والأيام أثبتت عدم فاعلية هذه الاقتراحات.

قلنا إن سافونارولا هاجم المرابين اليهود بضراوة؛ ولكنه لم يؤلب مشاعر الجماهير ضدهم مثلما فعل تابعه ماركو دى ماثيو ستروزى، الذى حرض الناس على التجمهر والإتيان بأعمال شغب فى ميدان ويلا سيجنوريا بهدف طرد اليهود من البلاد. علمًا بأن المجلس الأعظم استنّ فى ٢٨ ديسمبر ١٤٩٥ ـ على نحو ما أسلفنا ـ قانونًا بطرد اليهود من فلورنسا. ولكن هذا القانون لم يوضع موضع التنفيذ بسبب حاجة فلورنسا آنذاك إلى أموال اليهود.

رجوع ملك فرنسا إلى بلاده وأنصار بييرو دى مديسيس يساعدونه على محاولة العودة إلى فلورنسا (١٤٩٥- ١٤٩٦)

بعد أن قام ملك فرنسا شارل الثامن بغزو فلورنسا، أحسن معاملة أهلها على نحو ما رأينا. ومضى الجيش الفرنسى يغزو بقية أرجاء إيطاليا. ولكنه سرعان ما رجع عن معاملته الحسنة وصار يبتز الدويلات الإيطالية التى يحتلها ويعدها بوعود معسولة لا ينفذ منها شيئًا، واستاء أهل نابولى كثيرًا من معاملة الغزاة السيئة لهم. ولعل لودفيكو المغربى كان أشد الناس استياء وندمًا على دعوته شارل الثامن لعبور جبال الألب لغزو إيطاليا؛ وخاصة لأن هذا الملك اصطفى ألد أعدائه جيان جياكومو وتريفلزيو وجعلهما من أقرب القواد إليه. وزاد من سخط لودفيكو المغربى أن ملك فرنسا كان قد وعده بدويلة تارانتو ثم حنث بوعده؛ ولهذا بدأ يناصب هذا الملك العداء وقرر أن يضع نفسه على رأس جيش إيطالى موحد لغزو الفرنسيين الغزاة. ولهذا الغرض أبرمت البندقية فى ٣١ مارس ١٤٩٥ اتفاقًا أو تحالفًا مع البابا وملك إسبانيا لرد الفرنسيين على أعقابهم وطردهم من كل الأراضى الإيطالية. وتذرع الحلفاء بأنهم يبغون الدفاع عن الغرب المسيحى والحفاظ على وحدة الأراضى الإيطالية. واستطاع هؤلاء الحلفاء تكوين جيش قوامه أربعة وثلاثون ألف خيَّال وعشرون ألفًا من المشاة. ولكن السلطان التركى كان يدرك الهدف الحقيقى من هذا التحالف وهو طرد الجيش الفرنسى من إيطاليا، الأمر الذى جعله يقدم المساعدة إليه، وشعر الفرنسيون بالخطر الداهم يتهددهم فقرروا الانسحاب من إيطاليا والعودة إلى بلادهم.

وكان السفير الفرنسى فيليب دى كونى لدى إيطاليا رجلاً حصيفًا ومحنكًا، فقد أدرك نيات التحالف الحقيقية ضد مليكه شارل الثامن. وهداه تفكيره إلى الاتصال

بسافونارولا الذى بهره بخبرته وحنكته السياسية الواسعة؛ فضلاً عن انبهاره بشخصيته وحميد خصاله.

كانت ثقة السفير الفرنسى كومينيز فى قداسة شخص سافونارولا وقدرته على التنبؤ عظيمة، لدرجة أنه سأل هذا الراهب ما إذا كان مليكه الفرنسى شارل الثامن سوف ينجو من الأخطار المحدقة به. عندئذ تذكر سافونارولا الوعود الكثيرة التى قطعها هذا الملك على نفسه ثم حنث بها، كما تذكر عدم اهتمامه بإصلاح أحوال إيطاليا والكنيسة الكاثوليكية.

قال الراهب إن هذه الانتهاكات التى ارتكبها ملك فرنسا تشير إلى العقاب الصارم الذى ينتظره. غير أن سافونارولا تنبأ أن الملك سوف يخرج فى الوقت الحالى منتصرًا على جميع أعدائه. وفى نفس الوقت الذى استمع فيه السفير الفرنسى كومينيز إلى هذه النبوءة، كان ملك فرنسا شارل الثامن قد بدأ يرحل عن نابولى فى طريق عودته إلى فرنسا يتبعه عدد كبير من أفراد جيشه بقيادة القائد تريفولزيو. وعندما وصل ملك فرنسا المنسحب إلى روما راوده الأمل فى الالتقاء بالبابا والتحدث معه؛ ولكن البابا كان قد فر منها فى اليوم السابق.

وبعد انسحاب الملك شارل الثامن، أصبح وضع نصيره السابق البابا ألكسندر بورجيا شائكًا. فبعد أن شجع هذا البابا الفرنسيين على غزو إيطاليا تلقى رشوة من حاكم أراجون الإسبانى فتخلى عن مضافرته لملك فرنسا لدرجة أنه قلب له ظهر المجن، وخاصة عندما شاهد نجمه المتألق يأفل. بل إنه انضم إلى المتآمرين عليه والراغبين فى دحره. استمر شارل الثامن فى انسحابه حتى وصل إلى سيينا فى الثالث عشر من يونيو ١٤٩٥، الأمر الذى استقبله أهل فلورنسا بفرح عظيم بعد أن أصبحوا يمقتون الغازى الذى أحبوه ورحبوا به فى الماضى، ولم ينسوا لهذا الملك إساءته إليهم بتأليب أهل بيزا عليهم وحضهم على الثورة ضدهم. وتحركت قوات فلورنسا بقيادة بييرو كابونى لقمع التمرد المندلع فى مدينة بيزا ضدهم. ورغم أن ملك فرنسا وعد بالوقوف بجانب فلورنسا ضد بيزا نظير الأموال التى تلقاها من فلورنسا، فإنه - كالعادة - لم يف بوعده وأمد بيزا بالسلاح إلى جانب التعزيزات التى تلقتها بيزا من كل من جنوة وسيينا وميلانو. وشعرت فلورنسا بالخطر الداهم يتهددها أكثر وأكثر، عندما شاهدت حاكمها المخادع بييرو دى مديسيس فى مؤخرة الجيش الفرنسى ينوى العودة إلى فلورنسا.

لم يكد أهل فلورنسا يعلمون أن حاكمهم الطاغية المخلوع على الأبواب، حتى هبوا شيبة وشبانًا لحمل السلاح والتصدى له. ولم يمضِ وقت كبير حتى حشدت فلورنسا قوة قوامها ١١ ألف محارب بفضل جهود طائفة البياجنونى الموالية لسافونارولا بوجه خاص. ورغم انغماس طائفة البياجنونى فى الممارسات الدينية، فإنها لم تتوان لحظة واحدة عن الذود عن البلاد ضد الأخطار المحدقة بها. ومن ناحيته، لعب سافونارولا دورًا بارزًا فى إذكاء حمية أهل فلورنسا وغيرتهم على بلادهم. وكالعادة، دعاهم إلى التماسك ووحدة الصف حتى يحققوا ما يصبون إليه من نصر. وحقيقة الأمر، أن أهل فلورنسا جن جنونهم عندما أحسوا بأن حاكمهم الطاغية سوف يعود إليهم. وكالعادة فى وقت الشدائد والأزمات شخصت أبصارهم من جديد إلى سافونارولا يلتمسون لديه النصح والإرشاد، فهو الوحيد الذى يستطيع أن يجادل ملك فرنسا دون أن يستثير غضبه. وتقابل الرجلان فناشد الراهب الملك أن يبر بوعوده التى قطعها على نفسه لأهل فلورنسا وأن يرد إليهم ما استولى عليه من قلاع، حتى يتفادى غضب الله المنتقم الجبار ويتفادى سخط شعب فلورنسا عليه.

وفى يونيو ١٤٩٦، واجه سافونارولا ملك فرنسا فى بلدة بوجينوسنى. وفى هذه المواجهة ذكَّر الراهب الملك أن قواته تولى الإدبار، كما ذكره بالوعود التى حنث بها ويتقاعسه عن إصلاح الكنيسة. وقال له إن الله يعاقبه على أخطائه. ولكن سافونارولا طمأن ملك فرنسا بأنه سوف يخرج من هذه المحنة سليمًا مُعافًى. ولكنه حذره بأنه لن يستطيع الإفلات من عذاب الله ونقمته القادمة، إذا لم يعدل عن سياسته العدائية نحو فلورنسا. ولأن الملك كان يؤمن بأن سر الراهب «باتع»، فقد دخل الرعب قلبه وابتهل إلى سافونارولا أن يصحبه إلى بيزا حتى يحس بالاطمئنان والأمان. وفى ٢١ يونيو ١٤٩٦، اعتلى سافونارولا منبر الكنيسة ليطمئن جمهور المصلين أن الخطر على فلورنسا من ملك فرنسا قد زال.

دخل ملك فرنسا شارل الثامن بيزا دخول الظافرين فقدم إليه نبلاؤها ونبيلاتها هداياهم من قصور وجواهر، إرضاء لطمعه ورغبة فى كسب وده. غير أن طبيعة هذا الملك التى تَعِدُ ولا تفى جعلته يحجم عن مساعدة أهل بيزا فى استرداد حريتهم من فلورنسا، كما جعلته يحجم عن مساعدة فلورنسا كما وعد سافونارولا بذلك. وتجمعت قوات إيطالية حليفة للتصدى لملك فرنسا ودارت معركة ضروس يوم ٦ يوليو ١٤٩٦

بينهما. غير أن ملك فرنسا استطاع أن يشق طريقًا للانسحاب والعودة إلى بلاده. وفى اليوم التالى، أى فى ٧ يوليو ١٤٩٦، قام ملك أراجون الإسبانى فرديناند الثانى بدخول نابولى. ثم غير الملك شارل الثامن موقفه من الصراع بين بيزا وفلورنسا فآزر الأولى ضد الثانية، الأمر الذى خلق المشاكل لفلورنسا.

وبجلاء الجيش الفرنسى عن إيطاليا تعرضت جمهورية فلورنسا للمخاطر أكثر من ذى قبل. وقد جاء الخطر أساسًا من القوات المتحالفة التى اتفقت على تشجيع بييرو دى مديسيس على جمع الأموال والقوات لاسترداد حكم فلورنسا. وكان البابا وجمهورية البندقية على رأس الراغبين فى إعادة هذا الطاغية المخلوع إلى سدة الحكم فى بلاده، وبطبيعة الحال سارع بييرو إلى عمل الاستعدادات وكلف فيرجينيو أورسينى بحشد القوة اللازمة لذلك. ومن أجل تحقيق هذا الهدف، تحالف بييرو مديسيس مع حاكمى إيمولا وفرولى وغيرهما من الحكام. ولكن حملة بييرو العسكرية باءت بالفشل الذريع لنقص الأموال من ناحية، وخذلان أعوانه له من ناحية أخرى. ومن جانبه، لم يسكت سافونارولا على تحرك عدوه القديم بييرو لاستعادة حكم فلورنسا. فقد بذل قصارى جهده لتعبئة الشعب ضده، ودعاهم إلى دق عنق هذا الطاغية وأعوانه. وبمجرد أن ألقى سافونارولا سلسلة من الخطب السياسية الملتهبة، رصدت السلطات فى فلورنسا مكافأة قدرها أربعة آلاف فلورينة ذهبية لمن يفتك بييرو. واستجاب حزبا الأرابياتى والبياجنونى لكلمات سافونارولا النارية، فسارعا إلى حمل السلاح والذود عن البلاد. وحتى تركز فلورنسا كل جهودها لدحر بييرو أوقفت حربها مع بيزا. ورأى بييرو أنه خاسر لا محالة فخف إلى الهرب إلى روما.

البابا يستدعى سافونارولا إلى روما ويمنعه من الوعظ وسافونارولا يرفض تعيينه كاردينالاً (١٤٩٥- ١٩٤٦)

كانت كراهية الأرابياتى - وهو الحزب المعادى للحكومة الشعبية فى فلورنسا - لبييرو دى مديسيس، السبب المباشر الذى أدى إلى هزيمته واندحاره؛ فضلاً عن أن حلفاءه خذلوه على نحو ما ذكرنا. وأيضًا لعب الدوق لودوفيكو الذى لم ينس إهانات بييرو له دورًا مهمًا فى الحيلولة دون اعتلائه سدة الحكم. وأراد المناوئون لهذا الدوق أن يوغروا صدره ضد سافونارولا، فأفهموه بأن هذا الراهب كان يقصده بالذات عندما هاجم فى وعظاته استشراء الفساد والطغيان فى إيطاليا. ومن ثم انخرط فى مؤامرات تهدف إلى الإطاحة بسافونارولا. واستطاع هذا الدوق أن يحظى بقدر من تأييد أهل فلورنسا له، عندما تصدى لرجوع بييرو دى مديسيس إلى حكمها. وكان لهذا الدوق عميل مقيم فى فلورنسا يدعى باولو سوفنزى يخطب فى الناس لتهييج خواطرهم ضد سافونارولا، يساعده فى ذلك خطيب مفوه آخر اسمه فرانسيسكو ترانشيدينو. غير أن بعض الدويلات مثل البندقية ودوقية ميلانو ظلتا على ولائهما لبييرو دى مديسيس وتريدان عودته إلى حكم فلورنسا. وكان الشغل الشاغل لبابا روما آنذاك هو الحرص التام على تقليد أبنائه غير الشرعيين أرفع المناصب والطمع فى توليهم مقاليد السلطة فى فلورنسا. ولهذا كان من السهل على حزب الأرابياتى ودوق ميلانو استمالة بابا روما ألكسندر إلى جانبهما.

لم يكن البابا يحمل أية ضغينة ضد سافونارولا فى بادئ الأمر، ولكن أعداء هذا الراهب نجحوا فى تشويه صورته والوشاية به لديه فى أوائل ١٤٩٥. فقد أرسلوا إلى

الكرسى البابوى خطابات تبالغ فى وصف هجومه الشرس على الأكليروس والبابا معًا. وأفهموا البابا أن سافونارولا هو المسئول الأول والأخير عن كراهية شعب فلورنسا المشبوبة ضد بييرو دى مديسيس. فاغتاظ البابا غيظًا شديدًا. وانتهز الكاردينال أسكانيو سفورزا شقيق لودفيكو هذه الفرصة للصيد فى الماء العكر وإشعال فتيل كراهية الكرسى البابوى ضد سافونارولا الذى كان له عدو قوى آخر فى روما، هو غريمه القديم ومنافسه اللدود الراهب ماريانو دا جانزانو. لم ينسَ هذا الرجل أبدًا هزيمته النكراء فى الوعظ والتأثير فى الناس أمام سافونارولا الذى خلب كالساحر لب الجماهير. وقد كان ماريانو من أشد الناس مناصرة وتحمسًا لبييرو دى مديسيس. هاجم ماريانو سافونارولا بأقذع الألفاظ واصفًا إياه بأنه أداة الشيطان، كما أنه أبرز هجومه الشديد الوطأة على مساوئ رجال الكهنوت. وكان من السهل على هذه الوشاية الرخيصة أن تجد آذانًا صاغية عند بابا روما الفاسد حتى النخاع، والذى أشيع عنه أنه أنجب سبعة أطفال غير شرعيين.

وفى يوم ٢٥ يوليو ١٤٩٥، أرسل البابا خطابًا ماكرًا إلى سافونارولا عبر فيه عن عميق احترامه ووده وفرحته بشدة تمسك هذا الراهب بأهداب الدين. ثم أضاف قائلاً إنه ترامى إلى سمعه أن سافونارولا يزعم أن الله يوحى إليه بالوعظات والنبوءات التى يلقيها على شعبه. وقال البابا إن واجبه الرعوى يستدعى منه الحضور إلى روما للتحدث معه. وطلب البابا من سافونارولا سرعة الحضور لمقابلته بكل الحفاوة والتقدير.

ولكن سوء نية البابا لم تخف على أهل فلورنسا، كما أنهم كانوا مدركين المؤامرات التى يحيكها حزب الأرابياتى ضد سافونارولا. وبدا من الواضح أن البابا ينوى اغتيال سافونارولا أثناء سفره إلى روما، أو سجنه فى قلعة سانت أنجلو تمهيدًا لإعدامه. ولهذا، توسل الأصدقاء إلى سافونارولا ألا يذهب لمقابلة البابا الغادر؛ وخاصة لأن الأخطار التى أحاقت بفلورنسا بعد رحيل الجيش الفرنسى كانت فى ازدياد. وشعر سافونارولا بأنه أصبح بين المطرقة والسندان، حيث إن واجبه كرجل دين يحتم عليه طاعة رؤسائه، وطاعة رؤسائه معناها أنه يضع حياته تحت رحمة البابا ورحمة حزب الأرابياتى الذى كان شديد السخط عليه بسبب إقامة حكومة شعبية فى فلورنسا، الأمر الذى دفع هذا الحزب المتآمر للتخلص منه. ومن المؤسف أن صحة سافونارولا آنذاك

كانت معتلة أشد الاعتلال، مما جعله يتوقف عن الوعظ، كما أن الطبيب لم ينصحه بالامتناع عن الوعظ فقط، بل عن الدرس أيضًا.

كان سافونارولا مدركًا تمام الإدراك للأخطار المحدقة بفلورنسا بسبب مؤامرات كل من حزب الأرابياتى وبييرو دى مديسيس. وألقى خطبة الوداع وهو يجر رجليه جرًا من فرط المرض والهزال والإعياء. قال فى وداعه لشعبه، إنه يعرف أن أعداءه يتربصون به وبفلورنسا الدوائر، وأن فلورنسا لا تزال فى أمس الحاجة إليه. ولم ينس هجومه المعتاد على الرذيلة بكافة أشكالها وفساد الحكام ورجال الدين. واختتم خطبته قائلاً، إنه كرس حياته كى يعلم الشعب مخافة الله وأهمية الاتحاد والسلام وتغليب الصالح العام على الصالح الخاص وإصلاح أداة الحكم عن طريق إنشاء المجلس الأعظم، مؤكدًا أن هذه الأهداف لا تزال ماثلة أمام عينيه. وفى الوقت نفسه، دعا سافونارولا إلى إلغاء البرلمان أو مجلس الشعب كما أسلفنا. فضلاً عن أنه أكد لمستمعيه أن الخطر الأعظم على جمهورية فلورنسا يتمثل فى حزب الأرابياتى المناوئ له بوجه عام، وأنصار بييرو دى مديسيس بوجه خاص. واكتست خطبة الوداع بنغمة تقطر حزنًا، وعبر عن استعداده للشهادة فى سبيل حبه لفلورنسا.

وبعد خطبة الوداع أرسل سافونارولا إلى البابا خطابًا مفعمًا بالتواضع والنبل والصراحة، إذ قال إنه يعلم أن أعداءه الذين يبغون الإيقاع به كثيرون. ثم قال بصراحة إن الإصلاحات التى أدخلها فى فلورنسا لم ترسخ بعد، وإن روما ليست بحاجة إليه كما تحتاج إليه جمهورية فلورنسا الوليدة، الأمر الذى يجعله يلتمس من البابا عذرًا لتأخيره. ثم أردف قائلاً، إنه إذا كان قداسة البابا يريد أن يعرف آراءه على وجه اليقين بشأن إصلاح الكنيسة فيمكنه الاطلاع عليها فى الكتاب الذى نشره ليقرأه الجميع. وأيضًا ذكر سافونارولا أن تنبؤاته تحققت، مما يدل على أنه ليس مدعيًا للنبوة.

ولم يرد البابا على خطاب سافونارولا. ونظرًا لإدراك البابا أنه لا جدوى من محاولة تغيير موقف هذا الراهب، فإنه أبلغه بما يفيد أنه قبل اعتذاره عن تأجيل حضوره. وبسبب اعتلال صحته كاد سافونارولا أن يتوقف عن الوعظ والالتقاء بجمهور المصلين. وقد حل محله فى الوعظ راهب آخر اسمه دومينكو بريشيا حاول تقليد أستاذه وحذو حذوه، ولكن شتان الفرق! وفى ٨ سبتمبر (١٤٩٥)، أرسل البابا رسالة وجهها إلى أعداء سافونارولا وشانئيه من رهبان سانت كروتشى، وصف فيها

سافونارولا بأنه ذلك الباحث عن البدع والناشر للمذاهب الزائفة. وتضمنت الرسالة إشارات إلى ادعائه النبوة ومخاطبة الله ورميه بالعجز عن إثبات ذلك. وأضاف البابا أنه صبر على سافونارولا كثيرًا على أمل أن يندم ويرعوى. واختتم البابا رسالته بإحالة موضوع سافونارولا برمته إلى الراهب سبستيانو دى ماديس الراعى العام لشعب لومباردى، آمرًا سافونارولا بالخضوع لسلطة هذا الراعى وأن يأتمر بأمره ويفعل كل ما يطلبه منه. فضلاً عن أن البابا أصدر أمرًا بإيقاف سافونارولا عن الوعظ العام والخاص على حد سواء. وصرح البابا بضم دير القديس مرقص الذى استقل به سافونارولا إلى كنيسته لومبارديا.

ويثير هذا بالطبع تساؤلاً: ما الذى جعل ثائرة البابا تثور على سافونارولا بعد أن قبل عذره عن عدم الحضور إلى روما؟ ثم لماذا خاطب البابا رهبان كنيسة سانت كروتشى رغم انهم ألد أعداء رهبان دير القديس مرقص فى أمر يخص سافونارولا ومريديه وحدهم؟! ولعل البابا أراد بذلك نشر ضيقه من الراهب على أوسع نطاق ممكن. والأهم من هذا، ضيقه من تحقق النبوءات التى ساقها سافونارولا فى وعظته الأخيرة.

وتبين أن الهجوم الضارى الذى شنه سافونارولا على الطغاة والمستبدين وعلى البرلمان أو مجلس الشعب كان له ما يبرره، حيث إن الطاغية بييرو دى مديسيس حاول التسلل إلى حكم فلورنسا. وبخبث شديد سعى البابا - كما أسلفنا - إلى ضم دير القديس مرقص الذى يرعاه سافونارولا إلى دير أعدائه من الرهبان حتى يسحب البساط من تحت قدميه وينسف سلطته على الشعب، الأمر الذى يدفعه إلى مغادرة إقليم توسكانيا فيسهل أمر إلقاء القبض عليه.

ولم تغب هذه الخطة اللئيمة عن بال سافونارولا الذى أدرك سوء نية البابا المبيتة منذ البداية. وكان سافونارولا حريصًا كل الحرص على عدم السماح لأية قوة مهما كانت أن تدمر النظام الجمهورى الذى أرسى قواعده فى فلورنسا. وقد عبر عن مشاعره هذه فى خطاب أرسله فى ١٥ سبتمبر من العام نفسه إلى زميل راهب فى روما، قال فيه إن الكل يعرف زيف الاتهامات الموجهة ضده، وإن هذه الاتهامات الباطلة عار وشنار على روما وكرادلتها. وأكد سافونارولا عدم خوفه من الموت ولا من أعدائه الذين يقفون له بالمرصاد، وأن لطف الله وعنايته يقيانه من كل شر. وقال

سافونارولا فى خطابه المشار إليه إن السبيل الحقيقى إلى النيل منه هو السعى إلى إعادة الطغيان إلى فلورنسا عن طريق تآمر الكرادلة مع عدد من المواطنين الأشرار. وصرح سافونارولا بأنه لا يستطيع لهذا السبب أن يتحرك خارج فلورنسا دون رفقة حرس مدجج بالسلاح يتولى حمايته.

وفى يوم ٢٩ سبتمبر، أرسل سافونارولا ردًا إلى البابا عبر فيه عن أسفه العميق لأن أعداءه استطاعوا أن يخدعوا قداسته ويشوا به لديه. ثم قال إنه لم يصف نفسه قط بأنه نبى، رغم أن نسبة النبوة إليه لا تعتبر هرطقة أو زندقة، وأكد أنه استطاع دون ريب التنبؤ سلفًا بكثير من الأحداث التى تحققت، وإنه لولاه لما شاع السلام فى ربوع فلورنسا. وقال للبابا إنه لم يستقل بدير القديس مرقص بناء على رغبته الشخصية، بل بناء على رغبة جميع زملائه الرهبان فى هذا الدير، وأردف أنه ليس من العدل أن يجعل راعى دير لومبارديا المعروف بعداوته له خصمًا وحكمًا فى الوقت نفسه، شاكيًا بأن ضم دير القديس مرقص إلى كنيسة لومبارديا سوف يفضى إلى المزيد من التنابذ والشحناء. واختتم سافونارولا خطابه طالبًا من البابا تبرئته، ومضيفًا أنه على استعداد لتصحيح أى أخطاء يثبت أنه ارتكبها.

وعندما استيقن بابا روما ألكسندر السادس من أنه أمام خصم عنيد لا تلين له قناة (فهو غير مستعد لحل جمهور المصلين الذين يحضرون وعظاته أو لمغادرة فلورنسا)، نراه يمتنع عن الاسترسال فى تهديده، ويلجأ مرة أخرى إلى النفاق والمداهنة. ولهذا، أرسل إلى سافونارولا فى ١٦ أكتوبر مذكرة يرد فيها على خطابه ويعبر فيها عن عظيم فرحته بعودة هذا الراهب إلى حضن الكنيسة. وجاء فى مذكرة البابا ما يلى:

«لقد عبرنا عن حزننا فى الخطابات الأخرى التى أرسلناها بسبب الاضطرابات التى وقعت فى فلورنسا نتيجة الوعظات التى تقوم بإلقائها، حيث إنك بدلاً من الوعظ ضد الرذيلة والدفاع عن الاتحاد تتنبأ بالمستقبل، وهو الأمر الذى يبذر بذور الشقاق بين أهل فلورنسا. تلك كانت الأسباب التى دعتنا إلى مطالبتك بالمثول أمامنا. ولكن الآن بعد أن تأكدنا من خلال خطاباتك وشهادة كثير من الكرادلة من أنك على استعداد لإظهار الطاعة لكنيسة روما، امتلأت قلوبنا بالفرح العظيم وشعرنا باليقين من أن الخطأ الذى وقعت فيه يرجع إلى فرط بساطتك، وليس إلى أى شر يسكن قلبك. وبسبب قسمك الطاعة المقدسة (للكنيسة) نأمرك بالامتناع عن إلقاء جميع وعظاتك

العامة والخاصة على حد سواء... وسوف تستمر فى الامتناع حتى يحين الوقت الذى تطلب فيه مقابلتنا بأمان أكبر وحينئذ نستقبلك بكل شرف بالبهجة والروح الأبوية. وأعلن البابا فى ختام رده أنه بذلك يلغى جميع المذكرات السابقة حتى يستطيع سافوناورلا أن ينصرف إلى رعاية حياته الروحية بكل هدوء وسكينة.

ولكن رد البابا تلكأ فى الطريق إلى سافوناورلا، الأمر الذى أتاح له إلقاء وعظاته الثلاث التى حالت دون رجوع عائلة مديسيس إلى حكم فلورنسا. وأحس الراهب بالحرج الشديد عند تسلُّمه هذا الأمر البابوى بالتزام الصمت، فى وقت تعرضت جمهورية فلورنسا لأشد الأخطار، وزاد من إحساسه بالخطر ما ترامى إلى سمعه من ازدياد الغضب البابوى عليه وتصميم البابا على إلقاء القبض عليه. وبعد أن تأكد سافوناورلا من أنه استطاع إلحاق الهزيمة بعائلة المديسيس وإحباط سعيها إلى اعتلاء سدة الحكم فى فلورنسا، آثر التزام الصمت والامتناع عن الوعظ.

كان البابا على يقين من براءة سافوناورلا من تهمة الهرطقة وغواية الشعب، فهو لم يجد أى غبار على وعظاته. ولكن الأحزاب السياسية المناوئة لسافوناورلا لم يهدأ لها بال، وخاصة أنصار حزب الأرابياتى والدوق لودفيكو الذين هاجموه لأسباب سياسية وشخصية محضة. واستطاع أعداؤه بمكر تغليف خصومتهم السياسية مع سافوناورلا بخلاف فى الرأى حول موضوعات دينية بحتة. وهكذا وجد سافوناورلا نفسه بين شقى الرحى؛ فأمامه اختياران: أن يتخلى عن الدفاع عن حرية فلورنسا بالامتثال لأوامر البابا، أو شق عصا الطاعة على البابا بالدفاع عن حرية فلورنسا. ورغم أنه أراد آنذاك مهادنة البابا، فإنه رفض رفضًا باتًا التفريط فى حرية فلورنسا. كما أن شرور البابا ألكسندر السادس ومباذل أبنائه الجنسية ودسهم السم لأعدائهم، أثارت عظيم اشمئزازه.

لقد كان كثير من الكاثوليك مقتنعين ببطلان انتخاب ألكسندر السادس لتولى كرسى البابوية؛ لأنه انتخاب يقوم على الغش والتدليس والرشوة، كما كانوا مقتنعين بأن الوسيلة المثلى للتخلص من هذا البابا الفاسد يمكن أن تتحقق من خلال دعوة مجلس الكرادلة للانعقاد لعزله. علمًا بأن الكاردينال المناضل سانت بييرو من فينكولى والذى صار فيما بعد البابا يوليوس الثانى كان على رأس المنادين بهذا الرأى، فقد اعتبر هذا الرجل البابا ألكسندر السادس كافرًا ومهرطقًا.

ومن ثم سعى سافونارولا لدى ملك فرنسا شارل الثانى كى يخلص الكنيسة منه ومن شروره. ولم يكن الكاردينال سانت بييرو الوحيد الذى يسعى إلى الإطاحة بالبابا الفاسد، فقد شاركه فى ذلك ما لا يقل عن ثمانية عشر كاردينالاً التمسوا من ملك فرنسا أن يطهر كنيسة روما من الفساد المستشرى فيها. وكاد ملك فرنسا أن يستجيب لالتماسهم ويعزل البابا لولا ما عرف عنه من تردد، ولولا نفوذ ناصحه المرتشى بريسونيه عليه. ووجدت فكرة عزل البابا صدى عميقًا فى نفس سافونارولا فألح عليها وطلب من ملك فرنسا تنفيذها. فضلاً عن أنه كتب إلى الكاردينال سانت بييرو فى فينكولى يطلب منه المؤازرة والتأييد فى هذا الشأن. وأيضًا سطر عددًا من الرسائل يستحثه فيها على عزل البابا. ولكن تردد الملك ـ كما ذكرنا ـ منعه من تنفيذ ذلك.

وقد جرت العادة فى فلورنسا فى عهد عائلة المديسيس الحاكمة على إقامة مهرجان أو كارنفال صاخب يعيث المشتركون فيه فسادًا ويرقصون ويسكرون حتى الثمالة، ويعترضون طريق المارة ويفرضون عليهم الإتاوات للاشتراك فى إقامة هذا الاحتفال المعربد الصاخب.

ودأبت عائلة دى مديسيس على تشجيع هذا النوع من الفسق والمجون. وكان الاحتفال ينتهى عادة بلعبة إلقاء الصبية للحجارة، فهم يقذفون بعضهم البعض بالحجارة فيسقط البعض منهم موتى على الطريق العام. وآلمت هذه الممارسات سافونارولا واستبد به الحزن لحدوثها. فحاول جاهدًا إصلاح الشباب وإيجاد بديل لها، واستحدث احتفالاً دينيًا تنشد فيه الترانيم والابتهالات الدينية وتجمع فيه الأموال التى تنفق على أوجه البر بدلاً من الفسق والمجون.

وحاول عدد من أنصار سافونارولا ممارسة الضغط على البابا كى يسمح له بالاستمرار فى الوعظ. وكانت فرحة الشعب عظيمة عندما رأوا هذا الراهب يعتلى منبر الدير فى ١١ فبراير ١٩٤٦. حدث هذا إبان فترة مهادنة البابا له. ويذكر المؤرخون أن البابا طلب من أحد الأساقفة الدومينيكان فحص وعظات سافونارولا المطبوعة، لعله يجد فيها علة. ولكن هذا الأسقف قال بعد الاطلاع عليها: «يا أبانا المقدس، هذا الراهب لا ينطق بغير الحجى والأمانة فهو يهاجم الرشوة والفساد المستشريين بين رجال الكنيسة، ولا مراء فى أنه فساد عظيم، كما أنه يحترم سلطة الكنيسة ومعتقداتها».

وأراد البابا فى تلك المرحلة أن يكسبه إلى جانبه فعرض عليه ترقيته إلى منصب كاردينال، شريطة أن يغير لهجة وعظاته. ولكن هذا العرض زاد من اقتناع سافونارولا بفساد البابا وبأنه يعبث بأقدس مقدسات الكنيسة، الأمر الذى زاد من كراهيته للبابا. والتفت سافونارولا غاضبًا إلى حامل هذا العرض إليه ليقول له: «وإذا كنت تبغى معرفة ردى على هذا العرض، فتعال واحضر وعظتى القادمة»، وهى الوعظة التى كان من المزمع أن يلقيها فى خلال الأربعين يومًا السابقة على عيد الفصح وتضمنت رفضًا حاسمًا لهذه الرشوة السافرة.

سافونارولا يعود إلى التبشير
عام ١٤٩٦

كان يوم ١٧ فبراير ١٤٩٦ على وجه التحديد يومًا مشهودًا فى حياة سافونارولا، فقد سمح له البابا على مضض بالعودة إلى التبشير. واتضح لهذا الراهب أن معركته مع البابا لم تنته، بل زادت حدة وتفاقمًا بمرور الزمن، كما اتضح له أن البابا لن يدخر جهدًا لسفك دمه، فضلاً عن سعيه إلى الإطاحة بالنظام الجمهورى الذى أقامه فى فلورنسا. وحيث إن إيمانه بالعقيدة المسيحية الصحيحة كان فوق مستوى الشبهات، فإن البابا لم يجد فيه علة فلجأ إلى تغليف محاولته للوقيعة بسافونارولا بغلاف سياسى فى جوهره ودينى فى مظهره. وبالنظر إلى أن حزب الأرابياتى المعادى له كان يتربص به الدوائر، فقد سعى مجلس مدينة فلورنسا إلى توفير الحماية حتى لا تصل إليه يد الغدر أو الخيانة. ومن المعروف أن عدوه الدوق لودوفيكو استأجر بعض القتلة للقضاء عليه. وحرصًا على حياته عينت فلورنسا عددًا من الحراس المدججين بالسلاح، كى يجوبوا الشوارع لوقايته من الأذى. وبمجرد خروج سافونارولا إلى الشعب لإلقاء وعظته فى اليوم نفسه، احتشدت حوله الجماهير الغفيرة للاستماع إليه، وقد ران عليهم الصمت كأن على رءوسهم الطير، لدرجة أنهم سمعوا أنفاس الراهب المتلاحقة. وفى وعظته أكد هذا الراهب على شدة استمساكه بالكنيسة الكاثوليكية. كما قال إنه على استعداد لأن يصحح أية ضلالة يثبت أنه وقع فيها. ثم استطرد قائلاً إن إيمانه بأن الكنيسة الكاثوليكية لا يأتيها الباطل من خلف أو قدام، لا يعنى الطاعة العمياء لرؤساء الكنيسة أو حتى البابا نفسه. قال سافونارولا: «إن الرؤساء ليس لهم الحق فى إعطائى أوامر تخالف قواعد الطائفة الدينية التى أنتمى إليها، كما أن البابا

ليس له الحق فى إعطائى أية أوامر تخالف الدعوة إلى البر والإحسان أو تخالف الإنجيل. وأعتقد أن البابا لن يحاول مطلقًا أن يفعل هذا. ولو أنه فعل هذا لقلت: أنت لست راعيًا ولا تمثل كنيسة روما والذى تقوله خطأ».

وبعدئذ انتقل سافونارولا إلى الحديث عن حاله شخصيًا، فقال إنه لا يعتبر نفسه ملزمًا بطاعة أى إنسان يريد إبعاده عن فلورنسا، لأن الجميع يعرف أن الدوافع وراء هذا الإبعاد هى الكراهية السياسية، وأن هذا الإبعاد سوف يلحق ضررًا بحرية فلورنسا ودينها معًا. قال هذا رغم أنه كان يدرك أن قوله سوف يساء تفسيره على أنه حض على عصيان السلطة الدينية (الجدير بالذكر، أن آراء سافونارولا هذه تتفق تمامًا مع معتقدات القديس توماس الأكوينى وآباء الكنيسة). ومضى الراهب يقول فى وعظته إن البابا يصدر إليه أوامر غير سليمة؛ لأنه يبنيها على أساس التقارير المغرضة والكاذبة التى تصل إليه. وأضاف، أنه قرر استئناف الوعظ عندما رأى أن الحماس الدينى لدى أهل فلورنسا بدأ يفتر. ثم ابتهل سافونارولا إلى الله كى يهديه إلى بر الأمان ويعينه على ملاطمة الأمواج العاتية، الأمر الذى يؤكد أنه كان يستشعر الخطر الداهم الذى يهدد حياته. وفى وعظته أولى سافونارولا الشباب عظيم اهتمامه، قائلاً إنهم يمثلون الأمل فى المستقبل.

ويتضح من هذه الوعظة أن سافونارولا تجنب الإشارة إلى فساد البابا وتدليسه وعرضه رشوة عليه بترقيته إلى رتبة كاردينال.

وفى وعظاته الأخرى ظل سافونارولا يشن هجومه الشديد على شرور روما ونفاقها وادعائها الدين. وامتلأت هذه الوعظات برؤى مرعبة يشيب لها الولدان وتخلع القلوب من ضلوعها. وبشر بانتشار الأوبئة التى تجتاح روما وكل إيطاليا وتحصد أرواح الآلاف، لدرجة أن الأحياء سوف يعجزون عن دفن موتاهم بسبب كثرة أعدادهم. وأيضًا أشار سافونارولا إلى شعوره القوى بمداهمة الموت له عندما يأذن له الله بذلك.

وأيضًا أشار سافونارولا فى وعظاته عام ١٤٩٦ إلى ضرورة إجراء انتخابات حرة ونظيفة فى فلورنسا. وهو حديث لا يأتى من فراغ، فقد كشف النقاب يوم ٢٧ أبريل عام ١٤٩٦ عن مؤامرة تهدف إلى تزوير انتخابات جمهورية فلورنسا فصدر حكم على ثلاثة من عتاة المتآمرين فيها بالسجن المؤبد.

والذى لا شك فيه أن سافونارولا كان خطيبًا يسحر الناس بحماسه وقوة بيانه وعقيدته. وإذا كانت كلماته الساحرة قد خلبت قلوب مريديه وأتباعه، فإنها فى الوقت نفسه أثارت حفيظة أعدائه، وعلى رأسهم بابا روما الذى كانت كلمات الراهب عن الفضيلة تؤرقه كما أرقت مضجعه مطالبته الجَسُور بعدم طاعة أوامر البابا إذا جاءت مخالفة لصحيح الدين.

ولعله من المفيد هنا أن نشير إلى بعض الكتابات التى تناولت شخصية سافونارولا حينذاك، أى فى عام ١٤٩٦. كتب البعض يتهم هذا الراهب بأنه استهزأ بالأمر البابوى الخاص بطرده من حظيرة الكنيسة، وبأنه وصف البابا بأنه أسوأ من التركى الكافر وبأن أمراء إيطاليا أكثر سوءًا من الهراطقة. وأيضًا اتهم البعض فى كتاباته سافونارولا بأنه أصبح طاغية فلورنسا الجديد. ويدلنا هذا على أن الهوس والإعجاب بسافونارولا كان يقابلهما فى بعض الأوساط قدر عظيم من الموجدة له. ومن الأصوات الكارهة له صوت رجل تحداه أن يثبت براءته بتعريض نفسه للنار دون أن ينكوى بها. وأيضًا اتهمه آخر بأنه يثير الفضائح فى الكنيسة، ويشق عصا الطاعة على بابا روما وينسب إلى نفسه صفة النبوة. وبطبيعة الحال، لا ينبغى أن ننسى هجوم حزب الأرابياتى القاذع والضارى عليه ورغبة هذا الحزب فى الإطاحة به، لدرجة أنه لم يمر يوم واحد دون أن تكتشف سلطات فلورنسا مؤامرة تحاك للقضاء على حياته. ناهيك عن قصائد الشعر القاذعة التى نظمها شانئوه للحط من شأنه. ولكن هذا لا ينبغى بحال من الأحوال أن ينسينا أن أعدادًا غفيرة من الناس عبدته إلى حد الجنون والهوس، واعتبرته مبعوث العناية الإلهية. ومن بين شانئيه يتهمه فرانسيسكو ألتوفيتى بالطغيان واستنان الشرائع كما لو كان سيدنا موسى عليه السلام. وعاب عليه إلغاء احتفالات وكرنفالات يوم القديس يوحنا، حيث إن هذه الاحتفالات كانت تدخل البهجة والسرور على قلوب عامة الشعب. والأدهى من هذا كله أن فرانسيسكو ألتوفيتى اتهمه بالتواطؤ مع بيير دى مديسيس حاكم فلورنسا المستبد المخلوع. والجدير بنا أن نذكر أن حزب البياجنونى المعادى لحزب الأرابياتى خف لنصرة سافونارولا بكل ما أوتى من قوة، والجدير بالذكر أيضًا أن حزب البياجنونى كان يتحرى الأمانة والشرف، فى حين أظهر حزب الأرابياتى المناوئ للراهب الختل والخداع.

وبعيدًا عن جو المهاترات، ظهرت بعض الأبحاث القيِّمة التى ألقت الضوء على الإصلاحات التى استحدثها سافونارولا فى نظام الحكم فى فلورنسا، وفى نظمها المالية والضريبية.

والغريب، أن فلورنسا سرعان ما نسيت حماسها الدينى ومبادئها الأخلاقية عندما غاب سافونارولا عنها أو أمسك عن الوعظ بسبب اعتلال صحته، الأمر الذى يوحى بأن هوس أهل فلورنسا لهذا الراهب كان فى الأساس هوسًا سياسيًا بإصلاحاته، أكثر منه هوسًا دينيًا وأخلاقيًا. فقد كانت جذوة مشاعرهم الدينية سهلة الانطفاء، فى حين كانت جذوة طموحاتهم السياسية متقدة على الدوام. ومعنى ذلك أن سافونارولا لم ينجح فى استئصال التقليد الدنيوى الذى نجحت عائلة المديسيس الحاكمة فى غرسه فى شعب فلورنسا. ولهذا تمكن البابا فى نهاية المطاف من النيل منه والتنكيل به، عندما نجح فى الفصل بين دعوته إلى الإصلاح الدينى ودعوته إلى الإصلاح السياسى. فأهل فلورنسا فى حقيقة الأمر لم يضعوا الإصلاح الدينى، بل وضعوا الإصلاح السياسى والحرية نصب أعينهم.

استغل البابا الجانب السياسى فى نزاعه مع سافونارولا، الذى أرسل إليه نيكولو باندولفينى رئيس أساقفة بستويا كى يتوسط لدى البابا حتى يخفف من ثائرته. غير أن هذا البابا استقبل هذا الوسيط بجفاء وأنحى باللائمة على فلورنسا، لأنها تدين بالولاء لسافونارولا وترفض الانضمام إلى التحالف المقدس الذى أُنشئ بهدف طرد الغزاة الفرنسيين البرابرة من الأراضى الإيطالية.

والجدير بالذكر، أن البابا شكل لجنة مكونة من أربعة عشر عالمًا متخصصًا فى اللاهوت المسيحى من طائفة الدومينيكان لفحص آراء سافونارولا الدينية. وانكب أعضاء هذه اللجنة على دراسة وعظاته فخرجوا بنتيجة مفادها أن سافونارولا مسئول عن النكبات التى أصابت حاكم فلورنسا بييرو دى مديسيس، الأمر الذى يؤكد أن نزاع البابا لم يكن دينيًا على الإطلاق بل سياسيًا أولاً وأخيرًا. وعندما لم يجد هؤلاء اللاهوتيون فى آرائه الدينية أية علة، قام سافونارولا بنشر مبحث بعنوان: «حول بساطة الحياة المسيحية»، كرد على اتهامات بابا روما له بالهرطقة والانشقاق. والمبحث منشور باللغة اللاتينية، وقد قام جيرولامو بنيفيتى بترجمته إلى الإيطالية الدارجة، وفى مبحثه أعلن سافونارولا خضوعه الكامل لسلطة البابا، وأضاف أن اللطف الإلهى وليست الأعمال الصالحة هى أساس الخلاص. وهذا رأى سبق للقديس توماس الأكوينى أن عبر عنه.

وفى نفس العام المشار إليه (١٤٩٦)، نشر سافونارولا شرحًا لأحد المزامير ابتهل فيه إلى المولى عز وجل أن يتدخل لإنقاذ البشرية من وهدة الانحطاط الذى تردت فيه. فضلاً عن أنه كرر فى بعض وعظاته الأخرى حديثه عن فساد الأكليروس وبيع

وشراء الوظائف الكنسية، إلى جانب الحديث عن فساد الحكام والأمراء. وفى ٢٠ اغسطس عام ١٤٩٦، ألقى سافونارولا وعظة فى قاعة المجلس الأعظم بناء على طلب من مجلس مدينة فلورنسا، قال فيها إن رجال الكنيسة يشكون من هجومه على شرورهم؛ ولكن سافونارولا نبَّه إلى أنه لم يذكر أيًا منهم بالاسم فهو يهاجم الشر بوجه عام، كما أضاف إلى أن بعض المواطنين يشكون من تدخله فى أمور السياسة وإدارة شئون الدولة، غير أنه أنكر ذلك تمامًا، وأردف أنه اقترح فقط سن بعض القوانين الصالحة من أجل رفاهية الشعب وحريته ونشر السلام والوئام فى صفوفه. وتعجب الراهب كيف يعيب عليه أعداؤه دعوته إلى الإصلاح والصلاح معًا. وأيضًا ذكّر شانئيه بأنه يوجه التبرعات والمال الذى يجمعه إلى أعمال البر والخير، وأنه لو كان يجمع هذا المال لنفسه لما ظل يلبس الثياب المهلهلة حتى الآن. وعلى الصعيد السياسى طالب سافونارولا بحق أعضاء المجلس الأعظم فى مناقشة ما يعنّ لهم من شئون الدولة بحرية تامة؛ ولكنه فى الوقت نفسه طلب من هذا المجلس استنان قانون لردع مروجى الإشاعات والنميمة؛ لأنهم يبذرون بذور الخلف والشقاق فى صفوف الأمة.

أخطار جديدة أحاقت بفلورنسا
والراهب سافونارولا (١٤٩٦)

تدهورت أحوال فلورنسا الاقتصادية والتجارية نتيجة الظروف الصعبة التى مرت بها، والتى أدت إلى الشلل الذى أصاب صناعتها وتجارتها، وأيضًا نتيجة الأموال الباهظة التى دفعتها فلورنسا إلى ملك فرنسا. أضف إلى ذلك الخراب والدمار اللذين خلفتهما المجاعة والطاعون. وزاد الطين بلة تلك الحرب التى اشتعلت بينها وبين بيزا المتمردة عليها والتى كان الدوق لودفيكو وجمهورية البندقية يمدانها بالقوة والسلاح، فى حين نضبت موارد فلورنسا وانتهى الصراع المسلح بين المدينتين إلى اندحار فلورنسا أمام بيزا. ومما زاد من محنة فلورنسا، وفاة قائدها الشجاع المحنك بييرو كابونى فى ٢٥ سبتمبر ١٤٩٦ برصاصة أطلقها عليه جيش بيزا أثناء تحصين مواقعه، الأمر الذى فت فى عضد جنوده. ولم تقف محنة فلورنسا عند هذا الحد، فقد مارس الحلفاء ضغوطًا شديدة عليها حتى تنضم إلى تحالفهم المقدس المتعاون مع البابا وتقطع صلتها بفرنسا. ووجدت هذه الضغوط استجابة وترحيبًا من جانب حزب الأرابياتى ، فى حين قاومها شعب فلورنسا عن بكرة أبيه بسبب حرصه على المحافظة على حريته التى نالها على يد سافونارولا.

وشاعت أنباء مفادها أن ملك فرنسا شارل الثامن ينوى غزو إيطاليا مرة أخرى، الأمر الذى جعل فرائص الدوق لودفيكو ترتعد فدعا الإمبراطور ماكسيمليان، الذى ربطته به علاقات جيدة إلى غزو إيطاليا؛ واعدًا إياه بأن يدفع له كل شهر مبلغًا قدره ٤٠ ألف دوقة لمدة ثلاثة شهور، وأن يدفع له أهل البندقية ١٦ ألف دوقة وأن يدفع له

البابا ثمانية آلاف دوقة؛ شريطة أن يأتى ماكسيميليان على رأس جيش قوى وعرمرم.

ولكن ملك فرنسا شارل الثامن تخلى عن فكرة العودة إلى غزو إيطاليا بسبب انشغاله بمولد ولى عهده الذى شاء القدر أن يموت بعد شهر واحد من ولادته، الأمر الذى أصاب الملك بالغم والاكتئاب فلم يعد يفكر فى إيطاليا مرة أخرى. وبزوال خطر الغزو الفرنسى لم يعد التحالف أو الكرسى البابوى يهتم باستقدام الإمبراطور ماكسيمليان إلى إيطاليا، ولكن الدوق لودفيكو ظل حريصًا على استدعائه. وانتهز بابا روما فرصة هذه البلبلة وقرر أن يخوض غمار الحرب ضد فلورنسا التى تمكنت من صد قواته ودحرها. غير أن فلورنسا، رغم انتصارها، ظلت مهددة فى الشمال بقوات الإمبراطور ماكسيمليان الزاحفة نحو بيزا التى استقبلته بترحاب عظيم وأقامت تمثالاً لتكريمه.

ورغم سوء أحوال فلورنسا، فقد بذلت قصارى جهدها لصد قوات ماكسيمليان الغازية. وفكر مجلس مدينة فلورنسا على الفور فى الالتجاء إلى سافونارولا والاستعانة به، كى يثير الحمية الوطنية فى نفوس جماهير فلورنسا. ولم يبخل سافونارولا بالمساعدة، فقد فعل كل ما يستطيع لاستنهاض همم علية القوم فيها. ولكنه لم يكن بمقدوره أن يعتلى منبر ديره كى يخاطب الجماهير كعادته ويبعث فيها روح القتال والنضال، لأن البابا كان قد أصدر آنذاك تعليماته بمنع سافونارولا من التبشير.

كان البابا ألكسندر ألد أعداء جمهورية فلورنسا. فعلى الرغم من عداء دوق ميلانو لها، فإنه كان على استعداد للاكتفاء بتغليب حزب الأرابياتى ونصرته على غيره من أحزاب فلورنسا، كما كان يكفى أهل البندقية الحصول على بعض النفوذ فى مدينة بيزا. أما البابا ألكسندر، فقد حزم أمره على تدمير جمهورية فلورنسا تدميرًا شاملاً وإعادة عائلة المديسيس إلى سدة الحكم، تمهيدًا لتنصيب أبنائه غير الشرعيين ملوكًا على عرشها. ولهذا، لم ينتظر البابا قدوم قوات ماكسيميليان كى تسانده، بل أمر قواته بالإسراع بمهاجمة فلورنسا. ولا شك أن كراهيته المشبوبة لسافونارولا دفعته للإسراع فى اتخاذ هذا القرار، فقد كان يخشى وعظاته التى تلهب أهلها حماسًا وتدفعهم إلى الاستماتة فى صد قوات البابا. ومن جانبيهما، أسهمت البندقية وميلانو فى دفع قواتهما للإطباق على أنفاس فلورنسا. ورغم ذلك، فقد أظهرت هذه المدينة روحًا

قتالية عالية رغم انتشار المجاعة فيها؛ ولكن المجاعة أدت فى نهاية الأمر إلى انهزامها. وبانتشار المجاعة فى فلورنسا امتلأت مستشفياتها بالمرضى وتساقط عدد كبير من الرجال والنساء على جوانب الطرق. وأثلجت هذه الفاجعة صدر حزب الأرابياتى الموتور، الذى انتهز هذه الفرصة ليعبر عن شماتته فى سافونارولا وأتباعه والاستهزاء به وبنبوءاته والانقضاض على نظام الحكم الجديد الذى أسسه سافونارولا. وعندما رأى أهل فلورنسا أن راهبهم يلتزم الصمت ازدادوا حزنًا ويأسًا؛ ولهذا ابتهل إليه مجلس المدينة أن يشد من أزرهم ويخف لنجدتهم ولا يتخلى عنهم فى محنتهم.

كان هذا الوضع المأساوى فوق طاقة سافونارولا على التحمل. ولم يستطع هذا الراهب أن يرفض توسلات أهل فلورنسا له. فاعتلى منبر كنيسة القديس مرقص فى ٢٨ أكتوبر ١٤٩٦ غير عابئ بالحظر الذى فرضه بابا روما عليه. وكعادته تحدث الراهب عن ضرورة تحلى فلورنسا بالفضيلة وتخليها عن المباذل، وأيضًا دعا سافونارولا أهل فلورنسا إلى الاتحاد ونبذ الشقاق، مؤكدًا لهم أن النصر آت ما فى ذلك ريب إن تمسكوا بأهداب الفضيلة. وسقطت كلماته على الشعب التعس كالبلسم الشافى فشعر بالراحة والعزاء. وفى يوم ٣٠ أكتوبر ١٤٩٦، تحرك فى شوارع فلورنسا موكب دينى مهيب يحمل صورة العذراء مريم؛ فران على الجميع خشوع عظيم. وجاءهم فارس يمتطى جوادًا فالتفوا حوله وسألوه عن آخر أنباء العدو، فطمأنهم بانكساره فملأ الأمل قلوبهم الواجفة. إذ قال إن العدو عجز عن الاستيلاء على ميناء ليجهورن، وإن معجزة قد حدثت: فقد أرغمت الرياح العاتية السفن الفرنسية المحملة بالقمح على الرسو فى الموانى الإيطالية، رغم أن الأوامر الصادرة إليها كانت على العكس من ذلك. وما إن سمع شعب فلورنسا هذه الأنباء السارة، حتى تملكتهم فرحة مجنونة واقتنع الشعب أن سافونارولا نبى ما فى ذلك أدنى ريب. صاح الشعب بملء صوته: «لقد أنقذتنا أيها الراهب مرة أخرى». وفى شهر نوفمبر ١٤٩٦، اعتلى سافونارولا المنبر مرة أخرى ليشكر الله على النعم التى أنزلها على شعب فلورنسا. ولكنه فى الوقت نفسه طلب من هذا الشعب أن يتحد وأن يكون دومًا على أهبة الاستعداد لمواجهة العدو. وأيضًا عبر الراهب عن أسفه لاضطراره إلى عدم اتباع الأمر البابوى الخاص بمنعه من التبشير.

والجدير بالذكر، أن عدوه لودوفيكو حاول مداهنته والتظاهر بصداقته، رغم أنه كان يتآمر فى السر عليه ويضمر له الشر.

وما كاد البابا يسمع عن وعظة سافونارولا فى ٢٨ أكتوبر ١٤٩٦، حتى أصدر على الفور مذكرة بتاريخ ٧ نوفمبر من العام نفسه وجهها إلى جميع رهبان طائفة الدومينيكان فى توسكانيا. وتدل هذه المذكرة على أن البابا لم يعد يصر على ضم دير القديس مرقص الذى يسيطر عليه الراهب إلى بعض الأيرة الأخرى فى لومباردیا. ولكنه أصر هذه المرة على فصله فصلاً كاملاً عن الأديرة فى كل من توسكانيا وروما، بحيث يكون لدير القديس مرقص راع خاص به يتبع مباشرة الراعى العام لكنائس روما. وأسند البابا مهمة تعيين هذا الراعى للراعى العام وكاردينال نابولى. وعلى أية حال، سعى البابا للإيقاع بغريمه بطريقة غاية فى اللؤم والمكر، حيث أسند منصب الراعى إلى بادر جياكومو دى سيسيليا، وهو شخص معروف بتعاطفه مع سافونارولا. وكلف البابا الخبيث الراعى الجديد بإصلاح أحوال الكنيسة الكاثوليكية فى توسكانيا وسائر الدويلات الإيطالية. وبما أن الراعى الجديد كان خاضعًا لرئيسه فى روما، فقد أدى ذلك الى وضع سافونارولا تحت سيطرة هذا الرئيس بأسلوب ملتو وغير مباشر، وبمعنى آخر أدى هذا الموقف إلى القضاء على أية محاولة من جانب سافونارولا لاستقلال دير القديس مرقص الموالى له، كما أدى إلى انسلاخ هذا الدير وضمه إلى مجموعة أخرى من الأديرة المناوئه لسافونارولا، بحيث أصبح من السهل على بابا روما أن يكسر شوكته ويخضعه لإرادته.

ولم تنطل هذه الحيلة على سافونارولا، الذى سارع بكتابة «اعتذار إلى شعب دير القديس مرقص» للرد على الأمر البابوى الصادر بضم دير القديس مرقص إلى أديرة دخيلة. قال سافونارولا إنه وحده لا يستطيع الموافقة على هذا الضم، فهو يحتاج إلى موافقة زملائه الرهبان التابعين لدير القديس مرقص والبالغ عددهم مائتين وخمسين راهبًا سبق لهم أن كتبوا إلى البابا برفضهم فكرة الضم. وأضاف سافونارولا أن هذا الضم سوف يجر فى أعقابه مزيدًا من الاضطرابات والانقسامات والفوضى. وأشار سافونارولا إلى الشحناء والبغضاء القائمتين بين مختلف الأديرة، الأمر الذى سوف يعود بالضرر إذا تم ضم دير القديس مرقص إلى عدد من الأديرة المتشاحنة. ولهذا أعلن سافونارولا عزمه على عدم الالتزام بالأمر الصادر إليه من البابا؛ لأنه يضر ولا ينفع. واستطرد أن التهديد بطرده من الكنيسة الكاثوليكية لن يخيفه أو يفت فى عضده، وأنه على استعداد للموت دفاعًا عما يرى فيه الخير والصلاح. فالمسيحى

الحق يحتكم إلى ضميره قبل أن يحتكم إلى رؤسائه. وهكذا اندلعت الحرب صريحة وواضحة بين الراهب العنيد والبابا اللئيم.

وأيضًا ترسخت شعبية سافونارولا أكثر وأكثر عندما تحققت نبوءته بأن النصر سوف يكون حليف فلورنسا وأن الاندحار ينتظر أعداءها، فقد هبت عواصف هوجاء حطمت أسطول ماكسيميليان الذى كاد أن يغرق وعلى متنه ماكسيمليان نفسه فى لجج البحر. ودب التعب فى أوصال ماكسيمليان فقرر الانسحاب.

وفى ٢٦ نوفمبر ١٤٩٦، طلب سافونارولا من شعبه أن يتوجه بالشكر والعرفان إلى الله تعالى، لأنه أعز فلورنسا وأذل أعداءها والطامعين فيها. ثم ألقى الراهب ثمانى وعظات تؤكد القطيعة الكاملة التى حدثت بينه وبين البابا. ثم عاد إلى استخدام مقدرته العجيبة على التنبؤ، محذرًا أهل فلورنسا من غضب الله إذا هم حادوا عن الطريق القويم. وتعتبر الوعظة السادسة من أهم وعظاته، ففيها أحصى نعم الله التى اختص بها أهل فلورنسا منذ طرد حاكمهم الطاغية بييرو مديسيس حتى هزيمة الإمبراطور ماكسيمليان؛ ولكنه عاب على أهلها أنهم يسمعون كلام الله بأذن ثم ما يلبث هذا الكلام أن يخرج من الأذن الأخرى. ثم أردف قائلاً إن المجلس الأعظم الذى تم إنشاؤه فى فلورنسا إنجاز كبير ولكنه بحاجة إلى وضع القيود والضوابط له، حتى لا يتجبر أو يتكبر أو يحيد عن جادة الطريق. فضلاً عن أنه هاجم بشدة نظام الانتخاب القائم على القرعة. وأنهى هذا الراهب وعظته السادسة بقوله، إنه على استعداد لأن يحارب بمفرده العالم كله إذا كان هذا العالم متآمرًا وشريرًا وفاسدًا.

تعيين فرانسسكو فالورى مسئولاً عن إقرار العدل ودفاع سافونارولا عن الشعر (١٤٩٧)

فى عام ١٤٩٧، تم تعيين فرانسسكو فالورى الذى استبسل فى الدفاع عن فلورنسا مسئولاً عن إدارة العدل فيها لمدة شهرين، هما: يناير وفبراير من العام المذكور. واقترح عليه سافونارولا فرض القيود على المجلس الأعظم أو المجلس الشعبى، بغية استبعاد العناصر التى تتآمر ضد النظام الجمهورى؛ ولكن فالورى رفض الاستجابة لاقتراحه. بل إنه على العكس من ذلك صمم على إصدار قانون جديد يهدف إلى زيادة عدد أعضاء هذا المجلس، وتخفيض سن العضوية من ثلاثين إلى أربعة وعشرين عامًا. وكان يرمى من وراء ذلك إلى دعم النظام الجمهورى عن طريق زيادة عدد المشتركين فى الحكم. ولكن هذه السياسة باءت بالفشل وأتت بعكس النتيجة المرجوة؛ لأن توسيع رقعة عضوية هذا المجلس سمح بدخول عدد من الشبان الفاسدين والمستهزئين فيه من التابعين لطائفة الأرابياتى المناوئة لسافونارولا. وعاث هؤلاء الشبان المنفلتون فسادًا فى شوارع فلورنسا وأتوا بأعمال شغب، الأمر الذى ألحق الأذى بالنظام الجمهورى الذى يرجع الفضل فى إقامته إلى جهود سافونارولا. ومن المؤسف، أن فالورى كان غافلاً عن الأخطار المحيقة بالجمهورية. ومن المؤسف أيضًا أن مجلس المدينة كان بصدد سن قانون يفرض أعباء ضريبيةعلى أهل فلورنسا لا قبَل للفقراء بها، الأمر الذى أوغر صدر الفقراء ضد الأغنياء. ومن المرجح أن مجلس المدينة أراد تهدئة خواطر الشعب فتراجع عن تنفيذ القانون المقترح.

وفى تلك الآونة انصرف سافونارولا إلى كتابة مؤلفه «انتصار الصليب» وعدد آخر من الكتيبات فى عزلة وصمت كاملين. وحتى يتفرغ للتأليف، كلف مريده الراهب دومينيكو بريشيا بأن يحل محله فى القيام بواجباته الدينية.

وأزف الوقت الذى تقيم فيه فلورنسا الكارنفالات والاحتفالات السنوية فاستعد حزب الأرابياتى المناوئ لسافوناورلا لإحياء حفلات المجون الصاخبة القديمة التى عرفتها فلورنسا فى عهد عائلة دى مديسيس، الأمر الذى أثار حنق الراهب دومينيكو بريشيا وجعله يصمم على استئصال هذا التقليد الماجن، ومارس دومينيكو ضغوطًا على مجلس المدينة حتى نجح فى حمله على إلغاء الحفلات الماجنة. وللقضاء على هذا التقليد الماجن، سار شباب المدينة التابعون لسافوناورلا فى موكب مهيب يجوب شوارع فلورنسا، وطرقوا أبواب المنازل ليجمعوا كل ما فيها من تحف وأدوات للزينة ليضعوها فى أربعة أكوام أضرموا فيها النار. ولم يرق هذا فى عيون البعض فأنحوا على سافوناورلا باللائمة، واعتبروه رجل دين متعصبًا ومغلق الفكر يريد أن يعيد عصر التنوير إلى الوراء.. وإلى القرون الوسطى. وقد ساعدت طائفة البياجنونى الموالية لسافونارولا على إحراق التحف وأدوات الزينة وتحويلها إلى رماد. ومن المؤسف أنهم اعتبروا بعض المجلدات والأعمال الفنية وأدوات الزينة أشياء تستحق التدمير، الأمر الذى جعل أحد تجار البندقية يعرض شراءها مقابل عشرين ألف كرونة. فما كان من منظمى الحريق إلا أن وضعوا صورة المشترى فوق كومة من التحف وأدوات الزينة ثم أضرموا فيها النار. ومن المحتمل أن تكون هذه الصورة القبيحة مبالغًا فيها من قبَل أعداء سافوناورلا؛ وخاصة لأن الكثير من أهل فلورنسا فى ذاك الزمان أمثال جيرولامو بنيفينى ونارديى كانوا يدفعون مبالغ باهظة ويتجشمون عناء الأسفار الشاقة بحثًا عن المخطوطات القديمة والتحف النادرة. ومن المحتمل أن سافونارولا وافق على نشر تحفة بوكاشيو الأدبية المعروفة باسم «ديكاميرون». ويذهب المدافعون عن هذا الراهب إلى أنه على الرغم من ظروف ديره الصعبة، فإنه اقترض المال الذى اشترى به مكتبة الحاكم المخلوع بييرو دى مديسيس، حتى يحميها من الاندثار أو الوقوع فى أيدى الأعداء. علمًا بأن مكتبة دير القديس مرقص التابع لسافونارولا كانت الوحيدة التى تفتح أبوابها لجمهور القراء والباحثين، والجدير بالذكر أن هذه المكتبة ضمت بين جوانبها نفائس الكتب والمخطوطات القديمة. ولكن الفن الذى حرص هذا الراهب

على ازدهاره هو ذلك الفن القائم على الإيمان بالمسيحية والدعوة لها. فلا غرو إذا رأينا ميكلانجلو يعتبر سافونارولا وأترابه روادًا لظهور فن مسيحى جديد.

وفى وعظاته تحدث سافونارولا عن مفهوم الجمال، قائلاً إن الجمال ليس جمال اللون أو الشكل، بل الجمال القائم على انسجام الأجزاء مع الكل، وكذلك انسجام الألوان. ويستطرد الراهب شارحًا مفهوم الجمال فيقول، إن جمال الأشياء البسيطة يكمن فى نورها مثل الشمس والنجوم التى تستمد بهاءها من الضوء المنبعث منها. والله نفسه هو نور السماوات والأرض، بل هو الجمال نفسه. وكما ذكرنا، يؤكد سافونارولا أن الجمال الحقيقى يكمن فى انسجام الأجزاء وتواؤمها. فجمال المرأة لا يرجع إلى جمال هذا العضو أو ذاك، بل يكمن فى تواؤم الأعضاء وانسجامها. ويربط سافونارولا بين الجمال والفضيلة فيقول: هب أنك أمام امرأتين تتمتعان بنفس القدر من الحسن والجمال إحداهما فاضلة والأخرى عاهرة، فأيهما تفضل؟ لا شك أنك سوف تفضل الجمال الذى تزينه الفضيلة. وأنحى الراهب باللائمة على النساء اللاتى يهتممن بجمال المظهر دون جمال الروح. كما أنه ينحى باللائمة على الرسامين الذين يرسمون العذراء مريم فى ثياب قشيبة؛ لأنها كانت فى رأيه تلبس الملابس المهلهلة.

وحتى نستكمل مفهوم سافونارولا عن الجمال، يجدر بنا أن نلتفت الى الأهازيج الشعرية التى نظمها. وأيضًا أدان هذا الراهب شعراء الفحش والمجون، فضلاً عن إدانته للوعاظ الذين يقتبسون فى وعظاتهم الشعر الماجن. واستغل شانئوه تزمته الدينى والأخلاقى لاتهامه بمناصبة العداء للشعر والشعراء، الأمر الذى جعل مريده العالم أوجولينو فيريتو يحثه على توضيح موقفه من الشعر والفنون بوجه عام. واستجاب سافونارولا لمريده فنشر كتيبًا بعنوان: «انقسام جميع العلوم وفائدتها»، يتضمن فصلاً بعنوان: «حول الاعتذار عن فن الشعر».

يقول سافونارولا فى هذا الصدد، إنه لم يفكر مطلقًا فى الهجوم على فن الشعر، فهجومه يقتصر على استخدام هذا الفن على نحو سيئ. وأضاف أنه يدرك أن الكثيرين يشنعون عليه فى كتاباتهم وأحاديثهم ويتهمونه بالتعصب والانغلاق الفكرى. ثم يتناول سافونارولا الفرق بين شكل الشعر ومضمونه. ويضيف أننا نخطئ إذا ظننا أن أهمية الشعر ترجع إلى شكله، حيث إن المضمون الفلسفى والفكرى للشعر له أهميته أيضًا. ويذهب إلى أن هدف الشعر هو التأثير فى الناس عن طريق إقناعهم فى الوقت

نفسه. وهو كما أسلفنا يرى أن الشعر ينبغى أن يهدف إلى حث الناس على التحلى بالفضيلة، والرأى عنده كذلك أن الوزن والقافية ليسا من ضرورات الشعر. ويدلل على ذلك بأن الكتاب المقدس يرقى إلى مرتبة الشعر رغم خلوه من الوزن والقافية، حيث إنه يرمى أولاً وأخيرًا إلى تحريك روح الإنسان وحثه على الرغبة فى الوصول إلى الحقيقة. ولا يرى سافونارولا أى جدوى من الوزن أو الإيقاع الذى يداعب الأذن دون الدعوة إلى السموق والقداسة.

ويعد معالجته للشعر بوجه عام تناول سافونارولا فى مبحثه الشعراء الطليان المعاصرين له، فوصفهم بأنهم أدعياء لا همَّ لهم غير اقتفاء أثر الإغريق والرومان، ليس فى أفكارهم وأساليبهم وحسب، لكن أيضًا فى الأوزان التى يتخذونها. بل إنهم يخاطبون فى أشعارهم نفس آلهتهم الوثنية. هؤلاء الشعراء المزيفون استحقوا من أفلاطون الطرد من جمهوريته. وبسبب هذه الآراء الرجعية سارع أعداؤه وشانئوه إلى الانقضاض عليه، مستغلين تشدده وتزمته ومغالاته. غير أن سافونارولا سعى إلى الاحتفاظ لنفسه بخط الرجعة، فقال إن بعض الشعراء القدامى امتدحوا الفضيلة وذموا الرذيلة فى قصائدهم. فضلاً عن أنه نصح الشباب المسيحى بدراسة الشعر الوثنى القديم بعد أن يتأكدوا من رسوخ عقيدتهم المسيحية، وذلك منعًا للبلبلة أو الاهتزاز. ويعزو بعض الدارسين تزمت الراهب فى هذا الشأن إلى كثرة عدد المثقفين والفلاسفة الساعين - آنذاك - إلى إحياء الفنون الوثنية. والغريب، أن هذا الراهب الذى هاجم الشعراء بكل هذه الضراوة لجأ إلى قرض بعض الأشعار والأهازيج الدينية للتخفيف من كربه وبلواه. ورغم خلو معظم الأشعار التى ألفها فى المناسبات والاحتفالات الدينية من القيمة، فإنها تنم بلا منازع عن روح نبيلة حساسة تتوق إلى الجمال. والجدير بالذكر، أن جانبًا من أشعاره لم ير طريقه إلى النور حتى يومنا الراهن؛ ولكننا نعود فنؤكد ضآلة قيمتها الفنية.

موعظة سافونارولا عن النبى حزقيال وفشل فلورنسا فى الاحتفاظ براهبهم سافونارولا (١٤٩٧)

فى الأربعين يومًا السابقة على عيد الفِصح فى عام ١٤٩٧ استمر سافونارولا فى إلقاء وعظاته عن النبى حزقيال، وفيها تناول صراعه المرير مع البابا الذى زاد ضراوة عن ذى قبل. ومن النقاط المهة التى أثارها الراهب فى هذه الوعظات وضع الممتلكات التابعة للكنيسة الرومانية. قال الراهب فى وعظاته المشار إليها إن من حق الكنيسة، بل ومن الضرورى والمفيد معًا، أن تكون لها ممتلكات دنيوية. ولكن الأيام أوضحت أن حيازة الكنيسة لهذه الممتلكات أصبحت شرًا مستطيرًا وسببًا رئيسيًا فى تدهورها ودمارها. ومن ثم، فقد صار من الأفضل أن تتخلص الكنيسة من ثرواتها التى تبعدها عن الله وأن يختار الرهبان حياة الفقر، لأن الثروة تفضى بهم إلى التهلكة. وأيضًا شن سافونارولا هجومًا عاتيًا على رجال الدين الذين يغتصبون أملاك الكنيسة، طالبًا منهم إعادتها إليها أو – إذا تعذر ذلك – إنفاق ما اغتصبوه على أوجه البر والإحسان.

ويفسر سافونارولا غضب رجال الكنيسة عليه بأنه اكتشف استشراء الفساد فيهم. وكعادته تنبأ الراهب فى الوعظات التى ألقاها عام ١٤٩٧ بالكوارث التى سوف تحل بالعالم المسيحى إذا لم يستأصل شأفة الفساد المستشرى على الصعيدين: الكنسى والمدنى، وقال إن الثورة سوف تتأجج ضد الكرسى البابوى إذا لم يضع حدًا لمباذله ومفاسده. كما أعلن أنه لن يتوانى لحظة واحدة فى التصدى للفساد وتطهير الكنيسة مما شابها من دنس، مثل مضاجعة رجال الدين المسيحى للعاهرات، ومزاولة التجارة فى دور العبادة. فضلاً عن شك بعضهم فى وجود جسد المسيح فى قربان التناول.

حتى الوظائف والمقدسات الدينية أصبحت تُشتَرى وتباع. وفى الماضى كان الرهبان الذين ينجبون أبناء غير شرعيين يسمونهم أبناء عمومتهم، ولكنهم الآن خلعوا برقع الحياء فلا يستحون من تسميتهم بأولادهم. وهكذا تحولت الكنيسة إلى كنيسة عهر وفسق.

ولكن سافوناورلا أضاف، أن المسيح سوف يخف لانتشال كنيسته من الوحل الذى تتمرغ فيه، كما أن القديسين سوف يشفعون لها عند سيدهم يسوع المسيح. ثم ما لبث أن تحدث عن سعى بابا روما إلى طرده من حظيرة الكنيسة، فقال ملمحًا إنه يعرف شخصًا واحدًا فى روما يسعى بلا كلال أو ملل للنيل منه، وإن هذا الشخص تحركه اهتماماته ودوافعه الدنيوية البعيدة كل البعد عن الدين. ويضيف الراهب، أنه كان سيضمن سلامته من أى أذى إذا لجأ إلى نفاق البابا ومداهنته. ثم أعلن استعداده لتحمل الاضطهاد والاستشهاد من أجل المسيح، الذى يوقن أنه سوف يحميه ويساعده على التغلب على محنته. وقد ذاعت هذه الوعظات خارج محيط فلورنسا، لدرجة أن دوق فيرارا جاء متخفيًا للاستماع إليها.

ويتضح من الوعظات الآنفة الذكر أن صاحبها كان يعد نفسه وشعبه معًا لخوض معركة شرسة مع بابا روما، كما أنه صمم على تحدى الحظر البابوى المفروض عليه. ووضع سافوناورلا أمله فى اجتياز محنته فى سرعة انعقاد مجلس العشرة فى فلورنسا. كان الراهب يدرك أن سببًا قويًا فى غضب البابا عليه يرجع إلى رفضه الاقتراح البابوى الخاص بضم دير كنيسة القديس مرقص الذى يلقى وعظاته فيه، إلى بعض الأديرة الرومانية الأخرى. وكما أسلفنا، لجأ البابا ألكسندر السادس إلى اللؤم والخديعة للإيقاع بغريمه فى الشرك، فأشاع هذا البابا الخبيث بين أهل فلورنسا أنه سوف يساعدهم على أن تستسلم مدينة بيزا لهم فى حالة قبولهم الانضمام إلى التحالف المقدس المناوئ لفرنسا والساعى إلى تطهير الأراضى الإيطالية من أى نفوذ لها. وأراد مجلس العشرة أن يهدئ من روع البابا الثائر فأرسل إليه مندوبًا عنهم للتفاهم معه هو ألساندرو براكى، غير أن البابا رفض التفاوض معه وأبلغه بإصراره على استئصال نفوذ فرنسا فى إيطاليا، ورفضه أية محاولة قد يبذلها الفرنسيون للعودة إلى إيطاليا. وعرض البابا على فلورنسا رشوة تتمثل فى وعده بإعادة تبعية بيزا لها، مقابل قبولها الانضمام إلى التحالف المقدس الذى كان البابا أحد المشتركين فيه.

غير أن أهل فلورنسا كانوا يدركون الشرك الذى ينصبه البابا لهم فرفضوا الانسياق وراءه، كما أنهم كانوا يعرفون جيدًا أن البندقية تقف بجانب بيزا ضدهم. وقد سعى ألساندرو براكى مبعوث فلورنسا لدى الكرسى البابوى إلى الدفاع عن بلده وشرح موقف سافونارولا. عندئذ انتهره البابا، قائلاً إنه يجدر به العودة إلى بلده إذا لم يكن لديه اقوال أخرى أفضل مما تفوَّه بها. وأضاف أنه سوف يرغم فلورنسا للرضوخ لمشيئته، وأنها سوف تندم على مسلكها.

ثم استبد به الغضب الذى أفقده السيطرة على نفسه، قائلاً: «نحن نعرف جيدًا أن كل هذا يحدث بسبب إيمانكم بنبوءات بائع الحكَم والأمثال الذى يعيش بين ظهرانيكم، وبسبب سماحكم له بإهانتنا وتهديدنا والدوس علينا بالأقدام.». وعبثًا حاول المبعوث الفلورنسى تهدئة ثائرة البابا الهائج، فقد استمر فى التهديد والتلويح بما سوف يفعله التحالف بفلورنسا العاصية.

وبالإضافة إلى مناوئة حزب الأرابياتى لسافونارولا، لعب حزب آخر يعرف باسم البيجى Bigi دورًا مهمًا فى إثارة الاضطرابات ضد نظام الحكم الجديد فى فلورنسا. وساعده على ذلك انتشار المجاعة والطاعون بين أهل فلورنسا. وبطبيعة الحال وفرت هذه الأحوال المفجعة الفرصة لعائلة دى مديسيس كى تتآمر للعودة بمساعدة حزبى البيجى والأرابياتى. غير أن بييرو دى مديسيس فشل فى دخول فلورنسا بقوة السلاح، الأمر الذى اضطره إلى الهرب إلى روما ليواصل حياة الفسق والمجون والسهر حتى الفجر. وقد بلغ به السفه مبلغًا جعله يبدد كل ما يملك ويبيع تحفه ومجوهراته وسجاجيده الفاخرة من أجل إرضاء شهواته. وكان شغل بييرو الشاغل أن ينتقم من كل الذين ساهموا فى تنحيته عن الحكم. ويجدر بالذكر، أن نفوذ حزب البيجى زاد نتيجة الصراع المنهك الدائر بين حزب البياجنونى وحزب الأرابياتى. ونجح أحد أعضاء حزب البيجى، وهو برناردو ديل نيرو، من أن يصبح عضوًا فى حكومة فلورنسا رغم ما عرف عنه من ولاء لعائلة المديسيس. وما إن علم بييرو فى روما باشتراك برناردو ديل نيرو فى حكم فلورنسا، حتى أخذ ينشط فى جمع المال وحشد الحلفاء، وشجعه على ذلك مساندة البابا وأهل البندقية له. ونجح بييرو فى تجنيد ألف وثلاثمائة رجل تحت إمرة ضابط إيطالى كفء يدعى بارتولوميو دالفيانو. غير أن مدة مجلس المدينة الجديد الذى تمكن برناردو ديل نيرو من الدخول فيه أوشكت على الانتهاء؛ مما دفع

ديل نيرو إلى أن يطلب من بييرو دى مديسيس أن يتمهل فى العودة إلى فلورنسا؛ ولكن بييرو ضرب بنصيحته عرض الحائط وقرر العودة إليها.

وفى نحو ٢٠ أبريل ١٤٩٧، وصل بييرو دى مديسيس على رأس جيش صغير إلى مدينة سيينا التى أبدى عاهلها باندولفو بتروشى استعدادًا لمساعدته. ثم توجه إلى بلده فلورنسا فى السابع والعشرين من نفس هذا الشهر. وعندما اقترب من فلورنسا، هبت عاصفة أرغمته على التريث. ورأى فلاح فى هذه الضاحية الجيش القادم فاستشعر خطرًا على فلورنسا، وخمن أن له علاقة بمحاولة بييرو دى مديسيس العودة. واستطاع هذا الفلاح أن يتسلل حتى وصل إلى أبواب هذه المدينة ليحذر حراسها من الخطر الذى يتهددهم. وتنبهت المدينة التى أوصدت أبوابها إلى هجوم بييرو الوشيك عليها، فحمل أهلها السلاح للتصدى للمهاجمين. وبطبيعة الحال، ساد الاضطراب والفزع أرجاءها فأرسل عضو من أعضاء مجلس المدينة وصديق حميم لسافوناروولا يدعى ميسر فيليبو أريجوتشى، رسولاً إلى هذا الراهب كى يسأله عما سيحدث للمدينة المهددة. وما إن رأى سافوناروولا الرسول قادمًا حتى قال له: «اذهب وأخبر مجلس المدينة بأن بييرو دى مديسيس سوف يصل ممتطيًا جواده حتى أبواب فلورنسا ولكنه سيرحل دون أن يحقق أى نجاح» وبالفعل، اقترب بييرو من بوابة المدينة؛ ولكنه وجدها موصدة. وصور له خياله السقيم أن له فى المدينة أعوانًا سوف يهبون لاستقباله والترحيب برجوعه. غير أنه فوجئ بالحراس يطلقون النار فى اتجاهه فاحتمى منها خلف حائط وملأ الخوف قلبه، مؤثرًا التقهقر وسط استهزاء الأهالى وسخريتهم. وعقب إجبار جيش بييرو على الفرار تم انتخاب مجالس حكومية جديدة فى فلورنسا، فى جو تمزقه الخلافات والشكوك وتبادل الاتهامات.

اندلاع أعمال الشغب فى فلورنسا، وصدور الأمر البابوى بحرمان سافونارولا الكنسى وانحسار الأوبئة (١٤٩٧)

وبفشل بييرو دى مديسيس فى العودة إلى حكم فلورنسا، انحسر نفوذ حزب البيجى وقوى نفوذ أعدائهم من حزب الأرابياتى الذى نجح كثير من أعضائه فى دخول مجلس المدينة، وعلى رأسهم بييرو ديجلى ألبرتو. غير أن الجانب الأكبر من عداء الأرابياتى كان موجهًا ضد الراهب سافونارولا. والجدير بالذكر، أن حزب الأرابياتى أنكر أن له أية علاقة بمحاولة بييرو العودة واشتراكه فى أية مؤامرة، كما وجد تأييدًا ومناصرة من الكرسى البابوى ودوق ميلانو. ووعد حزب الأرابياتى البابا بأنه سيبذل قصارى جهده للقضاء على سافونارولا الذى كان قد انسحب من الحياة العامة ولاذ بقلايته فى الدير. ولم يجد أعداؤه وسيلة للتخلص منه فاكتفوا بوضع اللافتات المُهينَة له على جدران الدير، وبالانخراط فى أحداث شغب أثناء إقامة سافونارولا القداس فى كنيسة القديس مرقص.

وسنحت لأعداء سافونارولا فرصة ذهبية للانقضاض عليه يوم ٣ مايو ١٤٩٧، عندما أعطى انتشار الأوبئة السلطات العليا عذرًا لإلغاء الوعظ الدينى فى الكنائس ابتداء من اليوم الخامس من الشهر المذكور. ولكن سافونارولا صمم بمناسبة عيد صعود السيد المسيح إلى السماء فى الرابع من شهر مايو، على إلقاء وعظة، وذلك فى اليوم السابق مباشرة على تنفيذ الأمر الخاص بحظر الوعظ فى الكنائس. وأعلن حزب الأرابياتى المعادى للراهب أنه لن يسمح له بإلقاء وعظته، فى حين أن حزب البياجنونى المناصر له صرح بضرورة إلقاء سافونارولا لكلمته. وتراهن الطرفان على أى منهما

يربح فى هذا الصراع المحتدم. وتدخل مجلس المدينة ليحسم الأمر فأصدر مرسومًا يقضى بمنع أية محاولة للحيلولة دون إلقاء موعظة يوم الصعود. وقرر حزب الأرابياتى قتل سافوناروﻻ على الفور، أو على أقل تقدير، إلحاق الأذى البدنى الشديد به. واتفق أعداء الراهب مع شخص يدعى بايا على نسف المنبر الذى سوف يعتليه سافوناروﻻ لإلقاء وعظته. ولكن المتآمرين أحجموا عن تنفيذ هذه الخطة خوفًا من الاضطرابات التى ستعم الكنيسة، ولهذا فكروا فى خطة بديلة تتلخص فى تلطيخ المنبر بأقذر القاذورات، ثم لفه بجلد حمار مضى على نفوقه ثلاثة أيام، إلى جانب وضع مسامير أو أسياخ حديدية فى ذلك الجزء من المنبر الذى اعتاد الراهب أن يضربه بقبضة يده أثناء انفعاله الشديد وهو يلقى وعظته. وبطبيعة الحال، كان أعداء الراهب يدركون أن هذا لا يكفى للقضاء على حياته. ولكن سيينى وعصابته المتآمرة كانوا يأملون فى أن يتسبب هذا فى إثارة الشغب حتى يتمكنوا من تنفيذ هدفهم، وهو التخلص من حياة الراهب. وانتشرت الشائعات فى فلورنسا حول المؤامرات الكثيرة التى تحاك ضد حياة الراهب؛ ولهذا زاره فى الدير بعض أصدقائه كى يتوسلوا إليه ألا يخاطر بحياته بالوعظ فى يوم الصعود. ولكنه أجابهم فى غضب نبيل، قائلاً إنه مهما كانت الأخطار المحدقة به فلن تثنيه عن إلقاء كلمته فى هذه الاحتفالية الدينية المقدسة. ولما رأى أصدقاؤه ومريدوه إصراره على اعتلاء المنبر حشدوا طاقاتهم وحملوا السلاح للدفاع عنه.

وفى فجر عيد الصعود دلف إلى الكنيسة الموالون لسافوناروﻻ من حزب البياجنونى، لتنظيفها من كل الأوساخ التى وضعها أعداؤهم وإعادة النظام والترتيب فى أرجائها. وفى منتصف النهار خرج سافوناروﻻ من قلايته يحرسه عدد من أتباعه الأوفياء، ليشاهدوا عصابة الكومباجناتشى المتآمرة تتنحى جانبًا من الكنيسة بمعزل عن المصلين ويظهرون التحدى وينوون الشر. ثم صعد سافوناروﻻ إلى المنبر فأشار فى وعظته إلى تآمر الأشرار عليه لمنعه من الوعظ، وأكد أنه لا يخشى أية قوة بشرية مهما كانت ولن يسمح لها بإعاقة تأدية واجبه المقدس. ثم ابتهل إلى الله أن يقيه من أذى الأشرار الذين يتربصون به الدوائر. وأضاف أن الكرسى البابوى سوف يصدر أوامره بطرده من الكنيسة، وحث أهل فلورنسا على حمل السلاح والاستشهاد فى سبيل الله. كما حذرهم من أن ضعيفى الإيمان من بنى جلدته سوف يبيعونه كما باع أبناء يعقوب أخاهم يوسف. وسوف ينكرون عليه نبوءاته الهابطة من السماء رغم أنها

تحققت، وأنذر سافونارولا أن جحافل البربر سوف يجتاحون إيطاليا ويقومون بتدميرها. ولكنه ذكر أن الأتقياء سوف يلوذون بالله كى يحميهم من الدمار، وطمأنهم بأنه لن يبخل عليهم بالعون والمساعدة. وفى حين تعالت الهمهمات فى الكنيسة، مضى الراهب يصلى إلى الله كى يغفر ذنوب المتنكرين له ويهديهم سواء السبيل، لأنهم لا يعرفون ما يفعلون.

وما لبثت نبوءاته المشئومة أن تحققت، فسرعان ما اهتزت أركان الكنيسة من جراء حدوث فرقعة مروعة وانفتحت أبوابها على مصاريعها، فارتعدت فرائص المصلين ولاذوا بالفرار فى فوضى واضطراب عظيمين. وكان فريق المتآمرين على سافونارولا من الكومباجناتشى يضم فرانسيسكو سيبى المتسبب فى هذه الفوضى، فقد أمسك بصندوق النذور وقذف به إلى رصيف الشارع. وكانت فعلته هذه الإشارة المتفق عليها بين المتآمرين لبدء الاضطرابات. وصرخ بعضهم بأعلى أصواتهم ودقوا بأيديهم على مقاعد الكنيسة، فى حين دق البعض الآخر بكل عنف على أبوابها حتى انفتحت أمامهم. ورغم فرار معظم المصلين من الكنيسة، فقد أحاط بسافونارولا بعض الأوفياء لحمايته من الأذى. كما أسرع البعض الآخر إلى إحضار الأسلحة والذخيرة المخزونة فى بيوت بييرو فرنسيسكو والثرى كامبى. كان عدد الأوفياء للراهب الذين هبوا لحمايته نحو ستين رجلاً مسلحين بالرماح والسيوف. وتقدم المتآمرون فى مجلس الثمانية نحو المنبر بغية قتله، ولكنهم وجدوه محاطًا بحماية قوية. وأشهر أحد حراسه، وهو كوربيزو دا كاستروكارو، سلاحه ليطعن به المتآمر جيوجنى طعنة نجلاء. وفى خضم هذه الاشتباكات، رفع سافونارولا الصليب وحاول إيصال صوته إلى الموجودين دون طائل. عندئذ ركع ليصلى. وبمجرد أن عاد الهدوء غادر المنبر فى حماية أصدقائه الذين دلفوا به داخل الدير. وذاعت أخبار المؤامرة لاغتيال سافونارولا فى أرجاء إيطاليا، فلم يصبح للإيطاليين شغل شاغل غير الحديث عنها.

وفى ٨ مايو ١٤٩٦، توفر هذا الراهب على كتابة رسالة بعنوان: «إلى كل الذين اختارهم الله من المسيحيين الأوفياء» أكد فيها صدق نبوءاته، وذكر منها مسألة طرده من الكنيسة ومحاولة القضاء على حياته. وأيضًا تنبأ بدنوه من الموت وانتقال روحه إلى العالم النورانى [illegible] دنيا الشرور والظلمات. وقال إنه مستعد لاستقبال الموت بصدر رحب. ثم شكر الله على أنه اختاره للعذاب والاضطهاد.

ورغم فشل محاولة الاغتيال فقد تزايد بصورة عظيمة نفوذ أعدائه الأرابياتى، لدرجة أن المتآمرين سلموا من المساءلة والعقاب. وأصدر مجلس المدينة مرسومًا أرسله إلى كل الكنائس يحظر الوعظ على جميع الرهبان. وحاول أعداء الراهب استصدار مرسوم بنفيه من فلورنسا، ولكنهم خشوا من السخط الشعبى العارم عليهم. ولكن فشل هذه المحاولة لم يثنيهم عن مواصلة إلحاق الأذى بسافوناريولا، فأسرعوا بممارسة الضغط على البابا كى يصدر المرسوم الخاص بطرده من الكنيسة. ومن ناحيته، أصيب البابا بخيبة أمل عندما نما إلى علمه فشل المتآمرين فى الإجهاز على ضحيتهم. والجدير بالذكر، أن الراهب ماريانو الذى كان يحمل الضغينة المشبوبة لسافوناريولا، والذى هرب إلى روما بعد فشل بييرو دى مديسيس فى استعادة حكم فلورنسا، لم يدخر وسعًا لتحريض البابا على تدمير سافوناريولا. وكما أسلفنا، كان لأعداء سافوناريولا من الأرابياتى قوة ضغط كبير مارسوها على البابا كى يسرع بإصدار قراره بطرده من الكنيسة. وكان من الطبيعى للغاية أن يستجيب لهم.

ورغبة منه فى تجنب المشاكل الهوجاء مع الكرسى البابوى، أرسل سافوناريولا خطابًا إليه فى ٢٢ مايو ١٤٩٧ يتساءل فيه عن غضب البابا منه. وشكا الراهب من استماع البابا لما يروجه ضده أعداؤه، وعلى رأسهم الراهب ماريانو، من أكاذيب وافتراءات. وفى الوقت نفسه، كان البابا قد أرسل فى ١٣ مايو من العام نفسه المرسوم الخاص بطرد سافوناريولا، فضلاً عن أنه أرسل منشورًا دوريًا يتضمن هجومًا على الراهب إلى رهبان دير سانتسيما أنونتزياتا. يقول البابا فى هذا المنشور، إنه ترامى إلى سمعه أن راهبًا يدعى جيرولامو سافوناريولا راعى كنيسة القديس مرقص فى فلورنسا ينفث معتقداته السامة ومذاهبه الضارة، ومن ثم فإنه يأمره بالتوقف عن إلقاء الوعظات وبالحضور إلى روما يطلب المغفرة عما ارتكبه من أخطاء. ولكنه شق عصا الطاعة عليه متعللاً بعلل مختلفة قال البابا، إنه قبلها أملاً فى أن يندم ويرعوى. ولكنه ظل سادرًا فى غيه، الأمر الذى اضطر الكرسى البابوى أن يرسل مذكرة بتاريخ ٧ نوفمبر ١٤٩٦ تأمره بضم دير القديس مرقص التابع له إلى المجمع التوسكانى. ولكنه مرة أخرى ـ حسبما يقول البابا ـ رفض الانصياع لهذا الأمر البابوى الثانى، الذى تضمن تهديدًا له بالطرد من الكنيسة. ولهذا أعلن البابا فى شتى الاحتفالات الدينية

وفى حضرة الشعب أن جيرولامو سافونارولا أصبح منذ هذه اللحظة مطرودًا من الكنيسة بسبب رفضه إطاعة الأوامر البابوية. وأضاف البابا تهديده بفرض عقوبة الطرد من الكنيسة على كل من تسول له نفسه تقديم المساعدة إليه، أو الاتصال به أو الموافقة على آرائه المشتبه فى هرطقتها. وقد حرر البابا هذه المذكرة فى ١٣ مايو عام ١٤٩٧. والغريب، أن يبنى البابا الاشتباه فى طريقة سافونارولا على الأقاويل والشائعات، وليس على فحص كتاباته أو تمحيصها.

وأثلج الأمر البابوى بطرد سافونارولا من الكنيسة صدر حزب الأرابياتى، فى حين تصدى براكى وبيتشى للدفاع عنه بقولهما، إن السبب الحقيقى فى طرد الراهب من الكنيسة هو إصراره على الاحتفاظ بالعلاقات التى تربط فلورنسا بفرنسا، ورفضه تنفيذ رغبة البابا فى أن تقطع فلورنسا علاقتها بفرنسا وتنضم إلى الحلف المقدس نظير خضوع بيزا لها.

وفى ١٨ يونيو ١٤٩٧، تم إعلان الأمر البابوى الخاص بطرد سافونارولا من الكنيسة بكل وقار ومهابة فى كنائس سانتا كروتشى، وسانتا ماريا نوفيلا وسانتو سبيرينو، والأتزيانا والباديا. وفى يوم ٢٤ يونيو من العام المشار إليه، انتهز حزب الأرابياتى والكومباجناتشى الفرصة للانقضاض عليه. وسرعان ما قلبت له المجالس الحاكمة فى فلورنسا ظهر المجن، فأمعنوا فى التشهير به وتلطيخ اسمه وإذاعة الأغانى والأهازيج التى تحط من قدره وقدر معتقداته، إلى جانب إثارة السوقة والغوغاء ضده؛ لدرجة أنهم لم يتورعوا عن قذف قلايته بالحجارة. وأيضًا سرعان ما تغيرت أحوال فلورنسا وضربت بالفضيلة التى بشر بها سافونارولا عرض الحائط: فامتلأت الحانات بالسكارى، وعادت النساء إلى التزين والعُهر ولبس المجوهرات وارتداء الثياب المبهرجة والفاضحة والتغنى بالأغانى الفاحشة. وهكذا عاد الفسق والمجون إلى ربوع فلورنسا. ولا شك أن هذا الانفلات الأخلاقى حدث نتيجة إدانة ألكسندر السادس لسافونارولا.

ورغم إلحاق البابا الأذى بسافونارولا، فقد ظل الراهب المضطهد يحتفظ بهدوئه. وفى ١٩ يونيو عام ١٤٩٧، كتب هذا الراهب «رسالة تعارض الطرد من الكنيسة فى السر موجهة إلى كل المسيحيين الذين يحبون الله» قال فيها: «إن مثل هذا الطرد باطل فى نظر الله والإنسان؛ لأنه قائم على أسباب واتهامات زائفة من صنع أعدائنا». وأكد

سافوناريولا فى هذه الرسالة انصياعه الدائم إلى الكنيسة، إلا فى حالة إصدار رؤسائها تعليماتهم بانتهاك أوامر الله ونواهيه؛ لأن مثل هذه التعليمات تخالف تعاليم الله. ثم سطر سافوناريولا خطابًا آخر غير مؤرخ يدعو فيه إلى الاستئناف ضد الأوامر البابوية المجحفة التى تضر بصالح الكنيسة، مضيفًا أن المسيحى لا يرتكب خطأ إذا التجأ إلى الجهات العلمانية للتظلم من أية أحكام كنسية جائرة، وأنه يحق له مقاومة العنف بالعنف. وذهب سافوناريولا فى خطابه غير المؤرخ إلى أنه من الخطأ أن يقاطع المسيحيون المطرود من الكنيسة، إلا إذا صدرت إليهم شخصيًا أوامر بذلك .

وحتى يمعن أعداء سافوناريولا فى إيغار صدر البابا ضده، سارعوا بإرسال هذه الرسائل إليه. ولكن من حسن الحظ أن الحكومة الجديدة فى فلورنسا ضمت نفرًا من أصدقائه الذين دعوا البابا إلى إلغاء حكمه بطرد الراهب من الكنيسة. وكتب أنصار الراهب فى مجلس المدينة رسالة إلى بابا روما يرجونه إلغاء الحظر الكنسى على سافوناريولا لما عرف عنه من صلاح وتقوى. وأيضًا هب مجلس العشرة لنصرة الراهب والوقوف بجانبه. ولعب الخطيب المفوه ألساندور براكى دورًا نشيطًا فى إقناع كثير من الكرادلة فى كل من بيروجيا وبنيفينو وكاباشيو ونابولى ببراءة ساحة سافوناريولا من التهم التى يوجهها الكرسى البابوى إليه. وفى روما، وجد هذا الراهب من يدافع عنه فى شخص جيورجيو منيجنو وجيوفانى ناسى. وفى تلك الأثناء عرض عليه كاردينال سيينا الحصول على رشوة منه، فقد بعث إليه بكلمة جاء فيها أنه إذا دفع إليه خمسة آلاف كرونة يتعهد له برفع الحظر الكنسى المفروض عليه. ورغم غرابة هذا العرض فإنه كان مألوفًا فى روما آنذاك، حيث كانت صكوك الغفران تشترى وتباع. وأثار هذا العرض غضب سافوناريولا، الذى علق عليه بقوله إنه لو استجاب له لكان بالفعل يستحق الطرد من الكنيسة.

وفى ١٤ يونيو ١٤٩٧، وقع حادث: فقد وجد دوق جانديا أكبر أبناء البابا غير الشرعيين مقتولاً بخنجر، وقد ألقيت جثته فى نهر التيبر. كان قاتله أخاه سيزار بورجيا كاردينال بلنسية. ويقال إن سبب ارتكابه هذه الجريمة النكراء هو تنافس الأخوين على عشق أختهما لوكريزيا.

وعقب هذه الحادثة المروعة شعر البابا شعورًا عميقًا بالألم والندم على كل الذنوب التى اقترفها، الأمر الذى جعله يسلم قياد الكنيسة إلى لجنة مكونة من ستة كاردينالات

لاجراء الإصلاحات فيها. فضلاً عن أن البابا كلف هذه اللجنة بالنظر فى قضية سافونارولا، الذى أرسل إليه خطابًا لتعزيته. ولكن ندم البابا على فسقه وفجوره لم يدم طويلاً، إذ سرعان ما ارتد إلى حياة الرذيلة بصورة أعنف من ذى قبل، كما أنه اعتبر تعزية سافونارولا له تطاولاً عليه واستهزاء به.

وزاد الطين بلة أن أعداء سافونارولا من حزب الأرابياتى لم يهدأ لهم بال فى سعيهم لدى البابا للفتك به. وهكذا انقسم أهل فلورنسا إلى فريقين متناحرين: فريق يريد أن يورد سافونارولا موارد التهلكة تتمثل فى حزب الأرابياتى، وفريق آخر يذود عنه ويتمثل أساسًا فى حزب البياجنونى وفى زملائه الرهبان فى دير القديس مرقص وفى عدد كبير من الأعيان. وجدَّ الفريق المدافع عن الراهب فى جمع التوقيعات الموالية له، ولكن انتشار وباء الطاعون حال دون إتمام عملهم. ورغم انتشار الطاعون، استمر سافونارولا يخفف عن المصابين ويواسيهم ويمد لهم يد العون فى محنتهم. ورغم أن أشراف فلورنسا عرضوا عليه الاحتماء فى قصورهم الريفية، فإنه أصر على مواجهة أخطار الوباء. وليس أدل على إيثاره من أنه أرسل الرهبان المستجدين ـ ومن بينهم أخوه موريليو ـ إلى القصور الريفية لتجنيبهم غائلة الطاعون. والجدير بالذكر، أن سافونارولا سطر فى تلك الفترة مبحثًا بعنوان: «المبحث الطبى ضد الطاعون» حدد فيه النصائح التى تساعد المنكوبين على مواجهة محنة الطاعون الذى سرعان ـ لحسن الحظ ـ ما انكسرت حدته ليستأنف أهل فلورنسا حياتهم المعتادة.

سافونارولا يعود إلى الوعظ والبابا يعود إلى التهديد (١٤٩٧- ١٤٩٨)

كلف الكثيرون من أشراف فلورنسا كلاً من ألساندور براكى ودومينيكو بوتسى بالتوسط لدى البابا كى يعفو عن سافونارولا. غير أن كل محاولات الوساطة باءت بالفشل الذريع. وأصر البابا على ضرورة مثول سافونارولا أمامه، وذلك بعد بقائه أكثر من ستة أشهر حبيس الدير لا يبرحه انشغل فيها بالكتابة وتدوين أفكاره، ومن بينها كتابته عن بطلان الأمر البابوى بالطرد من الكنيسة إذا كان الأمر صادرًا عن بابا فاسد. واستند سافونارولا فى ذلك إلى أقوال الآباء وآيات الكتاب المقدس القاضية بأن المسيحى الحق يجب عليه طاعة الخالق وليس المخلوق، إذا كانت الشوائب تشوب أحكامه وأوامره. وانبرى للدفاع عن سافونارولا من هذا المنطلق ج.ف. بيكو ديلا ميراندولا؛ مستندًا أيضًا إلى آراء آباء الكنيسة العظام. بدأ بيكو دفاعه بقوله، إن الاتهام البابوى الموجه إلى الراهب اتهام زائف ومغرض يرجع إلى العداوة الشخصية أو الخطأ فى التقدير. وأضاف بيكو، أن البابا أخطأ عندما سمح لنفسه أن يستمع إلى نميمة واغتياب حفنة من الأشرار دون أن يحاول بنفسه التأكد من صحته. ثم أردف بيكو قائلاً، إن اقتراح البابا بضم دير القديس مرقص إلى المجمع الجديد لا يعتمد على موافقة سافونارولا وحده، بل موافقة جميع زملائه الرهبان من الدير موضع الخلاف. ولذا، فإنه من الغرابة أن يخص البابا سافونارولا بالطرد من الكنيسة، فى حين أنه لم يتخذ إجراء مماثلاً ضد بقية المعارضين من زملائه الرهبان. وأكد بيكو أن اقتراح البابا بضم دير القديس مرقص إلى غيره من الأديرة سوف يعود بالضرر على هذا الدير، ولهذا يرى أن سافونارولا لم يرتكب أى خطأ يستحق طلب المغفرة.

وكما سبق أن ذكرنا، لم يجرؤ البابا على التشكيك فى صحة معتقدات سافونارولا الدينية، كما أن الكرادلة المكلفين بفحصها وتمحيصها لم يجدوا فيها أى عيب أو علة. ومن الواضح أن النزاع بين البابا وسافونارولا كان أولاً وأخيرًا صراعًا سياسيًا وشخصيًا. وأدى هذا الصراع إلى انتشار الفسق والمجون اللذين كان الراهب قد نجح فى استئصالهما.

وفى عيد ميلاد السيد المسيح عام ١٩٤٨، ضرب سافونارولا عرض الحائط بالحظر البابوى المفروض عليه، فأقام القداس الرئيسى وناول كل الرهبان وجمعًا غفيرًا من الشعب. ثم سار على رأس موكب مهيب من الرهبان وطاف بهم ميدان القديس مرقص. وجاءه عدد من كبار رجالات جمهورية فلورنسا والتمسوا منه أن يلقى عليهم إحدى مواعظه فاستجاب لهم على الفور. وفى يوم ١١ فبراير ١٤٩٨، اعتلى منبر الكنيسة ليلقى فيهم موعظة قوبل الإعلان عنها باعتراض راعى الكنيسة ليوناردو دى مديسيس، الذى حرض شعبه وبقية الكهنة على مقاطعتها؛ لأنها تمثل انتهاكًا للأمر البابوى بمنع سافونارولا من الوعظ.. غير أن مجلس مدينة فلورنسا أخرسه وهدده بتوجيه تهمة التمرد إليه. وبزوال هذه العقبة تمكن سافونارولا من إلقاء وعظته فى ميعادها، وهى وعظة كرر فيها شرعية مخالفة أوامر البابا التى تتعارض مع ضمير المؤمن وألمح فيها إلى فساد الكنيسة، وأنهاها بحثٍّ المؤمنين على الاستشهاد فى سبيل الله.

وفى ١٥ فبراير من نفس العام (١٤٩٨)، ألقى سافونارولا محاضرة عن خصائص الكاهن، معبرًا عن بالغ حزنه حين يرى الوظائف الكنسية تُباع لمن يدفع أعلى سعر، فضلاً عن أنه هاجم بضراوة حياة البذخ التى يعيشها رجال الكنيسة. وذهب سافونارولا فى وعظة ألقاها يوم ١٨ فبراير ١٤٩٨إلى أن البابا ليس معصومًا من الخطأ، فعدد كبير من البابوات أشرار وبعضهم يصدر مراسيم خاطئة يقوم بإلغائها البابوات الذين يخلفونهم. وأيضًا تناول سافونارولا المؤامرات التى يدبرها بابا روما له، وهاجم إصدار أوامر بابوية بالطرد من الكنيسة نظير مبالغ مالية. ولا شك أن الفساد المستشرى فى الكنيسة شجعه على تحدى البابا وأعوانه ؛ مؤمنًا بأن الله سوف ينصره فى النهاية. وفى آخر مرة أقام سافونارولا القداس ووزع القربان على المصلين، خاطب الله قائلاً إنه يستحق الهلاك على يديه إذا تبين أنه ليس مخلصًا فى كل ما يقول. وبعد أن تقدم

نهار ذلك اليوم أجرى حزب البياجنونى الموالى له الاستعدادات لبدء حملة جديدة لجمع التبرعات من أجل الفقراء، وجمع التحف وأدوات الزينة تمهيدًا لتدميرها. ولكن أعداء البياجنونى من الكومباجناتشى وقفوا له بالمرصاد وهاجموا أعضاءه ونزعوا عنهم عباءاتهم السوداء، كما ألقوا بالصلبان الحمراء التى يمسكون بها وضربوهم بالعصى وقذفوهم بالحجارة. غير أن الموكب الذى نظمه البياجنونى استطاع، بالرغم من ذلك، الوصول إلى ميدان المدينة لإشعال النار فى كومة التحف وأدوات الزينة النادرة التى تفوق فى قيمتها وندرتها الكومة التى سبق لأتباع سافونارولا إحراقها. وكالعادة، تمت عملية الحرق هذه وسط الأهازيج والمزامير والترانيم الدينية، ووسط الابتهاج العظيم الذى اجتاح الناظرين.

وبمجرد أن ألقى سافونارولا كلماته المنتقدة للبابا والمتحدية له والملمحة إلى فضائحه والمعلنة عن فضائح الكنيسة، حتى تلقفتها المطابع وقامت على الفور بنشرها وتوزيعها فى جميع أنحاء إيطاليا، بل إنها تجاوزت الحدود الإيطالية ووصلت إلى الأراضى الألمانية، حيث عبر كثير من الألمان عن شديد إعجابهم بها، فكتبوا إلى الراهب معبرين عن هذا الإعجاب. وما إن بلغ هذا مسامع البابا حتى هاج وماج. وهكذا صارت الحرب الصريحة بينه وبين الراهب تلوح فى الأفق. وفى روما، زاد عدد الكارهين لسافونارولا لتجرؤه على تحدى البابا وإنكاره أية سلطة عليه غير سلطة المولى عز وجل. وقد لعب الراهب ماريانو دا جينازانو دورًا بارزًا فى إذكاء العداوة لسافونارولا.

غير أنه كان مبتذلاً فى عداوة سافونارولا، فقد اعتلى المنبر ليحط من شأنه، بدلاً من تفنيد معتقداته بالحجة والبرهان والعقل. وانخرط فى هجوم مبتذل وقاذع على شخص سافونارولا، متهمًا إياه بأنه يهودى شرير وسارق للتبرعات يخفى كنوزه عن الأنظار. وأظهر الحاضرون من الكرادلة ورجال الدين استياءهم من استخدام ماريانو لهذه اللغة البذيئة القاذعة.

ولم يفتّ هذا الهجوم القاذع فى عضد سافونارولا، الذى توفر على إصدار مبحث جديد بعنوان: «مبحث فى نظام الحكم فى مدينة فلورنسا» بدأه بقوله، إن البشر يحتاجون إلى نظام حاكم. وليس هناك ما يمنع من اتسام هذا النظام بالديكتاتورية أو الحكم المطلق بفرض أن يكون الحاكم فى هذه الحالة رجلاً فاضلاً. ولكن مثل هذا

الحكم المطلق لا يناسب مشارب جميع الشعوب، فشعب فلورنسا الطموح والقلق والمتقلب لا ينفع معه هذا الحكم المطلق، بل هو فى حاجة إلى حكومة مدنية، أو بتعبير أدق إلى نظام جمهورى. ويتناول الجزء الثانى من المبحث نظام الحكم القائم على الحكم المطلق واستبداد رجل شرير، موضحًا فساد مثل هذا النوع من الحكم. أما الجزء الثالث والأخير من هذا المبحث، فيعالج ضرورة إقامة نظام حكم حر يقوم على إنشاء مجلس أعظم يحق له تعيين سائر موظفى الدولة ويحمى الأغلبية من طغيان الأقلية، وهو النظام الذى تمكن سافونارولا من إقامته فى فلورنسا بعد طرد حاكمها الفاسد بييرو دى مديسيس.

وبعد نشر هذا الكتاب، عاد سافونارولا لإلقاء وعظاته التى تهاجم الكرسى البابوى، فبلغ السيل الزبى بالبابا الذى هدد بفرض الحظر الكنسى على جميع أهل فلورنسا وإصدار أمر إلى جميع الدول المسيحية بمصادرة كل ممتلكات تجار فلورنسا، حتى لا تتعرض هى الأخرى ويتعرض أصحابها للطرد من حظيرة الكنيسة. وسعى الكرادلة المعتدلون إلى تهدئة ثائرة البابا، وأفهموه أن تماديه فى عدائه السافر لسافونارولا سوف ينتهى بكارثة وإحداث شرخ هائل فى الكنيسة، وخاصة لأن فرنسا كانت تحرض الكاردينال بييرو فى فينسولى على شق عصا الطاعة على كنيسة روما. ولكن البابا الهائج أبلغ، فى ٢٦ فبراير ١٩٤٨ كلاً من مندوبى فلورنسا لدى روما: براكى وبونسى، بضرورة منع سافونارولا من الوعظ ولام مجلس المدينة؛ لأنه سمح له بالاستمرار فيه وإهانة الكرسى البابوى، وهدد بفرض الحظر الكنسى على مدينة فلورنسا بأكملها إذا لم تتخذ الإجراءات الكفيلة بمنع سافونارولا من الاسترسال فى الوعظ.

وفى نفس اليوم المشار إليه (٢٦ فبراير ١٤٩٨)، أرسل البابا خطاب تهديد إلى مجلس مدينة فلورنسا، أكد فيه من جديد تحديات سافونارولا المتكررة له برفضه الامتناع عن الوعظ والمثول أمام الحضرة البابوية والاستغفار والتوبة، وكذلك رفضه ضم دير القديس مرقص إلى المجمع التوسكانى الرومانى. وأضاف البابا فى خطابه أنه أمر بفرض الحظر الكنسى على كل من يحضر وعظاته ويتحدث إليه أو يتصل به بأى شكل من الأشكال، ثم أصدر أوامره إلى مجلس المدينة بإرسال الراهب سافونارولا إليه تحت حراسة مشددة، معربًا عن استعداده للعفو عنه إذا أعلن توبته والتحفظ عليه فى مكان منفرد حتى لا تنتقل عدوى فساده إلى الآخرين.

غير أن مجلس المدينة لم يكترث بتهديد البابا الذى توقع منه عدم المبالاة؛ ولهذا أرسل البابا فى الوقت نفسه رسالة إلى أكليروس الديومو يأمرهم بمنع سافونارولا من التبشير فى الكنيسة، ولكن الراهب استمر فى الوعظ حتى وقت حل مجلس المدينة الذى كان وشيكًا ولحين انتخاب مجلس مدينة جديد. وقد اتخذ هذا المجلس الجديد موقفًا معاديًا لسافونارولا، إذ ناصره ثلاثة من أعضائه، فى حين ناصبة العداء الشديد الأعضاء الستة الآخرون، ومن بينهم بييرو بوبولتشى الموالى لعائلة دى مديسيس والمنتمى إلى حزب الأرابياتى، ولهذا كان من الطبيعى أن يساير المجلس الجديد البابا فى رغباته. وفى ٣ مارس ١٤٩٨، دعا مجلس المدينة إلى عقد مجلس عام لمناقشة الإجراءات التى ينبغى اتخاذها نحو الراهب المغضوب عليه. وحدثت بطبيعة الحال انقسامات حادة فى صفوف حكومة فلورنسا بين ناقم على الراهب ومتحمس له. وبدا أن المدينة لا تريد اتخاذ أى إجراء ضد سافونارولا، وأخيرًا استقر رأيها على رفض تهديدات البابا. قالت المدينة فى ردها على البابا إن الراهب ونبوءاته يستحقان التقريظ والثناء، ثم اتهمت أعداءه بالرغبة فى بذر بذور الشقاق فى الجمهورية. واختتمت فلورنسا ردها على البابا بقولها: «نحن لا نستطيع أن نطيع أوامر قداستكم، ليس فقط لأن طاعتنا سوف تسىء إلى جمهوريتنا وتظلم رجلاً يستحق كل الخير فى بلده، ولكن أيضًا لأنه حتى لو أردنا فلن يكون بمقدورنا تنفيذ إرادتنا أو طاعتكم دون إثارة الفرقة والشقاق فى صفوف الشعب، ودون تعريض الكثيرين للخطر، نظرًا لما اشتهر به الراهب من صدق وأمانة. إن الألم يعتصرنا لأن الأمور تدهورت بحيث أثارت غضب قداستكم علينا، ولأنكم الآن تحرموننا من الأمل الذى أعطيتمونا إياه فى الماضى بخصوص عنايتكم برفاهية جمهوريتنا المادية. ورغم ذلك، فسوف نستمر فى ولائنا المعتاد للكنيسة والعقيدة الكاثوليكية، على أساس الافتراض بأن مصلحة جمهوريتنا أقرب إلى أفئدتنا من العمل على راحة الآخرين».

ومن الغرابة بمكان أن يصدر هذا الدفاع الحار عن الراهب من مجلس مدينة يناصبه فى مجمله العداء. وأغلب الظن أن هذا المجلس أراد أن ينفخ النار فى الهشيم ليزداد اشتعالاً ويزداد غيظ البابا من سافونارولا. والجدير بالذكر، أن سافونارولا استمر بعد ذلك فى إلقاء وعظاته فى دير القديس مرقص على جماهير غفيرة من المصلين، متحديًا بذلك الحظر البابوى المفروض عليه. ومرة أخرى كرس سافونارولا

وعظاته كى يشرح للشعب أن البابا ليس معصومًا من الخطأ، ضاربًا المثل بالبابا الخاطئ بونيفاس الثامن (١٢٩٤ ـ ١٣٠٣).

ومرة أخرى عاب على الكنيسة الكاثوليكية فسادها بسبب ما تتمتع به من ثراء وسلطان زمنى، واهتمامها البالغ بعَرَض الدنيا الزائل.

ولا شك أن سافونارولا شعر بالحبل يلتف حول رقبته وأن النهاية محتومة؛ ولكنه أبى أن يستسلم وظل يقاوم حتى الرمق الأخير، واستمر فى حملته الضارية على فساد الأكليروس ومناداته بضرورة إصلاح الكنيسة.

منع سافونارولا من التبشير والبابا يستمر في تهديداته (مارس ١٤٩٨)

وصلت رسالة مجلس المدينة والمدافعة عن سافونارولا إلى روما في السادس من مارس ١٤٩٨، وتسلمها البابا في اليوم التالي لوصولها من اثنين من سفراء فلورنسا وأكد البابا عقب تلاوة الرسالة اتهامه لسافونارولا بالتجرؤ على الكرسي البابوي وشق عصا الطاعة عليه. وشكا البابا من أن مجلس المدينة سمح للراهب بالاستمرار في التبشير ولم يفرض عليه الاحتجاب في الدير، حيث إن الراهب نفسه هو الذي قرر الاحتجاب هناك طواعية واختيارًا. وتضمنت أقوال البابا تهديدًا بفرض الحظر الكنسي على كل المدينة إذا لم يتوقف سافونارولا عن التبشير. وعبثًا حاول السفيران (أو المندوبان) الفلورنسيان الدفاع عن الراهب وصحة عقيدته، فقد قال لهما البابا إنه لا يعترض على عقيدته أو سلوكه ولكنه يدينه؛ لأنه كشخص فرض عليه الحظر الكنسي يظهر الاحتقار للكرسي البابوي بعدم طلبه الغفران منه أو إبداء الطاعة له.

وكان بييرو دي مديسيس – آنذاك – يقدم الرشاوي بهدف مساعدته في العودة إلى حكم فلورنسا؛ فضلاً عن أن حزب الأرابياتي سعى إلى إعادته إلى الحكم، كما أن السلطات في ميلانو والبندقية أصرت على ضرورة انضمام فلورنسا إلى التحالف المناوئ لفرنسا. ومرة أخرى وعد البابا بالعفو عن سافونارولا إذا أبدى الندم وطلب المغفرة، وكرر البابا تهديده بمعاقبة كل فلورنسا إذا لم يتوقف الراهب العاصي عن التبشير هناك. وعبر البابا عن نفاد صبره وعدم رغبته في تلقي المزيد من الرسائل عن الراهب، حيث إنه لا شيء سيجعله راضيًا عن فلورنسا وأهلها غير الأفعال وليس الأقوال.

ثم أرسل البابا إلى مجلس مدينة فلورنسا مذكرة أخرى أخف حدة فى لهجتها من الرسالة الأولى. وأراد البابا بمذكرته هذه أن يكسب إلى جانبه القوى المتعاطفة مع سافونارولا مثل مجلس العشرة وحزب البياجنونى. وامتدح البابا فى هذه المذكرة عقيدة الراهب الدينية وأثنى على حياته؛ ولكنه عاب عليه وقاحته.

استخدم البابا أسلوبًا ماكرًا ولئيمًا فى محاربة سافونارولا، فهو لم يلجأ إلى التهديد باستخدام العنف. كما إنه أخفى الوجه السياسى لصراعه مع الراهب، وصور هذا الصراع على أنها مسألة طاعة وشأن كنسى بحت، الأمر الذى جعل مجلس مدينة فلورنسا يفكر فى إيجاد مخرج للأزمة عن طريق عقد جلسة لمجلس الشعب فى ١٤ مارس ١٤٩٨. والجدير بالذكر، أن المشتركين فى هذا المجلس أجمعوا عن بكرة أبيهم على مدح سافونارولا. ولكن مدحه لم يحُل دون حدوث انقسامات داخل المجلس، إذ صوت البعض فى صالح البابا خوفًا من أن يفرض الحظر على المدينة بأكملها، فى حين تهكم البعض الآخر من هذا الحظر ونادوا باستمرار الراهب فى الوعظ والتبشير. وكان جيوفانى كنانكى واحدًا من أبرز المنادين بضرورة الرضوخ للبابا، لأن الحظر البابوى على فلورنسا سوف يضر بتجارتها ضررًا فادحًا. بل إنه ذهب إلى ضرورة تسليم الراهب إلى البابا الذى يحق له توقيع العقاب عليه، غير أن المواطن الواسع النفوذ باولو أنتونيو سودرينى انبرى للدفاع عن سافونارولا متهمًا البابا ببذر بذور الشقاق فى المدينة، ومؤكدًا أن فلورنسا لن تنضم مطلقًا إلى التحالف المناهض لفرنسا والذى يلقى تأييدًا ومؤازرة من البابا. ثم وصف الراهب موضوع الخلاف بأنه جوهرة وقرة عين فلورنسا لأنه ليس له مثيل فى كل أنحاء إيطاليا، وأيضًا حذا مونت لورنزو لانزى حذو سودرينى. ولكن جويد أنتونيو فيسبوتشى خالفه فى الرأى، ذاهبًا إلى أن الحكمة تقتضى تسليم الراهب للبابا من أجل حصول فلورنسا على نصيبها فى العشور المفروضة على ممتلكات الكنيسة، ومن أجل استعادة السيطرة على بيزا. ثم أشار إلى ما سوف يصيب تجارة فلورنسا من خراب نتيجة فرض الحظر البابوى على هذه المدينة. وعبثًا حاول إينيا ديلا ستوفا أن يدحض رأيه، فقد استطاع لورنزو لانزى إقناع عدد كبير من الناس بجدوى الامتثال لأوامر البابا. ودافع لانزى عن الرأى المطالب بتوقف سافونارولا عن التبشير. غير أن الملاحاة لم تنته عند هذا الحد، فقد انبرى فرانسسكو فالورى للدفاع عن سافونارولا ودير القديس مرقص المعروف بطهره وقداسته، ثم أعقبه أنتونيو كايجيانى الذى تحدى الحظر البابوى بكل جسارة موضحًا

أن البابا ليس معصومًا من الخطأ، وأنه تورط فى تناقض جلى عندما فرض الحظر الكنسى على راهب مشهود له بصحة عقيدته وسلامة مسلكه . وأضاف، أن الحظر البابوى يمثل انتهاكًا للحرية التى نعمت بها فلورنسا. وشاركه فى الدفاع عن سافونارولا برناردو نازى، الذى اغرورقت عيناه بالدموع من فرط حزنه وتأثره وحبه لهذا الراهب.

كان عدد أعضاء المجلس المنعقد لنظر موضوع سافونارولا اثنين وثلاثين. ستة منهم ناصروا الراهب، فى حين نصح سبعة عشرة منهم بضرورة توقف الراهب عن الموعظة، أما الباقون فكان موقفهم مذبذبًا.. وبات من الواضح أن الكفة ضد سافونارولا هى الراجحة، وأن مجلس المدينة المناهض له سوف يتخذ قرارًا معاديًا له. واحتار أهل فلورنسا فيما عساهم يفعلون، فهم من ناحية لا يرغبون فى إلحاق أى ضرر بمصالحهم المادية والتجارية، كما أنهم من ناحية أخرى لا يريدون التخلى عن راهبهم المحبوب. وبالنظر إلى أن أعداء الراهب أكدوا على ضرورة الحفاظ على مصالح المدينة المادية وحدها، فقد تغلبت كفتهم على كافة المدافعين عن سافونارولا. ثم إنهم من الناحية الدينية الصرف جادلوا بأنه يجب على المدينة أن تطيع رئيس الكنيسة. فضلاً عن أن الحظر البابوى سوف يلحق الأذى بالتجارتين الرابحتين فى المدينة، وهما الخمر والصوف.

ورغم أن مجلس المدينة كان يتمتع بتأييد غالبية المجلس الشعبى (الباتريشيا)، فإنه دعا إلى انعقاد اجتماع آخر فى ١٧ مارس ١٤٩٨ يضم أهم تسعة عشر مواطنًا من أصحاب النفوذ. ونادى مجلس الشعب بضرورة امتناع الراهب عن التبشير؛ ولكنه فى الوقت نفسه رفض قبول طلبات البابا الأخرى واعتبرها أمرًا مهينًا للجمهورية. وحمل السفير بونسى قرار المجلس إلى البابا ومفاده أن يتوقف الراهب عن الوعظ تنفيذًا للأمر البابوى، مقابل العفو عنه والسماح له بالاستمرار فى الاشتراك فى حياة المدينة الروحية، حيث إن البابا نفسه يشهد له بالفضيلة والخلق القويم وسلامة العقيدة، مما يدل على أن الوشاة لعبوا دورًا بارزًا فى دق إسفين بين الراهب والكرسى البابوى.

وطرأ على موقف بونسى من الراهب تغير ملحوظ، فقد بدأ يعاديه بصورة واضحة بسبب ضيقه من كثرة الثناء العاطر الذى انهمر عليه من كل جانب. قال بونسى بعد تغير موقفه، إنه لا مفر من الانصياع لأوامر البابا تجنبًا لفرض الحظر البابوى على المدينة، كما شكا من أن حياته الشخصية صارت فى خطر. ولهذا فهو يرغب فى أن

تستدعيه بلاده من روما. وذكر بونسى أن البابا هدد بسجن جميع تجار فلورنسا الموجودين فى روما. وفى يوم ٢٢ مارس ١٤٩٨، طلب السفير بونسى مقابلة البابا الذى أرجأ المقابلة حتى يوم الثالث والعشرين من هذا الشهر، أى بعد أن أبقاه منتظرًا فى الفاتيكان لمدة يوم كامل. وكان البابا على علم كامل بالقرار الذى اتخذته فلورنسا حتى قبل استقباله سفير فلورنسا. ثم أخذ البابا - فى وجود هذا السفير - يلوم مجلس مدينة فلورنسا لأنه يسمح للرهبان الآخرين بترديد نفس أقوال ومحاجات سافونارولا من فوق منبر دير كنيسة القديس مرقص. ولكنه ما لبث أن كظم غيظه ليقول لسفير فلورنسا فى هدوء إنه سوف يعمل لصالح هذه المدينة ويعفو عن سافونارولا بمجرد أن يطلب هذا الرجل العفو منه، حيث إن ضيق البابا به لا يرجع إلى سوء مَسلكه أو عقيدته، بل إلى تشبثه بالوعظ وتحدى الحظر الكنسى المفروض عليه. ولكن هدوء البابا كان مصطنعًا ويخفى فى طياته البغضاء والنقمة الشديدة.

وفى ٣١ مارس ١٤٩٨، أرسل بونسى إلى السلطات الفلورنسية يقول إنه عجز عن مقابلة البابا مرة أخرى، وإن كاردينال بيروجيا أخبره أن البابا ينوى إرسال أحد كرادلته إلى فلورنسا لإقناع سافونارولا بالمثول أمامه فى روما وتعهد له بأن تكون رحلته ذهابًا وإيابًا رحلة آمنة. وعبثًا ضاعت سُدًى النصيحة التى سبق لبونسى أن أسداها للبابا، وفحواها أن أية محاولة لانتزاع الراهب من فلورنسا سوف يكون لها أوخم العواقب.

وفى ١٧ مارس ١٤٩٨، وهو اليوم الذى قرر فيه مجلس مدينة فلورنسا منع سافونارولا من التبشير، كان هذا الراهب يلقى وعظته على جمع من النساء فى كنيسة القديس مرقص. كانت وعظته فى ذلك اليوم تفيض رقة وحنانًا وابتهالاً إلى الله كى يعينه على اجتياز محنته. وفى مساء هذا اليوم تلقى سافونارولا أمرًا من مجلس المدينة بالامتناع عن التبشير. وفى اليوم التالى ألقى خطبة الوداع، قال فيها إن المسيحى المؤمن ينبغى عليه اللجوء إلى قسيس اعترافه فإن كان فاسدًا يلجأ إلى الأسقف، فإن كان فاسدًا يلجأ إلى البابا، فإن كان فاسدًا فعليه أن يلجأ إلى المسيح نفسه.

وبعد أن تلقى سافونارولا الأمر بالامتناع عن التبشير اعتلى منبر كنيسته لآخر مرة ليخبر شعبه بالحظر المفروض عليه. وحل محله فى الوعظ والتبشير راهبان آخران، هما دومينيكو دا برشيا وماريانو أوجى. ولكنهما اضطرا أيضًا إلى التوقف عن الوعظ بسبب اعتراض البابا عليهما.

ورغم أن سافونارولا أدرك المصير المشئوم الذى ينتظره، فإنه حاول المقاومة وسعى إلى عقد مجلس كنسى عام لفضح فسق البابا وفضح جرائمه وتزويره للانتخابات البابوية عن طريق الفساد والرشوة. وأيضًا أراد سافونارولا من هذا المجلس الكنسى أن يثبت هرطقة هذا البابا وعدم استحقاقه لرئاسة الكنيسة.

وأرسل سافونارولا رسائل إلى ملوك فرنسا وإسبانيا وإنجلترا وألمانيا والمجر، يقول فيها بعدم شرعية الانتخابات البابوية التى خاضها البابا ألكسندر السادس؛ لأنه اعتمد على رشوة الكرادلة للحصول على أصواتهم. وأيضًا أضاف فى رسالته، إن البابا ليس مسيحيًا ولا يؤمن بالله ويفوق فى شره جميع الكفار. وتوقع سافونارولا من هؤلاء الملوك، وعلى رأسهم ملك فرنسا، التحرك من أجل انتشال الكنيسة من وهدتها. غير أن سافونارولا كشف عن مضمون رسائله إلى ملوك أوروبا لنفر من الغادرين وأصدقاء السوء، طالبًا منهم مساعدته فى إيصال رسائله إلى هؤلاء الملوك. ولكن أصدقاء الغدر أفشوا سره لدى البابا. وهكذا وقعت رسائل سافونارولا فى يد عدوه اللدود، الذى طاش عقله بسبب تجرؤ الراهب عليه. ومنذ تلك اللحظة بدأت الأحداث تتوالى على نحو سريع يفوق قدرة الراهب على التوقع.

الكثيرون من أهل فلورنسا يتخلون عن سافونارولا (٧ أبريل ١٤٩٨)

بين عشية وضحاها تخلى الكثيرون من أهل فلورنسا عن سافونارولا الذى كان فيما مضى معبودهم، وفى غمضة عين انفضَّ عنه أنصاره ومريدوه. واعتلى منبر كنيسة سانت كروتشى راهب فرانسيسكانى يدعى فرانسسكو دى بوجليا ليشن حملة شعواء على سافونارولا، راميًا إياه بالهرطقة والانشقاق، وواصفًا له بالنبى الكاذب. وتحداه الراهب الفرانسيسكانى أن يتعرض لمحنة النار حتى يثبت صحة معتقداته الدينية، وهى دخول النار دون الاحتراق بها. وعز على الراهب دومينيكو أن يرى أستاذه سافونارولا يتعرض للإهانات فاقترح إقامة مناقشة عامة يرد فيها سافونارولا على شانئيه؛ وخاصة فرانسسكو دى بوجليا الذى تخلف عن الحضور.

ومن ناحيته، تطوع الراهب دومينيكو للدفاع عن أستاذه وأبدى استعداده لأن ينوب عنه فى اجتياز محنة النار؛ حتى يتسنى لسافونارولا الاضطلاع بالمهام الجسام. عندئذ قال الراهب الفرانسيسكانى، إنه يتحدى سافونارولا ولا يتحدى سواه.

وراق هذا التحدى فى عيون الكومباجناتشى الذين يناصبون سافونارولا العداء ورأوا فى اختبار النار أفضل وسيلة للتخلص منه؛ لأنه إذا قبل التحدى فسوف تلتهمه النار، وإذا تراجع فسوف ينفض عنه المؤمنون بقداسته. وفى هذه الحالة الأخيرة سوف يحدث هرج ومرج يسمح باغتياله. وأبدى مجلس المدينة ترحيبًا بوضع سافونارولا أمام هذا الاختبار المهلك. وفى يوم ٢٨ مارس ١٤٩٨، تقدم الراهب الفرانسيسكانى إلى مجلس المدينة بورقة جاء فيها أنه على استعداد لمنازلة

سافونارولا فى مواجهة محنة النار، رغم إدراكه بأنه يقل عنه فى صلاحه وقدرته على فعل الخير. والغريب أن مجلس مدينة فلورنسا لم يجد غضاضة فى تعريض راهبها المعبود لخطر النار. ورغم أن بابا روما كان فى سريرته يرحب بتعريض سافونارولا لمحنة النار، فإنه تظاهر بمعارضتها. والجدير بالذكر، أن سافونارولا لم يَهَب النار أو يخشاها، وكان مقتنعًا فى قرارة نفسه بأن معجزة سوف تنقذه من الموت حرقًا. وهو اقتناع شاركه فيه أنصاره ومؤيدوه من حزب البياجنونى. علمًا بأن نحو ثلاثمائة راهب من أتباعه أبدوا استعدادهم لخوض اختبار النار تضامنًا مع معلمهم ورائدهم.

وفى يوم ٢ أبريل ١٤٩٨، تطوع الراهبان مالاتستا ساكرامورو وروبرتو سالفياتى للتضحية بنفسيهما دفاعًا عن كنيسة القديس مرقص. وأخيرًا تحدد يوم ٧ أبريل ١٤٩٨ لإجراء اختبار النار لكل من الراهب دومينيكو والراهب جوليانو روندنيلى، الذى استدعى لمغادرة فلورنسا فى آخر لحظة. وأعدت منصة الحرق فجاء سكان فلورنسا زرافات ووحدانًا للفرجة على هذا المشهد المثير. وحضر المسئولون عن المدينة برفقة حراس مدججين بالسلاح وأغلقت منافذ المدينة. باستثناء ثلاثة منها وضعت تحت الحراسة المشددة، وانتشر الجنود فى ربوع المدينة. وحتى يضمن مجلس المدينة عدم نشوب أحداث شغب كلف فرانسسكو جواتلروتى وجيوفانى باتستا رودلف بمراقبة تصرفات رهبان دير القديس مرقص، فى حين كلف بييرو وينجلى ألبرتى وتوماس أنتينورى بمراقبة فريق المينورايت Minorites المناهض لسافونارولا والذى طلب من مجلس المدينة اتخاذ بعض الإجراءات الاحترازية حتى يتساوى الطرفان المتحديان فى التعرض للخطر. وأعطى سافونارولا تعليمات للموالين له بالاستمرار فى الصلاة دون انقطاع حتى ينصر الله أتباعه، كما أنه أمر رهبان كنيسة القديس مرقص بالسير فى موكب يتكون من نحو مائتى راهب، وهم يحملون صليبًا للطواف فى ميدان الحريق. وتقدم نصير سافونارولا الراهب دومينيكو حاملاً صليبًا كبيرًا وملتحفًا وشاحًا من الجوخ الأحمر القانى، وسار مرفوع الرأس منتصب القامة نحو المحرقة يصحبه شماس ومساعد شماس، وبدا وجهه هادئًا ساكنًا. وتبعه سافونارولا (الذى كان لا يريد تنفيذ اختبار النار أصلاً)، وهو يحمل قربان المناولة وعلى جانبه الراهب فرانسسكو سالفياتى وعلى الجانب الآخر الراهب مالاتستا ساكرامورو. وسار خلفهم عدد كبير من حملة المشاعل وهم يتغنون بالمزامير. وبمجرد أن اقترب الموكب من الميدان انضم إليه حشد هائل من النظارة، وهم يغنون المزامير ويهزون الأرض هزًا بقرقعة أصواتهم.

وبدا وكأن كل فلورنسا قد خرجت عن بكرة أبيها لمشاهدة هذا المنظر الرهيب، واشرأبت الأعناق واعتلى البعض التماثيل والأعمدة لمشاهدة هذا المشهد. وظل هذا الجمهور ساهرًا فى الساحة حتى مطلع الفجر.

وركع الراهب دومينيكو أمام مذبح مقام لهذا الغرض واستغرق بكل حواسه فى الصلاة، فى حين وقف المرافقون له فى صمت رهيب. واحتشد فى الميدان ثلاثمائة من أشجع الجنود الموالين لدير القديس مرقص، تحت إمرة ماركوشيو سالفيتى وفى المقابل اجتمع مئات الكومباجناتشى المناوئين لسافونارولا، تحت إمرة دوفو سبينى. وفى الأمام وقرب القصر احتشد خمسمائة جندى تابع لمجلس المدينة، تحت قيادة جيوفانتشينو ديلا فنشيا بهدف حراسة الميدان، وهكذا اجتمع فى هذا الميدان نحو ألف رجل على أهبة الاستعداد لمهاجمة سافونارولا بمجرد صدور التعليمات إليهم. وكما كان سافونارولا رابط الجأش ظل مريده دومينيكو كذلك، فهو لم تهتز له خلجة عندما رأى المحرقة المعدة له وقد امتلأت بالخشب والبارود والزيت والقار وغيرها من أدوات الاشتعال، فى حين أن غريمه فرانسسكو دى بوجليا وجيوليان تلكآ داخل قصر المدينة يضيعان الوقت فى جدل عقيم مع أعضائه.

ورأت طائفة الفيزورايت المتآمرة مع حزب الأرابياتى على حياة سافونارولا نفسها فى موقف لا تحسد عليه. وساعدهما فى التهرب من مواجهة النار بييرو ديجلى ألبرتو الذى عين مشرفًا على اختبار النار.

وأشاع هذا الرجل أن سافونارولا بصدد إضفاء قوة سحرية على الوشاح الأحمر الذى اتشح به مريده دومينيكو، ولهذا طالب أعداؤه أن ينزع الوشاح من فوق جسده، وقام دومينيكو بالفعل بخلع وشاحه على مضض. وأيضًا تعلل الميورايت بأن رداءه الكهنوتى مسحور، فأبدى الراهب استعداده لاستبدال رداء أحد زملائه الرهبان به. وتم إدخاله فى القصر ونزع كل ملابسه عنه وإلباسه ملابس الكهنوت التى يرتديها زميله الساندرو ستروزى، ثم اقتادوه إلى الميدان. وطلب أعداء سافونارولا منه الوقوف بعيدًا عن مريده حتى لا يتمكن من سحر ملابسه. باختصار، كان دومينيكو على أتم استعداد أن يفعل كل ما أراده أعداؤه منه حتى يسمحوا له بمواجهة النار، أما متحديه فرانسسكو دا بوجليا فقد ظل يتلكأ فى القصر كى يهرب من امتحان النار. وساور القلق سافونارولا، فأخذ يتشكك فى نوايا الطرف الآخر الذى ظل يجادل ويتناقش

داخل القصر. وضاق سافونارولا ذرعًا بهذا التحيز الواضح لصالح مناوئيه. وعبثًا طالب سافونارولا بسرعة خروجهم من القصر.

وبسبب انتظار الجماهير المحتشدة فى الميدان لفترة طويلة أمضتها فى الصوم والصلاة، بدأ التعب والإعياء يظهر عليها، كما بدت أمارات الغضب ترتسم على وجوه الحاضرين. وأخذت صيحات الجماهير ترتفع بالشتائم وصيحات التأفف والاستنكار، عندئذ انتهز حزب الأرابياتى المعادى لسافونارولا هذه الفرصة السانحة ونجح أحد أعوانه، وهو جيوفانى مانتى، فى إثارة الشغب والاضطرابات. وساد الميدان هرج ومرج عظيم ساعد عليهما إغلاق معظم منافذ الميدان. وهكذا وجد الجمهور المحتشد نفسه محاصرًا فاندفع نحو القصر واقتحمه. ورأى الأرابياتى أنها لحظة مناسبة لإلقاء القبض على سافونارولا والإجهاز عليه على الفور؛ ولكن سالفياتى شهر حسامه ورسم بحده خطًا على الأرض وصاح قائلاً: «من يجرؤ ويتجاوز هذا الخط سيذوق طعم سيف ماركوشيو سالفياتى». قالها بكل حزم وتصميم فخاف أعداء سافونارولا من التقدم. وهكذا فشلت مؤامرة الأرابياتى فى التخلص من سافونارولا.

وعاد الهدوء إلى جمهور الحاضرين فى الميدان وانتظروا فى لهفة لما سوف يحدث، الأمر الذى زاد من حرج وحيرة مجلس المدينة. وشاءت الأقدار فى تلك اللحظة أن تهب عاصفة عاتية وتهطل أمطار غزيرة؛ ولكن هذا الجو الذى اكفهر فجأة سرعان ما صفا فجأة وظل الجمهور المحتشد مسمرًا فى مكانه يريد أن يرى نهاية لهذا المشهد المثير. ومرة أخرى تعلل أعداء سافونارولا بضرورة انتزاع الصليب من يد دومينيكو الذى وافق على ذلك، قائلاً إنه يكتفى بالإمساك بقربان المناولة فاعترض المينورايت بأنه يريد إفساد القربان المقدس بحرقه. عندئذ نفد صبر دومينيكو ورفض أن يقدم المزيد من التنازلات، وهكذا ظل أعداء سافونارولا يتفننون فى إضاعة الوقت حتى هبط المساء، فأعلن مجلس المدينة أنه لا يمكن تنفيذ اختبار النار تحت جنح الظلام.

واستبد الضيق بالشعب المنتظر وأنحى الكثيرون بالملامة على سافونارولا، قائلين إنه كان يجدر به أن يجتاز محنة النار وحده حتى يثبت للعالم قداسته وقوته الخارقة للطبيعة. حتى البعض من حزب البياجنونى الموالى له ذهب إلى هذا الرأى نفسه. واستغل حزب الأرابياتى ما حدث لتلطيخ سمعة سافونارولا واتهامه بأنه دعىّ ونبى

مـزيف بدليل أنه تجنب أن يواجـه النار وحـده، وكـذلك اسـتـغلت طائـفـة المـينورايت المعادية هذه الحادثة للحطّ من شأن سافونارولا، الذى أصبح فى غمضة عين عدو الشعب الذى لم يتورع عن مهاجمة دير القديس؛ ولكن ماركوشيو سالفياتى وجنوده البواسل دافعوا عن الدير دفاعًا مجيدًا.

وعندما دلف سافونارولا إلى الدير وجد النسوة لا زلن يصلين فروى لهن بإيجاز ما حدث، ثم صرفهن ليعود إلى قلايته محزونًا وكسير القلب. أما طائفة المينورايت، فقد غمرتها البهجة. وتعبيرًا عن امتنانه لها ولخدماتها، منح مجلس المدينة كل فرد فيها نظير خيانته معاشًا قدره ستون ليرة لمدة عشرين عامًا تدفع فى السابع من أبريل من كل عام احتفالاً بهذه الذكرى.

الزج بسافوناورلا فى السجن

(٨ و ٩ أبريل ١٤٩٨)

نجحت المؤامرة التى دبرها فريق الأرابياتى الخاصة بامتحان سافوناورلا بالنار فى تهييج خواطر شعب فلورنسا ضد هذا الراهب ومريديه، فقد كان شعب هذه المدينة يود أن يتعرض سافوناورلا وتلميذه دومينيكو للنار دون أن يلحق بهما أذى لإخراس ألسنة شانئيه ومعارضيه، حتى وإن كان من تحداهما قد تهرب من دخول امتحان النار.

حتى حزب البياجنونى الموالى لسافوناورلا بدأ لأول مرة يشك فى امتلاكه لأية قوى خارقة للطبيعة، كما بدأ يصدق وشايات وأراجيف الأرابياتى عنه. ونجم عن ذلك انفراط عقد أنصار سافوناورلا الذين أصبحوا الآن يتعرضون للاعتداء عليهم أثناء سيرهم فى الشوارع. ورغم ذلك، فقد فكرت بعض فلول الموالين للراهب فى حمل السلاح للدفاع عنه. ولكن الراهب ونفرًا من أتباعه، وعلى رأسهم فرانسسكو فالورى، عارضوا هذه الفكرة معارضة شديدة؛ رافضين أن يكونوا البادئين بالعدوان وسفك الدماء.

وفى صبيحة يوم الثامن من أبريل عام ١٤٩٨ الموافق يوم أحد السعف، اعتلى سافوناورلا منبر دير كنيسة القديس مرقص ليلقى وعظة فى منتهى الإيجاز ويعلن استعداده لملاقاة الردى من أجل شعبه وأن يقدم جسده قربانًا لله. ثم بارك الحاضرين واستأذنهم فى الانصراف، وهو يشعر بأنها المرة الأخيرة التى يخاطبهم فيها. وفى وقت متأخر من هذا اليوم، ذهب البعض من حزب البياجنونى إلى كنيسة القديس

مرقص ثم توجهوا بعد ذلك إلى مقر كنيسة الديومو، حيث كان من المقرر أن يلقى الموعظة الراهب ماريانو ديجلى أوجى المتحمس لسافونارولا. وكان برفقة الراهب ماريانو راهبان آخران، هما: مالاتشيا ودومينيكو، غير أن الدهماء قذفوهم بالحجارة أثناء سيرهم فى الطريق، كما أحاطت بهم مجموعة من الأرابياتى الذين غمرتهم الفرحة بانتصارهم على غريمهم. وأيضًا تعرض للقذف بالحجارة مسكن أندريا كامبينى، أحد غلاة المتحمسين لسافونارولا. وعند وصولهم إلى كنيسة الديومو وجدوا حشدًا من الشعب يشغل مقاعدها، كما وجدوا فريق الكومباجناتشى المعادى للراهب يحيطون بمدخل الكنيسة ويهينون كل من يدخلها، قائلين إن الموعظة المقرر إلقاؤها قد ألغيت. ولم يرق هذا الافتراء الصارخ فى عيون البياجنونى فاشتبكوا بالكلام مع حزب الكومباجناتشى. وأدى الاشتباك باللفظ إلى الاشتباك بالسلاح. ورغم عدم تعرض أى من الحاضرين للأذى، فإن هذا التهديد باستخدام العنف أثار حمية أتباع الراهب سافونارولا الذين أسرعوا إلى بيوتهم لإحضار سلاحهم استعدادًا للمواجهة، فى حين قام أعداؤهم بالتحكم فى نواصى الشوارع، كما ساروا فى الطرق يصرخون بأعلى صوتهم: «لنذهب إلى كنيسة القديس مرقص حاملين المشاعل» ثم اجتمعوا فى ميدان مجلس المدينة حيث تزايد عددهم فتحركوا فى اتجاه الدير، وهم يلوحون بالسلاح ويطلقون أشرس الصيحات. وفى الطريق لمحوا رجلاً اسمه بيكورى متوجهًا إلى كنيسة سانتسيما أنوتزريانا، وهو يتلو المزامير. فتبعه الجمع الصاخب وقاموا بقطع رقبته. وخرج على الضوضاء من محله صانع نظارات مسكين يطلب من الجمع التزام الهدوء، فقتلوه بطعنة سيف نجلاء فى رأسه وارتفع عدد القتلى. وما إن اقتربوا من كنيسة القديس مرقص، حتى شاهدوا جمعًا من الناس منصرفًا إلى الصلاة فقذفوهم بالحجارة وحدث هرج ومرج عظيم وأخذت السيدات اللاتى يصلين فى الكنيسة يصرخن وولّى المصلون الإدبار؛ فخلت الكنيسة من المصلين، ولم يبق سوى حفنة قليلة من المصلين صمموا على الدفاع عن الكنيسة حتى الرمق الأخير. وأحكم المهاجمون إغلاق أبواب الكنيسة.

كان عدد المستميتين فى الدفاع عن سافونارولا ثلاثين شخصًا. وحين أيقن هؤلاء الأخطار المحدقة بالكنيسة استعدوا للدفاع عنها بقوة السلاح، على غير علم سافونارولا ومريده دومينيكو اللذين كانا يرفضان استخدام العنف. ولكن اثنين من

الرهبان، هما: سيلفسترو وفرانسيسكو دى مديسيس شجعا المدافعين عن كنيسة القديس مرقص على تهريب الذخيرة والسلاح إلى قلايات هذا الدير. وتولى تهريب السلاح إلى الدير فرانسسكو دافانزاتى، الذى أشرف على توزيعه على الرهبان القادرين على الدفاع عن الدير. وحمل السلاح داخله ستة عشر راهبًا، على رأسهم الراهب لوكا والراهب بنيديتو.

وعبثًا حاول الراهب دومينيكو إقناع زملائه بإلقاء السلاح وبعدم إراقة الدماء، فقد تصاعدت صيحات الجمهور المحمومة خارج الكنيسة وأخذوا يهاجمون أبوابها بعنف أكبر. عندئذ قرر سافوناورلا المخاطرة بحياته والخروج بنفسه لمواجهة الحشد الغاضب وهو يحمل الصليب فى يده، قائلاً لزملائه إن واجبه يقتضى منه أن يفعل هذا، حيث إنه السبب فى هبوب هذه العاصفة. واستبد القلق بالرهبان على حياته فبكوا وابتهلوا إليه ألا يفعل هذا؛ لأن جمهور الغوغاء الغاضب سوف يمزقه إربًا إربًا. وشكا أتباعه من أنهم سوف يكابدون اليتم من بعده وقاموا بمنعه من الخروج. فلم ير سافوناورلا سوى أن يحمل القربان المقدس ويطلب من الرهبان الاستغراق فى الصلاة.

حدث هذا قبل الغروب بساعتين. وشجع الجمهور المحتشد على الهجوم على كنيسة القديس مرقص أنهم لم يواجهوا أية مقاومة، فضلاً عن أن حرس مجلس المدينة جاء ليشترك معهم فى الهجوم. وفى تلك اللحظة حضر مندوب عن مجلس المدينة لإبلاغ الرهبان الحاضرين بمضمون المرسوم الذى أصدره مجلس المدينة، والقاضى بوضع الرهبان السلاح والحكم على سافوناورلا بالنفى وأمره بمغادرة أراضى فلورنسا فى مدى ١٢ساعة. وأضاف المرسوم أنه سوف يوفر ملاذًا آمنًا لبقية الرهبان. وفى تلك اللحظة قرر فرانسسكو فالورى المعروف بولائه الشديد لسافوناورلا مبارحة الدير لما رآه من مقاومة واهنة من جانب الرهبان ضد المعتدين، فطلب منهم إنزاله من فوق حائط خلفى للدير ليذهب إلى بيته بقصد حشد قواه والموالين له لمقاتلة المهاجمين على الدير. ولكن الدهماء لم تمهله فحاصرت منزله وهددت بإحراقه فيه. واستدعاه مجلس المدينة للمثول أمامه على الفور فلم يتردد فى الخروج من بيته وهو رابط الجأش، يشق طريقه بكل هدوء بين صفوف الغوغاء، ولكن خصومه الشخصيين الموتورين بادروا بالهجوم عليه وفتكوا به بحد السيف. كما قتلوا زوجته حين أطلت برأسها من النافذة لترى ما حدث لزوجها. ورغم أن الغوغاء اقتحموا منزل فالورى

وعاثوا فيه فسادًا، فإن مجلس المدينة آثر أن يتجاهل هذه الانتهاكات ولم يرفع إصبعًا واحدة لمحاسبة المسئولين عنها. ثم قام الرعاع بمهاجمة منزل أندريا كامينينى ونهبه.

اشتد هجوم الحشد المتجمع على الدير ونجحوا فى اقتحامه أثناء تأدية الرهبان الصلاة . ولما أدرك الرهبان مدى الخطر الداهم علهم، انبروا للدفاع عن أنفسهم بقوة بمشاعل الكنيسة والصلبان المعدنية وغيرها من الأشياء. ونظرًا لقوة دفاعهم عن أنفسهم، اعتقد المهاجمون أن الرهبان استدعوا الملائكة لحماية الدير فخافوا ولاذوا بالفرار. ولم يقف الرهبان المسلحون الموالون لسافونارولا ساكتين، بل اندفعوا للالتحام بالمهاجمين وحدث اشتباك مسلح بين الرهبان والمهاجمين وسقط ضحايا من الجانبين المتقاتلين. غير أن الرهبان أبلوا بلاء حسنًا فى هذه المعركة، الأمر الذى مكنهم من صد أعدائهم والانتصار عليهم. ثم أصدر مجلس المدينة مرسومًا جديدًا يدعو الرهبان المتمردين إلى الخروج من الدير فى غضون ساعة واحدة، فطلب عدد منهم توفير الحماية والأمان لهم. وأصبح من الواضح أن مجلس المدينة يضمر للدير شرًا. ومع ذلك، فقد ظل سافونارولا يصلى مع قلة من الرهبان وسط قرقعة السلاح وتأوهات الجرحى وحشرجات الموتى. وهكذا تحولت كنيسة القديس مرقص فى فلورنسا إلى ساحة قتال، حتى المنبر الذى اعتلاه سافونارولا كى يدعو إلى السلام تحول إلى نقطة ارتكاز قتالية. وتألم سافونارولا أن يحدث كل هذا بسببه، وزاد من ألمه عجزه عن وقف حمامات الدم الذى لطخ أرجاء الكنيسة. وكان إطلاق النار كثيفًا، لدرجة أن الرهبان اضطروا إلى فتح نوافذ الكنيسة حتى لا يخنقهم الدخان المتصاعد من الطلقات ورفع سافونارولا القربان المقدس، وطلب من البقية الباقية من الرهبان أن تتبعه واجتاز بهم عنبر النوم حتى وصل إلى مكتبة الدير اليونانية. وهناك رأى تلميذه ومريده الراهب بنيديتو يهبط الدرج عدوًا، وقد جن جنونه وشهر سلاحه للتصدى للمهاجمين وجهًا لوجه. عندئذ وضع سافونارولا يده على مريده ووبخه قائلاً: «أيها الراهب بنيديتو، ألق سلاحك واحمل الصليب. إننى لم أقصد أن تحدث إراقة الدم على أيدى إخوتى»؛ فامتثل بنيديتو لأمر سافونارولا.

وأصدر مجلس المدينة مرسومًا نهائيًا يهدد وينذر بالشر المستطير أى راهب يقاوم، كما يأمر الرهبان سافونارولا ودومينيكو وسيلفسترو بالحضور إلى مقر المجلس دون إبطاء، واعدًا إياهم بعدم التعرض لهم بالأذى. وأصر سافونارولا على الاطلاع على

المرسوم بنفسه فاضطر الرسول إلى العودة إلى مجلس المدينة لإحضار المرسوم. وفى الوقت نفسه، وضع سافونارولا القربان المقدس فى قاعة المكتبة وجميع الرهبان من حوله، وخاطبهم لآخر مرة قائلاً: «أبنائى الأحباء»، إننى أوكد صحة مذهبى فى حضرة الله وحضرة القربان المقدس وفى وجود أعدائنا داخل الدير. إن كل ما قلت جاءنى من لدن الله. وهو يشهد لى فى السماء. إننى لا أنطق كذبًا. ولم يخطر لى أن المدينة بأكلمها سوف تناصبنى العداء بمثل هذه السرعة، وإنى للمرة الأخيرة أقول لكم: اجعلوا من الإيمان والصلاة والصبر أسلحة تتمسكون بها. إننى أتركتكم فى ألم ممض وحزن عظيم كى أسلم نفسى إلى أيدى الأعداء؛ لأننى لا أعرف ما إذا كانوا سيقتلوننى أم لا. ولكن بعد موتى سأتمكن بالتأكيد من تقديم العون إليكم وأنا فى السماء على نحو أفضل من المساعدة التى قيض لى تقديمها لكم على الأرض. تعزوا واحتضنوا الصليب، فسوف تجدون السبيل إلى الخلاص عن طريقه».

استطاع المهاجمون السيطرة على الدير سيطرة كاملة. وهدد جيوفاتشينو ديللا فينشيا قائد حرس مجلس المدينة أن يدمر أسوار الدير بالمدافع، إذا امتنع الرهبان عن تنفيذ أوامر مجلس المدينة. وفى محنتهم خذلهم الراهب مالاتستا ساكرامورو، الذى كان إلى وقت قريب شديد الولاء لسافونارولا. ومن ناحيته، استعد سافونارولا للموت فاعترف أمام زميله دومينيكو وأخذ منه القربان المقدس استعدادًا لاستسلامهم جميعًا. أما الراهب سيلفستر، فقد اختبأ بحيث لم يعثر له على أثر.

واقترح الرهبان إنزال سافونارولا من فوق حائط الدير حتى لا يقع فى أيدى مجلس المدينة العازم على الفتك به. وكاد هذا الراهب أن يوافق على هذا الاقتراح؛ ولكن الراهب مالاتستا التفت إليه متسائلاً: «أليس الراعى يضحى بحياته فى سبيل رعيته؟». وتأثر سافونارولا بهذه الكلمات تأثرًا عظيمًا فقبلهم ثم اصطحب تلميذه دومينيكو ليسلما نفسيهما إلى مندوبى مجلس المدينة، بينما أوصى سافونارولا بقية الرهبان بعدم السماح لبذور الشك أن تتطرق إليهم، مؤكدًا أن أعمال الله سوف تستمر بلا انقطاع وأن موته سيعجل بها. واقتيد سافونارولا وتلميذه دومينيكو خارج الدير وسط صيحات الغوغاء المفترسة، وقد انتشوا بنشوة الظفر والانتصار. وشاهد الراهب بنيديتو هذا المشهد فانخرط فى البكاء والنشيج وقال إنه يريد أن يرافق سيده إلى السجن؛ ولكن أحدًا لم يلتفت إليه. وحملت الجماهير المحتشدة كلا الراهبين

سافونارولا ودومينيكو إلى ميدان كنيسة مرقص. وارتفعت صيحاتهم التى تصم الآذان، لدرجة أن بنيديتو اعتقد أن الدهماء لابد وأنهم قتلوا سافونارولا على الفور.

وفى الساعة الواحدة مساء، احتشدت الجماهير حوله وهى تلوح بالسيوف والحراب هازئه به ومسلطة المصابيح اللامعة على عينيه، ساخرة منه بقولها: «انظر لترى النور الحقيقى» ولسعوه بالمشاعل وضربوه وعيَّروه قائلين: «تنبأ من ضربك». وبلغت ضراوة الغوغاء حدًا جعل من العسير جدًا على حراسه حمايته. وظل الشعب يستهزئ به بكل وحشية حتى أدخلوه مبنى مجلس المدينة، وأثناء دخوله ركله أحد الواقفين فى عجزه وهو يصيح: «هذا هو المكان الذى يحتفظ فيه بنبوءاته!».

وعندما مثل الراهبان (سافونارولا وبنيديتو) أمام رئيس مجلس المدينة، سألهما ما إذا كانا لايزالان يعتقدان أن الله هو الذى أوحى لهما بما يقولان فأجابا بالإيجاب. عندئذ أمر رئيس مجلس المدينة بوضع كل منهما فى سجن منفرد. وأسرع هذا الرجل بإبلاغ روما وميلانو وكل الأقطار المعنية بما حدث بطرق مختلفة، تتناسب وفقًا لطبيعة موقفهما من سافونارولا. وأرسلت فلورنسا إلى بونسى مندوبها فى روما تقريرًا يتضمن أدق التفاصيل بما حدث وتطلب منه أن يحصل من البابا على الصفح عنهم، لأنها سمحت لسافونارولا بإلقاء مواعظه الطويلة ولأنها قامت بإلقاء القبض على رهبان تابعين للكرسى البابوى. وأيضًا دعا مجلس المدينة البابا أن يتولى محاكمة الرهبان المحتجزين. وبطبيعة الحال هلل البابا لهذه الأخبار السعيدة وامتدح مجلس المدينة، واصفًا إياه بأبناء الكنيسة المقدسة الصالحين وغفر لهم ما فعلوه ثم باركهم. وانتهز مجلس المدينة هذه الفرصة السانحة فسأل البابا عن نصيب فلورنسا من عشور الكنيسة فوعدهم البابا خيرًا. وأيضًا قام دوق ميلانو بتهنئة مجلس المدينة على العمل المجيد الذى قام به، واعدًا إياه بتسليمه مدينة بيزا فى غضون أيام قليلة. وشاء حظ سافونارولا العاثر أن يتوفى ملك فرنسا شارل الثامن القادر على حمايته، والذى كان يحبه ويؤمن بقدرته على التنبؤ.

التحقيق مع سافونارولا وعجز المحققين عن إثبات أنه مذنب (٩ - ٢٥ أبريل ١٤٩٨)

إلى جانب سافونارولا ودومينيكو وسيلفستر، ألقى مجلس المدينة فلورنسا القبض على تسعة عشر راهبًا ومواطنًا علمانيًا لدفاعهم عن الدير. وبعد استسلام رهبان كنيسة القديس مرقص نهبها المهاجمون ثم قاموا بتفتيشها بكل دقة، بهدف العثور على أية أوراق من شأنها إثبات ضلوعهم فى مؤامرة. وأراد حزب الكومباجناتشى المناوئ لسافونارولا التشنيع عليه وتلطيخ سمعته، فقام بجمع كل الأسلحة التى عثروا عليها فى الكنيسة ووضعوها فى عربة يجرها حصان وطافوا بها فى الشوارع وهم يصيحون: «انظروا إلى معجزات كنيسة القديس مرقص..! انظروا إلى معجزات الرهبان! وهذه دلائل محبته لشعب فلورنسا» وكان لهذا التشنيع أثره السيئ فى نفس الجماهير التى رأت أن سافونارولا خدعها وغرر بها عندما أحجم عن اجتياز امتحان النار، وعندما فشل فى حماية الدير من الوقوع فى يد أعدائه. وانتهز مجلس المدينة هذه الفرصة فدعا إلى اجتماع مجلس الشعب، الأمر الذى يشير إلى نيتهم عدم إطلاق سراحهم كما وعدوا بذلك، وأيضًا نيتهم فى الضرب عرض الحائط بقوانين الجمهورية وأعرافها.

وطرح المجتمعون للنقاش موضوع الرهبان الثلاثة المقبوض عليهم: هل يتم التحقيق معهم فى فلورنسا أم فى روما حسب طلب البابا؟ ثم ماذا يجب عمله إزاء مجلسَى العشرة والثمانية اللذين أبديا تعاطفًا واضحًا مع سافونارولا؟ ورأى المجتمعون ضرورة أن يُستبدل بهؤلاء عناصر موالية لهم ؛ كى يتمكنوا من اتخاذ ما يشاءون من إجراءات. وقال جويد أنتونيو فيسبوتشى ممثل الهيئة القانونية والمعارض بشدة

لسافونارولا، إنه لا ينبغى إذاعة كل تفاصيل التحقيق على الجمهور وإن الأجدر عدم إرسال سافونارولا إلى البابا للتحقيق معه والاكتفاء بتبليغه بحبسه فى فلورنسا، التى سوف تتخذ كافة الإجراءات اللازمة نحوه. ونتيجة استسلام الرهبان أمام أعدائهم تم سحق حزب البياجنونى، الذى كان شديد الولاء لسافونارولا أصبحت سلطة حزب الأرابياتى المنافس له كاسحة، كما أصبح مجلس المدينة حرًا فى اتخاذ الإجراءات التى يراها. وهكذا قام هذا المجلس بانتخاب مجلسين جديدين بدلاً من مجلسَى العشرة والثمانية. وفى يوم ١١ أبريل من عام ١٤٩٨، تم تعيين لجنة تحقيق مع الرهبان الثلاثة تتكون من سبعة عشر محققًا خُوِّلوا سلطة تعذيب المتهمين. والجدير بالذكر، أن اللجنة شكلت من قضاة يبغضون سافونارولا وسبق لهم التآمر عليه وعلى حياته، مثل بييرو ويجلى ألبرتى ودوفو سيينى. وليس أدل على انتهاك سلطات فلورنسا للقانون من أن المرسوم الخاص بتكوين لجنة التحقيق صدر يوم ١١ أبريل، فى حين أن التحقيق الفعلى بدأ قبل ذلك يوم ٩ أبريل، وأن الأمر البابوى الكتابى لم يصل إلا يوم ١٤ أبريل. والثابت أن التحقيق مع سافونارولا بدأ ليلة القبض عليه فى منتصف ليلة حد السعف الموافق ٨ أبريل، حتى صبيحة اليوم التالى الموافق ٩ أبريل، وجرى التحقيق معه فى قاعة بارجيلو وسط التهديدات والإهانات والتعذيب بربطه بالحبل على آلة رافعة ترفعه من الأرض لتقذف به فجأة من علٍ عليها. (راجع كتابى: محاكم التفتيش، الهلال، ٢٠٠١) دون أدنى اعتبار لمرضه واعتلال صحته. وأثر التعذيب فى قواه العقلية فأخذ يهذى. وخلت إجاباته عن أسئلة المحققين من الانسجام. وحتى بعد تعذيبه بالآلة الرافعة أكد سافونارولا صحة معتقداته، وبذلك أخفق جلادوه فى الحصول على اعتراف منه بذنبه. وزودوه بأوراق وقلم كى يعترف كتابة فعاد إلى تأكيد سلامة معتقداته. وخشى المحققون معه من الاحتفاظ بهذه الأوراق، فقاموا بتدميرها حتى لا يعرف الناس حقيقة ما ورد فيها. وعندما فشلوا فى انتزاع اعتراف منه بجُرمه أرسلوه إلى زنزانته فى السجن، حيث ركع على ركبته وصلى من أجل المسيئين إليه قائلاً: «ياأبتاه، إنهم لا يعرفون ماذا يفعلون».

طلب مجلس مدينة فلورنسا من الكرسى البابوى أن يعفو عنه لقيامه بسجن رجال دين والتحقيق معهم وتعذيبهم؛ ولكنه طلب منه فى الوقت نفسه أن يسمح له بالاستمرار فى اتباع هذه السياسة طالما أن اتباعها ضرورى. وأيضًا دعا مجلس المدينة إلى عقد مجلس شعبى للتشاور حول إمكانية إرسال الرهبان الثلاثة المطلوبين إلى روما

لتقديمهم إلى المحاكمة أمام الكرسى البابوى. غير أن معظم أعضاء المجلس الشعبى رفضوا إرسال المتهمين إلى روما لمحاكمتهم؛ ولكنهم رأوا عدم إغضاب البابا فوجهوا إليه معسول الكلمات حتى يقبل أن يمنحهم نصيبهم فى عشور الكنيسة.

وأخيرًا تقرر تشكيل لجنة قانونية للنظر فى قضية الرهبان السجناء، الأمر الذى أدى إلى تأجيل عرض قضيتهم حتى العاشر من شهر أبريل ١٤٩٨، مما جعل صبر الجماهير ينفد. ومن ناحيته، وقع مجلس المدينة فى حَيص بَيص، لأن المحققين مع سافونارولا عجزوا - رغم تعذيبه - عن انتزاع أية اعترافات من شأنها أن تثبت إدانته. وخطر لبعض أعضاء مجلس الشعب أن يقوموا بتزييف اعترافاته؛ ولكنهم خشوا من افتضاح أمرهم. عندئذ همس كاتب التحقيقات سير سيكون دى سير بارونى فى أذن أحد المحققين قائلاً: «عندما لا تكون هناك قضية فمن الضرورى اختراع قضية»، ومؤكدًا أنه لن يخشى أن يفعل هذا.

والجدير بالذكر، أن سيكون دى سير بارونى كان نصيرًا لعائلة المديسيس وشريكًا فى المؤامرة التى دبرها بييرو دى مديسيس، وعندما اكتشف أمرها لجأ إلى الدير طالبًا ملاذًا آمنًا فيه. وفى الدير، تظاهر بأنه نادم على ما فعل، كما تظاهر بنصرة حزب البياجنونى الموالى لسافونارولا؛ ولكن هذا لم يمنعه من التجسس لحساب الدوق لودفيكو. وبمجرد سقوط سافونارولا ظهر هذا الرجل على حقيقته، وأبدى استعدادًا لفبركة أقوال هذا الراهب حتى يسهل على أعدائه مأمورية إدانته. ووعده المسئولون فى فلورنسا بإعطائه مكافأة قدرها أربعمائة دوقة فى حالة نجاحه فى مخططه الكاذب والدنىء.

ورغم أن هذا الكاتب، بحكم عمله فى مجلس المدينة، لم يكن له أى حق قانونى فى توجيه الاتهامات إلى سافونارولا فقد قام أعداء هذا الراهب بتجاهل هذا الشكل القانونى تمامًا، وبدأت خيوط المحاكمة تتجمع فى ١١ أبريل ١٤٩٨. وفى هذا المناخ المسموم والمغرض انهالت الافتراءات ضد سافونارولا بحيث تعذر التمييز بين الحقيقة والأكاذيب.

ومضى أكثر من شهر فى إعداد القضية تعرض خلالها سافونارولا للتعذيب على نحو متكرر. ويقول شهود عيان، إنه فى يوم واحد تعرض للتعذيب أربع عشرة مرة. ويذكر بيكو وبورلاماتشى إنهم حرقوا باطن قدميه بجمرات الفحم أثناء تعليقه بحبل.

وبعد تعذيبه ادعى المحققون أنه اعترف من تلقاء نفسه ودون ممارسة أية ضغوط بدنية عليه. وتضاربت الأقوال: فمن قائل إنه اعترف بذنبه تحت وطأة التعذيب، ومن قائل إن التعذيب لم يفلح فى زحزحته عن معتقداته قيد أنملة.

اندرجت التهم الموجهة إلى سافوناريولا إلى ثلاثة رؤوس موضوعات، هى: الدين والسياسة والنبوءات. وقام بتسجيل أقوال سافوناريولا أثناء المحاكمة بيكو وبورلاماتشى، ولكن تسجيل فيولى والراهب بنيديتو لها كان أكثر دقة وتفصيلاً. وأغلب الظن أن المحققين معه ركزوا على نبوءاته التى أكد صحتها أحيانًا وأنكرها أحيانًا أخرى. ورغم أن سافوناريولا تأرجح بين تأكيد النبوة وإنكارها، فإنه استمسك بإيمانه بالكنيسة. ورغم ما كابده من تعذيب، فقد أكد بشكل قاطع إيمانه بضرورة استئصال مفاسد الكنيسة وضرورة إحيائها وبعث الحياة فيها. فضلاً عن أنه تناول مخازى بابا روما ومباذله، وكرر اقتراحه بضرورة عقد مجلس دينى بهدف مساءلة هذا البابا الفاسد.

وإذا كان سافوناريولا قد اهتز إيمانه بنفسه كصاحب نبوءات، فإنه ظل مستمسكًا بإيمانه بشأن الدين والسياسة. قال إن إيمانه بالكنيسة راسخ، وإن إيمانه بحرية فلورنسا السياسية لا يتزعزع فهو يتصدى للاستبداد السياسى بكل قوة. واستمر التحقيق معه وتوقيع التعذيب عليه لمدة أحد عشر يومًا. وعندما أنحى البابا باللائمة على لجنة المحققين بسبب الوقت الطويل الذى استغرقته فى التحقيق مع السجين، ردت بأنها وجدت متاعب فى التعامل معه بسبب قدرته غير العادية على الصمود والتحدى وتحمل التعذيب، وأقرت بأنها - رغم التعذيب - فشلت فى انتزاع أى اعتراف منه بذنبه.

وعلى الرغم من هذيانه تحت وطأة التعذيب، كان سافوناريولا بوجه عام منسجمًا مع نفسه. صحيح أنه تناقض مع نفسه عند الحديث عن قدرته على التنبؤ التى كان يؤكدها تارةً وينكرها تارةً أخرى، إلا أن رؤيته كانت شديدة الوضوح والجلاء بشأن موضوعى الدين والسياسة، فهو فيما يتعلق بالدين يرى ضرورة تطهير الكنيسة من أوشابها، كما أنه رأى على الصعيد السياسى ضرورة القضاء على استبداد الحاكم بالمحكوم. ولم تفلح الوعود والتهديدات وتكرار التعذيب فى زحزحته، الأمر الذى أحرج مجلس المدينة الذى عجز عن إثبات إدانته. ولعل الفائدة الوحيدة التى جناها هذا

المجلس من وراء التشهير بسافونارولا وتلطيخ سمعته فى نظر أنصاره والموالين له هو تسهيل مهمة الافتراء عليه، والضرب عرض الحائط بالقانون وقواعد العدل المعمول بها. كان الهم الشاغل للمحققين الحصول على توقيعه على اعترافات مكذوبة، حيث إنه لم يكتب اعترافاته بخط يده كما ينص القانون على ذلك. ويعتقد المؤرخون أن الكتبة غشوه وغرروا به كى يحملوه على التوقيع على اعترافاته، فقد أعدوا نسختين منها إحداهما سليمة والأخرى مزورة، وقرءوا عليه النسخة السليمة ثم أعطوه النسخة المزورة كى يوقع عليها. حدث هذا يوم ١٩ أبريل ١٤٩٨. وبعد توقيعه التفت إلى جلاديه قائلاً: «مذهبى معروف لكم وللجميع. وإنى فى محنتى أطلب منكم شيئين، هما العناية بالرهبان الجدد، والحفاظ على إيمانهم بالمسيحية... صلوا إلى الله من أجلى لأن روح التنبؤ زايلتنى فى هذه اللحظة» تفوه سافونارولا بهذه الكلمات قبل اقتياده إلى زنزانته فى السجن.

وأخيرًا أصدر مجلس المدينة طبعة من اعترافات سافونارولا، على الرغم من معارضة الكتبة ذلك، خوفًا من افتضاح أمرهم واكتشاف ما أضافوه إليها من زور وبهتان. وقوبلت النسخة المطبوعة باستهجان، الأمر الذى دفع مجلس المدينة إلى حظر تداولها، كما دفع الكثيرين إلى الاعتقاد ببراءته. ورأى مجلس المدينة الذى دعا مجلس الشعب إلى الانعقاد عدة مرات ضرورة تقديمه إلى المحاكمة للمرة الثانية. وبدأت هذه المحاكمة الثانية فى ٢١ أبريل ١٤٩٨ واستمرت حتى مساء يوم ٢٣ أبريل. وقام الكاتب كالعادة بتزوير أقواله ثم وقع عليها سافونارولا يوم ٢٥ أبريل فى غيبة شهود بالمخالفة للقانون؛ ولكنه أشار إلى التغييرات التى أجراها سير سيكون على نص الاعترافات، الأمر الذى جعل مجلس المدينة يقرر عدم المضى فى هذه المحاكمة الثانية إلى نهايتها. وعندما تبين لمجلس المدينة أن الكاتب لم يفلح فى التزوير، اكتفى بإعطائه ثلاثين دوقة بدلاً من الأربعمائة دوقة التى وعدوه بها.

توسيع نطاق المحاكمات وسافونارولا يؤلف كتابه الأخير في حبسه الانفرادي (من ٢٦ أبريل إلى ١٨ مايو عام ١٤٩٨)

وأيضًا قدم مجلس المدينة إلى المحاكمة رفيقَي سافونارولا؛ ولكن محاكمتهما لم تسفر عن شيء، فقد ظل دومينيكو دا بريشيا رابط الجأش تحت وطأة التعذيب. وعبثًا حاول المحققون إيهامه بأن سافونارولا اعترف على نفسه وتراجع عن كل مبادئه. ولم يفلح التعذيب في التأثير في دومينيكو، فقد ظل محتفظًا بهدوئه كشهيد من شهداء الكنيسة الأوائل. وفكر المحققون في طبع اعترافاته كاملة دون زيادة أو نقصان؛ حتى يقتنع الناس بأمانتهم فيصدقوا الافتراءات المغلوطة والدخيلة على اعترافات سافونارولا. ولكن قلبهم لم يطاوعهم على نشر اعترافات دومينيكو بحذافيرها؛ لأنها تنم عن بطولته واستمساكه ببراءته من التهم الموجهة إليه؛ ولهذا آثروا الامتناع عن نشر هذه الاعترافات. وأكد الراهب دومينيكو في اعترافاته إنه هو وسافونارولا لم يفكرا مطلقًا في اللجوء إلى المقاومة المسلحة أثناء تحصنهم في كنيسة القديس مرقص، واعترف دومينيكو أنه كان عاقد العزم على اجتياز امتحان النار. وعندما طلب إليه المحققون تدوين أفكاره عن سافونارولا أكد عظيم إيمانه بنبوة هذا الراهب، وطلب دومينيكو من جلاديه أن يرحموه من التعذيب الذى تسبب في تحطيمه وخلع ذراعه؛ ولكن توسلاته ذهبت أدراج الرياح فقد أمعنوا في التنكيل به.

وعلى العكس من الراهب دومينيكو الصامد انهار الراهب سيلفسترو عند أول محاولة لتعذيبه، وكما أسلفنا اختبأ هذا الراهب في الدير حتى أسلمه الراهب الخائن مالاتستا إلى الحراس. ورغم جبنه وتخاذله، فإن شهادته جاءت لصالح سافونارولا.

وفى تلك الفترة قدمت سلطات فلورنسا إلى المحاكمة كل رهبان القديس مرقص وكثيرًا من أصدقاء سافونارولا العلمانيين، ممن كانوا فى الدير ساعة الهجوم عليه. وقد تعرض جميعهم للتعذيب والتحقيق الدقيق. واتضح من هذا التحقيق أن سمعة سافونارولا فوق مستوى الشبهات. ولا غرو، فقد شهد له الجميع بالروحانية وبعدم ضلوعه فى أية مؤامرات سياسية من أى نوع. غير أنه ثقة بعضهم فيه تأرجحت عندما قدم إليهم المحققون اعترافات سافونارولا المزورة، كدليل على تراجعه عن مبادئه وإنكاره لنبوءاته ورؤاه. وهكذا تزعزعت ثقة الراهب روبرتو دا لاجليانو فى رائده سافونارولا بعد أن كان من أشد الناس تحمسًا وحبًا له. وبادر كثير من رهبان القديس مرقص يوم ٢١ أبريل ١٤٩٨ بخذلان معلمهم بكتابة خطاب يتضمن إدانة له أرسلوه إلى البابا لطلب الغفران؛ لأنهم سمحوا لسافونارولا أن يضللهم ولأنهم حملوا السلاح دفاعًا عن الدير. والغريب أنهم رغم ذلك حذوا حذو سافونارولا فى موقفه السياسى، فتوسلوا إلى الكرسى البابوى أن يحافظ على استقلال دير القديس مرقص ويعيِّن راعيًا له. وهو المطلب الذى جعل البابا يناصب سافونارولا العداء ويقوم بطرده من الكنيسة.

وكلف مجلس المدينة اثنين من الرهبان لحمل هذه الرسالة إلى روما. وقام البابا بالرد عليها فى ١٤ مايو ١٤٩٨، حيث امتدح الرهبان التائبين وسامحهم على السير فى ركاب سافونارولا. وأيضًا حضر جمهور المصلين إلى كنيسة الديومو ليتلو المندوب البابوى على مسامعهم قرار العفو عنهم وعن أية جرائم يكونون قد اقترفوها أثناء مناهضتهم لسافونارولا. وأصر البابا ألكسندر على أن يقوم مجلس مدينة فلورنسا بتسليم سافونارولا إليه حيًا يرزق، وذلك بعد الانتهاء من التحقيق معه وتعذيبه. ولكن مجلس المدينة رأى فى ذلك اعتداء على استقلال فلورنسا وامتهانًا لكرامتها القومية؛ فرفض الاستجابة لطلب البابا دون إثارة غضبه وسخطه. ورغم ذلك، فقد سعى مجلس المدينة إلى الحصول من البابا على حق فلورنسا فى عشور الكنيسة؛ غير أن البابا لجأ إلى الإرجاء والتسويف.

واقترب وقت انتخاب مجلس مدينة جديد فى فلورنسا. وكان مجلس الشعب ينعقد كل يوم تقريبًا. وفى يوم ٢٧/ ٢٨ أبريل، طلب مجلس المدينة من مجلس الشعب أن يوافيه بالرد الواجب إرساله إلى البابا فأشار زعيم المجلس الأخير فيسبورى إلى ضرورة الاستمرار فى اتباع سياسة عدم إغضاب البابا وإطالة مدة التحقيق مع سافونارولا وزميليه، بحيث يترك للمجلس القادم المزمع انتخابه أمر إصدار الحكم عليهم. وأيضًا نصح فيسبورى باستخدام الرأفة مع بقية المتهمين فتم ذلك.

وسعى أعداء سافونارولا إلى انتخاب مجلس مدينة يناصب هذا الراهب العداء حتى لا يضيع تعذيبه سدى. ولو أنه قُيض لحزب البياجنونى أن يستعيد سلطته لدافع عن سافونارولا وانتقم ممن عذبوه ونكلوا به، وفضح الأساليب الملتوية التى استخدمت معه. وبعد انتخاب مجلس المدينة الجديد تشاور مجلس الشعب فى ٥ مايو ١٤٨٩ بصدد مصير سافونارولا. قال بعض أعضاء مجلس الشعب إنه من الضرورى إفهام البابا أن الحكم على هذا الراهب ينبغى أن يصدر فى نفس المكان الذى ارتكب فيه الجريمة، وأيد هذا الرأى بييرو بوموتشى بوصفه ممثلاً لمجلس العشرة والرئيس السابق لمجلس المدينة والمشرف الدينى على المحاكمة، إذ قال إنه لا ينبغى محاكمة سافونارولا فى روما، وإنه يفضل أن يرسل البابا مندوبين عنه إلى فلورنسا للتحقيق معه. وعارض هذا الرجل إعادة محاكمة سافونارولا لأن زيفها قد ينفضح. وفى مساء ٥ أبريل، كتب مجلس المدينة إلى بونسى سفيره فى روما والذى قلب ظهر المجن لسافونارولا، ثم كتب هذا المجلس فى اليوم التالى (٦ أبريل) إلى البابا مكررًا بأنه لن يكون فى مقدوره إرسال الرهبان الثلاثة إلى روما، حيث إنه (أى المجلس) يرغب فى أن يجعل منهم عبرة لمن يعتبر، وأضاف أنه من الأفضل أن يرسل البابا مندوبيه للتحقيق معهم فى فلورنسا.

وعندما أدرك البابا أن سلطات فلورنسا مصممة على عدم تسليم الرهبان الثلاثة إليه وأنها تريد أن تنفذ حكم الإعدام فيهم بنفسها، استسلم للأمر الواقع وأبدى استعداده للوصول إلى حل وسط؛ ولهذا كتب فى ١١ أبريل إلى الأسقف باجانوتى، ثم كتب فى اليوم التالى (١٢ أبريل) إلى مجلس مدينة فلورنسا معلنًا عزمه على إرسال مندوبيه الدومينيكان إلى فلورنسا، وهما جيوفاتشينو توريانو وفرانسيسكو رومولينو للتحقيق فى الجرائم والشرور التى ارتكبها «أبناء الهلاك» على حد تعبيره.وإمعانًا فى إذلال سافونارولا، طلب من صديقه الأسقف باجانوتى الحط من شأنه وتسليمه للذراع العلمانى لتنفيذ حكم الإعدام فيه. وحتى يسترضى فلورنسا منحها البابا العشور التى تتحرق شوقًا للحصول عليها. وما إن علم حزب البياجنونى الموالى لسافونارولا زيف محاكمته، حتى أخذوا يصيحون فى الأسواق والشوارع أن فلورنسا تلقت ثمن الخيانة وشملت الفضة التى تسلمها يهوذا الأسخريوطى لقاء خيانته للسيد المسيح. وتولت السلطات فى فلورنسا إبلاغ البلاد والمدائن بنواياها (السيئة) نحو سافونارولا، ولكنها ترددت فى تبليغ فرنسا لأن ملكها الجديد لويس السابع كان معروفًا ـ مثل والده شارل الثامن ـ بتعاطفه مع الراهب.

ووضعت سلطات فلورنسا منذ ٢٥ أبريل حتى ١٩ مايو ١٤٨٩ الراهب سافونارولا فى زنزانة انفرادية وتركته هناك يعيش فى سلام. وفى بادئ الأمر تكسرت ضلوعه لدرجة أنه فقد القدرة على استخدام ذراعيه، ولكن يده اليمنى سرعان ما تحسنت لأن التعذيب الواقع عليها كان مخففًا بحكم القانون الذى حظر تدمير اليد اليمنى حتى يتمكن المتهم من كتابة اعترافاته.

والعجيب أنه عندما استأنف سافونارولا الكتابة لم يخطر فى باله أن يسجل صنوف التعذيب الوحشى الذى تعرض له، بل كرس كل وقته لتمجيد الله فكتب شرحًا للمزمور الخمسين الوارد فى الكتاب المقدس. ودبت الحياة فيه من جديد، فانكب على كتابة شروح دينية لا تقل فى قونها وعنفوانها عن الوعظات التى درج على إلقائها من فوق المنبر.

ثم ألف سوفونارولا فى زنزانته كتابًا آخر عن المزمور الثلاثين، يدور حول الصراع بين اليأس والرجاء. وبعد تأليف الكتابين المشار إليهما اضطر إلى التوقف عن الكتابة نتيجة نفاد كمية الورق المتاحة له. وذاعت شهرة هذين الكتابين بين القراء لدرجة أنهما ظهرا فى ألمانيا فى ثلاث عشرة طبعة، ومما زاد من شهرتهما أن مؤسس المذهب البروتستانتى مارتن لوثر كتب فى ستراسبورج عام ١٥٢٤ أنه يعتبر سافونارولا رائد المذهب البروتستانتى وأحد شهداء عصر الإصلاح الدينى. قال لوثر : «هذا الرجل تم إعدامه لا لشىء إلا لأنه أراد أن يأتى من يطهر كنيسة روما من أوشابها. لقد كان البابا عدو المسيح يأمل فى محو اسم هذا الرجل العظيم تحت ركام التشهير وتلطيخ السمعة؛ ولكن اسمه لايزال نابضًا بالحياة، كما أن ذكراه مباركة. إن يسوع المسيح ينصبه قديسًا من خلال شفاهنا حتى ولو مات البابا وأتباعه من الغيظ والكمد. وحتى كتاباته توضح لنا أنه لا قيمة للأعمال بدون إيمان، حيث إن الإيمان هو ما يحتاج إليه الإنسان».

كان لسافونارولا شخصية طاغية لدرجة أن سجانه لم يملك غير أن يعامله بإجلال عظيم، وطلب منه أن يكتب له حكمة عن الحياة الفاضلة فلم يبخل عليه بذلك، وسطر على غلاف أحد الكتب «قواعد الحياة الفاضلة» التى رأت طريقها إلى النشر فيما بعد، والتى بدأها بإبرازه «أهمية العناية الإلهية فى خلاص المرء من آثامه وعدم اليأس أو القنوط من رحمة الله». «ولهذا فإن المثابرة فى حياة الفضيلة وفى القيام بالأعمال الصالحة والاعتراف والتناول من شأنها أن تقربنا من العناية الإلهية، وهى الطريقة الصادقة والأكيدة لزيادة هذه العناية».

النهاية: العودة إلى تعذيب سافونارولا وتقديمه للمحاكمة للمرة الثالثة وتنفيذ حكم الإعدام فيه رغم براءته (١٩- ٢٣ مايو ١٤٩٨)

وصل مندوبا الكرسى البابوى إلى فلورنسا فى ١٩ مايو ١٤٩٨ للتحقيق مع سافونارولا ورفيقيه الراهبين. وتكون فريق التحقيق من كل من جيوفاتشينو توريانو الدومينيكانى ورئيس الأساقفة الإسبانى فرانسيسكو رومولينو اللذين احتشد حولهما الغوغاء وحثالة المجتمع، وهم يصيحون «الموت للراهب»، فطمأنهم رومولينو قائلا إنه سوف يموت دون إبطاء. والواقع، أن جيرولامو بنيفتى وصلته رسائل من روما تفيد بأن «المندوبين صدرت لهما تعليمات بإعدام سافونارولا حتى ولو كان هذا الرجل يوحنا معمدانى آخر». وهو ما أكده رومولينو الذى قال: «سوف نشعل نارًا بديعة نضعه فيها».

وفى العشرين من شهر مايو بدأ التحقيق مع سافونارولا للمرة الثالثة، بينما كان جلادوه يتأهبون لتعذيبه. وقد حضر إلى جانب مندوبى البابا عدد من ممثلى الهيئات المختلفة. وبالنظر إلى أن كاتب التحقيق سير سيكونى الذى سبق لنا ذكره فشل فى أداء مهمته فى التزوير، فقد عين بعض المعاونين لمساعدته على أداء مهمته فى الافتراء على خير وجه.

وقام المحققان بتوقيع التعذيب على سافونارولا دون أدنى شفقة أو رحمة. وتم سؤاله عن المشتركين معه فى جرائمه ودسائسه فرد بعدم اشتراك أحد معه، ولكنه تحدث مؤخرًا من شدة التعذيب فقال إنه أسر بأفكاره إلى راهب أو راهبين من زملائه، مضيفًا أنه لم يجر قط أى اتصال مع أمراء إيطاليا لأنه اعتبرهم أعداءه. ورغم ذلك، فإنه اعترف أنه كان يأمل فى أن يهب ملك إنجلترا الصالح لمؤازرة دعوته إلى انعقاد

مجمع دينى لمحاسبة البابا. وعندما أدرك المحقق رومولينو أنه لن ينجح فى انتزاع أية معلومات من الراهب من شأنها أن تدينه، ثارت ثائرته وهدد بالويل والثبور وأمر بتعذيبه فى الحال. عندئذ قال سافونارولا إنه سبق وأن أنكر نبوءاته خوفًا من التعذيب؛ غير أنه الآن على استعداد لأن يتحمل العذاب من أجل الحقيقة، مؤكدًا من جديد أن الله أوحى إليه بأفكاره ومعتقداته. فقام جلادوه بنزع ثيابه وربطه إلى آلة التعذيب المعروفة باسم Rack (انظر : د. رمسيس عوض: محاكم التفتيش، الهلال ٢٠٠١)، الأمر الذى تسبب مرة أخرى فى أن يزوغ عقله ويتكلم كلامًا غامضًا ومبهمًا نجح كاتب التحقيق فى تزييفه بطريقة أفضل مما فعله فى المرة السابقة. ورغم هذا، فقد فشل التعذيب فى حمله على قول أى شىء يشكك فى سلامة عقيدته وصحة دينه. وأردف أن الأمر البابوى الخاص بطرده من الكنيسة لم يخفه على الإطلاق. وبات من الواضح للعيان أن التزوير فى أقواله صار أكثر وقاحة وصفاقة عن ذى قبل. ومُهرت اعترافات سافونارولا بتوقيع لا يقوم دليل على صحته. ولم يكترث المحققون باتباع الإجراءات القانونية فى تحقيقاتهم، فأغفلوا توقيع الشهود على صحة هذه الاعترافات كما ينص القانون. وفى أقواله أنكر هذا الراهب أنه يؤمن بناسوت المسيح دون لاهوته، كما أنكر إيمانه بالسحر. ومرة أخرى أثار المندوب البابوى رومولينو مسألة دعوته إلى عقد مجمع دينى (لمحاسبة البابا) وسأله عما إذا كان قد طلب مساعدة مملكة نابولى فى ذلك فأقر تحت وطأة التعذيب بذلك، ولكنه عاد وأنكر أن لنابولى أية صلة بهذا الموضوع.

ورغم عدم خروج التحقيق معه بأية نتيجه، فقد لجأت سلطات السجن إلى مباغتته فسمحت بدخول خمسة مواطنين يرافقهم الكاتب فى زنزانته بهدف استغلال إعيائه الشديد وانهياره العقلى والجسدى، وسؤاله عن بعض الأمور السياسية. فأجاب بأنه ترك لفالورى تدبيرها، مؤكدًا أن هدفه السياسى الوحيد تلخص فى إقامة حكومة فى فلورنسا تنتخب ممثليها انتخابًا شعبيًا، والدعوة إلى توحيد صفوف أهل هذه المدينة ليس من أجل الاعتداء على الآخرين، بل من أجل الدفاع عن أنفسهم ضد أى عدوان عليهم.

وهكذا انتهت المحاكمة الثالثة بالفشل الذريع فى إثبات ذنبه، بل إن براءته سطعت عن ذى قبل؛ ولهذا السبب امتنع المحققون معه عن طبع تحقيقاتهم وتوقيعها وقراءتها أمام الملأ وتركوها ناقصة دون استكمال وأخفوها، وسمحوا فقط بنسخة أو نسختين تتداولها المحاكم الإيطالية.

وعلى الرغم من فشل تحقيقات المندوبين البابويين مع سافونارولا، فقد قررا عقد اجتماع فى نفس اليوم (٢٢ مايو) من أجل التشاور حول مصير الرهبان الثلاثة. واتفق المجتمعون على أن موت الراهب سافونارولا وموت الراهب سيلفسترو مسألة مفروغ منها. وحتى يتقبل الجمهور قسوة هذا الحكم اقترح المحقق البابوى رومولينو عدم إعدام الراهب دومينيكو. وعندما قيل لرومولينو إن استمرار دومينيكو فى قيد الحياة معناه أن تظل مبادئ سافونارولا حية، رد بقوله إنه من الأفضل إذن أن يموت دومينيكو أيضًا.

وفى تلك الأيام دُعى للانعقاد مجلس شعبى اختير بعناية لمناقشة الحكم الصادر، وكان السواد الأعظم فى هذا المجلسس يناصب سافونارولا العداء. ولهذا رفض الاستماع إلى صوت عضو يدعى أجنولو نيكولوينى ارتفع للدفاع عن سافونارولا؛ لأنه رجل تقى وصالح وعالم جليل قل أن يجود الزمان بمثله. واقترح نيكولوينى الاكتفاء بحبسه وتوفير مداد الكتابة له حتى لا يخسر العالم نتاج قريحته الفذة. ورغم تأكد المحققين من براءة سافونارولا ودومينيكو من التهم الموجهة إليهما، فقد صدر الحكم بإعدامها كما صدر الحكم بإعدام الراهب البرىء الثالث سيلفسترو، رغم أنه فى لحظة ضعف وغواية تنكر لسافونارولا. وتمت تلاوة أحكام الإعدام على السجناء الثلاثة حتى يستعدوا لاستقبال الموت، ونزل الحكم على الراهب سيلفسترو نزول الصاعقة، فى حين استقبله الراهب دومينيكو بالسرور والحبور. وعندما أفهموه أنه سيُشنق ثم يُحرق، توسل إليهم أن يحرقوه حيًا حتى يكابد الشهادة من أجل المسيح، ثم طلب دومينيكو زادًا حتى يتمكن من النوم الهادئ ويقابل الموت بكل ثبات ورباطة جأش. ثم سطر خطابًا لوداع زملائه الرهبان فى دير سان دومينيكو فى فيوسول، يطلب فيه أن يصلوا من أجله كلما اجتمعوا للصلاة وأن يدفنوه فى ركن قصى خارج الكنيسة، وأوصاهم بجمع كتابات سافونارولا وتجليدها ووضع نسخة منها فى المكتبة، كما أوصاهم بالاحتفاظ بنسخة أخرى من هذه الأعمال يربطونها بسلسلة لقراءتها حول مائدة الطعام فى مطعم الدير. وعندما دخل الرسل إلى زنزانة السجن لتبليغ سافونارولا بالحكم عليه وجدوه راكعًا على ركبتيه يصلى. وعند تلاوة نص الحكم عليه لم يطرأ أدنى تغيير على ملامحه التى ظلت جامدة لا تعبر عن الحزن أو الفرح، واستمر يصلى بحرقة أشد. وبعد وقت قصير قدموا إليه الطعام ولكنه أشاح بوجهه عنه قائلاً إن روحه تحتاج أكثر من جسده إلى التقوية، وإنه يريد أن يحتفظ بصفائه

الروحى وهو مستعد لاستقبال الردى. وجاءه الكاهن جياكومو نيكولوينى متشحًا بالسواد ومخفيًا وجهه تحت غطاء الرأس بهدف غوايته فى ساعاته الأخيرة وسأله عما إذا كان يرغب فى شىء قبل موته، فطلب منه تبليغ مجلس المدينة برغبته فى الانتحاء بزميليه الراهبين المحكوم عليهما بالإعدام لفترة وجيزة. ووافق مجلس المدينة على إجابة سافونارولا إلى طلبه فالتقى ثلاثتهم فى قاعة المجلس الأعظم لمدة ساعة، ثم جاءه راهب من طائفة القديس بينديكت كى يسمع اعترافه واعتراف الراهبين الآخرين.

كان منظرًا مشحونًا بالعواطف الجياشة، فقد اجتمع الرهبان الثلاثة لأول مرة بعد انقضاء أكثر من أربعين يومًا على حبسهم الانفرادى، وبعد محاولة غواية الراهبين دومينيكو وسلفسترو وتضليلهما بإيهامهما أن رائدهما قد تراجع عن كل أقواله. وما إن رأى الراهبان دومينيكو وسلفسترو سيدهما، حتى عادت إليهما ثقتهما المطلقة فيه. والتفت سافونارولا إلى تلميذه دومينيكو وقال له إنه يعلم أنه يريد أن يكابد الموت حرقًا؛ ولكنه نصحه بعدم اختيار ميتته لأن الله وحده هو الذى يحددها، وهو الذى يحيى ويميت وهو وحده المعين. ثم التفت إلى سيلفسترو ليقول له بلهجة لا تخلو من القسوة إنه يعرف إنه يزمع أن يعلن براءته أمام الجمهور ونصحه بالامتناع عن فعل هذا، وأن يحذو حذو المسيح الذى لم يحاول قط أن يتحدث عن براءته أثناء صلبه. ولم يحر الراهبان جوابًا، بل التزما الصمت فى حضرة رئيسهما الذى باركهما قبل اقتيادهما إلى زنزانتيهما، وبات من الواضح أن الراهبين على أتم استعداد لطاعته.

عاد سافونارولا إلى زنزانته فى الهزيع الأخير من الليل كى يتأهب لاستقبال الموت، وقد غلبه النعاس وأضناه الإنهاك فمال بجسده برهة على حجر أحد الحاضرين فأخذته سِنَةٌ من النوم صحا منها صافى الذهن وهادئ الوجه كمن رأى رؤيا سعيدة فى منامه. وتعبيرًا عن مودته وامتنانه لهذا الشخص قال له إن فلورنسا سوف تشهد أحداثًا جسامًا فى عهد بابا يقال له كليمنت، وبالفعل تحققت نبوءته المشئومة فى عام ١٥٢٩ عند قام أعداء فلورنسا بحصارها.

وأمضى الرهبان الثلاثة بقية الليل فى الصلوات والابتهالات، وتقابلوا فى الصباح من أجل المناولة. وسُمح لسافونارولا بالصلاة على القربان المقدس فصلى عليه، وطلب من الله بكل حرقة أن يغفر خطاياه وخطايا مدينة فلورنسا. ثم أخذ المناولة

وناول زميليه الراهبين. وأتى الحراس ليقتادوا السجناء الثلاثة إلى ميدان المدينة، حيث أقيمت ثلاث منصات بالقرب من مبنى القصر مقر اجتماع مجلس المدينة، خصصت إحداها لأسقف فاسونا الذى جلس على يمينه المحققان البابويان، فى حين أقيمت المنصة الثالثة لرئيس مجلس المدينة وأعضاء مجلس الثمانية. وفى الميدان أقيمت أيضًا ثلاث مشانق تدلت من عارضة خشبية على شكل صليب، كما أقيمت بجوارها ثلاث حلقات لتعليق جثثهم بعد موتهم وبأسفلها محرقة لإضرام النار فيها كى تلتهم الجثث وتحولها إلى رماد. ووجد الحراس التابعون لمجلس المدينة صعوبة بالغة فى إبعاد الجمهور المحتشد حول الضحايا والذى ران عليه صمت رهيب وحزن عميق، حتى الذين كانوا يتوقون للتشفّى والانتقام من سافونارولا ارتسم الوجوم على وجوههم. وفى هذا الحشد الكبير اختلط أنصار هذا الراهب بأعدائه وحضر كتاب كثيرون ليسجلوا تفاصيل هذا المنظر المفجع والمروع؛ ولكن الحزن العظيم الذى اعترى كثيرًا من النظارة لم يمنع عددًا منهم من إطلاق صيحات الفرح الوحشية والرغبة فى افتراس ضحاياهم. وكان معظمهم ممن أودعوا السجون بسبب مؤازرتهم للنظام الذى أطاح به سافونارولا، والذين أطلق سراحهم بعد أن قلب أهل فلورنسا لهذا الراهب ظهر المجن.

وقُبيل إعدامهم كان الرهبان الثلاثة واقفين عل درج القصر عندما أمرهم راهب دومينيكانى من دير سانتا ماريا نوفيلا بخلع ملابسهم الكهنوتية. ثم اقتيدوا حفاة الأقدام ومغلولى الأيدى، وقد غطت أجسامهم عباءات خشنة من الصوف. وأبدى سافونارولا امتعاضه من إرغامه على التخلى عن ملبسه الكهنوتى، ولكنه امتثل للأمر وهو يقول : «أيها اللباس المقدس الأثير إلى قلبى، لَكَم تقت إلى ارتدائك!».

وبدأ موكب الرهبان الثلاثة يتحرك فوجدوا أنفسهم عند المنصة الأولى فى حضرة أسقف فاسونا، الذى كان فى يوم من الأيام يعتبر سافونارولا معلمه وسيده قبل أن يأمره البابا بالإشراف على الإجهاز عليه، ولهذا كان من الطبيعى أن يبدو الارتباك على هذا الأسقف وأن يخجل من رفع عينيه إلى عينى معلمه. وبمجرد أن أعلن أسقف فاسونا تجريد الرهبان الثلاثة من صفتهم الدينية، حتى قام بنزع ملابس الرهبنة عنهم. وبعد ذلك غطيت أجسامهم بعباءاتهم قبل تسليمهم إلى الذراع العلمانى لتنفيذ حكم الإعدام فيهم، ثم اقتيدوا أمام المحققين البابويين ليسمعوا الحكم الصادر عليهم بأنهم منشقون وهراطقة. ثم تولى المحقق البابوى رومولينو مسح جميع ذنوبهم

وخطاياهم. وسألهم عما إذا كانوا موافقين على ذلك فاخفضوا رءوسهم للتعبير عن موافقتهم، ثم مثلوا حسب القواعد المرعية أمام مجلس الثمانية الذى أدانهم بالإجماع بعد أخذ الأصوات؛ ولكن أحد أعضاء مجلس الثمانية واسمه فرانسيسكو تعمد أن يتغيب حتى لا يشترك فى اقتراف هذا الجرم.

وفى الحال تمت تلاوة الحكم الصادر على المساجين الثلاثة، وفيما يلى نصه : «إن مجلس الثمانية بعد أن تدارس اعترافات الرهبان والحكم الذى أصدره مندوبا الكرسى البابوى اللذان قاما بتسليمهم إلى الذراع العلمانى لتوقيع العقاب عليهم، قرر ما يلى : أن يُشنق كل من الثلاثة ثم تُضرم النار فى جثثهم حتى تفارق أرواحهم أجسادهم تمامًا».

وبكل هدوء وثبات صعد الضحايا الثلاثة إلى المشنقة؛ حتى الراهب سيلفسترو نبذ تخاذله وتغلب على فرقه وتردده وأظهر شجاعة عظيمة فى مواجهة الموت. ولم تهتز لسافونارولا خلجة أو تصدر عنه نأمة، بل سار ثابت الخطى إلى حتفه وكأنه يحتفظ بين جنباته بقوة هائلة خارقة للطبيعة. وبينما الرهبان الثلاثة سائرين إلى حتفهم اعتدى عليهم الغوغاء بفاحش الفعل والقول. ولكن هذا لم يحرك ساكنًا فى سافونارولا، بل ظل محتفظًا بهدوئه وصفائه. وأشفق عليه أحد الواقفين فاقترب منه لتعزيته فأجابه قائلاً: «عندما تحين الساعة الأخيرة فإن الله وحده هو الذى يعزى البشر» وسأله قسيس يدعى نيروتو عن حالته وهو يستشهد فقال : «الرب تعذب كثيرًا جدًا من أجلى»، ثم قام بتقبيل الصليب وتلاشى صوته إلى الأبد.

ويبدو أن الراهب دومينيكو كان لا يعى الصخب والغليان من حوله فارتفعت عقيرته بالابتهالات. واقترب منه بعض المؤمنين به فقال لهم: «إذن صلوا معى فى همس» وهكذا اشتركوا جميعًا فى صلاة هامسة، ثم التفت إليهم قائلاً: «عوا هذا جيدًا، إن كل نبوءات الراهب سافونارولا سوف تتحقق. ونحن نموت أبرياء».

كان الراهب سيلفسترو أول من صعد الدرج المؤدى إلى المشنقة، فوضع الجلاد حبل المشنقة حول رقبته وفاضت روحه وتدلى جسده. ثم انتقل الجلاد إلى الراهب دومينيكو ليقوم بشنقه بنفس الطريقة، وأسرع هذا الراهب إلى حتفه فى فرح وجزل وكأنه يرى أبواب الجنة تنفتح أمامه . وجاء دور سافونارولا الذى علق على مشنقة تتوسط جثتى زميليه. استغرق سافونارولا استغراقًا كاملاً فى التأمل الروحى العميق

كما لو كان مخلوقًا غير أرضى. ولما صعد إلى المشنقة رأى الجماهير المتلاطمة أسفله، وكذلك رأى رجالاً غلاظًا يحملون المشاعل المتوهجة ويتلهفون لإشعال النار فى الكومة المعدة لهذا الغرض. ثم أحنى عنقه بسرعة كى يسهل على الجلاد أداء عمله. وفى وسط الهدوء الرانى ارتفعت صرخة تقول : «أيها النبى، لقد حان الوقت لتحدث معجزة». حقًا لقد كان يومًا مشهودًا لا يمحى من الذاكرة. ويبدو أن الجلاد أراد أن يسلِّى النظارة بالتباطؤ المتعمد فى أداء عمله؛ ولكن المسئولين لاموه على تلكؤه، فأسرع فى إشعال النار حتى تصل ألسنة اللهب إلى جسد سافونارولا حتى قبل أن تقيض روحه. وهكذا مات الشهيد سافونارولا وهو فى الخامسة والأربعين من عمره، فى الساعة العاشرة من صباح يوم ٢٣ مايو ١٤٩٨. وبعد موته انقسم جمهور المتفرجين إلى قسمين: قسم يضم حزب الأرابياتى يتراقص ويطير من الفرحة ويقذف الجثث نصف المحترقة بالحجارة، وحزب آخر يضم حزب البياجنونى يعمه الحزن العميق وانخرط فى النشيج والبكاء، وهم يركعون أمام جثة الراهب القديس. وتجرأت بعض النسوة المؤمنات بقداسته فصعدن إلى حيث تتدلى الجثث، كى يأخذن كل ما يستطعن من بقايا سافونارولا المباركة؛ ولكن الحراس خشوا أن يكون لهذه البقايا مفعول السحر فوضعوا النسوة بما حملن فى عربة يجرها حصان، ثم ألقوا بهن فى نهر الأرنو؛ ولكن هذا لم يمنع أفراد حزب البياجنونى من جمع بقايا الرهبان الثلاثة المحترقين وحفظها فى علب والتوجه إليها بالعبادة لقداستها. ويزعم الفيلسوف والعالم ج. ف. بيكو أنه تمكن من استعادة جزء من قلب سافونارولا وينتشله من نهر الأرنو؛ وأضاف أنه استخدمه لصنع المعجزات وكبلسم شافٍ لعدد كبير من الأمراض. وانتشرت الميداليات التى تحمل صورة سافونارولا، رغم كل ما فعله حزب الأرابياتى لمحو اسمه من الوجود.

وفى نفس اليوم الذى نفذ فيه مجلس مدينة فلورنسا حكم الإعدام فى الرهبان الثلاثة، أرسل مجلس العشرة رسالة بهذا المضمون لتبليغه بأنهم ماتوا الميتة التى تتناسب مع بشاعة أفعالهم، وتلقى مجلس المدينة، خطابات تهنئة من روما وميلانو وبعض الممالك الأخرى، باستثناء فرنسا التى كان ملكها لويس السابع يعارض إعدام سافونارولا. وقامت سلطات فلورنسا التى لم تأبه بهذا الاعتراض بنثر كل ما جمعته من رماد الجثث الثلاث المحترقة فوق صفحة نهر الأرنو.

وجاء وقت تصفية الحسابات القديمة، فقام حزب الأرابياتى بالتنكيل بحزب البياجنونى وأغلق دير القديس مرقص لمدة شهرين، كما استولى على مكتبة الدير التى كان قد اشتراها بحر ماله ودفع فيها ثلاثة آلاف فلورينة إلى حكومة جمهورية فلورنسا. وضاق الأرابياتى ذرعًا بناقوس المدينة الذى ذكرهم رنينه بسافوناورلا يوم اندلاع الثورة فى فلورنسا ضد حكم الطاغية بييرو دى مديسيس. وقام الجلاد بجلد الناقوس الأصم أمام الجمهور تشفيًا وانتقامًا قبل نقله على عربة يجرها حصان إلى خارج المدينة، الأمر الذى أدى إلى شعور طائفة الرهبان الدومينيكان بالاستياء الشديد، كما أدى إلى نفى عدد كبير من هؤلاء الرهبان المحتجين، مثل ماريانو ويجلى أوجى، وروبرتو دا جاجليانو، وموريليو سافوناورلا شقيق الراهب جيرولامو. وأراد حزب الأرابياتى أن يكرم روموليو على الدور البارز الذى لعبه فى القضاء على سافوناورلا، فكلف فرقة موسيقية أن تعزف له تحت نوافذ مسكنه. واستدعت روما كثيرًا من الفلورنسيين للمثول أمامها؛ ولكنهم تمكنوا عن طريق رشوة روموليو من إلغاء أوامر الاستدعاء. على أية حال، استمر الغوغاء - دون رادع - فى إهانة حزب البياجنونى والتطاول على أفراده فى الشوارع والطرقات.

ومن المؤسف أن بعض الموالين لسافوناورلا قلبوا له ظهر المجن مثل فيكينو وفيزينو. ورغم أن الكرسى البابوى أصدر أوامره المشددة بعدم ذكر اسمه فى دير كنيسة القديس مرقص، فإن كثيرًا من أنصار هذا الراهب ظلوا على عظيم ولائهم له، فجمعوا وعظاته وكتاباته لدراستها كما تدارسوا سيرة حياته. وبعد مضى أيام قلائل على حرق جثته شوهدت بعض النسوة فى الميدان عند مطلع الفجر راكعات يصلين على الحجارة التى تم حرق جثة سافوناورلا عليها. وفى الثالث والعشرين من شهر مايو كل عام، احتفل الموالون له بنشر الزهور فى مكان الشهادة. وقد استمرت هذه الممارسات التعبدية حتى عام ١٧٠٣، أى لمدة تزيد على قرنين كاملين.

الموت حرقاً

جيوردانو برونو

(١٥٤٨ - ١٦٠٠)

مقدمة

من العجب أن يكون جيوردانو برونو مشهورًا ومغمورًا فى الوقت نفسه! فلا أحد فى عصرنا الراهن يذكر عنه شيئًا سوى حادثة حرقه حيًا فى روما، رغم أن كلاً من فيرجيليو سالفسترينى Virgilio Salvestrini من بيزا أعد ثبتًا ببليوجرافيًا عنه عام ١٩٢٦ استكمله لويجى فيربو Luigi Firpo عام ١٩٥٠ حتى وصل عدد مداخله إلى ألف مدخل. والجدير بالذكر، أن شهرة برونو فى حياته جابت الآفاق لدرجة أنه حظى باهتمام الملوك والبابوات والأمراء . ومع ذلك، فقد أغفل جاليليو ذكره فيما كتب، الأمر الذى جعل العالم الفلكى كبلر يظهر الدهشة. بل إن مارتن هانسديل فى خطاب مؤرخ فى ١٥ أبريل ١٦١٠ نبه جاليليو لهذا الإغفال؛ غير أن جاليليو أصر عليه: حتى إشارات الفيلسوف الفرنسى ديكارت الذى تأثر به كانت عابرة ولا تلفت النظر.

وعلى الرغم من أن مارتن ميرسين ناصب الفكر الأرسطاطاليسى العداء مثلما فعل برونو ورحب بالتجديد العلمى، فإنه اعتبر برونو «أشد المفكرين والملحدين والمتحررين والمؤمنين بمذهب الحلول خطرًا»(*) ، وهو نفس الرأى الذى ذهب إليه الفيلسوف الفرنسى بايل فى أول نسخة من قاموسه الصادر عام ١٦٩٦ . وظلت صورة برونو على هذا الحال فى القرنين السابع عشر والثامن عشر، وحتى القرن التاسع عشر الذى رسم صورة برونو كشيطان رجيم. وفى أواخر القرن التاسع عشر، بدأ التغير يطرأ على هذه الصورة القميئة، ثم ما لبث أن تبددت مع قدوم القرن العشرين

(*) أى حلول الله فى الطبيعة Pantheism.

الذى اعتبره شهيد الكنيسة الكاثوليكية. ورغم أن صورة برونو فى جوهرها لم يطرأ عليها أى تغيير يذكر وأنه ظل متهمًا بالإلحاد والإيمان بالمذهب المادى، فإن القرن العشرين استخدم هذه الاتهامات لتحسين صورته. ومن دلائل هذا التغيير أن إيطاليا أخذت بعد عام ١٨٧٠ تقيم له التماثيل فى نفس الموقع فى روما الذى أحرق فيه حيًا؛ فضلاً عن إقامة التماثيل له فى جامعة نابولى رغم أنه لم يخف كراهيته لعلم الرياضيات، ورفضه إدخال هذا العلم فى بحوث الفيزياء. وبين الحط من شأن برونو وتمجيده، ظهرت أبحاث تاريخية تتسم بالموضوعية فى عقد الأربعينيات من القرن التاسع عشر، مثل البحث الذى نشره كريستيان بارثولوميو بين عامى ١٨٤٦ و ١٨٤٧ فى باريس، ومبحث آخر بالألمانية أجراه مورتيز كاريير، وكلا الباحثين لا يخفيان تعاطفهما مع برونو. ومن المفارقة أن مثل هذه الأبحاث المنصفة لبرونو والمتعاطفة معه لم تظهر فى إيطاليا مسقط رأسه، بل ظهرت فى كل من فرنسا وألمانيا.

وفى عام ١٨٨٠، نشر الباحث البارز برتى وثيقته عن برونو. وتعتبر هذه الوثيقة حجر الزاوية فى كل سيرة حياة أجريت عنه. وقد قام فنسنزو سبامانتو بتنقيحها وتذييلها وإعادة صياغتها فى كتاب حجة. وفى الفترة بين عامى ١٨٧٩ و ١٨٩١، تولى الباحث فرانسيسكو فيورنتينو نشر أعمال برونو المؤلفة باللغة اللاتينية فى ثمانية مجلدات، يتضمن المجلد الثامن منها مخطوطات لم يسبق نشرها تم العثور عليها فى موسكو وبعض البلدان الأخرى. وأيضًا تولى جيوفانى جنتيل إعادة نشر كتبه المؤلفة باللغة اللاتينية الدارجة (أى الإيطالية) مرتين، إحداهما فى عام ١٩٠٧ والأخرى فى عام ١٩٢٥.

وتوفر على دراسة مؤلفات برونو عدد من المؤرخين والفلاسفة وفقهاء اللغة، من بينهم : فيلبس توكو، وإيرمنيو ترويلو، وإيملى نامر، وليونارد ألستشيكى، وأوجستو جوزو كورسانو، وردولف موندولف، ولويجى سيكوتينى، وفرانسيس أ. ييتس، ودوروثى دابليو سنجر، وجيوفانى أكويلتشيا، وعلى الأخص مجر أنجلو ميركاتى الذى نشر ملخصًا لقضية برونو يحتفظ به أرشيف الفاتيكان.

وكما سوف نشاهد فى الصفحات اللاحقة تنقسم سيرة حياة برونو إلى ثلاث مراحل يسهل على الباحث تمييزها، وتشمل المرحلة الأولى ـ وهى أطول هذه المراحل الثلاث ـ طفولته فى مدينة نولا وشبابه فى نابولى حتى اعتزاله الرهبنة. وتبدأ هذه الفترة بعام ١٥٤٨ وتنتهى بعام ١٥٧٦. وتشمل المرحلة الثانية التى تبدأ فى عام ١٥٧٦

وتنتهى فى عام ١٥٩١ رحلاته ومغامراته فى أرجاء أوروبا. أما المرحلة الأخيرة، فتبدأ برحلة عودته إلى إيطاليا وتنتهى بحرقه حيًا، وهذه المرحلة الأخيرة تبدأ بعام ١٥٩١ حتى إحراقه عام ١٦٠٠.

ويمكننا أن نستشف من بعض كتاباته أنه فى فترة رهبنته فى الدير فى نابولى استبعد من حجرته صور القديسين واكتفى باستثناء الصليب منها. وبعد فراره من إيطاليا توجه - بناء على نصيحة البعض - إلى چينيف بسويسرا باعتبارها ملاذًا آمنًا ليتضح له أنها بعيدة كل البعد عن التسامح العقائدى. وفى چينيف التحق بإحدى جامعات سويسرا؛ ولكن سرعان ما اختلف فى الرأى مع بعض أساتذته؛ وخاصة أنطوان دى لافــاى La Faye وعارضه بشدة فى نبذة مطبوعة. فهددته الجامعة فى أغسطس ١٥٧٩ بتوقيع أقسى عقوبة عليه. وزجت السلطات السويسرية به فى السجن ولم يُطلق سراحه إلا بعد أن تاب واستغفر وقام بتدمير جميع نسخ النبذة التى هاجم فيها لافاى، الأمر الذى دفعه إلى مغادرة چينيف واللجوء فى سبتمبر - أكتوبر ١٥٧٩ إلى مدينة ليون الفرنسية التى راقت له وعاش فيها نحو عشرين شهرًا، وهى أطول مدة قضاها فى فرنسا، حتى أرغمته الحرب الأهلية على مغادرتها.

عقدت محاكمة برونو الأولى فى البندقية وخرج منها سليمًا معافى؛ لأن المحكمة ترفقت به من ناحية، كما أنه اعترف بخطئه من ناحية أخرى. غير أن الأمور ما لبثت أن تعقدت عندما مارست الضغط على البندقية لطرد الراهب برونو المارق من أراضيها، فاضطرت البندقية - إرضاء للبابا كلمينت الثامن - إلى الرضوخ إلى رغبة روما وإلى تسليمه إلى محكمة التفتيش هناك. ومن المؤسف أن معظم أوراق الملف الخاص بمحاكمة برونو ضاعت فى الفترة من ١٨١٥ إلى ١٨١٧؛ ولكن من حسن الحظ أن أمين مكتبة الفاتيكان اكتشف بين الأوراق ملخصًا لهذه المحاكمة عام ١٩٤٠ فقام بنشره فى عام ١٩٤٢.

وأثناء استجوابه كشف برونو للمحققين عن تاريخ حياته، وقدم لهم ملخصًا لتعاليمه ومعتقداته. وفى بادئ الأمر حاور برونو محققيه وداورهم عندما وجد نفسه فى موقف صعب؛ ولم يجد غضاضة فى مهادنتهم تارة والاعتراف بخطئه وانحرافه عن جادة طريق الكنيسة الكاثوليكية تارة أخرى. وبمرور السنوات عبر عن توبته، لدرجة أن الكنيسة فى ديسمبر ١٥٩٨ فكرت فى استتابته وإعادته إلى حظيرتها؛ ولكنه ما لبث أن

تشبث بآرائه المارقة. وظل مصرًا على تشبثه حتى يوم إصدار الحكم عليه ليقول حكمته الشهيرة: «إنهم ربما يخشون إصدار الحكم عليَّ أكثر من خشيتى من سماع هذا الحكم»، وهو قول ينم عن منتهى الشجاعة والتحدى، فى حين أنه كان فى مقدوره أن يتجنب الموت لو أنه تراجع عن أقواله.

وحين وصل برونو إلى چينيف بسويسرا أثنى عاطر الثناء على مارتن لوثر مؤسس المذهب البروتستانتى، وكاد أن يتحول إلى المذهب الكالفينى.

مات برونو حرقًا وهو فى الثانية والخمسين من عمره. وكان طبعه النارى سببًا فى عنف عداواته وحدة عواطفه. ورغم خلفيته الكنسية، فإنه لم ينصرف عن ممارسة الحب بمعناه الحسى ولكنه رفض أن يصير عبدًا لرغبات الجسد. ويخبرنا برونو فى الوثيقة التى حررها ميركاتى أنه مارس الحب مع عدد لا بأس به من النساء كلما استطاع إلى ذلك سبيلاً. ويبدو أن المفارقة استهوته، لدرجة أنه استخدمها فى كثير من المناسبات وعلى نحو هازل وفكه أحيانًا. ومن الواضح أن حب استطلاعه ورغبته فى الاستزادة من المعرفة كان عظيمًا دون أن يعنى هذا إيمانه بكل ما يقرأ، ويتضح لنا هذا بجلاء من قوله: «لقد قرأت أعمال فيلانشثون ولوثر وكالفين وبعض المهرطقين الآخرين من أجل معرفة مذاهبهم وبدافع من حب الاستطلاع وليس بهدف الاقتناع بها، حيث إننى أعتبرهم أكثر جهلاً منى».

اثر برونو فى الفلسفة

فى عام ١٦٠٣، أى بعد وفاته بنحو ثلاثة أعوام، قام الكرسى البابوى فى روما بحظر كتابات برونو. غير أن هذا لا يعنى أن الفلاسفة فى أوروبا لم يطلعوا عليها، بل يعنى تجاهلهم له كحجة وعدم الاستشهاد بأقواله وكتاباته، كما يعنى أن القارئ لها لابد وأنه وجد مشقة فى الحصول عليها لندرة عدد نسخها المتداولة من ناحية، وارتفاع أسعارها من ناحية أخرى. ونحن نجد بعض الإشارات المبتسرة إلى برونو فى نبذتين ألفهما كاتبان إنجليزيان معاصران له عن فن شحذ الذاكرة الذى اهتم به فيلسوفنا اهتمامًا عظيمًا، وقام بتأليف الكتيب الأول عام ١٥٨٤ باحث مجهول من كيمبريدج مهر كتابه بالحرفين الأولين من اسمه، وهما ج. ب G. P. ناصب ج. ب. شديد العداء لأحد أصدقاء برونو اسمه ألكسندر ديكسون؛ ومن ثم فإن الكتاب يحمل عنوان: «الاعتراض على ديكسون». والكتاب مهدى إلى طبيب وفيلسوف ذائع الصيت - آنذاك - يدعى

موفات معروف بمناهضته لمدرسة ديكسون وأتباعها، وهى المدرسة التى انتمى إليها برونو فى فترة بقائه فى إنجلترا والتى سوف نذكرها فيما بعد بشىء من التفصيل. ويسخر مؤلف الكتاب من فن التذكر الذى كان برونو يزهو بإتقانه وسعة اطلاعه فيه، علمًا بأن مؤلفه واحد من أتباع راموس Ramus. ويلقى هذا الكتاب الأول الضوء على مدى كراهية برونو لراموس ومدى كراهية أتباع راموس لبرونو، وهى كراهية يصعب فهمها لوجود قسمات مشتركة تجمع بين هذين الفيلسوفين، فقد ناصب كلاهما أرسطو العداء. والهجوم الذى يشنه ج. ب. ينصب على مبحث ألفه ألكسندر ديكسون فى عام ١٥٨٣ وأهداه إلى إيرل ليستر. ولا شك أن الكتاب يتفق فى جوهره مع الأفكار التى أوردها برونو فى مبحث له ألفه عام ١٥٨٢. والجدير بالذكر، أن برونو استخدم شخصية ديكسون فى أحد حواراته؛ ويدل ذلك على أن برونو ترك بعض بصماته الثقافية على الفكر الإنجليزى. ويجدر بنا أن نشير إلى أن كتاب ديكسون محدود القيمة، وأن التاريخ طوى صاحبه فى طياته.

ويتحدث المؤلف الإنجليزى توماس واطسون عن برونو باحترام وشىء من الإعجاب، وذلك فى الإهداء الذى صدَّر به كتابه عن الذاكرة نحو عام ١٥٨٥ إلى هنرى نويل الذى كان واحدًا من بلاط الملكة إليزابيث. ويتضمن كتاب توماس واطسون نفس الآراء عن شحذ الذاكرة التى سبق لبرونو وديكسون أن عبرا عنها.

كان الفيلسوف الإنجليزى فرانسيس بيكون فى لندن فى نفس الوقت الذى تمتع فيه برونو بالحظوة فى بلاط ملكة إنجلترا . كما حظى بعلاقات ودية مع علية القوم، أمثال النبيل ليستر والشاعر المعروف السير فيليب سيدنى. ولم يذكر بيكون فى كتاباته برونو سوى مرة واحدة، وذلك فى المقدمة التى صدَّر بها مبحثه «التاريخ الطبيعى والتجريب» ضمن كوكبة من المفكرين اعتبرهم بيكون من أهل الحداثة. ويبدو أن بيكون الذى كان وطيد الصلة بالأدب الإيطالى تأثر ببرونو؛ فهو يردد نفس فكرة برونو القائلة بأن الأجرام السماوية تتحرك فى أشكال حلزونية وليس فى دوائر كاملة الاستدارة. ويشبه بيكون برونو فى اهتمامهما بالسحر وإعجابهما بسفر أيوب فى الكتاب المقدس، باعتبار أنه كتاب يتضمن الكثير من أسرار الفلسفة الطبيعية. وكلاهما آمن بقول سليمان الحكيم بأنه لا يوجد جديد تحت الشمس، كما أن كليهما يرفض الانصياع للسلطة الفكرية ويعتبرها مجرد ترديد لمقولات قديمة دون إعمال العقل مثلما فعلت

الأجيال المتعاقبة بتوارثها للفكر الأرسطاطاليسى. ولهذا؛ رأى الرجلان ضرورة استبعاد سلطة الدين والإيمان عند إجراء البحوث العلمية أو الفلسفية؛ غير أن هذا لم يفض إلى تشكك بيكون فى وجود الله كما هو الحال مع برونو. فضلاً عن أن الاثنين نهلا من فلاسفة الإغريق مثل أنكساموراس ولوسيبوس وديموقريطس وبارمينيدس وإمبدوكليس وهراقليطس. ونحن نشاهد فى كليهما الجمع بين الإيمان بأن الروح تسرى فى أوصال الكون والنظرية الذرية فى الطبيعة، وأن أفضل سبيل إلى فهم الظواهر الطبيعية هو التعبير عنها بمصطلحات رياضية. وكلاهما يؤمن بأن المادة فى حالة تغير دائم؛ ولكن بيكون رفض الاقتناع بفكرة برونو التى أخذها عن لول Lully الخاصة بشحذ الذاكرة.

والجدير بالذكر، أن نظريات برونو فى الكون لفتت أنظار الأوروبيين إليها؛ ولكن الفكر الأوروبى تجنب إظهار أى تعاطف مع هرطقته. ولكن عالم الفلك المعروف كبلر Kepler (١٥٧١-١٦٣٠) تجرأ وشكا من أن الدبلوماسى الفيلسوف جاليلى تجنب الثناء على برونو. ورغم هذا ، فإن كبلر رفض الاقتناع بأفكار برونو الخاصة بلانهائية الكون؛ فضلاً عن أن كبلر ذهب إلى ثبات النجوم فى مكانها داخل نظام المجموعة الشمسية فهى مثل بذر البرتقالة المستقر داخلها، كما أنه رفض فكرة برونو القائلة بأن كل نجم هو شمس فى حد ذاته لها نظامها الخاص بها، وإن هناك سلسلة لا تنتهى من الشموس فى كون بلا نهاية.

وأيضًا آمن بفكرة برونو عن لا نهائية الكون مفكر فرنسى يدعى فانينى لقى مصيرًا محتومًا عام ١٦١٩ فى مثل قتامة مصير برونو. ويعتبر الفلاسفة ديكارت وجاسندى Gassandi على وجه الخصوص (١٥٩٢ - ١٦٥٥) وسبينوزا وليبنتز، أبرز الفلاسفة الأوروبيين الذين تأثروا ببرونو. سار ديكارت على خطى برونو فى رفضه لأية سلطة مسبقة أو تحيزات فكرية قبلية، وضرورة الاحتكام إلى العقل وكسر ما يعوقه من أغلال. ويلمس الدارس فى جاسندى الأثر الذى تركته فلسفة برونو التى تجمع بين الإيمان بحلول الله فى الطبيعة والكون وبين المذهب الذرى العلمى، وذلك رغم خلو كتابات ديكارت من أية إشارة إلى سلفه الإيطالى.

ويعتبر الفيلسوف جاسندى من أكثر الناس تأثرًا ببرونو. ومن المحتمل أن معارضة أرسطو كانت الشىء الذى يجمع بينهما من حيث إيمان كل منهما بالتجربة القائمة على

مدركات الحواس وبالنظرية الذرية. ولكن جاسندى رفض التسليم بصحة أفكار برونو عن واحدية الوجود وحلول الله فى كل شىء فى الكون، حتى ولو كان مجرد حجر.

ولعل أكثر الفلاسفة تأثرًا ببرونو هو الفيلسوف سبينوزا. ويؤكد الباحثان سيجوارت وأفيناريوس أن مبحثى برونو «المبادئ» و «اللانهاية» كانا نصب عينى سبينوزا حين ألف مبحثه «الله والإنسان وبركته». ويعتقد البعض أن أستاذ سبينوزا المتحرر الفكر واسمه الدكتور فان دن إند هو الذى قام بتعريف سبينوزا بكتابات برونو. وعلى أية حال، كان سبينوزا يطالع باللغة الإيطالية. وهناك نقاط تشابه والتقاء بين برونو وسبينوزا، أبرزها إيمانهما بوحدة جميع الأشياء فى الطبيعة والكون، فهى تنبع من نفس المصدر وتعود إليه. وينم بحث سبينوزا الباكر عن الله والإنسان أنه فى باكورة حياته اقترب للغاية من الفلسفة الأفلاطونية الجديدة التى اعتنقها برونو.

وأيضًا يعتقد أن الفيلسوف ليبنتز Leibniz من أكثر الفلاسفة الأوروبيين قربًا من برونو، فالاثنان يريان أن الكون يتكون من منظومة من الحقائق المستقلة التى تختلف عن بعضها البعض،ولكنها فى الوقت نفسه تعكسه، أى أن أجزاء الكون المستقلة تحمل فى أحشائها خصائص الكون كله. غير أن فكرة برونو عن حلول الله فى الكون التى راقت لسبينوزا لم ترق فى عين ليبنتز. ويُظن أن التأثر الذى أظهره ليبنتز ببرونو لم يكن مباشرًا أو نتيجة الاطلاع بنفسه على أعماله، بل جاء من خلال قراءته لأعمال سبينوزا. والجدير بالذكر، أن الباحث لاكروز اتهم ليبنتز فى خطاب يرجع تاريخه إلى عام ١٧٣٧ بأنه استقى كل فلسفته من كتاب برونو «الحد الأقصى والحد الأدنى».

والجدير بالذكر أيضًا، أن برونو ترك أثرًا واضحًا على الأدبين الفرنسى والإنجليزى مثل مسرحيات الأديب الفرنسى موليير. وفى إنجلترا قام الأديب توماس كارو Thomas Caraw عام ١٦٣٤ بتأليف مسرحية أقنعة باللغة الإنجليزية لتقديمها فى بلاط شارل الأول ملك إنجلترا (الذى أطاح به كرومويل). وهذه المسرحية مأخوذة من كتاب برونو عن «الفضاء». ويقال إن الملك شارل الأول اشترك فى تمثيلها ولعب دور «الحقيقة» فيها. وفى المقال الذى كتبه بيير بايل Bayle فى قاموسه التاريخى الصادر عام ١٦٩٧ نراه يلطخ سمعة برونو، الأمر الذى أضر بسمعته قرنًا كاملاً من الزمان متهمًا إياه بالزندقة والإلحاد.

غير أن موقف جون تولاند Toland من برونو كان متعاطفًا وينم عن الاحترام. وقد ترك تولاند وراءه فى مخطوطاته تلخيصًا لبحث برونو عن لا نهائية الكون؛ فضلاً عن أنه ترجم مقدمة هذا المبحث. علمًا بأنه ظهرت فى إنجلترا عام ١٧١٣ ترجمة إنجليزية لمبحثه عن الفراغ أو الفضاء اضطلع به دابليو مورهيد.

ولكن إعادة الاعتبار الحقيقى لبرونو جاءت من ألمانيا. ويروى لنا الباحث بارثولوميو قصة رد هذا الاعتبار، ومن مظاهره أن الباحث هيومان دحض اتهام لاكروز له بالإلحاد وبأنه مهد الطريق أمام إيمان سبينوزا بمذهب حلول الله فى الطبيعة، واصفًا إياه بأنه شهيد البروتستانتية اللوثرية. وكذلك أظهر بروكر العطف على برونو واصفًا إياه بالانتقاء فى اختيار فلسفته، مضيفًا أنه استقى فلسفته أو انتقاها من كل من ديمقريطس وإبيقور وكوبرنيكوس وفيثاغورث. ودافع عنه قائلاً إنه ليس محتالاً أو نصابًا كما يقول شانئوه، بل مفكرًا شديد الحماس لأفكاره.

ثم صدر خلال القرن الثامن عشر عدد من الأبحاث عن برونو سطرها كل من جوردان Jordan وكريستيانى Christiani وكندرفاتر Kindervater ولسمان Lessman ولوكهارد Lauckhard ، إلى جانب آديلونج Adelung الذى أفرد له مكانًا خاصًا فى كتابه «تاريخ الحماقة البشرية» (١٧٨٥). وفى العام نفسه، أصدر ف. هـ. جاكوبى خطابات عن فلسفة سبينوزا التى أعلى فيها من شأن كل من برونو وسبينوزا كفلاسفة عظام. وبطبيعة الحال وجد جاكوبى فى مبحث برونو «المبادئ» ما يربطه باسبينوزا. وأيضًا امتدح هامان Hamann، وهو صديق جاكوبى، فلسفة برونو وأعلى من قدرها، فى حين أنه حط من قدر كانط، وأيضًا عبر جوته عن إعجابه بآراء برونو. واعتبره بوهل Buhle أولاً فى كتابه «تعليق على نشأة وتقدم مذهب حلول الله فى الطبيعة» (١٧٩٠) ثم فى كتابه «تاريخ الفلسفة»، أهم المؤمنين بمذهب وحدانية الوجود (واحدية الوجود). وأيضًا أثنى تنيمان Tennemann على فلسفة برونو؛ غير أن الباحث فولبورن Fulle-born انتقده فى كتاب ألفه بعنوان: «إسهامات فى تاريخ الفلسفة». وكذلك سار شيلنج Schelling على درب برونو فآمن بالمطلق، واعتبر هذا الفيلسوف أثيرًا إلى قلبه.

ولم يظهر هيجل تحمسًا كبيرًا لفلسفة برونو، فهو يرى أنه من المبالغة أن نضع برونو فى نفس مكانة سبينوزا. ورغم ذلك، فقد لعبت فلسفة هيجل دورًا مهمًا فى لفت النظر إلى الفيلسوف الإيطالى القادم من نولا، حيث إنها شجعت كريستيان

بارثولمس Bartholmess على تأليف كتابه «جوردانو برونو»، كما أن موريتز كاريير Moritz Carriere ألف كتابًا آخر بعنوان : «فلسفة عصر الإصلاح الدينى». والذى لاشك فيه أن برونو لم يفلح فى تأسيس مدرسة فلسفية تنسب إليه بسبب نهايته الفاجعة وحظر مؤلفاته لفترة طويلة، ورغم ذلك فقد أسهم بنصيب وافر فى ترسيخ عصر النهضة وتطوير الفكر وزيادة رقعة الحرية الفكرية.

انصرف الباحثون الإيطاليون فى القرن الخامس عشر إلى التنقيب عن النصوص القديمة التى خلفها الإغريق، أمثال أفلاطون وأرسطو، والتى تمت ترجمتها وإعادة ترجمتها، إلى جانب الشعراء والمسرحيين والمؤرخين والخطباء الإغريق؛ بالإضافة إلى حشد من المؤلفين اللاتينيين أمثال لوكريشيوس وتاسيتوس وبلوتوس. حتى البابا نيكولاس الخامس اهتم بالتنقيب عن الدراسات الإنسانية المتمثلة فى النحو والبلاغة والتاريخ والشعر والفلسفة الأخلاقية. ويشبه برونو فى دراسته المتعمقة لفلسفة أرسطو فلاسفة عصر النهضة المتخصصين فى مذهب أرسطو، ومن ثم فقد توفر مثل كاردانو Cardano وتليسيو Telesio وكامبانيلا Campanella على دراسة هذه الفلسفة بطريقته المستقلة. ولاشك أن تمرد برونو على سلطة أرسطو بوجه خاص وعلى السلطة بوجه عام، يرجع إلى حد كبير إلى انتشار نفوذ المذهب الإنسانى الذى ظهر قبله بما يقرب من قرن ونصف من الزمان، وهو مذهب أعلى فيما أعلى من شأن العقل وتمجيد حكمة الإغريق والإيطاليين القدامى. وكما قلنا، بلغ برونو حدًا من الجرأة الفكرية جعله يثور فى وجه سلطة أرسطو بوجه خاص وأى نوع من السلطة بوجه عام. كان برونو فى الإطار العريض مؤمنًا بالكنيسة الكاثوليكية الرومانية؛ ولكن إيمانه بها كان مشروطًا بتحفظين، أولهما أن سيطرة الكنيسة فى مجال العقيدة والأخلاق تصلح للسوقة العاجزين عن توجيه أنفسهم، وثانيهما أن السلطة الكنسية العليا ينبغى أن تسمح له بحرية البحث والاستقصاء طالما أنه يؤمن فى الأساس بسلامة العقيدة المسيحية. وهو قول يبدو متناقضًا مع تصريحاته المنكرة لألوهية السيدة مريم وعذريتها.

ألف برونو حواره المهم «جموح العشق» Eroici Furori تناول الباحثون علاقته بالأبحاث التى ألفت عن الحب الأفلاطونى فى نهاية القرن الخامس عشر وخلال القرن السادس عشر؛ فضلاً عن أنهم تحروا تعليقاته النثرية على سوناتاته وقصائده الأخرى. وعن طريق تحليل مبحث برونو عن العشق والغرام يمكننا أن نلمس بوضوح

الأثر العميق الذى تركته فيه مباحث الحب الأفلاطونى السابقة عليه، وهو الأمر الذى يصبغ مبحث برونو بصبغة الحب الأفلاطونى الذى يظهر فى هذا المبحث أكثر مما يظهر فى مباحثه اللاحقة.

ويؤكد الباحثون أن كتابات برونو تخلو من النظام، فهى عبارة عن شذرات متفرقة، الأمر الذى يدل على نهج صاحبها غير الأكاديمى؛ ولكنه يدل فى الوقت نفسه على سعة اطلاعه الهائل. والغريب أن مروق برونو على الكنيسة لم يمنعه من الإشادة بوظيفتها التاريخية وأهميتها فى تنظيم حياة الرعاع. وهو يمتدح القديس توماس الأكوينى، فى حين يهاجم البروتستانتى المتزمت كالفن. ورغم زعمه بأنه يؤمن بالكنيسة الكاثوليكية، فإنه يتخذ مواقف مناهضة لها وللمذهب البروتستانتى والدين اليهودى.

ولاشك أن عناده الهائل وتشبثه المذهل برأيه وبحرية الإنسان فى التعبير عن رأيه، جعل منه رمزًا لحرية الاستقصاء والبحث الأكاديمى حتى يومنا الراهن. والجدير بالذكر، أنه تم طرده من الكنيسة ثلاث مرات (وليس مرة واحدة): مرة على يد الكنيسة الرومانية، وأخرى على يد الكنيسة الكالفينية وثالثة على يد الكنيسة اللوثرية. وما من بلد يحط فيه رحاله حتى يثير ضده عداوات ضارية، ففى مدينة چينيف السويسرية كتب نبذة أحصى فيها عدد الأخطاء التى وقع فيها درس واحد يعلمه البروفيسور دى لافاى ، كما طرده عام ١٥٨٩ المشرف على الكنيسة اللوثرية فى هلموستدت. وفى مدينة أكسفورد بإنجلترا أثار حفيظة أساتذتها بنشر كتابه عن الحمير والحميرية الذى سخر فيه من أسلوب الإنجليز فى التعليم. ولعل الجامعة الوحيدة التى راقت له وامتدحها لتوافر الحرية فيها هى جامعة وتنبرج، التى علَّم فيها الفلسفة من عام ١٥٨٦ حتى ١٥٨٨.

ويذهب بعض الدارسين إلى أن برونو نبذ اعتناقه للأفلاطونية الجديدة، غير أن هذا ليس بالأمر بالمؤكد نظرًا لعودته إليها فى وقت لاحق من حياته، مثل تعبيره عن الفلسفة الأفلاطونية الجديدة بشكل واضح لا يقبل الشك فى كتابه «جموح العشق» الذى ألفه عام ١٥٨٥ . وفى الجانب الآخر عبر برونو بجلاء عن عداوته للفلسفة الأفلاطونية فى عدد من فقرات كتابه «جماعة الكابالا السرية التصوفية» (١٥٨٥)، كما عبر عن عدم اكتراثه بمذهب الزهد والتقشف فى مبحثه «انتصار الوحش» (١٥٨٤). وإذا دل ذلك على شىء، فإنه يدل على عدم اتساق نظرة برونو الفلسفية.

ويشير ليوناردو أولتشكى إلى تناقضات برونو فى الكتاب الذى ألفه عنه، فى حين ذهب جنتـــايل Gentile إلى أن فلسفته تبشر بمولد عهد جديد. ويتحدث أنتونيو كورسانو عن وقوف برونو فى وجه كل من أفلاطون والمذهب الإنسانى، وهو أمر يثير الجدل.

قد يتساءل المرء عما خلفته أفكار برونو من أثر فى الأجيال المتعاقبة. وللإجابة عن هذا التساؤل نقول، إن الدراسات التقليدية القائمة على مذهب أرسطو الشائع فى القرون الوسطى انهارت بمجىء القرن السابع عشر وحلت محلها مبادئ العلم الحديث. وفى القرن السابع عشر، اقتنعت أحسن العقول بالفلك الذى ينادى بأن الشمس ـ وليس الأرض ـ هى فى وضع المركز. ولم يعد علم الفيزياء الحديث يقبل التفرقة أو التمييز بين العالم الأرضى وبقية الأجرام السماوية. وقد تعرضت آراء برونو الفلكية للنقد اللاذع خلال القرن السابع عشر وحتى منتصف القرن الثامن عشر. وفى عام ١٧٠٠، تعرض قسيس فرنسى اسمه أنطوان جويج Guigues بالنقد والتقريع لفرضية برونو القائلة بوجود شموس كثيرة تضىء العوالم الأخرى، وذلك فى مبحث نشره فى روما بعنوان: «مجال جغرافية السماء»، راميًا هذه الفرضية بقلة الأدب والحياء. ومن بين سيل الأصوات المعترضة على آراء برونو الفلكية ارتفع صوت الإيطالى جيوفانى كريفللى Crivelli الذى نشر فى البندقية عام ١٧٣١ مبحثًا بعنوان: «عناصر الفيزياء»، يهاجم فيه مذهب برونو المنادى بلا نهائية الكون وتعدد العوالم.

ولكننا نرى فيما ندر مقابل هذا الهجوم على برونو ثناء عاطرًا أمطره عليه مؤرخ العلوم نويل ريجنولت Noel Regnault فى المبحث الذى نشره فى باريس عام ١٧٣٤ بعنوان: «الأصول القديمة للفيزياء الجديدة»، مشيدًا بالدور الذى لعبه كل من برونو وديكارت فى تحرير العلم من ربقة التفكير القديم، سواء كان هذا التفكير أرسطاطاليسيًا أو أفلاطونيًا. غير أن العلم بمفهومه الحديث لم يقبل منهج أرسطو ومنهج برونو نفسه، فجاليليو وديكارت وليوناردو دافنشى ذهبوا إلى أن المعرفة الفيزيائية لابد أن تقوم على أساس الرياضيات.

وتتعارض أفكار برونو عن الكون اللانهائى الذى يجسد لانهائية الله مع المذهب الأرسطاطاليسى. ورغم أن هذه الفكرة أقرب ما تكون إلى اللاهوت ولا يمكن للعلم الوضعى أن يقبلها، فإنها تتفق مع ما يذهب إليه علم الفلك الحديث الذى يرفض

الفكرة القديمة المنادية بانحصار الكون فى مكان مغلق ومحدود. ورغم مناداة برونو بلانهائية الكون، فقد أوضح أن تجزئة المادة لها حدود وأن المادة لا يمكن تجزئتها إلى ما لا نهاية. فالذرات التى آمن بها برونو لها شكل وحجم معينان، رغم أنها أصغر الجسيمات الموجودة فى الطبيعة. وبرونو فى ذلك قريب الشبه ببيير دى لا رميه de la Ramee فى أن كلاً منهما فصل فصلاً تامًا بين الرياضيات والفيزياء. فالرياضيات - على حد قول لارميه - تبحث فيما يمكن تجزئته أو تقسيمه إلى ما لا نهاية، فى حين أن الفيزياء تبحث فيما له نهاية وفيما يمكن تجزئته أو تقسيمه. والجدير بالذكر، أن برونو كان يعتبر الرياضيات غير مفيدة ونوعًا من الاستغراق فى الأحلام.

وحتى نوضح الفرق بين الفيزياء عند برونو والفيزياء عند جاليليو، نسوق أفكار كل منهما الخاصة بالعناصر المكونة للمادة والفراغ المحيط بهذه العناصر. فقد قال جاليليو إن مكونات جميع الأجسام المادية لا يمكن تقسيمها أو تجزئتها إلى ما لا نهاية، وإنها لا تحتل حيزًا كما أنها تشبه النقاط الهندسية ومن ثم فإنها غاية فى الصغر، وإن هذه النهاية تمتزج عند الالتصاق ، ولهذا يمكن لعدد منها أن يتجمع دون أن يشغل حيزًا يمكن قياسه. أما برونو، فقد كان على العكس من ذلك يرى أن للعناصر المكونة للجزئيات حيزًا كامنًا فيها . ومن ثم، فإن الفراغ المحدود ليس بمقدوره أن يحتوى على عدد لا نهائى من هذه العناصر. ولكن هذه الجزئيات مهما تلاصقت فإنها سوف تصبح كثيرة العدد للغاية بسبب دقة أحجامها وصغرها دون أن تكون كثرة العدد إلى ما لانهاية. وإذا حدث أن اتسعت هذه الكتلة المتلاصقة أو تمددت، فإن العناصر المكونة لها سوف تترك فراغات فيما بينها تزداد اتساعًا بمرور الوقت مثل هذه الفراغات الهائلة التى تظهر فى المسافات بين النجوم.

والرأى عند برونو أن المادة، سواء أكانت أشياء أم ذرات أم أجرامًا سماوية، تتسم بالسلبية والروح هى السبب فى كل تحركاتها. وهو رأى يرفض العلم الحديث، وخاصة علم الميكانيكا، الاقتناع بصحته. فعلم الميكانيكا عند نيوتن يقبل الحركة كحقيقة واقعة، ولا يحاول من جانبه أن يرد الحركة إلى محرك أول أو الله بلغة أرسطو.

والجدير بالذكر، أن القرون المتعاقبة غمطت برونو مكانته وتجاهلت قيمته حتى جاء القرن التاسع عشر فرد إليه شيئًا من اعتباره. ومن دلائل التغيير الذى طرأ على موقف الكنيسة من علم الفلك أنها استمعت إلى نصيحة جاليليو لها بعدم التدخل فى

المنازعات الدائرة بين علماء الفلك؛ ولهذا نرى الكنيسة عام ١٨٢٢ ترفع الحظر عن كتاب كوبرنيكوس الشهير عن دوران الأجرام السماوية بعد أن قامت بحظره عام ١٦١٦. ومهما كانت اعتراضات العلم المتقدم على النتائج التى توصل إليها برونو وعلى التناقضات التى شابت آراءه، فإن هذا العلم مدين بالفضل لكتابه «اللامحدود» الرافض لفكرة مركزية الأرض. ونظرًا إلى أن العلم فى وقتنا الراهن مقطوع الصلة بمفاهيم برونو غير الدقيقة عن العلم، فإننا نجد الآن من يحصى الأخطاء العلمية التى تورط فيها برونو مثل لاسويتز Lasswitz الذى اتهم نظرة برونو العلمية بالإسراف فى الخيال والبعد عن الواقع، وكذلك مثلما فعل مؤرخ علمى آخر هو فيليس توكو Felice Tocco.

ولعل حديث برونو عن لا نهائية الكون هو الشىء المؤكد الذى أضافه برونو إلى عالم المعرفة بمفهومها الحديث. وكذلك يدعم التطور فى الميكروفيزياء موقف برونو الرافض لتجزئة المادة إلى ما لا نهاية، على عكس جاليليو الذى نادى بتقسيمها إلى ما لا نهاية. ويتجه العلم المعاصر إلى القول بفكرة وجود حد لتجزئة المادة، فالذرة وهى أصغر التجزئات أصبحت الآن تخضع للحساب والتجربة.

وفى الختام نعرض لرأى برونو القائل بأن روح العالم هى التى تبعث الحياة فى مادة الكون، وهو الأمر الذى يمكن تفسيره اليوم بوجود طاقة داخلية كامنة فى الذرة نتيجة وجود هذه الروح فى كل الأشياء.

نادى برونو بوحدة الكون أو واحديته، وبأن هذه الواحدية تحتل مركز الروح. ويبنى برونو نظرته الكونية على الحدس، وتميز بإحساس عميق بالوحدة التى يضعها فى قلب الوجود. وظهر إحساسه الكاسح بالوحدة فى مبحثه عن «السبب والمبدأ والوحدة»، حيث نرى ثيوفيلوس يدافع عن الوحدة قائلاً بوحدة كل شىء خاص بالمادة وفقًا لمفهوم الفيلسوف بارمنيدس وسلفه إكسنوفانيس وكذلك ميليسوس. ويذهب برونو فى مبحثه عن السبب إلى القول: «من يجد الوحدة - وأعنى بذلك سببها - يكون قد حصل على المفتاح الذى يستحيل بدونه التأمل الحقيقى للطبيعة. وهو يصف هذه الوحدة بالبساطة والاستقرار والديمومة فهى وحدة أبديه، مؤكدًا أن كل مظهر وكل وجه باطل وقبض الريح. فلا شىء يوجد البتة خارج هذه الوحدة».

وتتصف إشارات برونو إلى الوحدة بالأفلاطونية الجديدة أحيانًا وفلسفة الفلاسفة السابقين لسقراط أحيانًا أخرى. ومفهوم برونو عن الوحدة يتأرجح بين طريقتين لفهم هذه الوحدة وعلاقة الواحد بالعدد. ويعتبر برونو أن الوحدة هى الله، وأنها الكينونة الحقيقية وسبب الأسباب.

وفيما يتصل بوحدة الجوهر وتعددية الظاهر يرى برونو أن الوحدة لا تستبعد التعدد أو التنوع، بل تخفيهما فى طياتها وتقوم بإنتاجها. وكما يقول نيكولاس كوسا، فإن الوحدة تتضمن التعددية وتشرحها. يقول كوسا فى هذا الشأن : «إن الله يحتوى بداخله سائر الأشياء فكل الأشياء موجودة فيه وهو التطور لكل الأشياء، لدرجة أن الله نفسه موجود فيها جميعًا». يقول برونو فى مبحثه «جموح العشق Eroici Furori»: «وإنه فى بساطة الجوهر المقدس الذى يكمن فى كل شىء.. حيث تتساوى جميع الخصائص، ومن الأفضل أن نقول إنها نفس الخصائص». وأيضًا يقول برونو فى الحوار الخامس من مبحثه «السبب والمبدأ والوحدة»: إن الوحدة بلا نهاية، وهى تشمل كل شىء». وفيما يتعلق بما نراه من تنوع واختلاف، فهذا مجرد منحى واضح ومختلف لنفس المادة. وإذا كانت الوحدة تشمل كل شىء، فإن التعدد رغم ذلك يظل موضوع التجربة الإنسانية. ومن التعدد الكامن فى الوحدة حتى التعدد الظاهر فى الكون نرى على الأقل تغيرًا فى المنحى ينبغى على الفيلسوف أن يضطلع بوصفه.

يقول برونو فى الإهداء الذى صدَّر به مسرحية المشعل: «الزمن يزيل كل شىء كما أنه يعطى كل شىء»، فكل الأشياء تتغير ولا شىء يفنى. الوحدة فقط هى التى لا تتغير. هى فقط الخالدة». وترجع هذه الفكرة إلى الفلاسفة القدماء المؤمنين بالمذهب الذرى الذين يرون أن غير القابل للتجزئة أو التقسيم هو الأبدى. وأبيقور من أوائل دعاة هذا المذهب، ثم جاء لوكريشيوس ليردد نفس الفكرة التى انتقلت من خلاله إلى عصر النهضة، حيث تبناها برونو فى نظريته عن «الحد الأدنى». وقد عبر برونو عن هذه النظرية فى قصيدة نظمها باللغة اللاتينية. هذا الحد الأدنى فى رأيه هو أصل الوجود. وحين تتحلل الأشياء وينفك عقدها تعود إلى الحد الأدنى الذى يمثل العنصر الأساسى فى بناء الكون . يقول برونو فى هذا الشأن: «كل شىء ينشأ من الحد الأدنى، وكل شىء مهما بلغت ضخامته ينخفض إلى الحد الأدنى. هذا الحد الأدنى يمثل الوحدة؛ فضلاً عن أنه مصدر التعدد والأساس الذى ينبنى عليه أى شىء لا نهائى فى ضخامته. وهو الحقيقة الوحيدة الدائمة فى التغير المستمر الذى يطرأ على الأشياء؛ ومن ثم فإن الحد الأدنى هو اللبنة الأولى التى يتكون منها الحد الأقصى. ويتحدث برونو عن ثلاثة حدود دنيا فى هذا الكون، هى: الله والروح والذرة، وهى جميعًا حدود لا سبيل إلى الفصل بينها. ففى الكون، الذى يحل فيه الله لا يوجد شكل بلا مادة، كما أنه لا توجد مادة بلا شكل. ورغم ذلك ، فإن هذه الحدود الدنيا الثلاثة يمكن تمييزها عن طريق التحليل وعن طريق التجربة المشتركة.

وأخيرًا، يجدر بنا أن نؤكد أن برونو أظهر اهتمامًا عظيمًا بأبحاث رامون لال Ram-on Lull (ولد نحو عام ١٢٣٢ وتوفى عام ١٣١٦) الخاصة بفن التذكر. وفى فترة إقامته فى لندن سعى إلى توحيد فيزياء الأرض بفيزياء السماء، بحيث تشكلان صيرورة كونية واحدة. فضلاً عن أنه اهتم بتقصى أسباب الحروب الدينية والمنازعات اللاهوتية؛ فضلاً عن أن جميع كتاباته الباكرة واللاحقة على حد سواء تنم عن أن نظرته إلى الأشياء تقوم على السحر والاعتقاد بأن الحياة موجودة فى كل شىء حتى الجوامد. وفى بحثه «عشاء أربعاء الرماد» La Cena de Le Ceneri المنشور عام ١٥٨٤ / ١٥٨٥، عبر برونو عن إيمانه بمذهب كوبرنيكوس فى الأجرام السماوية، كما أنه بحث العلاقة المباشرة بين دورة الأرض السنوية حول الشمس ولا نهائية الكون. علمًا بأن كوبرنيكوس نفسه الذى أنكر ثبات الكرة الأرضية ومركزية الشمس فى الكون لم يناد بلا نهائية الكون، بل ترك هذا الموضوع معلقًا، فى حين أن برونو فى هذا المبحث أكد لا نهائية الكون ولا نهائية الأنظمة الشمسية الشبيهة بالنظام الشمسى الخاص بالأرض. وكذلك ألف برونو مبحثًا بعنوان: «حول دوران الأجسام السماوية» De re-volutionibus orbium Celestriun. وقد تأثر بالنظريات الفلكية التى وضعها العالم برناردينو تيلسيو Bernardino Telesio (١٥٠٩ – ١٥٨٨). ويختلف كوبرنيكوس عن برونو فى أن اهتمامات الأول انصبت على الرياضيات، فى حين أن الثانى أولى الفلسفة الطبيعية اهتمامه.

ويدلنا مبحث برونو «ظلال الأفكار» De Umbris Idearum الذى ألفه فى وقت باكر (١٥٨٢) على شدة اهتمامه باستجلاء فن التذكر وإقامة هذا الفن على أساس من السحر . واستقى برونو الكثير من أفكاره فى هذا المبحث من كتاب لأجريبا Agrippa يحمل عنوان: «حول الفلسفة الغامضة»، وينم هذا المبحث عن تأثر برونو بالمذهب الذى شرحه مارسيليو فيسينو Marsilio Ficino فى كتابه «اللاهوت الأفلاطونى». وهو مذهب يسعى إلى استجلاء «الروح العاقلة»، وهى روح تجمع بين روح العالم والروح الإنسانية. والرأى عند فيسينو أن الروح العاقلة تحتل مركز الوجود باعتبارها الصلة التى تربط بين العالم المحسوس والعالم القابل للفهم. وتمتد سلسلة الوجود بين نقيضين، هما: الفعل الصرف والقوة الصرف، أى بين الله والمادة الأساسية.

سيرة حياته ومؤلفاته

ونهايته المأساوية

عـاش جـيـوردانو بـرونو Giordano Brune (١٥٤٨ ـ ١٦٠٠) مـعظم حـيـاتـه شـقـيًا وبائسًا، محتقرًا من الناس، يفتقـر إلى الفطنة واللباقة الاجتماعية والكياسة الدنيوية. كمـا أن مـسلكه غـيـر العملى أقـرب مـا يـكون إلى اللوثة والجنون. ورغـم ذلـك، فـقـد لعب دورًا بالغ الأهـمـيـة فى إعـادة صـيـاغة الـفكر الأوروبى إبان عـصـر النهـضـة فى القـرن السـادس عشر. وقد وجدت أفكاره اسـتجـابة لها عـلى وجه الخصـوص، وأسهم الأديب البريطانـى وليم جيلبرت (١٨٠٤ ـ ١٨٨٩) بنصيب وافر فى التعريف به وذيوع اسـمه فى العالمين. ويعتبر توكو Tocco وفيورنتينو Fiorentino وبرتى Berti وبرنهوفر Brunhhof er ومـاك إنتـايـر Mcintyre ، من أول الذين تناولوا سيـرة حـيـاته. كـتب عـلى برونو التـرحـال والهـيـام على وجـهـه فى ربوع أوروبـا نحـو ربع قـرن دون أن يمكث فى أى منـهـا أكثـر مـن عـامين متصلين، عـاد بعده إلى بـلاده لتزج به مـحـاكم التـفـتـيش فى غـيـاهب السجـون لمدة ثمانية أعوام بدأت بتقديمه إلى المحـاكمة فى البندقية وانتهت بإحـراقه فى رومـا فى زنزانتـه. ولكن ترحـاله المـسـتـمـر لم يحل دون تأليـفـه الـعـديد من الـكتب والأبحـاث. وكان من حسن حظه أنه تمتع بتشـجـيع بعض الـحكام والنبـلاء، على رأسـهم شـارل الثـالث ملك فـرنسـا وإليـزابيث الأولـى مـلكة إنجلتـرا. ومن المـؤسف ضـيـاع الكثـيـر من الوثائق الخـاصة بمحـاكمته وسجنه. ولكن بعض هذه الوثائق اكتشـفت فى دار وثائق الفـاتيكان فى الفـترة من ١٨٤٤ إلـى ١٨٤٨، أى بعد انقـضـاء مـا يقـرب من قـرنين ونصف على إعدامه.

وأول من ألف كتابًا عن جيوردانو برونو عام ١٨٦٨ هو الباحث الثقة دومينيكو برتى.

ولد برونو في قرية نولا فى جنوب إيطاليا القريبة من بركان فوزيفيوس والموغلة فى القدم، والتى يرجع تاريخها إلى القرن الثامن قبل الميلاد. ويبدو أن نولا كانت تربطها باليونان القديمة علاقات ودية وطيبة. وهى من أوائل الأسقفيات التى ظهرت فى العالم المسيحى إلى الوجود. ويقال إن القديس بطرس الرسول نفسه بشر بكلمة الله فيها. تمتع برونو منذ نعومة أظفاره بخيال غاية فى الخصوبة، فهو لا يكف عن البحث عن الرموز الكائنة فى أعماق الطبيعة التى آمن على نحو صوفى بوحدة وجودها. وهو أول من تحدث عن وجود حياة ذكية تسكن فى كواكب أخرى غير كوكب الأرض؛ وبذلك يكون قد سبق العلماء المعاصرين بأربعة قرون. كانت نولا مسقط رأسه أقرب ما تكون إلى النجع، فهى لا تحتوى على أكثر من خمسة بيوت شاع الإيمان بالخزعبلات بين سكانها؛ حتى برونو نفسه آمن بوجود الأرواح والعفاريت. ولم يفته أن يسجل بعض تفاصيل حياة أهل قريته بشىء من السخرية فيما سطره فى حوارات ألفها فيما بعد. وراقت له حقول نولا «الذهبية» فعبر عن عميق حبه لها.

تمتع فيلسوفنا منذ نعومة أظفاره بدقة الملاحظة. وكان فى طفولته ينظر من بعيد إلى بركان فيزوفيوس فيراه أجرد قاحلاً ومنفرًا يخلو من الخضرة والأشجار. ثم ينظر إلى ما وراء هذا البركان فيرى قرية سيكالا زاهرة بكرومها النضيرة. وذات يوم اصطحبه والده إلى مكان البركان فراعه منظر الخضرة النضيرة والأشجار الوفيرة تكسو منحدرات البركان، فى حين بدت له سيكالا بعيدة مظلمة. وفيما بعد علق برونو على هذه التجربة بقوله: «أصبحت أدرك للمرة الأولى ما تنطوى عليه العين من خداع بصرى». وبذرت هذه التجربة بذور الشك فى نفسه فلم يعد يعرف الأساس الذى يمكن بناء أى يقين عليه.

ويحتمل أن يكون برونو فى شبابه قد عرف الشاعر لويجى تانسيلو Luigi Tansillo (١٥١٠ – ١٥٦٨) عن كثب وتأثر فى شعره بأسلوبه. وقد انحدر تانسيلو من نولا مسقط رأس فيلسوفنا. وتعالج المسرحية التى ألفها برونو بعنوان: «حامل المشعل» شخصية تانسيلو. وكذلك نجد معالجة لهذه الشخصية فى كتابه «جموح العشق»؛ فضلاً عن أنه يقتطف من قصائد تانسيلو بعض الأبيات. ويبدو أن أشعار تانسيلو الغنائية

الجميلة تركت فى نفسه أعمق الأثر. وأيضًا من الجائز أن يكون برونو قد تعرف على شعر الشاعر لودوفيكو أريوستو Ludovico Ariosto (١٤٧٤ ـ ١٥٣٣).

وفى نحو الحادية عشرة من عمره، سافر برونو إلى نابولى حيث توفر على دراسة العلوم الإنسانية والمنطق والديالكتيك. وأغلب الظن أنه عاش فى نابولى التى تعلم فيها اللاتينية والفلسفة وشيئًا من الإغريقية فى كنف عم يشتغل بصناعة النسيج. وداوم على حضور محاضرات فينسنز كول Vincenze Colle فى سارتو، كما أنه تلقى دروسًا خصوصية فى المنطق على يد راهب أوغسطينى من نابولى يدعى توفيلو دى فيرانو Teofile de Varano.

لم يكن اسم برونو الأول جيوردانو، بل كان اسمه الحقيقى فيليبو Filippo. وفى عام ١٥٦٥، التحق فيليبو وهو فى السابعة عشرة من عمره بدير القديس دومينيكو فى نابولى. وأطلق عليه الدير اسم جيوردانو. وفى الدير اجتاز برونو فترة الاختبار وأقسم أن يكرس حياته لخدمة المسيح. غير أن حياة الرهبنة لم ترقه، فمسرحيته «حامل الشعلة» تعطينا صورة بشعة لها. ويبدو أن قراءاته فى الدير كانت مستفيضة وأنه توفر على الدراسات الكنسية المعتادة فدرس أعمال القديس توماس الأكوينى الذى ظل يكن له عظيم الاحترام. ولاشك أنه استمد من مكتبة الدير معرفته الوثيقة بمعظم أعمال أرسطو، باستثناء مؤلفاته فى علم الحيوان الذى لا نجد له أى صدى فيما سطره يراعه. فضلاً عن اطلاعه على شروح الفلسفة الأرسطاطاليسية التى كتبها الشراح العرب واليهود، والمترجمة إلى اللغة اللاتينية. وكذلك طالع عددًا من المؤلفات الكلاسيكية مثل مؤلفات فيرجيل والفلسفات السابقة لظهور سقراط، إلى جانب شيشرون ولوسيان وسينيكا وأوفيد. وأغلب الظن أنه وجد على رفوف مكتبة الدير كتب ريموند لال ورياضيات إقليدس وبطلميوس. ورغم تململه من حياة الرهبنة، فقد تم تنصيبه قسيسًا عام ١٥٧٢، وهو فى الرابعة والعشرين من عمره. ولم يحل تنصيبه فى سلك الكهنوت دون تأليف مقطوعة هجائية بعنوان: « فلك نوح». وبلغت به الجرأة أنه أهداها إلى البابا بيوس الخامس، الأمر الذى جعل البابا يستدعيه إلى روما للمثول أمامه. ولابد أنه قرأ علم الفلك، حيث إنه كان يقوم بتدريس هذا العلم فى بلدة تولى عام ١٥٧٦. وكثيرًا ما نراه يستشهد فى كتاباته بفقرات من كتابات أعلام الفلسفة الأفلاطونية الجديدة. ورغم معرفته الوثيقة بفلسفة أرسطو، فإنه أعلى من شأن

الفلسفة الأفلاطونية (التى ذاعت وانتشرت بين دعاة المذهب الإنسانى آنذاك)، واعتبرها نوعًا من الحداثة والتجديد. ولاشك أن عصر النهضة ترك فى برونو منذ البداية أثرًا واضحًا فكتاباته فى علم الأخلاق تنم عن تأثره الواضح بالأساطير القديمة وما تحتويه من صور وأخيلة. وتدلنا محاكمته على سعة اطلاعه على كتابات المصلح الدينى إيرازموس والتأثر بها. كان برونو إبان فترة رهبنته بالدير متميزًا فى قدراته الدراسية. ففى عام ١٥٧١ أو نحو ذلك عندما كان فى الثالثة والعشرين من عمره لفت الأنظار إلى نبوغه الدراسى، لدرجة أن البابا بيوس الخامس المتوفى عام ١٥٧٢، وكذلك المحقق فى محكمة التفتيش الكاردينال ريببا (١٥٠٤ - ١٥٧٧) استدعياه للحضور إلى روما لشرح وجهة نظره فى بعض المسائل الدينية. وبلغ اهتمام البابا مبلغًا جعله يقبل منه إهداء كتابه «فلك نوح» إليه. غير أن مخطوطة هذا الكتاب آلت إلى الضياع. ولكن مقابلته مع بابا الفاتيكان - كشأن كل علاقاته الأخرى - لم تؤت ثمارها بسبب ما شابها من توتر.

وكان من الطبيعى أن يجلب برونو على نفسه المتاعب حتى فى فترة رهبنته فى نابولى ، فقد اعترف أمام محكمة تفتيش البندقية أن الدير هناك اتخذ ضده الإجراءات التأديبية مرتين: مرة لأنه نبذ صور القديسين، الأمر الذى أوحى بأنه يحمل لهذه الصور الاحتقار. ومرة أخرى لأنه نصح راهبًا مستجدًا رآه يقرأ كتابًا دينيًا بالشعر بعنوان: «حياة الآباء القديسين» أن يلقى بهذا الكتاب ويلفظه ويطالع بدلاً منه كتابًا دينيًا آخر هو «قصة آن والمتع السبع». والأدهى من هذا كله أن برونو وجهت إليه تهمة الدفاع عن هرطقة أريوس التى تنكر ألوهية المسيح. وبعد أن أمضى برونو أحد عشر عامًا فى الدير استدعته الكنيسة إلى المقر الرئيسى للدير فى روما، حيث علم أن فرع الدير فى نابولى يعد ضده عريضة اتهام تتضمن احتفاظه سرًا بكتابات المارق الدينى إيرازموس فى الدير، فقرر الهرب وخلع لباسه الكهنوتى وقطع كل صلة تربطه بالكنيسة.

وإلى جانب معرفته الوثيقة بفلسفة أرسطو، أظهر برونو اهتمامًا شديدًا واحترامًا فائقًا لمؤلفات الفلاسفة العرب فى القرون العاشر والحادى عشر والثانى عشر من المشتغلين بالعلم الطبيعى. وكان ابن رشد على رأس اهتماماته إلى جانب ابن سينا والغزالى. وأيضًا توفر برونو على دراسة أعمال آباء الكنيسة الكاثوليكية. وحمل

احترامًا لكتابات القديس توماس الأكوينى على وجه الخصوص، وكذلك عبر عن إعجابه العظيم بألبرتوس ماجنوس الذى اعتبره يفوق أرسطو فى أهميته بسبب الكتاب الذى ألفه ألبرتوس عن تحويل المعادن الرخيصة إلى ذهب. ورأى فيلسوفنا فى اللغة العبرية التى حذقها هالة من السموق الصوفى.

عكف برونو على مطالعة فلسفة أفلاطون والفلسفة الأفلاطونية الجديدة التى ازدهرت فى الإسكندرية، والتى تولى فيكينو وزملاؤه ترجمتها، كما عكف على قراءة كتابات بلوتينوس المؤمنة بوجود عقل مطلق يتأمل ذاته الواعية بنفسها، والمؤمنة بأن روح العالم انبثق من هذا العقل. وأيضًا آمن برونو أنه رغم وجود أرواح فردية متفرقة، فإنها تجتمع جميعًا فى روح العالم وتسعى إلى العودة إليها والاتحاد بها. وعن طريق دراسة الأفلاطونية الجديدة تأثر برونو بمذهب فيثاغورث المتصوف، كما تأثر بالأفكار الصوفية التى اعتنقها هينريش كورنيليوس أجريبا (١٤٨٦ ـ ١٥٣٥)؛ وخاصة مبحثه «خواء المعرفة الإنسانية».

وفى مطلع شبابه توفر برونو على دراسة مؤلفات راهب مسيحى يدعى رايموند لول Raymond Lully (١٢٣٥ ـ ١٣١٥) الذى اعتبره مفعمًا بالعبقرية المقدسة، والذى أطلق عليه فيلسوفنا لقب الدكتور المستنير. نبذ رايموند لول حياة المتعة والبذخ وفضل عليها حياة التقشف، ساعيًا إلى إقناع المسلمين بالأفكار المسيحية. وقد تعلم برونو من هذا الداعية الصمود والتحدى والقدرة العجيبة على تحمل المكاره. خلف لول وراءه ٣٢١ مبحثًا فى جميع فروع المعرفة، من أبرزها مبحث يحمل عنوان: «الفن العظيم». أدار لول ظهره إلى الفكر المدرسى الذى شاع بين رجال الكنيسة الكاثوليكية فى القرون الوسطى، ودعا إلى أنه يمكن عن طريق استخدام العقل تأصيل الفكر المسيحى، الأمر الذى جعل جامعة باريس تناصبه العداء. وبالنظر إلى أن لول كان ينتمى إلى طائفة الرهبان الفرانسيسكان، فإن طائفة الرهبان المنافسة المعروفة بالدومينيكان استهجنت أفكاره. ولهذا أصدر البابا جريجورى الحادى عشر عام ١٣٧٦ مرسومًا يدمغ أبحاثه بالهرطقة. ولكن البابا مارتن الخامس قام بإلغاء هذا المرسوم فيما بعد. غير أن مذهب لول تعرض للهجوم عليه فى وقت لاحق بعد مرور عامين على مغادرة برونو لمدينة نابولى. ويتضمن مبحث لول «الفن العظيم» الذى راق فى عيون أتباع فيثاغورث، الفلسفة الأفلاطونية الجديدة.

ويعترف برونو بالفضل إلى كوسانوس Cusanus أو نيكولاوس كريفس المولود عام ١٤٠١ والمتوفى عام ١٤٦٤، الذى صار كاردينالاً وصديقًا حميمًا للبابا بيوس الثانى. واعتبر برونو كوسانوس أحد أقوى العقول الفلسفية ووصفه بالرجل المقدس والمكتشف العظيم. حاول كوسانوس عقلنَة اللاهوت، أى تفسيره على أساس عقلانى، كما سعى إلى تفسير الثالوث على أنه جوانب لله والكون تعتبر شيئًا واحدًا. آمن كوسانوس بنسبية جميع المعارف. ولكنه رأى أن الإنسان يستطيع عن طريق الحدس الجمع بين المتناقضات فى كل واحد. وهو ما يفعله الله سبحانه وتعالى فى الكون، الأمر الذى جعل شانئيه يتهمونه بالإيمان بوحدانية الوجود، أى الإيمان بحلول الله فى جميع مفردات الكون. وهو ما آمن به برونو نفسه الذى أخذ عنه الاعتقاد بأنه يمكن تفسير الكون ولو جزئيًا بطريقة علمية، عن طريق تطبيق علم الرياضيات على نتائج التجربة. وأغلب الظن أن كوسانوس هو الذى لفت نظره إلى أن الكون اللانهائى يتكون من عوالم لا يمكن حصرها، ورغم أن الأسلوب العلمى آنذاك لم يكن قد نضج بعد فقد بذل كوسانوس منذ عهد الإغريق أول محاولة لتفسير الكون على أساس علمى، ففى عام ١٤٣٦ صرح بأن الأرض متحركة وليست ثابتة.

وأيضًا تأثر برونو بأبحاث عالم الفلك المعروف نيكولاوس كوبرنيكوس (١٤٧٣ ـ ١٥٤٩) الذى ذهب إلى أن الأرض تدور حول الشمس. وأغلب الظن أن الدير الذى كان برونو يعيش فيه كان يحتفظ فى مكتبته بنسخة من كتاب كوبرنيكوس الذى نصحه أصدقاؤه أن يهديه إلى البابا بولس الثالث، بعد أن كتب قسيس مدينة نورنبرج أوسيانور احتجاجًا على أن الكتاب لا يمثل الحقيقة، ولكنه يقدم إلى قارئه حسابات فلكية أكثر دقة من الحسابات الفلكية الماضية، ويرفض الاعتماد على نتائج علم الفيزياء الأرسطاطاليسى القائم على مدركات الحواس التى تشكك برونو فى صدقها. وقد ناصبت الكنيسة الكاثوليكية العداء نظرة كوبرنيكوس الفلكية المنادية بأن الأرض تدور حول الشمس، وأنها ليست مركز الكون حسب تقدير الفلك البطلميوسى.

وطالع برونو الكتاب الذى ألفه برناردينو تيليسيو Bernardino Telesio (١٥٠٩ ـ ١٥٨٨) بعنوان: «طبيعة الأشياء»، و يدعو كاتبه إلى الاعتماد على العقل والحواس معًا فى ملاحظة ما يدور حولنا. كما أنه طالع كتابات جيرولامو كاردانو Girolamo Cardano (١٥٠١ ـ ١٥٧٦) الذى أعلى من شأن البحث والاستقصاء فى العلوم الطبيعية.

فضلاً عن تأثره بأوريول ثيوفراست باراسيلسوس Aureol Theophrast Paracelsus (١٤٩٠ـ ١٥٤١) الذى سعى إلى تحليل التكوين الكيميائى للأشياء من منطلق الإيمان بأن سائر المخلوقات تنبثق من روح العالم.

وقد أظهر برونو اهتمامًا عظيمًا بعلم الرياضيات واستوعبه وأضاف إليه ولكن إضافاته كانت خاطئة، ويبدو أنه اكتسب معظم محصلته العلمية فى الفترة الهادئة من حياته التى قضاها فى نابولى قبل أن يضطر إلى التجوال والترحال.

سنوات التجوال الأولى فى حياة برونو (١٥٧٦ـ ١٥٨١)

بعد أن أمضى برونو أحد عشر عامًا كراهب فى الدير، بدأ يتجول من بلد إلى آخر طريدًا وشريدًا دون مأوى بسبب صراحته التى تغضب وطبعه النارى الذى يؤلب الآخرين ضده. وأمضى فى تجواله ستة عشر عامًا قبل الزج به فى السجون. ألف برونو كتبه الكثيرة وهو بين الثامنة والعشرين والرابعة والأربعين، وهى الفترة التى شاهدت تفتحه الذهنى وتوقده العقلى. والجدير بالذكر، أن برونو عاش فى فترة بدأ العلم فيها يستقل عن الفلسفة وينسلخ من عباءتها، بعد أن كانت الفلسفة منذ القدماء تضم تحت جناحيها كافة العلوم.

وفى ترحاله أقام برونو لأول مرة فى مرفأ نولى الصغير الواقع فى أراضى جنوة. ولعل اسم هذا المرفأ راق له؛ لأنه ذكَّره باسم نولا مسقط رأسه. وهناك أمضى نحو أربعة شهور يعلم الفلك لبعض الدارسين من الطبقات العالية ويعلم علم النحو لعدد من الصبية. ويبدو أنه لم يكن موفقًا فى ممارسة التدريس النمطى والتقليدى بسبب جموح عواطفه ونفاد صبره، وجنوحه إلى الخيال والتجائه إلى استخدام الرمز للتعبير عن نفسه. ولكن الدارسين الذين يتوقون إلى تلقى المعارف الجديدة التى بزغت فى عصر النهضة، وجدوا فيه معلمًا ملهمًا يتنقل جائلاً من مدينة إلى أخرى.

ثم شد برونو رحاله إلى ساحل سافونا حيث عاش فيها لوقت قصير، توجه بعدها إلى مدينة تورين ليسافر بعد ذلك إلى البندقية، ويبدو أن الكنيسة الكاثوليكية ـ آنذاك ـ لم تكن بعد قد طردته من الكنيسة. وفى البندقية حصل من الراهب الدومينيكانى وميجيو نانينى فيورنتينو على إذن بنشر أحد مؤلفاته بعنوان: «علامات الأزمنة» الذى ضاعت أصوله. ونحن لا نعرف عن حياته فى البندقيه غير النزر اليسير، فكل ما نعرفه أنه عاش فى ميدان القديس مرقص فى وسط هذه المدينة.

ثم سافر من البندقية إلى مدينة بادوا حيث قابل بعض زملائه من الرهبان الدومينيكان الذين حثوه على العودة إلى ارتداء ملابس الرهبنة. وعلى الرغم من ذلك، فإن أحدًا منهم لم يشجعه على المكوث معهم. ولعلهم كانوا يخشون الاتصال به ويتجنبون خطره. ثم شد رحاله شمالاً إلى مدينة برجامو، حيث عاد إلى ارتداء ملابس الرهبنة التى سبق أن نبذها. وبعد ذلك اجتاز جبال الألب متجهًا إلى أوروبا تاركًا إيطاليا وراءه. وذهب إلى مدينة تشامبرى حيث استقبله الدير الدومينيكانى بالحفاوة. ولكن هذه الحفاوة ما لبثت أن تلاشت فرحل إلى مدينة ليون الفرنسية. وفى عام ١٥٧٩، وطأت قدمه أرض چينيف بسويسرا، حيث رحب به الماركيز فيكو الذى اعتاد تقديم كل ما فى مقدوره من مساعدة إلى الطليان المهاجرين من بلادهم إلى جينيف والمنشقين على الكنيسة الكاثوليكية المعتنقين للمذهب البروتستانتى المتشدد المعروف بالمذهب الكالفينى. وفى أثناء محاكمته فى البندقية بعد ذلك بأكثر من اثنى عشر عامًا، ذكر برونو كيف أن الماركيز الذى استضافه ثم غدر به كان يظن أنه قد تحول إلى المذهب البروتستانتى. غير أنه أوضح لهذا الماركيز أنه لا ينوى التحول إلى البروتستانتية، وأضاف أنه يرغب فقط فى أن يعيش فى جو من الحرية والأمان. ومن الواضح أن الخلاف بين الكاثوليك والبروتستانت كان خارجًا عن دائرة اهتماماته الفلسفية. واعترف برونو أثناء محاكمته بأن الماركيز سعى إلى حثه على خلع ملابس الرهبنة. ورغم كل ما قيل عن جنوح برونو إلى المذهب البروتستانتى، فليس هناك دليل على ذلك. ولكن لاشك أنه استراح لأفكار المصلح الدينى إيرازموس الذى توفر على قراءة كتبه المحظورة فى دير نابولى. اعتاد برونو استعداء رجال العلم والدين معًا، ففى مايو عام ١٥٧٩ سجل اسمه فى جامعة چينيف؛ غير أنه بحلول شهر أغسطس من نفس العام نراه يشن هجومًا قاذعًا على صديق حميم لرئيس الجامعة يعمل أستاذ فلسفة مرموقًا فى هذه الجامعة ومترجمًا متبحرًا للكتاب المقدس يدعى أنطوان دى لافاتى، دون أن يراعى صداقة أنطوان العميقة لرئيس الجامعة. ولم يتورع برونو عن إبراز نحو عشرين خطأ ارتكبه هذا الأستاذ المرموق فى إحدى محاضراته.

وجاءت النتيجة كما كان متوقعًا، فقد تم إلقاء القبض على برونو وعلى المطبعجى الذى نشر نبذته عن الأستاذ الجامعى. ودافع المطبعجى عن نفسه بقوله، إن الراهب الذى كلفه بالعمل ضلله. ومن ثم وقعت عليه غرامة ضئيلة. أما برونو، فقد اعتذر عن انتقاداته للأستاذ ورغم ذلك فقد أحيل إلى هيئة لاهوتية لمحاكمته. فاحتج على هذه

المحاكمة بقوله إن قساوسة الكنيسة فى چينيف مجرد مدرسين لا أكثر ولا أقل وإنهم أساءوا فهم كتاباته، الأمر الذى أثار حفيظة رجال هذه الكنيسة عليه. فحكمت عليه بحرمانه من حق إقامة الطقوس والشعائر الدينية، فالتمس من المسئولين إلغاء هذا الحكم. ورغم أنهم استجابوا إلى طلبه، فقد شعر بأن چينيف لم تعد مكانًا آمنًا للعيش فيه.

عندئذ فكر برونو فى الرحيل إلى فرنسا حيث جرب العيش فى مدينة ليون التى كانت - آنذاك - مركزًا مهمًا من مراكز صناعة الكتاب. ولكنه عجز عن أن يجد وسيلة لكسب الرزق هناك. وأخيرًا انتهى به المطاف إلى تولوز التى عمل فيها محاضرًا فى علمى الفلك والفلسفة نحو ثمانية عشر شهرًا. وكانت فرنسا - آنذاك - على أعتاب حرب دينية بين الكاثوليك والبروتستانت الذين اتخذوا من تولوز قلعة لهم. وقد بلغ هذا الصراع الدينى ذروته عام ١٥٧٢. ولكن الفترة من ١٥٨٠ إلى ١٥٨١ (وهى الفترة التى زار فيها برونو مدينة تولوز) شاهدت هدوءًا نسبيًا. وعندما خلت وظيفة أستاذ فلسفة فى جامعة تولوز تقدم برونو لشغلها. وجرت العادة - آنذاك - أن يختار طلبة جامعة تولوز الأستاذ الذى يتولى تعليمهم. وبعد حصوله السريع على درجة الدكتوراه فى اللاهوت، راق برونو فى عيون هؤلاء الطلبة فاختاروه معلمًا لهم. وفى جامعة تولوز ألقى برونو سلسلة من المحاضرات عن فلسفة أرسطو التى ألف عنها كتابًا انتهى أمره إلى الضياع. غير أن الحرب الأهلية اندلعت من جديد، الأمر الذى اضطره إلى الرحيل عن تولوز ومواصلة حياة التجوال.

زيارة برونو الأولى إلى باريس

(١٥٨١ - ١٥٨٣)

عندما قام برونو بأول زيارة له إلى باريس فى الفترة من ١٥٨١ إلى ١٥٨٣ ـ حيث اضطلع بإلقاء ثلاثين محاضرة عن صفات الألوهية الثلاثين التى حدثنا عنها القديس توماس الأكوينى ـ أصاب على الفور نجاحًا عظيمًا. واشتهر برونو بذاكرته القوية التى ليس لها نظير ووصلت أخبار حافظته الفولاذية إلى مسامع الملك هنرى الثالث. وذكر برونو بعد عودته إلى البندقية أن هذا الملك استدعاه للاستفسار عن ذاكرته الرائعة وهل هى شىء طبيعى، أم عمل من أعمال السحر الذى شاع الإيمان به آنذاك. والجدير بالذكر، أن تهمة الاشتغال بالسحر التى وجهت إلى برونو كانت أحد الأسباب فى إنهاء حياته على نحو فاجع. وقبل الملك هنرى الثالث أن يهديه برونو أول كتبه التى نجت من الاندثار، وهى بعنوان: «حول ظلال الأفكار». ويتضمن هذا الكتاب دعوة إلى الأفكار الأفلاطونية التى تنادى بأن الظواهر المادية ليست سوى ظلال للحقيقة. ولم يكن بالإمكان تعيين برونو فى جامعة السوربون، خوفًا من إثارة غضب السلطات الدينية عليه. ولكن الملك تمكن من إلحاقه بإحدى الكليات الأخرى.

ومما لاشك فيه أن الملك ساعده على الاستقرار فى باريس وسهل له نشر مؤلفاته الباكرة أثناء إقامته هناك. وفى باريس أصبح النبيل التشيكى جون فوستتر مريدًا له. وبعد مرور خمسة عشر عامًا على وفاة برونو، رأت مذكرات هذا المريد عنه طريقها إلى النشر فى مدينة بربيج فى سيلسيا. غير أن هذا الكتاب ضاع؛ ولكن ذكره ورد فى كتالوج للكتب يتضمن إشارة إلى تأثر مؤلفه بأفكار رايموند لول.

ثم نشـر برونو مجلدًا ثانيًا بعنوان: «أغنيـة سيـركى»، تناول فيـه عمل الذاكـرة التى يسميها «الذاكرة الفضائية». وقد أهدى برونو كتابه هذا إلى هنرى فالوا دوق أنجوليم. ووقَّع على الإهداء مستشار الدوق جين ريجنولد الذى قال إن المؤلف عهد إليه باستكمال اللمسات الأخيرة فى الكتاب، كما أضاف أن المؤلف اضطلع بتأليف كتاب آخر عن الذاكرة أهداه إلى الملك. فضلاً عن أن المستشار جين ريجنولد قدم برونو إلى صديق له هو جون مورو (سفير البندقية لدى ملك فرنسا) الذى أهداه برونو مجلدًا آخر بعنوان: «البناء الكامل للفن اللوليانى» (نسبة إلى الفيلسوف لول الذى سبق أن أشرنا إليه). ثم أصدر برونو العمل المسرحى الذى يحمل عنوان: «حامل المشاعل»، تناول فيه أيضًا الذاكرة ومنطق الفيلسوف لول، وكتب عليه أنه من تأليف برونو المولود فى نولان وغير المتخرج فى أية أكاديمية والشهير باسم «المزعج»، وهو اسم يبدو أنه أصبح كنيته. كما أنه أطلق على نفسه «الفرحان فى وقت الحزن والحزين فى وقت الفرح». وتتضمن هذه المسرحية كراهيته المشبوبة للنفاق فى الأخلاق والدجل فى العلم. ومن ثَم، فهى تؤذن ببزوغ فلسفته الجديدة ونظرته الأخلاقية الجديدة. وأيضًا تتضمن المسرحية تجربته فى حياة الأديرة وملاحظاته عن الجامعات التى زارها. ورغم أن إقامته فى باريس لم تشهد ظهور أى من أعماله الفلسفية المهمة، فلابد وأن المذهب الأفلاطونى كان يختمر فى ذهنه. ويبدو أنه كان من المؤكد أنه استمع إلى محاضرات بيتر دى لا رامى الذى هاجم فلسفة أرسطو بشدة، والذى مات فى مذبحة عام ١٥٧٢. ويصفه برونو بأنه ذلك الرجل المتحذلق الذى طبق الفكر المدرسى (أو السكولاستى) الخاص بالعصر الوسيط على الفنون الحرة.

كان لويس لى روى (المتوفى عام ١٥٧٧) الذى تولى رئاسة قسم اللغة اليونانية القديمة فى كوليج دى فرانس، والذى ذاعت تعاليمه أيام إقامة برونو الأولى فى باريس ناقدًا وكاتبًا يشار إليه بالبنان، واشتهر لى روى بالتشبع بأفكار عصر النهضة المدافعة عن التسامح والداعية إلى الأخوة الإنسانية. وتأثر برونو بشكل واضح فى دعوته إلى الأفكار المتحررة والمتسامحة فى الدين والفلسفة بالكتاب الذى نشره لى روى عام ١٥٧٠ والمهدى إلى الملك هنرى الثالث بعنوان: «دعوة إلى العيش فى سلام». وأيضًا ألف روى كتابًا آخر أثار ضجة كبيرة فى وقته بعنوان: «اثنا عشر مبحثًا عن التغير الذى يحدث فى الكون»، وتعطينا المباحث الأحد عشر الأولى من هذا الكتاب عرضًا فلسفيًا لحركة التاريخ. وأوصى لى روى فى الكتاب الثانى عشر بضرورة تسجيل منجزات

الحضارة حتى لا تتعرض للاندثار بسبب الحروب. والرأى عند لى روى أن التناقضات تخلق فى كل مكان نوعًا من التوازن. وعلى الرغم من أن برونو قبل أفكار أرسطو عن حركة الأفلاك السماوية، فإنه آمن بفكر أفلاطون المتمثل فى أن العالم يفنى نفسه ثم يقوم باستحداث مخلوقات جديدة من المخلوقات القديمة. فضلاً عن أنه يحدثنا عن نسبية المكان عندما نصف الأشياء بأنها أعلى أو أوطأ. ومن المحتمل أن برونو قابل جين بودين (١٥٣٠ ـ ١٥٩٦) الذى توطدت صداقته بعض الوقت مع هنرى الثالث، الذى تغاضى عن أفكاره الهدامة التى تذهب إلى أن السيادة هى سيادة الشعوب، وليست سيادة الملوك والحكام. ويبدو أن الأوساط الأدبية ـ آنذاك ـ اهتمت بمناقشة كتاب مهم ألفه بودين عام ١٥٩٩ بعنوان: «فن الحديث عند سبعة رجال يعتنقون مختلف الأديان».

غير أن إقامة برونو فى باريس لم تدم إما بسبب اللغط الذى ثار حول مسرحيته «حامل المشعل» ، أو بسبب اندلاع الحرب الأهلية فى فرنسا. ويمم برونو شطر إنجلترا التى عرفت سلفًا مدى خطورة أفكاره. ففى ٢٨ مارس عام ١٥٨٣، كتب السفير البريطانى فى باريس يحذر من خطره بقوله: «يعتزم الدكتور جيوردانو برونو النولانى أستاذ الفلسفة الذى لا يمكننى امتداح آرائه فى الدين، الحضور إلى إنجلترا».

برونو يذهب إلى إنجلترا فى الفترة من ١٥٨٣ حتى ١٥٨٥

عندما وطأت أقدامه أرض إنجلترا كان برونو يحمل خطابات توصية مرسلة إلى سفير فرنسا فى العاصمة البريطانية، ميتشيل دى كاستلنو ماركيز موفيسيير (١٥٢٠ ـ ١٥٩٢). ورغم احتدام الصراع فى فرنسا بين الكاثوليك والهيجونوت (أى البروتستانت)؛ فإن هذا الماركيز اشتهر بتجاوزه للصراعات الدينية المتفاقمة. وفى لندن تميزت حياة برونو بالدعوة إلى التسامح الدينى. والجدير بالذكر، أن إنجلترا ـ آنذاك ـ كانت ملاذًا آمنًا لبرونو وأمثاله من المتحررين والمستنيرين. وقد وفرت معيته للسفير الفرنسى فى إنجلترا فرصة الالتقاء بصفوة المجتمع الإنجليزى من الفلاسفة والعلماء الذين دارت مناقشاتهم فى جو من الحرية. وفى تلك الفترة صارت إنجلترا ملاذًا آمنًا لكل المضطهدين فى بلادهم لأسباب دينية، فلا غرو إذا رأيناها تكتظ بالمهاجرين القادمين من أرجاء القارة الأوروبية بهدف إنشاء المصانع. وقد بلغ عدد المهاجرين فى تلك الفترة إلى إنجلترا من هولندا وحدها نحو ثلاثة آلاف مهاجر. وأدت الحروب الدينية التى اندلعت فى فرنسا بين الكاثوليك والبروتستانت إلى كثرة

المهاجرين الطليان والقاطنين فى فرنسا إلى إنجلترا. وقد نزح إلى لندن وحدها ما لا يقل عن ٦٧٠٤ أجنبى، حيث تمتعوا بحرية العبادة. ومما شجع الطليان على الهجرة إلى إنجلترا أن ملكة إنجلترا رحبت بهم وتحدثت بلغتهم أمام حاشيتها.

وقبل أن يستقر برونو فى لندن حدثت مشاكل بينه وبين بعض الأساتذة فى جامعة أكسفورد، التى كانت ـ آنذاك ـ من أشد الجامعات محافظة واتباعًا لمذهب أرسطو. ومن الجائز أن رئيس هذه الجامعة إيرل ليستر احتفى ببرونو، فقد درج على الحفاوة بالإيطاليين المقيمين فى إنجلترا. والجدير بالذكر، أن إيرل ليستر هو عم الأديب الإنجليزى الشهير السير فيليب سيدنى ، وأنه كان ينتمى إلى نفس الدائرة التى كان برونو يتحرك فيها. وربما كان جون فلوريو سكرتير موفيسيير السبب فى تقديم برونو إلى المسئولين فى جامعة أكسفورد العريقة.

كان جون فلوريو صديقًا حميمًا لبرونو، وكان أبوه ميشيل أنجلو فلوريو واحدًا من اليهود الطليان ممن تحولوا إلى الدين المسيحى. انضم ميشيل إلى طائفة الرهبان الفرنسيسكان، غير أنه سرعان ما نبذ حياة النسك والرهبنة وفر هاربًا من إيطاليا ليجد ملاذًا آمنًا فى إنجلترا، حيث اعتنق الملة البروتستانتية وحيث اكتسب صداقة اللورد بورجلى. وهناك تم تعيينه واعظًا للإيطاليين المترددين على الكنيسة البروتستانتية. أنجب ميشيل ابنه جون (١٥٥٣ ـ ١٦٢٥) على أرض إنجلترا، حيث توثقت أواصر الصداقة بينه وبين برونو. وتميز جون فلوريو بالقدرة على التأليف باللغتين الإيطالية والإنجليزية. ورسم فى كتاباته صورة لشخصيتى اثنين من الأساتذة فى جامعة أكسفورد أطلق عليهما اسمى توركواتو ونونديني‌و، وهما الشخصيتان اللتان سخر منهما برونو سخرية لاذعة فى أول مبحث فلسفى قيض له أن ينشره فى إنجلترا بعنوان: «عشاء أربعاء الرماد» (١٥٨٤)، ثم ألف فى عام ١٥٩٨ قاموسًا عظيم الفائدة إيطاليًا ـ إنجليزيًا. وأيضًا كان فلوريو صديقًا حميمًا لكل من الأديبين الإنجليزيين المرموقين رالى وسيدنى اللذين تلقيا تعليمهما فى جامعة أكسفورد، واللذين ربطتهما الصلة الجيدة بجيوردانو برونو.

وتعتبر ترجمته الإنجليزية لمقالات الفيلسوف الفرنسى الشكاك مونتانى من أهم الأعمال التى اضطلع بها فلوريو. والمعروف أن مونتانى ينحدر من أصل يهودى شأنه فى ذلك شأن فلوريو، وأنه زار إيطاليا وعاش فيها فى رغد ورفاهية. ولا ريب أن برونو

تأثر تأثرًا واضحًا بفلسفة مونتانى ونظرته إلى الطبيعة. ومن المحتمل أن يكون فلوريو هو الذى عرف برونو بمدينة أكسفورد. ويحتمل كذلك أن يكون المهاجر الإيطالى البارز إلى إنجلترا ألبيريكوس جنتيليس (١٥٥٢ ـ ١٦٠٨) هو الذى مهد له الطريق لزيارة اكسفورد، حيث إن ألبيريكوس المتخصص فى القانون الأوَّلى كان قد قرر الاستقرار فى أكسفورد بعد وصوله إلى الأراضى الإنجليزية عام ١٥٨٠. وكان لهذا المهاجر الإيطالى ألبيريكوس الذى رفض فكرة فرض العقيدة الدينية بالقوة نفوذ كبير على الملكة إليزابيث. فضلاً عن أنه كان صديقًا للأديب المعروف السير فيليب سيدنى والسير توماس والسنجهام إيرل ليستر واللورد بيرجلى. وأيضًا كان ماثيو جوين (١٥٥٨ ـ ١٦٢٧) صديقًا حميمًا لفلوريو. وربما كان جوين هو الذى اقترح دعوة برونو إلى الحفلة التى أقامتها جامعة أكسفورد لتكريم نبيل بولندى راع للعلوم يدعى ألبرت أ. لاسكى. وفى هذه الحفلة قابل برونو أعضاء هيئة التدريس فى جامعة أكسفورد، ولكن انطباعه العام عنهم كان سيئًا، فقد عاب عليهم افتقارهم إلى المستوى العلمى الرفيع رغم اعترافه برقة حاشيتهم وإتقانهم للغة اللاتينية.

احتدمت مناقشات حامية الوطيس بين برونو ونفر من أساتذة اللاهوت فى جامعة أكسفورد فى حضرة النبيل البولندى وبعض الأرستقراط الإنجليز، وأمام قوة المحاجات التى ساقها برونو أسقط فى يد مجادليه. ومن المؤسف أن أرشيف جامعة أكسفورد لا يحتفظ بسجل لهذه الملاحاة التى احتدمت حول اللاهوت المسيحى. وبات من الواضح له أن أكسفورد لم تعد المكان المناسب فقرر مغادرتها واتجه إلى لندن، حيث طبع نحو عام ١٥٨٣ رسالة قصيرة موجهة إلى أساتذة جامعة أكسفورد.

ألقى برونو سلسلة من المحاضرات فى جامعة أكسفورد، شرح فيها نظرة كوبرنيكوس إلى الكون، كما هاجم فيها فلسفة أرسطو. وفى أكسفورد اتهم برونو بالسطو على أفكار غيره من الفلاسفة، الأمر الذى اضطره إلى العودة إلى لندن حيث أقام فى مقر السفير الفرنسى هناك ميشيل دى كاستلتو. وفى لندن ألف أشهر كتبه باللغة الإيطالية، ومن بينها: «حول السبب والمبدأ» و«الكون اللانهائى والعالم».

وفى عام ١٥٨٥، قرر برونو العودة إلى باريس حيث اشترك فى مناظرة علنية نظمتها كلية دى كامبراى هاجم فيها فلسفة أرسطو، الأمر الذى عرضه للسخرية والاعتداء الجسدى؛ مما اضطره إلى الهرب من فرنسا.

ثم أمضى برونو الأعوام الخمسة التالية فى وسط وشرق أوروبا وتوقف لفترات مختلفة فى كل من ماريدج وويتنبرج وبراغ وهلمستدت وفرانكفورت وزيوريخ. وفى ألمانيا البروتستانتية ألف برونو كثيرًا من أعماله باللغة اللاتينية عن الفلسفة والكون والطبيعة والسحر وفن التذكر.

برونو يعود إلى البندقية وروما

لو أن برونو بقى فى ألمانيا البروتستانتية لعبر عن أفكاره بحرية وهو آمن على حياته ونفسه من الاضطهاد. ولكنه تلقى فى عام ١٥٩١ دعوة غير عادية لزيارة البندقية، وجهها إليه وجيه إيطالى يدعى مورسينجو. ولعل الذى أغرى برونو بالعودة إلى البندقية أن هذه الدويلة تمتعت باستقلال عن روما وبقية أرجاء شبه الجزيرة الإيطالية. ولكن علاقة هذا الوجيه بمعلمه شاهدت تدهورًا؛ إذ يبدو أن مورسينجو ظن أن برونو يخفى عنه بعض المعلومات ويحتفظ بها لنفسه. وعندما قال برونو إنه يزمع السفر إلى فرانكفورت للانتهاء من كتابة بعض مؤلفاته، هدده مورسينجو قائلاً إنه إذا لم يمتنع عن السفر طواعية واختيارًا، فسوف يرغمه على البقاء فى البندقية واتّسم رد فعل برونو لهذا التهديد بالنزق والطيش المعتادين، فقد هدد بأنه سوف يبلغ عن مورسينجو؛ فقام هذا الأخير باعتقال معلمه فى إحدى غرف قصره وسلمه إلى محكمة تفتيش البندقية بناء على قائمة طويلة عريضة من الاتهامات، منها أن برونو قال له: إن النبى موسى ساحر، وليس من المعقول أنه تحدث مع الله. فضلاً عن أنه قال الشىء نفسه عن السيد المسيح وأنكر عذرية مولده من مريم، إلى جانب إنكاره لأهمية الصلاة وآثار القديسين. وهناك خطاب قديم يرجع تاريخه إلى ٢٣ مايو عام ١٥٩٢ أرسله مورسينجو إلى محكمة تفتيش البندقية، جاء فيه:

«السيد الكاهن المحترم،

«أنا جيوانى مورسينجو ابن كلارسيمو مسر ماركوانتيو يحتم على ضميرى ويأمرنى كاهن اعترافى بالتبليغ عن جيوردانو برونو من نولا، الذى سمعته فى مناسبات مختلفة أثناء محادثاته معى فى منزلى يقول: إن الكاثوليك يجدفون عندما يعتقدون أن الخبز يتحول إلى دم المسيح، وإنه يعارض إقامة القداس وأن كل الأديان عاجزة عن إقناعه بصحتها، وأن المسيح دجال يلجأ إلى استخدام الحيل والألاعيب لغش الناس. وأغلب

الظن أنه كان يعرف سلفًا أنه سوف يموت ميتة المجرمين، وأنه أنكر الثالوت فى الذات الإلهية. كما قال بخلود العالم وبوجود عدد لا نهائى من العوالم، وإن الله يصنع هذه العوالم باستمرار لأنه يرغب فى خلق الكثير منها وأن المسيح كان ساحرًا يصنع معجزات تبدو فى ظاهرها طيبة، كما أن الرسل كانوا سحرة أيضًا».

وعندما مثل برونو أمام محكمة التفتيش فى البندقية جثا على ركبتيه ونبذ جميع أفكاره وأنكر جميع معتقداته اللاهوتية دون أن يشعر بأدنى غضاضة، فقد دفعه حبه للاستمرار على قيد الحياة إلى التراجع عن أفكاره، مبديًا استعداده للاعتذار وإظهار التوبة. غير أن الكنيسة فى روما أرادت وضع حد لتطاوله عليها، فطلب كبير المحققين فى روما الكاردينال سانتسفرينا فى البندقية ترحيله إلى روما لمحاسبته هناك. وفى بادئ الأمر اعترضت حكومة البندقية على ذلك ورفضت تسليمه؛ غير أنها رضخت لأوامر روما فى النهاية.

كتابات برونو الباكرة

فى عام ١٥٨٢، قام محل جور بن بنشر ثانى مؤلفات برونو تحت عنوان: «ظلال الأفكار» الذى لم يندثر مثلما اندثر كتابه الأول. أهدى برونو «ظلال الأفكار» إلى الملك هنرى. وهو كتاب يهدف إلى شرح فن تنشيط الذاكرة وتحسينها، ويحمل الجزء الثانى من الكتاب عنوان: «فن التذكر». ويصطبغ الجزء الأول منه بالفلسفة الأفلاطونية الجديدة دون مواربة. ذهب برونو إلى أن الإنسان ظل للواحد الأحد الذى يعجز المرء عن وصفه، وإلى أن الخير والشر شىء واحد إذا نظرنا إليهما من منظور الأبدية، فكل شىء ينبع من الواحد الأحد. والعلاقة بين الإنسان وجسده تشبه العلاقة بين الملاح والسفينة، فهو بداخلها ولكنه ليس جزءًا منه. ويقول برونو إن أفكارنا مزيج من النور والظلال ولا تمثل الحقيقة المطلقة التى لا سبيل إلى الوصول إليها. ورغم ذلك، فإن العقل يستطيع الارتفاع فوق المدركات الحسية، كما يستطيع تحقيق الوحدة عن طريق التعددية. وظل برونو طوال حياته مؤمنًا بهذه التجربة الصوفية التى عبر عنها فى مؤلفاته الباكرة. غير أن مؤلفاته اللاحقة تذهب إلى أن العقل ـ وليس الحدس كما جاء فى كتاباته الأولى ـ يمكنه أن يصل الإنسان بالمطلق الذى لا يكف عن السعى إلى الوصول إليه. وتنبه برونو إلى أهمية تداعى الأفكار التى كان أرسطو أول من أشار إليها. والأفكار فى نظره ظلال للحقيقة، وعملية التذكر هى استخدام ظلال هذه الظلال. والجدير بالذكر، أن برونو كان يتمتع بذاكرة فذة ومذهلة. وإلى جانب هذه الكتابات الفلسفية الباكرة، اضطلع برونو بنظم القصائد باللغة اللاتينية. وهى قصائد

اتسمت بالرمزية الصوفية. وقد اعترف برونو بخشونة الشعر الذى نظمه، ويرجع ذلك إلى اهتمامه بالتعبير عن المضمون أكثر من عنايته بجمال الشكل. أضف إلى ذلك افتقار قصائده إلى النظام.

ثم ألف برونو كتابًا آخر بعنوان: «تعويذة سيرس»، وهى الساحرة الثى تحدث عنها هوميروس فى أشعاره. وهذه التعويذة تحول الإنسان إلى وحش. ويذهب برونو إلى أن طبيعة الذاكرة يكتنفها الغموض، الأمر الذى يجعل من عملية التذكر شيئًا شبيهًا بالسحر والتعاويذ. ويشتمل الكتاب على حوار آخر يتناول موضوع فن التذكر بدقة أعظم. والكتاب يعالج باستفاضة أكبر موضوع الذاكرة بطريقة تفوق ما ورد فى كتابه السابق «ظلال الأفكار»، وهو يزخر بالأقوال الغامضة الشبيهة بالطلاسم.

وفى نفس العام الذى صدر فيه الكتاب الآنف الذكر، نشر برونو كتابا ثالثًا بعنوان: «البناء الموجز لفن لولى واستكماله». وقد قام جورين بنشر هذا الكتاب الذى اعتبره برونو مفتاحًا لبناء الكون والطريق الذى يمهد لإنشاء فلسفة متكاملة تنبثق منها جميع المعارف.

حــاول لول Lully أن يثبت عن طريق العقل صحة المسلَّمات الكنسية. وهو ما ينكره برونو الذى رأى أنه من الخطأ محاولة إثبات صحة هذه المسلمات باستخدام العقل، فالإيمان والتنزيل - وليس العقل - هما اللذان يقبلان هذه المسلمات. والجدير بالذكر، أن برونو يستفيض فى الاقتطاف من الكتابات الوثنية بقدر استفاضته فى الاقتطاف من المصادر المسيحية.

وفى عام ١٥٩٢، ألف برونو على وجه العَجَل كتابًا باللغة الإيطالية وليس باللغة اللاتينية كما كان الحال. وقام بنشر الكتاب إيطالى من المستقرين فى باريس يدعى جوجليمو جيوليانو. ولم تستغرق كتابته وهو بعنوان: «المشعل» سوى بضعة أيام، وهو مسرحية هجائية تثير الضحك تهاجم الادعاء والتحذلق وسذاجة التصديق السريع. وهو يصور عالمًا مليئًا بالأوهام والواهمين والأوغاد والمغفلين ممن يقعون فى شباك السحرة والمشعوذين وأدعياء القدرة على تحويل المعادن الرخيصة إلى ذهب. والمسرحية لم تر طريقها إلى خشبة المسرح، وهى تعج بالمواقف المضحكة والعبارات البذيئة التى راقت كثيرًا للإيطاليين فى عصر النهضة. كما أنها ترمى القساوسة بالنصب والاحتيال. ويبدو أن هذه المسرحية تركت أثرها فى بعض المسرحيين اللاحقين مثل موليير.

مؤلفات برونو المنشورة فى لندن فى عصر الملكة إليزابيث الأولى

أصـدر برونو فى فترة إقامته بإنجلترا سبعة كتب ألف أولها باللغة اللاتينية عام ١٥٨٣ . وهو يدور حول الميتافيزيقا وفن التذكر الذى شرح لولى قواعده. ويحمل الكتاب الثانى عنوان: «عشاء أربعاء الرماد» وكان الهدف الأساسى منه دحض قواعد علمى الفيزياء والفلك الأرسطاطاليسى، والدعوة إلى أفكار كوبرنيكوس الفلكية. أما الكتاب الثالث الذى يحمل عنوان: «عن السبب والمبدأ والواحد»، فيتناول عددًا من المشكلات الميتافيزيقية. وكذلك ألف برونو فى لندن عام ١٥٨٤ كتابًا رابعًا بعنوان: «الكون اللامحدود وعوالمه». وفى نفس العام أصدر كتابًا آخر بعنوان: «طرد الوحش المنتصر» أهداه إلى الأديب الإنجليزى الكبير السير فيليب سيدنى. ولكن يبدو أن برونو نشر هذا الكتاب الأخير فى وقت لاحق، حيث إنه يشير إلى وقوع أحداث شغب وقعت فى نابولى فى مايو عام ١٥٨٥ . ثم أعقبه بكتاب «جمعية الجياد السرية»، بالإضافة إلى«حمار سيلين»، ثم تلاه كتاب آخر أهداه أيضًا إلى فيليب سيدنى وهو يحمل عنوان: «تجليات الأرواح الجسورة».

أعجب برونو بانتشار الخضرة والمراعى الرائعة فى ربوع إنجلترا، كما راق له ولع الإنجليز بالرياضة؛ فضلاً عن أنه أحب جو إنجلترا المعتدل. وأعجب برونو - كما أعجب إيرازموس من قبل - بسحر المرأة الإنجليزية ورقتها ورشاقتها وجمالها . وأيضًا أعجب بأصدقائه الإنجليز المتعلمين والطليان العاملين فى حاشية الملكة إليزابيث. غير أن الغوغاء الإنجليز أثاروا مقته، كما أنه اعتبر إنجلترا أقل تحضرًا من فرنسا .

وعبر برونو عن إعجابه بالإنتاج الشعرى والمسرحى الذى ازدهر فى عصر الملكة إليزابيث. وأيضًا عبر عن زرايته للدهماء الإنجليز الذين لا يكادون أن يروا أجنبيًا يسير بينهم حتى يتحرشوا به ويعتدوا عليه بالقول والفعل. يقول برونو عن كتابه «عشاء أربعاء الرماد» عندما سأله المحققون فى محاكم التفتيش عن الهدف من ورائه: «لقد كتبت كتابًا فى خمسة حوارارت يعالج دوران الأرض. ولأنى ناقشت هذا الموضوع فى إنجلترا أثناء أربعاء الرماد فى فترة إقامتى فى بيت السفير الفرنسى، فقد سميت هذه الحوارات «عشاء أربعاء الرماد» ويجوز وجود بعض الأخطاء التى تشوب الكتاب؛ ولكنى قصدت بكتابته السخرية من آراء وأفكار هؤلاء الأساتذة فى هذا الموضوع» وبالنظر إلى عدم معرفة برونو باللغة الإنجليزية، فقد قرر الحاضرون مناقشة مؤلفه باللغة اللاتينية، وشاء مناقشوه أن يعاملوه باستعلاء يغيظ. ورغم ذلك، فإنه كان يذكر إنجلترا بالخير فهى ملاذه الذى أمضى فيه سنوات الهدوء والسكينة. ولكنه لم يقيض لحياته المستقرة فى إنجلترا أن تدوم، فقد استدعت فرنسا كاستلنو سفيرها إلى بريطانيا فأصبح برونو بلا حماية فى بلاط الملكة إليزابيث.. والأدهى أن مواطنيه الطليان لم يستسيغوا كتاباته بسبب ما اتسمت به من أسلوب صعب.

وفى أواخر أكتوبر ١٥٨٩، عادت عائلة كاستلنو إلى فرنسا آخذة برونو معها. ومن سوء الحظ أن السفير كاستلنو تعرض أثناء رحلته إلى ميناء كاليه لحادث سرقة بالإكراه لم يسلم منها برونو نفسه. وعلى أية حال، استطاع برونو فى فترة إقامته فى إنجلترا نحو سنتين ونصف أن ينتج عددًا من أهم كتبه. ثم عكف على تأليف كتاب فى علم الفلك بعنوان «مَطهَر الجحيم». ويبدو أن هذا الكتاب لم يجد طريقًا إلى النشر إلا بعد مرور ستة أعوام.

مؤلفات برونو المنشورة فى لندن

١ـ الأختام الثلاثون وختم الأختام

٢ـ عشاء أربعاء الرماد

٣ـ عن السبب والمبدأ والواحد

٥ـ الكون اللانهائى وعوالمه

٦ ـ طرد الوحش المنتصر

٧ ـ الجماعة السرية وحمار سيلين

٨ ـ تجليات الأرواح الجسورة.

بعد وصول برونو إلى إنجلترا قام بنشر كتاب بعنوان طويل هو: «شرح الأختام الثلاثين لاكتشاف وترتيب وتذكر جميع العلوم والفنون مضيفًا إليها ختم الأختام للمقارنة بين جميع العمليات الذهنية.. إلخ». ويحتوى كتاب «الأختام الثلاثون» على شرح لعملية التذكر، فى حين أن ختم الأختام الذى يتكون من جزءين يتضمن دفاعًا عن الفلسفة الأفلاطونية الجديدة. وهو من أهم ما كتب برونو الذى لا يدعى أن آراءه تمثل الحقيقة المطلقة، بل محاولة لإثبات تطور العقل البشرى من المدركات الحسية إلى حالات أكثر تعقيدًا واكتمالاً. وأضاف أن العقل يتخذ من الحب مرشدًا إلى إنتاج الفنون والرياضيات. ويعبر برونو عن مقته لتمجيد الدين للعذاب.

وتجلت عبقرية برونو فى مبحثه التالى: «عشاء أربعاء الرماد» فى الوصول إلى منهج الاستقراء مستبقًا بذلك الفيلسوف الإنجليزى فرانسيس بيكون.

ذهب برونو إلى أن الوصول إلى الحقيقة يجب أن ينبع من الطبيعة؛ وبذلك يكون برونو من أوائل الذين رفضوا اتباع مناهج الأقدمين. والجدير بالذكر، أنه فى شبابه لم يكن يؤمن بنظرية كوبرنيكوس الفلكية المنادية بدوران الأرض حول الشمس. ولكنه اقتنع بصحة هذه النظرية فيما بعد. نظر برونو إلى الطبيعة والأجرام السماوية وانتهى إلى واحدية الكون، مطبقًا نظرية كوبرنيكوس على سائر الأجرام السماوية يدفعه إلى ذلك خيال علمى خصيب هداه إلى حركة هذه الأجرام السماوية قبل مجىء جاليليو ونيوتن، اللذين أقاما الدليل على حركتها فى الفضاء. ثم وصل برونو إلى نتيجة أخرى مفادها أن العالم الفيزيقى، أى الطبيعى «يشغل كونًا لا نهائيًا... كونًا ينبض بالحياة، وليس كونًا جامدًا هامدًا بلا حراك». وبعض مخلوقات هذا الكون تحتل مرتبة أعلى من البشر، فى حين يحتل البعض الآخر مرتبة أدنى. ويرى أن الكواكب والنجوم تسكنها كائنات أكثر عقلاً من بنى البشر.

ويذهب برونو إلى أن الوجود وسببه لانهائيان ولا شىء فى الكون يفنى رغم أن كل شىء فيه يتغير: «هذه الكرة الأرضية بأكملها... هذا الكوكب الذى لا يتعرض للموت أو التحلل أو الفناء يجدد نفسه من وقت إلى آخر بتغيير وتبديل كافة أجزائه». ويرفض برونو فكرة أرسطو القائلة بوجود مطلقات فى هذا الكون، فليس هناك وضع مطلق فى

الفضاء، بل إن وضع أى جسم نسبى بالقياس إلى وضع غيره من الأجسام. وفى كل مكان فى الكون نرى تغيرًا نسبيًا دائمًا فى وضع كل شىء. والمراقب للأشياء هو الذى يمثل دائمًا مركزها. وكل الأجرام السماوية لا يقل ثبات وضعها عن الأرض. هذه الأجرام لا تحتاج إلى ما يدعمها أو يرفعها. وأيضًا يرفض برونو فكرة أرسطو القائلة بوجود ثقل أو خفة فى حد ذاتها فى وزن الأشياء، الأمر الذى سبق قوانين نيوتن (عن الجاذبية). آمن برونو بوجود طبقة أثيرية فى الكون تتحرك فيها الأجرام السماوية بسبب الطاقة التى تنبعث من أرواحها. والشمس فى نظره تتحرك على محورها. وهى مجرد نجم واحد من النجوم التى يزخر بها الكون يتغير وضعه بالنسبة لبقية النجوم. وهو يعتقد فى وجود بقع فى الشمس. وهو يرد لمعان النجوم إلى أنها شموس ينبعث منها الضوء. وكوكب الزهرة لا يلمع لأن الضوء ينعكس عليه. وهو يرى أن الغلاف الأرضى يتحرك بتحركها. وفى مجال علم الجيولوجيا اهتدى إلى رأى مفاده أن قوى الطبيعة فى حالة نشاط وعمل مستمرين، وأنها تنتج تغيرات بطيئة ولكنها هائلة فى الأرض والبحر. وفى مجال المعرفة البكتريولوجية قال: «يبدو لى فى حكم المؤكد أنه طالما أن كل شىء يشترك فى الحياة، فلابد من وجود عدد لا يحصى من المخلوقات التى لا تعيش فينا وحسب، بل تعيش أيضًا فى جميع الأشياء المركبة». ويضيف برونو إلى ذلك قوله: «عندما نلاحظ أن شيئًا يموت كما تقول فينبغى علينا أن نعتقد أن هذا الشىءلم يمت ولكنه يتغير، وأن الذى ينتهى هو مجرد التركيب والانسجام العارضين. ولكن الأشياء التى يتحول إليها هذا الشىء بعد ذلك تبقى خالدة، سواء أكانت روحية أم مادية. والغريزة ليست نشاطًا آليًا نابعًا من خارج الكائن، ولكنه يرجع إلى وجود حاسة سادسة أو عقل أو ذهن يعمل من داخل الكائن الذى يظهر هذه الغريزة».

وبمثل هذه الآراء الجريئة المتفتحة يكون برونو قد فتح الطريق أمام التقدم العلمى الذى حققه علماء ورواد كبار، مثل جاليليو ونيوتن وليبل Lyell.

ولا يعنى اختلاف برونو مع أرسطو أنه أراد التقليل من شأنه، إذ كان يكن له كل التكريم والتقدير. كل ما هناك أنه رفض نظرة أرسطو إلى الكون، معتبرًا إياها نظرة رجعية وقفت عقبة كأداء بسبب نفوذ صاحبها الهائل على الأجيال المتعاقبة بما أعاق تحرر العلم من إساره، فضلاً عن أن الكنيسة فى القرون الوسطى اتبعت نظرياته على نحو خانع متبنية ما راق لها فى محاجاته المنادية بوجود الله أو المحرك الأول حسب

تعبيره. ولهذا شن برونو هجومًا من هذا المنطلق على فلسفة أرسطو؛ ليحرر الفكر الإنسانى من ربقة تبعيته لأرسطو والكتاب المقدس.

وتعلم برونو من الفيلسوف العربى المعروف الغزالى أن للأديان هدفًا عمليًا بغض النظر عن صحة جوانبها النظرية. ويتلخص هذا الهدف فى تهذيب الأخلاق والسلوك والعمل على خير البشرية ورفاهيتها. وآمن برونو أن للأديان تفسيرات مختلفة، وليس لها تفسير واحد أو تفسير مطلق. فهناك تفسيرات مختلف لها بقدر ما هناك من أديان. ونحن نجد، على أية حال، أن بعض آباء الكنيسة الأوائل أمثال تورتيرليان وأغسطين لا يرون أية غضاضة فى تفسير المسيحية على نحو رمزى خالص. ولاشك أن برونو عبر بقوة عن الفكر المتحرر عندما ذهب إلى أهمية الجانب العملى من الدين، دون أن يعنى هذا أن الدين يستند إلى أساس نظرى سليم. وبهذا يكون برونو قد سار على نفس الدرب الذى سار عليه كل من وليام أوكهام Ockham ودونس سكوتس Duns Scotus اللذين قالا إنه مهما تعارضت أحكام العقل مع التعاليم الكنسية، فإن الجانبين العملى والنظرى من الدين يتمتعان بنفس القدر من الصواب. وتنبأ برونو بحدوث صراع محتدم بين العلم والدين. ولكنه رأى أنه بالإمكان تفادى هذا الصراع إذا تم تفسير الأناجيل فى ضوء العلم. ولكن هيهات أن يتحقق له رأب الصدع بينهما، فقد نسى أن قوله بوجود سكان أكثر ذكاء أو أقل ذكاء من الإنسان على الكواكب الأخرى من شأنه أن ينسف العقيدة المسيحية من أساسها، فهذه العقيدة تقوم على الإيمان بسقوط آدم وطرده من الجنة وبخلاص البشر. وعلى أية حال، حفز برونو الإنسان السجين القابع فى ظلمة زنزانته الخانقة إلى التطلع من خلال قضبانها إلى السحاب لاستجلاء ما وراءه.

عن السبب والمبدأ والواحد

يهاجم برونو فى هذا المبحث المهم للغاية النظرة المدرسية إلى الكون Scholasticism الشائعة فى العصور الوسطى. ويتكون هذا المبحث من خمسة حوارات، يضم الحوار الأول منها ثلاثة متحدثين. وهو حوار يهدف إلى إيجاد عذر لشن هجوم على إنجلترا. ويقوم ثيوفيلو فى الحوارات الأربعة التالية بشرح وجهة نظر برونو إلى ثلاثة أشخاص، هم: جيرفيس وديكسون وبولينيو. ونجد فى مقدمة أربعة حوارات خطابًا موجهًا إلى كاستلنو سفير فرنسا إلى إنجلترا، كما نجد فى هذه الحوارات خمس قصائد قصيرة: ثلاث منها منظومة باللغة اللاتينية واثنتان باللغة الإيطالية. ورغم أن برونو فى هذه الأشعار يحلق فى عنان السماء، فإنه يعود فى تحليقه إلى الالتصاق بالأرض.

ويتضمن مبحثه عن «السبب والمبدأ والواحد» عرضًا لمذهب أفلاطون والأفلاطونية الجديدة. ورغم أن برونو يستخدم المصطلحات الفلسفية التى درج أرسطو والمدرسيون على استخدامها، فإنه يشعر بأن هذه المصطلحات تعرقل تفكيره وتمنعه عن التعبير عن نفسه بوضوح. يقول برونو إن أرسطو يخطئ حين يرسم حدودًا للكون. وهو يفترض وجود المادة والشكل ووجود المحرك الأول (أى الله) وراء طبقة الأثير. والرأى عند برونو أن مثل هذه المجردات تعجز عن تفسير الكون، فى حين أن الكون والله شىء واحد، كما أنه يرى أن الطبيعة تجسد المطلق، أى الله، وهو ما يسميه روح الكون.

يبدأ برونو بالتمييز بين المبدأ والسبب. والمبدأ فى نظره هو الذى يدخل فى تركيب الشىء ويكون ضروريًا لكينونته، فى حين أن السبب خارج عن هذا الشىء، حتى وإن كان يتفق معه كضرورة لكينونته. آمن برونو كما قلنا بحلول المطلق فى الكون (أو الطبيعة)، وأطلق عليه روح الكون الذى يجعل منه وحدة واحدة.

الكون اللانهائى وعوالمه

بدأ برونو هذا المبحث بخطاب أهداه إلى كاستلنو، ويرى هذا الفيلسوف أن اعتبار الكون تجسيدًا للذات الإلهية من شأنه أن يحرر الروح الإنسانية من إسارها. هذه هى الفلسفة التى تجعل الحواس تتفتح وترضى الروح وتوسع آفاق العقل وتجلب النعمة والبركة للإنسان. وإذا نحن نظرنا بعمق إلى الكينونة والمادة، فسوف نستخلص عدم وجود أى شىء اسمه الموت الذى يظن الناس إنه يدرك البشر والمادة، فهذه المادة لا تتلاشى بل تتغير. وتغيرها يحدث فى جميع أنحاء الفضاء. ويحدثنا برونو عن ترابط أجزاء الكون قائلاً:

«إن الجمال الذى يتحلى به أى مبنى لا يمكن الحكم عليه من خلال أجزائه الصغيرة؛ ولكنه يتضح بجلاء لكل من رأى المبنى بأكمله والعلاقة التى تربط بين أجزائه. ومن ثم، فإن الخير والشر متناقضات تنسجم وتتآلف أبديًا فى صميم الكينونة التى لا تعرف المتناقضات؛ بل إنهما يتآلفان فى وحدة منسجمة ومتسقة. فالله أكبر من كل من الخير والشر. والله المقدس لا يظهر مجده وعظمته فى شمس واحدة، بل فى عدد لا يحصى من الشموس. ليس فى كوكب الأرض وحده، بل فى عوالم أخرى بلا نهاية.

وبعد الخطاب المهدى الى كاستلنو يورد برونو ثلاث سونيتات من نظمه، تعقبها خمسة حوارات تتضمن شرحًا ودفاعًا عن الأسلوب العلمى.

ويقوم شخص يطلق عليه المؤلف اسمه فيلوتيو بشرح فلسفة برونو لرجل يدعو إلى المذهب الإنسانى يدعى جيرولامو فرانكاستور، ولشخصين آخرين. وفى الحوار

الخامس يرسم برونو صورة لفقيه قانونى يدعى ألبريكو جنتايل كان قد قابله فى إنجلترا. ورغم تلقائية الحوارات الخمسة، فإنها تتسم بطابع تعليمى. وفى نظمه يستمدُّ برونو بعض الفقرات من شعر لوكريشيوس، ذلك الشاعر اللاتينى الكبير الذى ترك فيه أعمق الأثر بدفاعه عن المذهب الذرى ولا نهائية الفضاء الكونى. لقد توصل بعض فلاسفة الإغريق إلى وجود عوالم أخرى إلى جانب كوكب الأرض. ولكن الكنيسة التى تبنت فلسفة أرسطو قامت بقمع هذه الأفكار وعدم السماح لها بالانتشار.

بدأ برونو كلامه فى هذا المبحث بالتمييز بين وظائف المعرفة المختلفة. قال: «إن وظيفة الحواس تتلخص فى حث الذهن reason على العمل وتوجيهه.» غير أن الشىء المحسوس ليس سوى جزء صغير من الحقيقة. والفكر الجائل هو الذى يخلع الانسجام على تقارير الحواس. هذا الفكر الجائل الذى نادى به برونو أشبه ما يكون بالفهم undurstanding الذى قال به الفيلسوف الألمانى اللاحق كانط. والرأى عند برونو أن الفهم أعلى درجة من الذهن، فهو الذى يوجه المبادئ ويستنتج النتائج. والسمة الرابعة وهى العقل intellect تحتل أسمى الدرجات وأرفعها جميعًا، فالعقل هو الذى يدرك الألوهية ويصل بصاحبه إلى مدارج الصوفية وتجارب بلوتينوس.

يقول برونو إن قوة الله لا نهائية، ومن ثم فإن أعماله لا نهائية كذلك. كما يذهب إلى أن المدركات الحسية محدودة وتطرأ عليها التغيرات بتغير موقعها. ويمكننا أيضًا الرجوع إلى العقل الذى يبين أن كل الملاحظات الحسية هى مجرد ملاحظات نسبية تمامًا، كما أن أية تركيبات تقام عليها نسبية تمامًا.

ووضع أى شىء وحركته فى الزمان والمكان نسبيان تحددهما النقطة التى يتخذها الإنسان ليبدأ منها المقارنة. يقول برونو فى هذا الشأن: «ليس فى الكون مركز أو مسطح، حيث إن المركز موجود فى كل مكان» وهذه الكلمات التى أطلقها برونو منذ عدة قرون كانت بمثابة ثورة تبشر بمذهب النسبية، وكان الخطوة الأولى على طريق مبدأ النسبية الذى تحدث عنه لورنتز وآخرون. رأى برونو أنه يستطيع - رغم أنه محدود بالمكان والزمان - أن يرتفع فوق المدركات الحسية وتفسيراتها ويفهم الظروف الحقيقية التى يستطيع فيها روح العالم أن يجرب ما يطرأ عليه من تغيرات. يقول برونو إن كل الأوضاع وكل الأشكال يحتويها ويحدها الفضاء. وإذا كان الحاوى - وهو الفضاء - ليست له حدود، فإن المحتوى يجب أن يكون كذلك. أو بمعنى آخر إذا كان

الفضاء بلا نهاية، فإن المادة نفسها - أيضًا - بلا نهاية - غير أن العالمين المعاصرين له جاليليو وكبلر لم يشاركاه الاعتقاد بلا نهائية الكون، حيث إن الأسباب الدينية دفعت كبلر إلى الاقتناع بأن الكون محدود، فى حين قال جاليليو: «إن العقل وقدراتى الذهنية لا تستطيع أن تمكننى من الاقتناع بنهائية الكون أو لا نهائيته. فلا أحد أثبت لنا أن الكون محدود وله نهاية، ولا أحد أثبت أنه بلا حدود وليست له نهاية».

نادى برونو بنسبية المعرفة الإنسانية القائمة على الإدراك الحسى. وهو فى مبحثه عن الفضاء يوضح نسبية الأخلاق. كما أنه فى مبحث آخر يبين عدم وجود أية معايير مطلقة لقياس الزمان والمكان. فإذا نحن نظرنا من قرص القمر إلى الأرض، لوجدناها مثل القمر تمامًا. وجميع الأجرام السماوية تسرى فيها الطاقة التى تحركها. والكون يسكنه روح العالم الشبيه بحيوان هائل يتولى تغذية وإقامة كل العوالم . والكواكب اللا نهائية تدور حول شموس تمامًا مثلما تدور الأرض حول الشمس. وهى تحتوى على معادن شبيهة بالمعادن الموجودة فى الأرض أو مختلفة عنها. وقال برونو إن الشهب تدور فى مدارات منتظمة، وإنها أجسام لا تختلف عن بقية الكواكب. وهو اكتشاف علمى مذهل لأنه جاء مبكرًا. إن بعض اكتشافات برونو مذهلة فى مواكبتها للعلم الحديث ، مثل قوله إن الحرارة المنبعثة من الشمس لها نفس الأسباب المؤدية إلى انبعاث الحرارة على الأرض. وأضاف برونو أن الضوء ينبعث فى الغلاف الجوى الذى يحيط بالشمس مباشرة. وأيضًا ذهب برونو إلى أن بعض الشموس نفسها تدور حول شموس أخرى، تمامًا مثلما تدور الكواكب السبعة حول الشمس. ولكن هناك شموسًا أخرى فى الكون لا يمكن رؤيتها بسبب بعدها الهائل عن الأرض.

وأغلب الظن فى رأيه أن الأجسام السماوية تضمحل بمرور الوقت وتتحول إلى تشكيلات جديدة. أى أن أجزاءها فى حالة حركة مستمرة. حتى الشموس التى تبدو ثابتة هى فى واقع الأمر فى حالة حركة. وقد تبنى برونو نظرية الذرات التى لا تتحلل أو الجسيمات الأولية التى تتكون منها كل عوالم الكون. هذه الجسيمات لا تكف عن الانتقال من جسم إلى جسم ومن عالم إلى عالم آخر. فهى من تلقاء نفسها لا تكف عن الدخول فى تركيبات جديدة وترك تركيباتها القديمة. وقد سعى برونو، ما وسعه السعى إلى تفنيد أخطاء أرسطو وتصحيحها، مثل قول هذا الفيلسوف الإغريقى إن غلافًا مكونًا من الماء والهواء والنار يحيط بالأرض. باختصار، لقد كان برونو سابقًا لعصره

وزمانه عندما أكد الحاجة إلى الملاحظة والتجربة والمقارنة. ومن المثير أن نعرف أن برونو ذهب إلى حاجة الدهماء إلى الدين لتنظيم شئونهم وكبح جماحهم، بعكس الطبقة المستنيرة التى يمكنها الاستغناء عنه.

كتاب طرد الوحش المنتصر الذى اقترحه جوف وحققه المجلس وأماط ميركيورى اللثام عنه ورواه صوفيا وسمعه صولينو ودونه النولانى. والكتاب ينقسم إلى ثلاثة حوارات، كل حوار منها يتكون من ثلاثة أجزاء

قال برونو للأديب الإنجليزى الكبير السير فيليب سيدنى، إن هذا البحث مقدمة لبحث آخر يتناول فلسفة الأخلاق. ويحتمل أن يكون برونو قد تأثر فى هذا البحث بكتاب لوسيان «برلمان الآلهة»، وبالكتاب الذى ألفه نيكولو فرانكو. ويدل مبحث «طرد الوحش المنتصر» على قوة ذاكرة مؤلفه. ويسوق برونو مقتطفات من كل من أريوستو وتاسو وتانسلو، كما أنه من الواضح أنه كان يعرف كتابات دانتى معرفة جيدة. والحوار فى هذا الكتاب يدور أساسًا بين صوفيا التى تمثل الحكمة وقريب لوالدته يدعى صولينو. وتمثل شخصية جوف كل إنسان، وهى تجسد روح الفرد الحى التى تتجاوز شهوات الشباب ليرقى بعقله إلى مدارج السمو الفلسفى. وبالإضافة إلى ذلك، يمثل جوف التغييرات الجماعية التى تطرأ على الجنس البشرى. ويقسم جوف بأنه سوف يجعل الفضيلة تسود السماء فيدعو الآلهة إلى الاجتماع. وتجسد هذه الإلهة المتربعة فوق جبل الأولمب صفات الخير والشر معًا. ويجلس جوبيتر على عرش السماء ويعلن عن تصميمه على تطهيرها من كل رجس ودنس. وتمثل بعض المجرات الشرور الوحشية التى يسعى إلى استبدال الفضائل بها. وتقرر الآلهة المجتمعة بالفعل تنفيذ قرار جوف بتطهير السماء من الوحوش التى تسكنها والتخلص منها الوحش تلو الآخر. ونتيجة لعمليات التطهير التى حلت فى الأفلاك والمجرات تختفى من المجتمع الإنسانى سائر الشرور مثل المعتقدات الجامدة والمتزمتة، وكل ما يعوق حرية العقل

كالخزعبلات والجهل والعنف والتآمر والقسوة.. إلخ؛ ليحل محلها الحجى والشجاعة وسيادة القانون والاجتهاد.. إلخ.

ويصف برونو الله بأنه الطبيعة، بل إنه طبيعة الطبيعة وبأنه روح العالم، إن لم يكن الروح ذاته. وهو يسعى أبدًا إلى الحقيقة التى يراها متمثلة فى اكتمال الحياة. ولأن الله يسكن الطبيعة، فإن الإنسان يصبح على سجيته إذا عاش طبقًا لها. والرأى عنده أن الجانب العملى أو التطبيقى من الدين (وليس الجانب النظرى) هو الذى يهم، فالعالم لا يمكنه أن يبقى بدون القانون والدين. ولأن البعض وجدوا أنهم لا يجنون ثمار جهدهم وحميد خصالهم فى هذه الحياة، فقد استحدثوا فكرة العقاب والثواب فى العالم الآخر. ورغم عدم إيمانه إيمانًا حرفيًا بالمسيحية، فإنه أعلى من قدرها كدين يفوق الأديان الأخرى لأنها تقوم على المحبة. ومع ذلك، فإنه وجد أن الوثنية تتفوق على الدين المسيحى فى بعض النواحى، فهى أكثر تسامحًا وأقرب إلى الطبيعة من الدين المسيحى. ويستطرد برونو قائلاً إنه من الخطأ أن نعتقد أن قدماء المصريين كانوا يعبدون التماسيح والديوك.. بل إنهم كانوا يعبدون الله الحالَّ فى هذه الأشياء. ويحذر برونو من احتقار مثل هذه العبادة، حيث إن الحيوانات والنباتات هى الآثار الحية للطبيعة. وليست الطبيعة فى نظره سوى تجسد لله الكائن فى الأشياء. ويقول برونو الشىء نفسه عن عبادة الإغريق لكوكب المشترى، فيقول إنهم عبدوا الله الموجود فيه. ويبدو أن مذهب الكنيسة الكاثوليكية ترك فيه أثرًا واضحًا رغم اختلافه مع لاهوت هذه الكنيسة. وكان يهاجم بالذات هؤلاء الكاثوليك المنادين بأن الخلاص ليس رهنًا بما يفعله الإنسان من أعمال صالحة، ولكنه رهن بقوة الإيمان. وأيضًا دعا برونو إلى التسامح ورأى فى التعصب الأعمى واعتقاد المرء بأنه يملك الحقيقة المطلقة شرًا مستطيرًا يهدد المجتمع.

وإلى جانب احتقاره للطوائف البروتستانتية، نراه يهاجم بقوة عيوب الكنيسة الكاثوليكية ومثالبها، وهو يعترض على إنشاء سلطة كهنوتية تقوم على العقائد الجامدة والمتزمتة. وهو يرى أن الهدف الذى يسعى أى دين لتحقيقه لا يكمن فى معتقداته اللاهوتية العديمة الجدوى، ولكنه يكمن فى فائدته العملية. حرص برونو على الحقيقة مهما كبدته من مخاطر أو أدت إلى تدمير مصالحه، مثل استخفافه بثنائية اللاهوت والناسوت «حيث نرى شخصًا واحدًا يتكون من طبيعتين ومن مادتين تندمجان فى

وحدة غير مادية». وكان برونو شديد التمسك بالحياة؛ ولهذا نراه لا يكف عن ازدراء الجانب القاتم والمتشائم من المسيحية، وازدراء دعوتها إلى التقشف وامتهان النفس وتمجيد الموت والألم والعذاب.

وطالب برونو الكنيسة الكاثوليكية بالتخلى عما فى عقائدها الجامدة من تناقض، كما طالب بالاستمساك بقانون الحب المترعرع فى قلب المسيحية التى ينبغى تطهيرها من الخزعبلات. وأيضًا عبر عن شكوكه حول صحة قضية الخليقة كما وردت فى قصة آدم وحواء، ووجد إنها قصة غير معقولة ومثيرة للضحك والاستهزاء. وهاجم برونو المعجزات كما عبر عن احتقاره للمذابح والتماثيل. والرأى عنده أن سائر الأديان، رغم فائدتها العملية، تنطوى على أكاذيب وأضاليل وتشويه للحقيقة وأن جنة عدن نوع من الهراء والتخريف! ثم إن الإنسان الأول (آدم وحواء) - الذى لا يعقل أنهما السبب فى الخليقة - لم يتحل بالفضيلة أو الذكاء، بل كان وحشًا كاسرًا يفتقر إلى العقل والحجى. وقد استقى برونو هذا الرأى من الفيلسوف الشاعر لوكريشيوس، كما أنه أخذ عنه النظرية الذرية التى استمدها لوكريشيوس بدوره من خلال أبيقور، ومن كل من الفيلسوفين الإغريقيين ليوسيبوس وديموقريطس.

كان برونو يتقن استخدام اللغة الرمزية الغامضة والملفوفة والملتوية التى لا يسهل استنباط آرائه منها. ويبدو من الخطاب الذى أرسله إلى السير فيليب سيدنى أنه كان يقفو أثر فيثاغورث فى إيمانه بتناسخ الأرواح، لأن مثل هذا الإيمان كان يتفق مع إيمانه بواحدية الكون أو واحدية الطاقة المقدسة التى تبعث الحياة فى اللا محدود. ويبقى التساؤل مطروحًا: هل كان برونو يؤمن بخلود أرواح الأفراد؟ وعندما طرح عليه فيما بعد القضاة هذا السؤال عن إيمانه بتناسخ الأرواح، أجابهم قائلاً: «إنى أومن بالأرواح الخالدة باعتبار أنها أرواح مفكرة» ثم مضى يتحدث ككاثوليكى قائلاً: «إن هذه الأرواح لا تنتقل من جسد إلى جسد؛ ولكنها تذهب إلى الجنة أو المطهر أو الجحيم». ولكنه لا يلبث أن يقول: «لقد فكرت مليًا فى هذا الموضوع، وإنى عندما أتحدث كفيلسوف أقول إن الروح ليس لها وجود خارج الجسد رغم أنها ليست الجسد، ومن ثم فإنه من الجائز أن تكون فى جسد أحد أو فى جسد غيره وأن تنتقل من جسد إلى جسد. وحتى إذا لم يكن هذا صحيحًا، فإنه يبدو على الأقل أمرًا جائزًا من وجهة نظر الفيلسوف فيثاغورث». مثل هذا القول يتسم بالغموض والمراوغة وأبعد ما يكون عن الوضوح؛ غير أن طبع برونو الصريح ما لبث أن تغلب على مراوغته.

آمن برونو بأهمية ما يطرأ على العالم أو الكون من تغيرات. وهو يقول فى هذا الشأن: «إذا لم يطرأ تغيير على الأجساد وإذا لم تتنوع المادة وتتغير الكائنات، فلن يكون هناك شىء مستساغ أو طيب أو بهيج. فالعمل المضنى يدخل علينا المسرة فقط إذا جاء بعد حالة من الراحة لوقت قصير.. ونحن لا نجد لذة فى الراحة إلا إذا جاءت لمدة دقائق بعد حالة من النَّصَب والتعب».

والجدير بالذكر ، أن هذا المبحث الذى أهداه برونو إلى السير فيليب سيدنى والمنشور فى إنجلترا لم ينجح فى إثارة اهتمام الإنجليز به، شأنه فى ذلك شأن الأبحاث الأخرى المنشورة فى لندن، ومع ذلك، فقد تم فى عام ١٦٣٣ تقديم مسرحية مستمدة من مبحثه هذا أمام الملك شارل الأول وهنريتيا ماريا، كما أنه يبدو أن الشاعر الإنجليزى سبنسر تأثر ببحث الوحش المنتصر عندما نظم قصيدتيه عن المتغيرات التى تصيب الأشياء. ورغم عدم اهتمام الإنجليز بآراء برونو إبان فترة بقائه فى إنجلترا، فقد أظهر الاهتمام به فى بداية القرن الثامن عشر عدد من الإنجليز التأليهيين ممن يؤمنون بأن الطبيعة تنم عن وجود الله دون إيمانهم بالتنزيل، مثل و. مورهيد الذى ترجم إلى الإنجليزية بعض حواراته. ويذهب بعض الفلاسفة، وعلى رأسهم الفيلسوف ليبنتز، أن برونو كان يقصد بابا روما ويقصد تشبيهه بالوحش المطرود.

جمعية الخيول السرية مثل بيجاسوس

مع إضافة حمار سيلين

يعتبر هذا البحث ملحقًا لكتاب «الزمان». وكلا الكتابين يبنيان ثمار حرية الفكر والتعبير فى إنجلترا. لقد سبق أن رسم المؤلف لوسيان للأقدمين صورة لمغامرات حمار، كما أن أبوليوس سبق أن كتب روايته الرومانسية الغريبة بعنوان: «الحمار الذهبى». ونحن نشاهد فى عصر النهضة ميكيافيلى ينظم قصيدة بنفس هذا العنوان. فليس بالمستغرب إذن أن نرى برونو فى شبابه يخصص للحمار مركزًا مميزًا ومرموقًا ينفرد به عن سائر المخلوقات. كرس برونه مبحثه لمناقشة «الحمارية» على المستويين: النظرى والعملى، أو المجرد والملموس.

والفرس الوارد ذكره فى الأدب الكلاسيكى القديم المسمى بيجاسوس طار راكضًا إلى السماء، وقدم خدمة لزيوس كبير الآلهة بأن فجَّر له نافورة بحافره. وبحث برونو عن الحمير هو بحث عن الحقيقة وكيفية الوصول إليها بأى ثمن بحيث يكون مقرونًا بروح النقد، ومبينًا استحالة الوصول إلى أية حقائق مطلقة. ويحتمل أن يكون برونو قد تأثر بقراءة مبحث المصلح الدينى إيرازموس «فى مدح الحماقة» ، علمًا بأن برونو استقى جانبًا من عنوانه من جماعة سرية يهودية مزجت بين الأفلاطونية الجديدة وتصوف فيثاغورث. ومبحث برونو مهدى إلى شخصية من وحى الخيال. وهو يبدأ بخطاب ينطوى على السخرية تعقبه سوناتة منظومة فى مدح حمار. ويخلع برونو القداسة على الحمار، ويحث قراءه على أن يصبحوا حميرًا وأن يزهوا بذلك. ثم يسوق لنا سوناتة شديدة التقوى والورع بعنوان: «الحمار ودواجنه».

ويخلط برونو فى مبحثه عن الحمارية الجد بالهزل، هادفًا إلى القضاء على الجهل والخزعبلات المرتبطين بالدين. وأيضًا رفض برونو إقامة الإيمان بالدين على أساس الدعوة القائمة على الغباوة والمقترنة بالبلاهة، والتى تجعل من الدين شيئًا مبهمًا يكتنفه الغموض ويستغلق على الأفهام. وهو يوضح لنا أن المسيحيين استخدموا الإنجيل أسوأ استخدام عندما سخروه لتمجيد الجهل؛ فضلاً عن أنه يلهب المنافقين بالسياط. وكذلك يرمى برونو بالجهل بعض الفلاسفة الذين يعتنقون الفلسفة الأرسطاطالسية. وخلاصة القول، أن برونو وجد الحمارية فى كل مكان.. فى الكنيسة والدين وساحات القضاء والمدارس. وهو يرى أن الدين الحقيقى يجب أن يتخلص من الجهل والخزعبلات. ويحتوى بحث برونو فى الحمار على ثلاثة حوارات قصيرة. ويحدثنا المؤلف عن حمار يدعى أنورو تتاسخت روحه فى عدة حمير حتى صار جوادًا مثل بيجاسوس يعمل فى خدمة آلهة السماء. بل إن هذا الحمار الذى تتاسخت روحه تحول إلى جسد الفيلسوف أرسطو .

ومن بين أفكار برونو العلمية الرائدة إبرازه للدور الوظيفى المهم الذى تؤديه أعضاء الجسم. فضلاً عن أهمية الدور الذى تلعبه يد الإنسان فى تمييزه عن سائر الحيوانات.

يقول هوفدنج: إن برونو اعتنق المذهب الفلسفى المثالى؛ ولكن مثاليته امتزجت بمفهوم علمى عن سير العالم. ويحدثنا برونو عن موقف الحمار سيلين من نظرية فيثاغورث المنادية بتناسخ الأرواح. فهذا الحمار يرغب فى الالتحاق بأكاديمية تؤمن بهذه النظرية. ولكن الحمار يصطدم بنص فى لائحة الأكاديمية يصعب عليه تنفيذه يتلخص فى التزام الصمت عامين كاملين. ويترفق كوكب المشترى بالحمار فيعطيه زلاقة اللسان وبلاغة القول لدرجة تقربه من البشر.

ولكن الحمار لا يفوته أن يسأل المشترى قائلاً: «قل لى يا سيدى وساعدنى قليلاً، من يجىء فى المرتبة الأولى: الإنسان الذى يتناسخ فيصبح حمارًا، أم الحمار الذى يتناسخ فيصبح إنسانًا؟». ويبدو أن هذا الكتاب عن الحمير أغضب الدهماء والحكماء على حد سواء فآثر صاحبه حظره.

جموح العشق

رغم أن برونو عبر عن زرايته بتصنع بترارك وافتعاله فى تمجيد العشق الفكرى، فإن عشقه للأفكار دفعه فى نهاية المطاف إلى الوصول إلى رؤية شاملة للطبيعة التى تحل فيها روح الله. ويعتبر مبحثه «جموح العشق» ترنيمة تشع شعرًا ونثرًا بالجمال الفكرى.

وذهب برونو إلى رأى فى منتهى الخطورة فحواه أن ديانة أى شعب ينبغى اتباعها والالتزام بها باعتبارها جزءًا من دستوره وقانونه السياسى، دون أن يمنع ذلك ذوى الألباب من إخضاع هذه الديانة لأحكام العقل. وتتضح أهمية هذا الرأى عند تقديم برونو إلى محاكم التفتيش. فقد ذكر أمامها أنه يقبل الكنيسة باعتبارها مؤسسة عملية. ويؤكد برونو معتقداتها الراسخة باعتبارها ظلاً للحقيقة ، لكنه فى نفس الوقت أصر على حرية الفلاسفة فى تفسير المعتقدات الكنسية تفسيرًا مستقلاً. وأيضًا ذهب برونو إلى أن صاحب العقل والحجى يرفض الاستمساك بعالم المحسوسات الفانى أو العابر، بل يحرص على استخدام العقل الذى يمكن الإنسان من الالتحام الصوفى بالله الكائن فى الطبيعة.

ويقع هذا البحث فى جزءين كل منهما يحتوى على خمسة حوارات جاءت فيها العبارة التالية: «اللا نهائى حالة كونه لا نهائيًا يجب اتباعه على نحو لا نهائى». ويستطرد برونو قائلاً: «وإن متابعة المعرفة الطبيعية وسيلة أكثر ما تكون روعة كملء الروح الإنسانية بجموح الحب». وهناك مراحل فى تأمل الحب المقدس والحكمة

المقدسة. ولكن لأن هذه الروح تسكن الجسد الذى يكبلها ويعوق حركتها، فإنها لا تتقدم على الدوام إلى الأمام. ومن ثم يتعين عليها أن توقظ نفسها كى تبذل محاولة جديرة شجاعة: أولاً عن طريق الرغبة، ثانيًا عن طريق الاهتمام.. ثم عن طريق الدراسة وأخيرًا عن طريق الامتلاء بحماس الحب. ورغم أننا لا نستطيع أبدًا أن نصل إلى اللانهائية المقدسة عن طريق القوة والحب والمعرفة، فإننا نستطيع أن نتمتع بانبعاثاتها المباركة. هذا هو طريق العقل لفهم الله الكائن فى الطبيعة.

ومن أقوال برونو التى تتضح بالتصوف قوله: «ولكن الحكيم هو الذى يعتبر جميع الأشياء المتغيرة وكأنها غير موجودة ويتأكد من أنها باطل الأباطيل». والرأى عنده أن الحواس تعيش طبقًا للأشياء المحسوسة. غير أن هناك قوانين أخرى. فاكتمال المعرفة يجب أن يتحد بالمشاعر المتأججة إزاء الحب والحقيقة. إن الرغبة فى الفهم تتمثل فى الروح السقيم الذى يتوق إلى العودة إلى داره، مما يحفزه على الانطلاق إلى عنان الحكمة الحقيقية والفرحة الحقيقية. وهو لا يتجنب الألم، بل يسعى إلى مكابدته بإرادته لأن هذا قمين بأن يفضى به إلى الجمال الحقيقى المتمثل فى انسجام وتناسق جميع الأشياء فى نهاية المطاف.

ويحدثنا برونو فى هذا المبحث عن نوعين من جموح العشق: عشق الجهلاء الأجوف، وعشق العقل البناء. وهكذا تصبح الروح عن طريق إعمال العقل أشبه بالذات الإلهية المتصلة بهدفها المقدس.

والفرق بين هذين النوعين كالتالى: النوع الأول كالحمار الذى يحمل فوق ظهره أشياء ثمينة مقدسة، فى حين أن النوع الثانى هو القداسة بعينها. وإذا كان الجمال الحسى يموت فإن جمال الفكر والعقل حى لا يموت. والإنسان يصير إلهًا عن طريق الاتصال الفكرى بما يتجاوز الحس.. وهو من خلال حبه لكل ما هو مقدس يحتقر جميع المتع الأخرى ولا يفكر فى الحياة. بل يرى ضرورة لاقتفاء أثر اللا نهائية، رغم أنه يعلم سلفًا أنه لا سبيل للوصول إليها. فيكفى الناقص أن يحلق فى سماء اللانهائية دون الوصول إليها.

كان برونو على يقين من أن الذات الإلهية تسكن فى قلب الطبيعة، كما أنها تجسدت فى روحه الجليدة وفى أجرام السماوات اللا نهائية كما هى موجودة فى عقل الإنسان

وأكثر الزهور تواضعًا. وقد عبر عن ذلك فى عدد من قصائده التى ضمنها مبحثه «جموح العشق».

ويؤكد برونو أنه لا يتوجه بكلامه إلى عامة الناس لأنهم لن يفهموه، بل إلى خاصتهم فعامة الناس لا تقلع عن فعل الشر إلا بشق الأنفس نتيجة الخوف من جهنم وعقاب الله الأبدى.

إن برونو فى سعيه وتشوقه إلى اللانهائية سبق عددًا من الفلاسفة المحدثين العظام، أمثال كانط وفيخته. ومن أقواله المأثورة عن الشعر أنه لا يسير وفق قواعد، وقواعد الشعر متنوعة بتنوع الشعر. وإذا كان للشعر قواعد فهى مستمدة من القريض نفسه. وردًا على هذا السؤال: «ولكن كيف يمكن تمييز الشعراء الحقيقيين؟» قال تانسلو أحد الشخصيات الواردة فى المبحث: «بما يشدونه من غناء».

الكتب الجديدة التى أصدرها برونو أثناء زيارته الثانية لباريس

عندما زار برونو باريس للمرة الثانية عاش فيها شريدًا فقيرًا لا يجد مأوى يلوذ به أو شخصًا يحميه من غوائل الدهر. ولا يعرف أحد كيف كان فيلسوفنا يقتات هناك. وأثناء محاكمته ذكر برونو للقضاة الذين حاكموه أنه استغاث بالمندوب الفرنسى للكرسى البابوى أسقف برجامو الذى كان مندوزا قد عرفه إليه. وعبثًا حاول برونو الاستنجاد برجال الكنيسة، فى استصدار عفو عنه من البابا سكستوس الخامس كى يقبل عودته إلى أحضان الكنيسة، دون أن يضطر من جانبه إلى العودة إلى الرهبنة. غير أن رجال الكنيسة اشترطوا عليه العودة إلى الدير إذا أراد الحصول على عفو من بابا روما الذى كان قد طرده من الكنيسة، وحذره الأب الجيزويتى ألونزو سباجنولو من أنه لم يعد له الحق بعد طرده من الكنيسة فى حضور القداس، بيد أن له الحق فى حضور الوعظات وتلاوة الصلوات فى الكنيسة.

وفى باريس عرض برونو نفسه للمخاطر بسبب صراحته وعدم توخيه الحذر عند التعبير عن بعض آرائه. وهناك التقى به فى ديسمبر عام ١٥٨٥ رجل هولندى اسمه أرنولد فان توتشل ، الذى وصف برونو بأنه فيلسوف معقد فى تفكيره لدرجة تعرضه للخطر. وكذلك اكتشف المسيو أوفراى فى دار الوثائق والكتب القومية فى باريس مخطوطة يوميات، يعتقد أن جيولوم كوتن أمين مكتبة دير سانت فكتور سطرها. وتتضمن هذه المخطوطة وصفًا لزيارات برونو العديدة له فى الفترة من ٦ ديسمبر ١٥٨٥ إلى فبراير ١٥٨٦. وبدت آراء برونو لكوتن صلفة ومتجاوزة الحدود، الأمر الذى

جعله يمتعض من زيارات برونو له. وجاء على لسان كوتن فى هذه اليوميات أن برونو كان بصدد تأليف كتاب بعنوان: «شجرة الفلاسفة». وهو مبحث لم ير طريقه إلى النشر إبان حياة مؤلفه. وتخبرنا اليوميات أن والد برونو كان آنذاك حيًا يرزق ويعيش فى قرية نولا. وأيضًا حدث برونو مضيفه عن أشعار لوكريشيوس.

وفى اليوم التالى الموافق ٧ ديسمبر، زار برونو كوتن ليشرح له عمل الذاكرة الاصطناعية التى ضمتها كتبه. والجدير بالذكر، أن برونو كان لا يتقن الفرنسية ويفضل عليها الكتابة باللاتينية. فضلاً عن أن إتقانه للعلوم الطبيعية كان واضحًا، فقد اعترف له كاتب اليوميات باتساع معرفته فى علم الجغرافيا.

ويصف كاتب اليوميات بتاريخ ١٢ ديسمبر أن برونو عرض عليه مؤلفاته عن فن التذكر. وفى الصراع المحتدم بين البابا سكتوس ونبلاء إيطاليا المتمردين عليه اتخذ برونو جانب النبلاء ضد البابا. وفى زيارة أخرى أجراها برونو لضيفه أوضح للبابا نجاحه فى تنشيط الذاكرة الصناعية. وكان لبرونو مريد من عائلة عريقة يدعى جون هينكوين دافع ببسالة عن إضافات أستاذه الجديدة إلى علمى الفلك والرياضيات. والعجيب أن إنجلترا المتحررة لم تكترث بمستحدثات العلم الحديث، كما أن جينيف (سويسرا) الكالفينية المتزمتة اضطهدت فى القرن السادس عشر المنادين بالتحديث. وكذلك رفضت فرنسا الكاثوليكية الاقتناع بنتائج العلم الحديث، بل كانت على استعداد لاستخدام العنف مع العلماء المجددين، الأمر الذى اضطر برونو إلى الرحيل من فرنسا. وهكذا كتب على برونو، بسبب استمساكه بمبادئه ودفاعه عنها، أن يتحول إلى جائل فى أرض الله هائم على وجهه، يعرض نفسه للمخاطر والتهلكة والغدر والخيانة والأوبئة المتفشية والأمراض والطاعون والفاقة المدقعة أينما ذهب.

الأعمال التى ألفها برونو ونشرها
فى مدينة ويتنبرج الألمانية

قال برونو أثناء محاكمته أمام محاكم التفتيش، إنه لم يجد ما يسد به رمقه لبضعة أيام عندما ذهب إلى مدينة مينز الألمانية فقرر الرحيل إلى ويتنبرج فى ساكسونيا ، ولكن برونو أغفل ذكر ذهابه إلى جامعة مدينة ماربورج الجميلة المطلة على نهر يقال له لاهن. وقد قام فيليب لاندجريف المعروف باهتمامه بعلم الفلك بإنشاء هذه الجامعة عام ١٥٢٧ . والمثير أن هذه الجامعة الألمانية تمتعت باستقلالها عن بابا روما. وقد كتب رئيس هذه الجامعة بيترو ميجيدبوس يقول: «إن جيوردانو النولانى الحاصل على درجة الدكتوراه فى اللاهوت الرومانى تقدم بطلب إلى الجامعة لتدريس الفلسفة. ولكنى لأسباب قوية رفضت تعيينه فى هذه الوظيفة. ووافقتنى على ذلك كلية الفلسفة فتميز برونو غيظًا وأهاننى فى عقر دارى، كما لو كنت بهذا قد انتهكت القوانين وأعراف الجامعات الألمانية. ولهذا أرسل خطابًا إلى جامعة ويتنبرج يعترض فيه على منعه من التدريس فى جامعة مارنبورج. ويبدو أن ألبيريكو أحد معارفه، هو الذى نصحه بالتدريس فى جامعة ماربورج التى حاضر فيها عن أرسطو . وكانت هذه الجامعة تنعم عن غيرها بقدر أعظم من حرية النقاش فى الأمور الفلسفية، الأمر الذى جذب إليها كثيرًا من الطلبة من جميع أرجاء أوروبا. واستقبله الأساتذة فى جامعة ويتنبرج بترحاب، وسمحت له إدارة الجامعة بإعطاء بعض الدروس الخصوصية للطلبة مراعاة لفاقته. وبسبب ترحاب هذه الجامعة به شعر بالامتنان نحوها. وفى عام ١٥٨٧، نشر نسخة مزيدة ومنقحة من كتابه «الشامل فى علم العمارة». والجدير بالذكر، أن

المصلح الدينى البروتستانتى المعروف مارتن لوثر باشر التدريس فى هذه الجامعة. كما أن أفكار لول بخصوص تنشيط الذاكرة كانت شائعة هناك، مما شجع برونو على المضى قُدمًا فى اتباع وتطوير مذهب لول فى شحذ الذاكرة لاستيعاب أكبر قدر من المعرفة.

وبعدئذ نشر برونو كتابًا بعنوان: «التقدم ومصباح هنتر للمسائل المنطقية» أهداه إلى رئيس الجامعة. والكتاب يتناول جانبًا من المحاضرات التى ألقاها برونو فى جامعة ويتنبرج. ويدل الكتاب على مدى اقتناعه باستحالة الوصول إلى المعرفة الكاملة.

وفى الوقت نفسه، أصدر برونو كتابًا شديد الأهمية هاجم فيه آراء أرسطو المتعلقة بالكون. ويؤكد لنا برونو فى هذا المبحث أن المحرك الأول (أى الله بلغة أرسطو) ليس خارج الطبيعة، ولكنه كامن فيها يحركها ويعطيها الحياة.

اعتاد برونو أن يكلف بعض الناسخين بنسخ مؤلفاته، مما ساعد على نشرها فيما بعد. ووجد برونو نفسه فى جو تتنازعه الأفكار اللوثرية المتحررة والأفكار الكالفينية المتزمتة دون أن يعنى إعجابه بمارتن لوثر أن المذهب البروتستانتى اللوثرى راق له.

ورغم هجوم برونو على ما ينطوى عليه المذهب الكاثوليكى من خزعبلات، فإنه كان يعتبر نفسه واحدًا من أتباع الكنيسة الكاثوليكية.إن إعجابه بالمصلح الدينى مارتن لوثر يرجع إلى أن لوثر حطم أغلال اللاهوت الكاثوليكى، وهذا ما كان يصبو إليه.

ومن الغريب أن برونو آثر الرحيل عن ويتبنرج البروتستانتية ليستقر فى مدينة براغ المستمسكة بالذهب الكاثوليكى.

برونو فى كل من براغ وهلمستدت، ومؤلفاته فى الفترة من ١٥٨٨ إلى ١٥٩٠

كانت جامعة براغ فى خلال فترة عملها لمدة قرنين من الزمان تتمتع بقدر وافر من الحرية والتقاليد الليبرالية. واعتنق أهل بوهيميا البروتستانتية بشكل أو آخر؛ لأن طائفة الجيزويت الكاثوليكية لم تكن بعد قد سيطرت عليهم. وشاهدت براغ فى تلك الآونة شقاقًا بين الكاثوليك والبروتستانت لم يُفقد هذه المدينة كثيرًا من سماحتها الدينية. وشجع برونو على الذهاب إلى براغ أن إمبراطورها فردريك رودولف الثانى اشتهر بمستواه الثقافى الرفيع وبرعايته لكل ضروب المعرفة. وبسبب حبه للمعرفة أنفق هذا الحاكم كثيرًا من وقته فى قراءة الطالع والأبراج السماوية وفى البحث عن حجر الفيلسوف الذى يحول المعادن غير النفيسة إلى أصفر رنان، الأمر الذى مهد السبيل أمام اهتمامه اللاحق بمنجزات كبلر وغيره من علماء الفلك. وتعشَّم برونو أن يكون دفاعه عن آراء لولى فى مجال شحذ الذاكرة سببًا فى رضاء الإمبراطور رودولف عليه. وأيضًا شجعه على الذهاب إلى براغ تعيين فابريزيو موردنت - الذى تعرف عليه فى باريس وحظى بإعجابه - فى وظيفة فلكى البلاط الإمبراطورى. فضلاً عن وجود أحد معارفه وليم سانت كليمنت، الذى قابله فى فرنسا أثناء شغله وظيفة سفير إسبانيا هناك. علمًا بأن هذا السفير كان من المقربين إلى الإمبراطور رودولف، ومن المهتمين بأبحاث لوف زميله فى المواطنة الإسبانية فى مجال تنشيط الذاكرة.

وصل برونو إلى بوهيميا نحو عام ١٥٨٨، حيث أهدى فى العاشر من يونيو من هذا العام كتابين صغيرين أضاف إليهما النَّزر اليسير، وسبق أن نشرهما فى ويتنبرج

مُطلقًا عليهما عنوان. «فحص الأشكال ومصباح ريموند لول المشترك: سيد المعارف الذى يصل الى مرتبة القداسة».

ثم أصدر برونو كتابًا أهداه إلى الإمبراطور بعنوان: «مائة وستون مقالاً موجهًا ضد فلاسفة وعلماء الرياضيات فى يومنا الراهن». ويتطلع المؤلف فى هذا الكتاب إلى انتشار ديانة مسيحية تقوم على الحب وتنأى بنفسها عن الفرقة والصراع والتعصب . ومعنى هذا أن برونو يريد أن يطهر المسيحية الكاثوليكية من أية أدران أو شوائب، وأن يجعل منها دينًا تقدميًا. وهاجم برونو فى هذا الكتاب الإيمان الدينى القائم على العادة والتقاليد مبرزًا أهمية إعمال العقل فى أمور الدين، وبذلك يكون برونو قد مهد السبيل إلى ظهور فلسفة كانط وأتباعه، كما مهد السبيل إلى ظهور الشك الديكارتى، حيث إنه يقول : «وإن كل شىء مهما بدا مؤكدًا وواضحًا أمام المرء يتضح عند مناقشته أنه قابل للشك ويتسم بالمبالغة والمعتقدات المثيرة للضحك».

ويحتوى الكتاب على مائة وستين مقالاً ومائة وثمانين قطعة تعالج بإيجاز ما سوف يتناوله المؤلف برونو فيما بعد فى كتابيه «عن الذاكرة» و«عن الجوهر الفرد Nomad» . والجدير بالذكر، أن الإمبراطور لم يغدق عليه أو ينفحه مالاً كثيرًا. يقول برونو فى هذا الصدد: «بقيت ستة أشهر فى براغ حيث طبعت كتابًا فى الجبر أهديت نسخة منه إلى الإمبراطور فنفحنى ثلاثمائة دولار أخذتها ثم غادرت هذه المدينة».

وفى عام ١٥٧٦، أقام الدوق جوليوس فى دوقية هلمستدت جامعة صارت من أهم المراكز التعليمية فى ألمانيا ، ورغم أن هذا الدوق كان يؤمن بالمذهب البروتستانتى، فقد سمح لابنه وولى عهده هنرى جوليوس أن يتولى منصب أسقف هالبرستادت، وهو فى الرابعة عشرة من عمره. ورغم أن هذا الدوق ألغى الأديرة الموجودة فى دوقيته، فإنه لم يحاول الاستيلاء على ممتلكاتها وضمها إليه. ومن الواضح أن برونو كان سعيدًا بالعمل فى هذه الجامعة، حيث إنه قال: «إن العناية الإلهية وليست الصدفة هى التى قادتنى إلى هذا المكان». وليس أدل على سعادته بالعيش فى هذه الدوقية من قوله: «إن الذئب الرومانى الكاسر غرز أنيابه فى لحمى. ولكننى الآن أتمتع بالحرية الكاملة». واللافت للنظر أن برونو وصف نفسه فى تلك الفترة بأنه يعيش فى المنفى بسبب بحثه عن الحقيقة. غير أن برونو تهور فوصف الكنيسة الكاثوليكية بذلك الوحش الأسطورى الذى تطل من رأسه الثعابين النافثة للسموم والجهل والشر، الأمر الذى جعل تصالحه مع الكنيسة أكثر صعوبة.

وأمام محاكم التفتيش اعترف برونو بأنه ألقى خطاب تأبين بمناسبة وفاة الدوق البروتستانتى جوليوس، فنفحه ابن المتوفى هنرى ثمانين سكودة مكافأة له.

والجدير بالذكر، أن برونو سطر تعليقًا على هامش خطاب التأبين فحواه إنه (أى المتوفى) كان مهرطقًا. وبسبب العطية التى تلقاها برونو من هنرى ابن الدوق المتوفى نراه يعبر عن شديد الامتنان له، ويهديه عام ١٥٩١ اثنين من أعماله. وساء الكنيسة الكاثوليكية ذلك الثناء العاطر الذى أمطره برونو على الدوق البروتستانتى.

كانت براغ ـ آنذاك ـ مركزًا من مراكز التنجيم والسحر وقراءة الطالع، الأمر الذى راق فى عين برونو الذى جذبته إليه تلك الممارسات. وكان مؤلفنا تواقًا لمعرفة القوانين التى تحكم عالم السحر والسحرة. والجدير بالذكر، أن برونو أهدى أحد كتبه عن السحر إلى أحد تلاميذه وهو شاب من نورنبرج يدعى بيسلر، الذى رافق معلمه عند رحيله إلى بادوا وأصبح ناسخًا لمؤلفاته. وفى عام ١٨٦٦، ظهرت فى أسواق باريس تسع مخطوطات من تأليفه كان بيسلر قد نسخها له. وتحتفظ مكتبة موسكو بنسخة من مبحثه عن السحر، وهو مبحث يرجع تاريخه إلى عام ١٥٩٠.

ويعالج مبحثه «عن السحر» الرياضيات كعمليات خبيئة أو غامضة تعمل داخل العقل والطبيعة، والمبحث يشرح الأفعال وردود الأفعال على أساس مبادئ المذهب الأفلاطونى الجديد وعلى أساس وجود حياة فى كل الجوامد. ويرى برونو أن كثيرًا من المعجزات ترجع إلى عمليات طبيعية لم نكتشف بعد ماهيتها. ويذهب مؤلفنا إلى أن هناك روحًا لا نهائيًا فى الكون يضم فى طياته كل الأرواح المحدودة أو النهائية.

ويظهر كتاب برونو المعروف «المبادئ والعناصر وأسباب الأشياء»(*) المنشور فى ١٦ مارس ١٥٩٠ احترامًا شديدًا وقبولاً عظيمًا للتقاليد.

والرأى عنده أن ممارسة الساحر لسحره تجىء عن طريق روحه ، وأن الذى يساعده فى نجاح عمله هو إيمان الناس بسحره. فالمسيح لم يكن بمقدوره عمل المعجزات لو أن الناس شكوا فى قدرته على الإتيان بها. ويعتقد برونو أن الأجرام السماوية لها تأثيرها على البشر. فضلاً عن قبوله للمذهب الذرى عند الإغريق.

وكذلك نشر برونو فى تلك الفترة الكتاب الذى ألفه بعنوان: «الطب المنسوب إلى لول والمأخوذ جزئيًا من الرياضيات وجزئيًا من المبادئ الطبيعية». وقد قام برونو

(*) الذى يترجم أحيانًا بعنوان: «السبب والمبدأ والوحدة».

بإملاء هذا الكتاب على الناسخين عقب كتابه «المبادئ والعناصر وأسباب الأشياء» مباشرة؛ علمًا بأن برونو استقى كتابه عن الطب ومن مؤلفات لول الطبية. وبسبب خروج برونو عن المألوف وجنوحه عن المتبع مرارًا وتكرارًا نراه يواجه المشاكل المرة تلو الأخرى، كما نستدل على ذلك من الخطاب الذى سطره بخط يده. وقد وجه برونو هذا الخطاب إلى هوفمان رئيس الجامعة، وجاء فيه ما يلى: «سيدى الموقر الجليل للغاية مدير الجامعة، أنا جيوردانو برونو القادم من نولان والمحروم من الكنيسة بأمر بيوثيوس رئيس رعاتها والمشرف عليها فى هلمستدت الذى نصب نفسه قاضيًا وجلادًا دون السماح لى بالدفاع عن نفسى أمام الجمهور.. أرفع بكل تواضع إلى فخامتكم وأعضاء مجلس الشيوخ الموقرين شكواى من المرسوم الشخصى والشرير للغاية الذى أصدره سيادته ضدى.. بأننى أطلب سماع رأيى حتى يعلم سيادته ما إذا كان الهجوم على تصرفى والنيل من سمعتى يقومان على الحق أم لا. لأنه كما قال الفيلسوف سينيكا: «الذى يصدر حكمًا بعد سماع جانب واحد ليس عادلاً حتى لو جاء حكمه عادلاً». ولهذا أتوسل إلى فخامتكم استدعاء راعى الكنيسة الموقر حتى يظهر البينة ضدى ويثبت صلاح دعواه علىَّ، وأن ما اتخذه من إجراء ضدى ليس نتيجة الضغينة الشخصية». وأغلب الظن أن هذا الالتماس وقع على آذان صماء وأن مدير الجامعة لم يستجب له. وبطبيعة الحال، ساعد طرده من الكنيسة على انفضاض مريديه من حوله، الأمر الذى عجل برحيله من هلمستدت والسفر إلى فرانكفورت. وهكذا غادر مدينة هلمستدت فى منتصف عام ١٥٩٠.

برونو فى فرانكفورت وزيوريخ

كانت مدينة فرانكفورت من أهم المدن والمراكز الثقافية والعلمية فى المانيا. فضلاً عن أهميتها كمركز تجارى تقام فيه المعارض الذائعة الصيت. وراجت تجارة الكتب هناك رواجًا عظيمًا. ورغم أن السلطة فى فرانكفورت دانت لطائفة البروتستانت، فإنها رأت أن مصلحة المدينة تقتضى منها انتهاج سياسة التسامح نحو الكاثوليك الرومان والمتمردين على الكرسى البابوى على حد سواء. ويبدو أن سمعة برونو السيئة سبقته إلى فرانكفورت، حيث إننا نعرف من سجل المدينة المؤرخ فى ٢ يوليو عام ١٥٩٠ أنه تقرر رفض طلبه بالسكن فى بيت المطبعجى ويتشيل، وطلب المسئولون عن المدينة إليه البحث عن مسكن آخر. ويجدر بالذكر، أن المطبعجية هناك كانوا على درجة كبيرة من الاطلاع. فلا غرو إذا رأينا الساسة وكبار رجال الدولة يجتمعون فى مطابعهم لمناقشة أحدث الكتب. ودرج المطبعجية فى ذلك العهد على توفير السكن للعلماء والباحثين المسافرين أثناء قيامهم بطباعة مؤلفاتهم. ولكن معظمهم فضلوا العيش فى بيوت مستقلة طلبًا للهدوء المطلوب لإجراء أبحاثهم. ومما يذكر أن الأديب الإنجليزى المعروف السير فيليب سيدنى نزل ضيفًا على المطبعجى ويتشيل. ورغم أن السلطة المدنية منعت برونو من العيش مع المطبعجى ويتشيل، فقد تمكن هذا المطبعجى من مقابلته فى دير طائفة الكارميلايت ووفر له لقمة العيش. يقول جاكوبوس بريكتانوس المولود فى أنتويرب بهولندا والذى اشتغل بتجارة الكتب فى البندقية، إنه أبلغ محاكم التفتيش أنه قابل برونو وتحدث معه فى فرانكفورت وفى بعض الأماكن الأخرى.

يقول رئيس دير الكارميلايت إنه لاحظ أن برونو فى فترة بقائه فى هذا الدير انصرف إلى الكتابة واستحداث الجديد، مضيفًا أن الباحثين المهرطقين خالطوه، حيث إن الباحثين فى مدينة فرانكفورت كانوا فى مجملهم من الهراطقة.

وعندما سأل جاكوبوس بريكتانوس رئيس الدير عن رأيه فى شخصية برونو أجاب بقوله: «إنه رجل يتمتع بعقلية وتعليم بديعين... رجل عالمى... ولكنه (أى رئيس الدير) يعتقد أنه يخلو من كل أثر من الإيمان بالدين، مضيفًا أنه ادعى بأنه يعرف أكثر مما يعرفه الرسل وأنه لو أراد لاستطاع أنه يجعل العالم كله يدين بدين واحد». وعندما سألت محاكم التفتيش بريكتانوس عن أصدقاء برونو الحميمين عجز عن الإرشاد إلى أى واحد منهم . وأيضًا اعترف جيامباتيستا جيوتو ـ وهو شاب من سيينا فى السابعة والعشرين من عمره يمتلك مكتبة فى أهم شوارع البندقية اسمها مكتبة مينرفا ـ بأنه التقى ببرونو كثيرًا خلال معارض الكتب. ورغم أن كثيرًا من الشر والأذى لحق ببرونو فيما بعد بسبب هذا الرجل، فإنه اعترف بكثرة تردد برونو على مكتبته فى البندقية؛ ولكنه أكد أنه لم يسمعه قط يقول أى شىء يثير الشكوك حول صحة عقيدته الكاثوليكية.

ونلاحظ أن أول عمل طبعه له ويتشيل بالاشتراك مع ناشر آخر هو مبحث أهداه إلى الدوق هنرى جوليوس. ولم يقم برونو نفسه بإهدائه هذا الكتاب، بل قام الطابعون من تلقاء أنفسهم بفعل ذلك. ويرجع تاريخ الإهداء إلى الثالث عشر من فبراير عام ١٥٩١ . ويذكر لنا الطابعون فى إهدائهم «أن برونو أرغمه حدث غير متوقع على مغادرة المدينة بحيث تعذر عليه الانتهاء من آخر صفحة فى كتابه. وبالنظر إلى أنه لم يستطع تصحيح هذه الصفحة الأخيرة مثلما فعل مع بقية الكتاب، فإنه كتب إلينا يطلب استكمال ما حال القدر دون إتمامه». ولا يعرف الدارسون ما حدث على وجه التحديد : هل كان آباء الكنيسة الكاثوليكية فى فرانكفورت يلاحقونه؟ أم أنه تلقى دعوة عاجلة من الوجيه السويسرى جون هنرى هاينزيل، الذى كان يمتلك ضيعة بالقرب من زيوريخ للحضور إليه. توفر هاينزيل على دراسة تحويل المعادن الرخيصة إلى ذهب، وكان ميالاً إلى دراسة العلوم الغامضة. وألف برونو من أجل هاينزيل كتابًا عن المذهب اللوليانى (نسبة إلى لول الذى اشتهر بأبحاثه عن الذاكرة) طرح فى معرض الكتاب بفرانكفورت. وأيضًا مارس برونو التدريس فى زيوريخ ، ذلك المركز التجارى المتألق

والمزدهر الذى زاده تألقًا وازدهارًا النساجون الطليان المنفيون من إيطاليا بسبب اعتناقهم للبروتستانتية. وعلى الرغم من خلو زيوريخ من وجود جامعة فيها، فإنها كانت قلب سويسرا الفكرى. ووجد برونو مسكنًا لدى رجل سويسرى متحرر الفكر يدعى رفائيل إيجلين، الذى أصبح تلميذه ومريده. وثق برونو بتلميذه إيجلين فسلمه مخطوطات محاضراته التى لم تر طريقها إلى النشر حتى عام ١٥٩٥؛ وذلك من خلال مطبعة جون وولف. غير أن المجلد الأول لم يحتو إلا على عدد محدود من المحاضرات. وفيما بعد عُين إيجلين عام ١٦٠٩ أستاذًا للاهوت فى جامعة ماربورج (تلك الجامعة التى سبق أن رفضت تعيين برونو فيها). وأعاد هذا التلميذ طبع أحد كتب معلمه القديمة ونقحها وأضاف إليها. مكث برونو فى بيت مريده نحو أربعة شهور عاد بعدها إلى فرانكفورت، فى ٧ مارس ١٥٩١، عندما تمكن من الحصول على إذن بإعادة طبع أحد مؤلفاته . وفى فرانكفورت مكث برونو أثناء زيارته الثانية لها نحو ستة شهور داخل مقره القديم فى دير الكارميلايت. وعندما مثل برونو أمام محكمة التفتيش لم يشر بالمرة إلى زيارته الأولى لفرانكفورت وإقامته بمعية الوجيه إليج، ولكنه ذكر زيارته الثانية إلى هذه المدينة. ويجدر بالذكر، أن زيارته الأولى إلى فرانكفورت كانت حافلة بالأحداث الجسام رغم قصرها، ويبدو أن ذكره لزيارته الأولى لهذه المدينة كان قمينًا بتوريطه أمام المحكمة؛ لأنه قبل بمحض إرادته العيش تحت سقف واحد مع شخص متهم فى عقيدته الدينية. وإذا دلت رغبته فى إخفاء زيارته الأولى إلى فرانكفورت عن محاكم التفتيش على شىء، فإنها تدل على ما تنطوى عليه شخصيته من متناقضات. فهو طورًا يتهور فى كلامه ويطيش، وطورًا آخر يلتزم الحذر ويتوخى الفطنة درءًا لما قد تجره عليه الصراحة من مشاكل.

ويسجل «كتاب البندقية الذهبى» علية القوم ووجهاءهم ممن قطنوا فيها، ومن بينهم عائلة النبيل موسينجو المرموقة. يقول بائع الكتب فى البندقية جيامباتيستا جيوتو: «سألنى وجيه من وجهاء البندقية هو السيد جيوفانى موسينجو الذى جاء إلى مكتبتى لشراء كتاب حديث من تأليف جيوردانو برونو ما إذا كنت أعرف هذا المؤلف شخصيًا وما إذا كنت أعرف عنوانه، فأخبرته أننى قابلته فى فرانكفورت وأننى أظن أنه لا يزال يعيش هناك. عندئذ أردف السنيور موسينجو: «أريد منه المجىء إلى البندقية ليعلمنى أسرار التذكر والأشياء الأخرى التى ينسبها إلى نفسه كما قد ترى فى هذا الكتاب» عندئذ أجبته قائلاً: «أعتقد أنه سيحضر لو طلب أحد منه ذلك».

وبعد مضى بعض الأيام أحضر لى السنيور موسينجو خطابا موجهًا إلى جيوردانو، راجيًا منى تسليمه إليه قائلاً إنه كتب إليه هذه الرسالة كى يعرف ما إذا كان بإمكانه الحضور إلى البندقية.

ومن جانبه، روى برونو الحكاية على النحو التالى: «أثناء وجودى فى فرانكفورت فى العام الماضى تلقيت خطابين من السنيور جيوفانى موسينجو يدعونى فيهما إلى الذهاب إلى البندقية لتعليمه فن التذكر والقدرة على الاكتشاف، ووعدنى بحسن المقابلة وبأنه سيعمل كل ما فى وسعه لإرضائى».

وبالنظر إلى أن البندقية كانت مركزًا تجاريًا حيويًا، فإنها أظهرت تسامحًا مع كثير من الهرطقات (راجع: د. رمسيس عوض «محاكم التفتيش فى إيطاليا»). وظن برونو أن البندقية سوف تكون ملاذاً آمنًا له بعد أن جرب الاضطهاد فى جنيف وماربورج وهلمستدت. وإلى جانب تحررها الفكرى تميزت البندقية بعشقها للفكر والفن والطباعة الفاخرة. ولعل برونو رأى فى ذهابه إلى البندقية فرصة للرزق الموفور. وكان مضيفه جيوفانى موسينجو فى الرابعة والثلاثين ومساعدًا لمحاكم التفتيش عندما دعا برونو إلى الحضور إلى البندقية. ولأن برونو ـ آنذاك ـ كان يعتبر نفسه منتميًا إلى الكنيسة الكاثوليكية، فإنه لم يخطر على باله أن هذه الكنيسة سوف تقلب له ظهر المجن. ولعله ذهب إلى البندقية تمهيدًا لتحقيق حلمه بالعودة إلى نولا، مسقط رأسه الذى استبد به الحنين إليه.

كتب برونو الأخيرة وقصيدته المنظومة باللغة اللاتينية

كان برونو شاعرًا بقدر ما كان فيلسوفًا ومفكرًا. وسعى إلى مزج الشعر بالعلم والفلسفة. فقد كان حلم حياته أن يصيغ أسرار الكون والطبيعة فى قالب شعرى بديع وجميل. وبذلك يكون قد حاول التوفيق بين المتناقضات، حيث إن الشعر يقوم على العاطفة، فى حين أن البحث العلمى والاستقصاء الميتافيزيقى يخلوان منها.

وفى عام ١٥٩١، نشر برونو مجلدين يحتويان على ثلاث قصائد متشابكة ومترابطة. وقد طرح المجلد الأول للبيع فى معرض الربيع فى فرانكفورت بعنوان: «المقادير الثلاثية ومعيار العلوم التأملية الثلاثة ومبدأ الفنون العملية الكثيرة». ويقع هذا العمل فى خمسة أجزاء تنقسم إلى فصول، يبدأ كل فصل منها بأشعار تعقبها شروح نثرية، ويتضمن جانب من هذا العمل تعاليمه التى سبق أن ضمنها كتابه الشهير «السبب والمبدأ»، فى حين تناول بعض أجزائه علم الرياضيات أساسًا. ويعالج الكتاب فكرة وحدة العلوم التأملية وروح الفرد المتوحدة وذرات المادة كوحدة فيزيقية. ويتضح لنا أن تطورًا طرأ على فكر برونو الفلسفى، حيث إنه لم يعد مجرد فيلسوف يردد الفلسفة الأفلاطونية الجديدة أو يبدى إعجابه بقدرة الله على تجاوز العالم المادى، بل اهتم اهتمامًا بالغًا وأكثر عمقًا بحلول الله فى الطبيعة.

وتُعنى بعض قصائد المجلد بتصوير فاعلية الكون الحى. وكما سبق أن ذكرنا، عبر برونو عن فلسفة الشك قبل مولد الفيلسوف الشكاك المعروف ديكارت بخمسة أعوام. فقد قال: «من يتوق إلى الفلسفة يجب أن يبدأ عمله بالشك فى كل الأشياء». ودفع

التأمل برونو إلى البحث عن الثابت وراء المتغير، فوجد فى الذات الإلهية اللانهائية وحدة الوحدات والأصل فى جميع الأشياء والواحد المطلق غير القابل للتجزئة. كتب برونو يقول فى هذا الصدد: «إن الأشياء فى حد ذاتها تتغير وتصبح فى العالم المادى نتائج يشوبها النقص. وهى أقرب ما تكون إلى اللاموجودات منها إلى الموجودات لأنها تنبعث من الخواء. ولأنها أبعد ما تكون عن الموجودات الحقيقية، فهى تذهب إلى الخواء أيضًا. ووجودها الحقيقى يجب أن يكون حيث لا تستطيع إلا أن توجد فى ذلك السبب الأول والمبدأ الكامل.. إن جميع الأشياء هى فى حقيقة الأمر شىء واحد بلا تمييز أو تشتت أو عدد. غير أنها مسألة تفوق قدرة البشر على الوصف».

ويضيف برونو إلى هذا قوله: «إن الروح حد أدنى خالد يحتمل التغير .. هناك أرواح كحدود دنيا لا يمكن تجزئتها إلى أبعد من هذا. ويتجلى الروح المطلق نفسه فى هذه الحدود الدنيا. والعلاقة بين هذه الأرواح ذات الحدود الدنيا وبين الروح المطلق غير واضحة ولا يمكن توضيحها؛ لأن أحد شروط هذه العلاقة يبقى على الأقل غير قابل للوصف على الإطلاق». وفى موضع آخر يقول برونو، إنه لا يمكن اعتبار هذه الحدود الدنيا مجرد أجزاء فى الروح المطلق.

نعود فنقرر أن برونو آمن أن العالم المادى أو الفيزيقى يتكون من ذرات لا تقبل التجزئة إلى ما لا نهاية؛ لأن المادة سوف تتلاشى كمادة إذا حدث لها ذلك. ومعنى هذا أنه ينبغى أن يكون لتجزئة المادة حد أدنى يستحيل تجاوزه أو الهبوط عن مقداره. ولو حدث هذا لتحولت المادة إلى شىء يمكن اختراقه، ولما استطاع جسم مقاومة غيره من الأجسام. إن مكونات المادة تتغير ولكن الحد الأدنى من المادة خالد لا يتغير. وكل حد أدنى يمثل مركز طاقة خارجة عنه يمكن أن يمتد إلى ما لانهاية. وهو غير قابل للفناء، كما أنه فى حالة حركة لا تتوقف. وهو يستمد هذا النشاط من فاعلية الأسباب النهائية المنبعثة من الروح المفردة أو من روح العالم. وكل حد أدنى يتضمن فى الوقت نفسه إمكانية تحوله إلى الحد الأقصى عن طريق جذب الحدود الدنيا الأخرى وضمها له. وهذا ينطبق على وحدة الوحدات التى تضم فى طياتها الحد الأدنى والحد الأقصى وسائر الخصائص التى تتحد فى كينونة واحدة أو فى مطلق واحد. هذا المطلق عبارة عن روح يدرك ذاته أو نفسه، عارفًا بكل ما يحتويه. ويحذرنا برونو من الخلط بين المعرفة القائمة على الحدس الرياضى والوجود الفيزيقى. والرأى عنده أن الذرة

المادية تحتل المركز الدائم لعمل الله المسئول عما نراه فى الطبيعة من تعقيد. ويذهب برونو إلى أننا نعرف المعلومات عن طريق الحواس ثم يقوم العقل بتصحيحها. وهو يرى أن الإنسان لا يستطيع قياس أى شىء بدون وجود الوحدة القياسية أو الحد الأدنى. ولكن العقل هو الذى يمكّننا من الوصول إلى مفهوم لهذه الوحدة القياسية. وهو يضيف أن لكل فرع من فروع المعرفة الوحدة القياسية الخاصة به.

ويؤكد برونو أن الحد الأدنى خالد سواء أكان روحًا أم ذرة مادية، الأمر الذى حدا ببعض المفسرين إلى الاعتقاد بأنه آمن بخلود الروح الفردية وأنه نبذ نظريته عن حلول الله فى الطبيعة التى دافع عنها فى كتابه «السبب والمبدأ». ولكن يبدو أن هذا التعبير عن رأيه فى وجود أرواح خالدة للأفراد لا يمثل حقيقة موقفه من هذا الموضوع، حيث إنه لا يمل من تكرار القول بوجود روح واحدة فى العالم تظهر نفسها فى أشكال متعددة. والبروفيسور ماك إنتاير أحد الدارسين الذين يذهبون إلى أن برونو خلص إلى الإيمان بخلود الروح الفرد. وهذا أيضًا ما ارتآه الباحث توكو الذى ما لبث أن نبذ هذا الرأى قائلاً إن برونو أقام فلسفته على أساس أن المادة تتكون من ذرات لا تحس ولا تشعر وغير قابلة للتجزئة، فى حين أن الروح التى لا تعرف التجزئة تبقى دومًا متوحدة على ذاتها فى الخصائص والمادة. غير أن توكو يتهمه بالتضارب والثنائية فى تطبيق معيارين متباينين على المادة والعقل. والجدير بالذكر، أن تقسيم برونو الكون إلى عنصرين متميزين هما المادة والروح لا ينبغى أن ينسينا توحدهما. فبرونو لا يفصل المادة عن الروح، حتى وإن قام بتقسيمهما. ويبدو أنه اعتبر الذرات نفوسًا نشطة تقوم أرواح الأفراد بتوجيهها. ويفسر البعض حديث برونو عن خلود أرواح الأفراد بأنه يرجع إلى رغبته فى توخى الحذر وتجنب الاصطدام بالتقاليد الدينية. ورغم هذا، فإنه يستخدم لغة فيثاغورث التصوفية التى راقت له. وقد كان على يقين من أن مركز التجربة الفردية ليس سوى صدى للتجربة الكونية بأسرها. كما أنه يقول: «إن الموت هو القفز إلى الحياة». فضلاً عن قوله: «إن الموت العنصرى الراهن ليست له أية علاقة بالأشكال التى لا تعد ولا تحصى التى تتخذها الحياة الدائمة. ولو كانت الروح تدرك هذا لما هابت الموت. والحكماء لا يخافون الموت، بل قد يرغبون فيه ويتقدمون نحوه لاحتضانه. إن جميع المواد سوف تدوم إلى الأبد وسوف تسكن اللانهائية. وهى من أجل تحقيق ذاتها تتجلى فى كافة الأشياء». ويعتقد بعض الدارسين أن الفيلسوف ليبنتز تأثر بفلسفة برونو، ولكن بعضهم الآخر ينكرون هذا.

وفى معرض الكتاب المنعقد فى فرانكفورت فى فصل الخريف قام ويتشيل وشريكه فيشر بنشر بقية القصيدة العظيمة تحت عنوان: «عن الوحدة القياسية والكم والشكل». فضلاً عن قيامهما بنشر ثمانية كتب عن الذى لا يمكن إحصاؤه أو قياسه أو رسمه فى هيئة أشكال. ويتضمن كتابه عن «الوحدة القياسية» أبياتًا من الشعر تكيل الثناء على الدوق هنرى جوليوس حاكم مقاطعة برونزويك، كما تتضمن مقارنة بين الذين يبذلون الجهد والعرق فى الحياة والأثرياء الكسالى المتراخين المتكالبين على اللذة.

وعلى الرغم من أن الاضطهاد والمعاناة تركا فى نفسه أسوأ الأثر، فإنه كتب يقول: «مهما يكن القدر القاسى الذى ينتظرنى، فقد بدأت الكفاح منذ طفولتى. ويشهد الله على أنى أقتفى أثر الحقيقة دون أن أنهزم. حتى الموت نفسه لا يخيفنى أو يثير فىَّ الفزع، كما أننى لا أجثو أمام العنف الذى يمارسه أى مخلوق ضدى». وقد ردد برونو فى أشعاره النغمة نفسها، فهو يتغنى بقوله: «لقد ناضلت كثيرًا؛ غير أن القدر يعطى النصر لمن يشاء. ومهما حدث لى ومهما كنت مهزومًا أم منتصرًا، فإن الأجيال القادمة لن تنكر أننى لم أخش الردى، وأننى كنت فى إخلاصى بلا منازع وأنى أفضل أن أموت ميتة الشجعان من أن أعيش عيشة الذل والانكسار».

وعلى الرغم من الإبداع الذى اتسم به كثير من شعر برونو، فإن لغته الشعرية واستخدامه النشاز للعروض منع الكثيرين من استساغة شعره. واللافت للنظر أكثر من غيره فى هذه الأشعار أنها تميزت باهتمامها بالجوانب الصوفية الغامضة وغير المنظورة فى الحياة. ولم يكن هذا الاهتمام مقصورًا على برونو وحده، فقد شاركه فيه كثير من شخصيات عصر النهضة فى أوروبا. وتنم هذه الأشعار عن تأثر صاحبها العميق بكورنيليوس أجريبا. ويقول برونو فى هذا الصدد إنه هنا يهتم بالوحى والتنزيل والإيمان والتنجيم، وإنه لا يُعنى بالمعرفة القائمة على إعمال العقل وعلى التجربة. وهو يغتنم الفرصة كى يهاجم الأفكار الجامدة المتزمتة التى تعكر صفو الهدوء الإنسانى كما تعكر صفو السلام خلال العصور والحقب. فضلاً عن أنها تطفئ نور العقل ولا تفيد فى تحسين الأخلاق. وتكسو هذه الأشعار نزعة تصوفية وفلسفية تنم عن تأثر صاحبها بعالم الرياضيات المتصوف المعروف فيثاغورث. وكذلك نرى أن برونو فى أشعاره يحدثنا عن لانهائية العوالم المنبثقة من مادة واحدة، وأن ما نراه من تنوع فى الكون وجميع المخلوقات يرجع إلى اتحاد الواحد بالمتعدد.

«عن اللامحدود»

ألف برونو هذا الكتاب العظيم الذى لا يقل فى عظمته عن كتابه «الأسباب والعناصر». ورغم ما فيه من دفاع عن الفلسفة المثالية، فإنه يسعى إلى مزجها وتوحيدها بالمفاهيم العلمية للكون.وهذا الكتاب شأن بعض كتبه الأخرى مثل «الحد الأدنى» يشتمل على شعر مكتوب باللغة اللاتينية، تذيله بعض الشروح النثرية. وترجع أهمية هذا الكتاب إلى أنه يتضمن آراء برونو فى شكلها النهائى.

يذهب المؤلف فى هذا الكتاب إلى أن الطبيعة لا تتوقف عن الكشف عن نفسها فى حركات لا تكرر نفسها. ويقوم بتصحيح الوهم عن طريق مقارنة مدركات إحدى الحواس بمدركات بقية الحواس. ويدل المجلد الذى ألفه برونو باسم Cena على أن معرفته بالرياضيات والفلك أقل كثيرًا فى مستواها عن مستوى العالم البولندى كوبرنيكوس . ونحن نراه فى كتاب «عن الضخامة» يصحح ما وقع فيه من أخطاء فلكية ورياضية. ويسوق برونو فصلاً كاملاً من أبحاث كوبرنيكوس ثم يتولى تصويبها، لدرجة أنه استطاع أن يخلص إلى نفس النتائج التى توصل إليها جاليليو، وفحواه أن المحور فى الحركة الدائرية يكون متوازيًا مع نفسه. وكذلك توصل برونو إلى أن الكواكب التى تدور حول الشمس تستمد حياتها مما تبعثه الشمس الواقعة فى مركز المجموعة من ضوء وحرارة، كما أن الكواكب (مثل الأرض) عبارة عن أجسام باردة ومعتمة. وبسبب بصيرته الثاقبة استطاع برونو أن يسبق كبلر وجاليليو ونيوتن فى القول إن الأرض ليست أكثر الكواكب ثقلاً فى الطبيعة، حيث إن الكواكب فى الفضاء تسبح بأمان بدافع

من طاقتها الداخلية. وليست هناك فى رأيه أية فوارق جوهرية بين أجرام السماء وكوكب الأرض كما كان أرسطو يظن، كما أنه لا توجد فروق جوهرية بين الشمس وكوكب الأرض. ويذكر برونو أن هناك كواكب خفية وغير منظورة تدور حول النجوم، كما أن هناك كواكب لم تكتشف حتى حينئذ تدور حول الشمس التى يصفها بأنها جسم صلب يحتوى على مادة سائلة محترقة خالقة بذلك غلافًا جويًا مضيئًا. لقد سبق لبرونو عام ١٥٨٤ أن قال إن الشمس جسم معدنى صلب؛ غير أنه الآن يقول إن ضوء الشمس وحرارتها ناجمان عن التغيرات الكيميائية التى تعترى الأجزاء السائلة فى هذا الجسم. ويرى برونو أن هذا الفوران أو الغليان الدائم داخل الشمس والراجع إلى التغيرات الكيميائية هو السبب فى دوران الشمس، وأيضًا ترجع لمعة الشمس والنجوم إلى سرعة دورانها. ولكن الكواكب تخلو من هذه الظاهرة، حيث إنها لا تبعث الضوء ولكنها تقوم بعكسه فقط.

أظهر برونو اهتمامًا بالغًا بالشهب، رافضًا تفسير الفلكيين القدامى منذ أرسطو بأنها أبخرة تحترق ببطء تضرم حركة النجوم فيها النار. وأكد أن الشهب جزء لا يتجزأ من النظام الكونى تنطبق عليه نفس قوانينه. وهو يرى أن هذه الشهب السابحة فى الفضاء تنبض بالحياة. غير أن فكرته عن المسافات الفاصلة بين النجوم والكواكب كانت خاطئة. فهو يرى أن المسافة بين الأرض والشمس لا تختلف كثيرًا عن المسافة بين الشمس وكل من المشترى وزحل. كما أنه اعتقد خاطئًا أن قدرة دوران هذين الكوكبين الأخيرين حول الشمس لا تزيد على عام واحد، وهى المدة التى يستغرقها دوران كوكب الأرض حول الشمس.

وطرأ على فكر برونو شىء من التغير. فقبل ذلك بسبعة أعوام نادى بخلود النجوم والكواكب، قائلاً إن بعض التغيرات تطرأ عليها. أما الآن فهو يقول إن الكون برمته هو الخالد، وإن العوالم فيه تضمحل وتتلاشى وتدخل أجزاؤها الفانية فى تكونات جديدة. وأيضًا هاجم برونو الخزعبلات المتصلة بالأديان، مثل تأليه الكاثوليك لبابا روما.

«ترتيب الصور والإشارات والأفكار»

ظهر هذا الكتاب ـ وهو آخر الكتب التى ألفها برونو ـ فى نفس معرض الربيع المقام فى فرانكفورت. وتدل قائمة الكتب الخاصة بهذا المعرض أن تاريخ نشر هذا الكتاب يرجع إلى عام ١٥٩٢، وقد صدَّر المؤلف كتابه بخطاب إهداء موجه إلى لورد إليج هنريتش هاينزل، أكثر الرجال سموًا وكرمًا. ويذكر المؤلف للنبيل هاينزل أنه يعتبر هذا الكتاب من أهم أعماله؛ لأنه يهدف فيه توضيح كيف أن الصور والإشارات والأفكار يمكن ترتيبها فى العقل من أجل إقامة مشروع عام لاكتشاف وتنظيم الحقائق وتثبيتها فى الذاكرة. ومعظم هذا المبحث مكتوب بالنثر؛ ولكن جانبًا منه مكتوب بالشعر. ورغم أن برونو فى هذا المبحث يتبنى الأفلاطونية الجديدة، فإنه يبتعد عنها هنا ويعتنق المذهب المثالى الألمانى. ويبدأ المبحث بالتعرف على الأفكار والأشياء والعقل والمادة والذاكرة والطبيعة والمعرفة والحقائق. فضلاً عن أنه يتضمن إيمانه بالحدس الصوفى. ويلاحظ الدارسون تورط برونو فى خطأ سبق لفيثاغورث أن ارتكبه، وهو إيمانه بأن الأرقام تمثل تركيبة الكون وتحظى بوجود موضوعى طالما أنها واضحة وضوح الشمس. وفى هذا المبحث عبر برونو أيضًا عن إدراكه للوحدة التى تربط بين جميع الفنون.

ولا يفوتنا أن نذكر مؤلفات برونو الأخيرة بدون الإشارة إلى «قائمة المصطلحات الميتافيزيقية لدراسة المنطق والفلسفة» المنشورة فى زيوريخ. فضلاً عن مبحث آخر بعنوان: «اقتراح من أجل الكينونة واكتشافها».

ويجدر بالذكر أن نكرر أن برونو فى هذا المبحث الأخير يؤكد أن الله موجود فى الأشياء والطبيعة، وهو مذهب الواحدية Pantheism.

وفى زيارته الثانية لفرانكفورت ألف برونو وسطَّر بخط يده مبحثه «تثبيت النوع»، ولكنه تركه دون أن ينتهى منه. وقد اكتشفت مخطوطته فى باريس فى القرن التاسع عشر وتحتفظ به الآن مكتبة موسكو. وتعالج هذه المخطوطة موضوع العلوم الأخلاقية من وجهة نظر موضوعية ومحايدة تمامًا. فهو يشرح الصنوف المختلفة من الحب والجاذبية الجنسية وعلاقة الحب بالكره بطريقة أشد ما تكون جراة ووضوحًا. ويستطرد برونو ليعبر عن اعتقاده بأن خوف الإنسان المروع من الجحيم أكثر بشاعة من الجحيم نفسه، وأن هذا الخوف وليد التخيلات ويمثل أغلالاً تكبل العقل البشرى.

عودة برونو إلى البندقية وبادوا

إن الاضطهاد الذى لقيه برونو فى نابولى وچينيف وباريس وألمانيا لم يفتّ فى عضده أو يبدد تفاؤله وثقته بأن الكنيسة الكاثوليكية سوف تقبل عودته إلى حظيرتها، كما أنه لم يزعزع إيمانه الراسخ بأن الحقيقة سوف تسطع فى نهاية الأمر. ومن ناحيته، أرسل النبيل الإيطالى موسينجو إليه أكثر من دعوة تلح عليه بالحضور، واعدة بتوفير الحماية له؛ ولعل شوقه إلى العودة إلى وطنه هو الذى حدا به إلى تلبية رغبة موسينجو؛ ولهذا قرر العودة المشئومة إلى البندقية فى خريف عام ١٥٩١. وأيضًا استجاب برونو إلى رجاء مضيفه بالعيش معه تحت سقف واحد فى قصره. ولم يكن برونو يتوقع أنه سيقع فى براثن إنسان غادر ولئيم. وأثارت عودته إلى إيطاليا دهشة الكثيرين من فرط جسارتها. والجدير بالذكر، أنه اصطحب معه تلميذه بيسلر الناسخ لمؤلفاته. وبعد عودته إلى البندقية فى باريس ١٥٩٢، قبل برونو أن يعيش فى قصر موسينجو الواقع فى أرض كامبو س. صامويل فى الجراند كانال.

وفى بادئ الأمر لم تكن هناك أمام برونو أية عقبات أو مشاكل، فقد دأب على التردد على المكتبات والتحدث إلى المترددين عليها من أهل العلم. واعترف ناشره الإيطالى كيوتو بأنه لم يسمعه يتفوه بأية هرطقات. وذاع أمر برونو فى البندقية فأحاطه الجميع بالتوقير والإجلال. ثم بدأ يزور المؤرخ الإيطالى الكريم المضياف أندريا موروسينى، حيث التقى بوجهاء الدولة المعنيين بالثقافة. كان موروسينى

كاثوليكيًا واسع الأفق. وعندما أدلى هذا المؤرخ بشهادته عند محاكمة برونو توخى الحذر والتحفظ، فقد قال: «على مدى بعض الشهور الماضية تم طرح عدد من الكتب الفلسفية فى مكتبات البندقية من تأليف جيوردانو برونو. وهو رجل اشتهر بتعدد جوانب علمه. وفهمت مما سمعته فى البندقية ومما قاله بائع الكتب جيو باسيتا (كيوتو).. أن هذا الرجل (برونو) موجود هنا وأننا قد نرغب فى استضافته فى منازلنا، حيث يمكن لبعض الوجهاء ورجال الدين مناقشته فى الأدب والفلسفة بوجه خاص. عندئذ طلبت دعوته إلى منزلى. وحضر إليه عدة مرات لمناقشة المعارف المتنوعة . غير أنى لم أتمكن قط من أن أستنتج من مداخلاته أنه يدين بأية آراء تناقض صحيح الدين. وفيما يتعلق بشخصى، كنت أعتبره على الدوام مؤمنًا بالكاثوليكية. ولو كنت أشك فى ذلك لحظة واحدة لما سمحت له بدخول عتبة بيتى. أما برونو فقال: « إن كثيرًا من علية القوم والمهتمين بالأدب اجتمعوا هناك، حيث دخلت فى مناقشات مع بعض أمناء المكتبات. ولكنى لم أتذكر منهم أى أحد لأنى لم أكن أعرفهم». وأكد برونو لمحققيه أنه فى فترة وجوده فى البندقية لم يقم قط بتعليم أية مذاهب مهرطقة؛ ولكنه أضاف أنه ناقش أمور الفلسفة مع كثير من الوجهاء.

وفى إيطاليا، سعى برونو جاهدًا إلى التقرب من الكنيسة الكاثوليكية وخطر له أن يعرض أمره على بابا روما الجديد أبوليتو ألدو براندينى (كليمنت الخامس)، الذى اشتهر باعتداله وتسامحه الذى تبخر أمام خطر الزحف البروتستانتى تحت ضغط الكاردينال س. سفرينو. وفى أثناء محاكمته عبر برونو مرارًا وتكرارًا عن رغبته فى العودة إلى الكنيسة بشرط إعفائه من حياة الرهبنة. وكتب الأب دومينيكو حول هذا الموضوع يقول: «فى شهر مايو بالذات، يوم عيد العنصرة المقدس (الذى نزل فيه الروح القُدُس على تلاميذ السيد المسيح على هيئة ألسنة لهب) عندما كنت خارجًا من كنيسة القديسين يوحنا وبولس، لاحظت رجلاً فى ثياب غير كهنوتية ينحنى أمامى. ولم أعرفه فى بادئ الأمر. ولكن عندما تحدث إلىَّ قائلاً (تعال معى إلى مكان منفرد) تذكرت أنه أحد الرهبان فى إحدى مناطق المملكة، وهو أديب يدعى الراهب جيوردانو النولانى. وانسحبت معه إلى مكان هادئ فى الكنيسة المشار إليها، حيث أخبرنى بالسبب الذى دعاه إلى مغادرة منطقته وسبب نزع الرداء الكهنوتى عنه نتيجة طرده من الكنيسة على يد الراهب دومينيكو فينتا. وأخبرنى أيضًا عن إقامته فى عدة ممالك وفى بلوط الملوك وإلقاء المحاضرات. ولكنه قال إنه عاش دومًا ككاثوليكى. وعندما

سألته عما يفعل فى البندقية وكيف يكسب قوته، أجاب بأن مدة إقامته فى البندقية قصيرة للغاية، وأنه يملك ما يكفيه من المال وأنه يرغب فى أن يعيش عيشة هادئة، وأنه بصدد تأليف كتاب يشغل باله وأن يقدم هذا الكتاب بواسطة شخصية كبيرة إلى قداسة البابا ويحصل على مغفرته. وعبر عن أمله فى أن يعيش فى روما وأن يكرس حياته للأدب، وربما لإلقاء بعض المحاضرات. وأضاف دومينيكو أن برونو دأب على التردد كثيرًا على كنيسة القديسين يوحنا وبولس فى البندقية، إلى جانب تردده على كنيسة سانت ستيفانو القريبة من مسكنه والتى أقيمت فى العصور الوسطى.

ويبدو أن برونو رأى بنفسه أن كل البلاد الأوروبية تضيق ذرعًا بأصالته الفكرية وبالأفكار الجديدة، فقد تعرض فيها للعنف والاضطهاد بدرجات متفاوتة. ودعاه هذا إلى الرغبة فى الالتجاء إلى حضن الكنيسة الكاثوليكية التى لم يخبُ حبه لها أبدًا. فضلاً عن أنه أراد العودة إلى موطنه الأصلى الذى استبد به الشوق إليه.

وذكر برونو أنه أسر برغبته فى العودة إلى الكنيسة لكل من تلميذه موسينجو والراهب دومينيكو. ويبدو أن نقاوة شخصية برونو جعلته يحسن الظن بكل من يظهر الود نحوه، حتى لو كان ودًا زائفًا يخفى الغدر فى طياته. ولعل تعصب موسينجو الدينى الأعمى هو الذى جعله يرمى شباكه لاصطياد ضحيته بإغرائه بمغادرة ألمانيا والعودة إلى إيطاليا كى يتمكن من تسليمه إلى جلاديه. ويحتمل أن تكون محاكم التفتيش هى التى حرضته على الوقيعة بالفيلسوف الساذج البرىء الذى يحسن الظن بالبشر. ولعب كاهن اعتراف موسينجو دورًا مهمًا بإقناع هذا النبيل الخسيس بالوقيعة ببرونو، فقد اعترف موسينجو لمحاكم التفتيش إن ضميره والأمر الذى أصدره بارليه كاهن الاعتراف اضطراه إلى فعل ما فعل. ولاشك أن عمل موسينجو كمساعد لمحاكم التفتيش ساعده كثيرًا فى الإيقاع بضحيته. ومن الجائز أن موسينجو تطلع إلى أن يتعلم السحر على يد برونو الذى خيب ظنه؛ لأن هذا الفيلسوف كان يكن الاحتقار الشديد للتعاويذ ولا يرى فيها أية جدوى رغم شدة ولعه بدراسة السحر. وفى بادئ الأمر سارت المحاكمة على غير هوى موسينجو ومحرضيه. ولكن برونو اعترف أمام قضاته أنه أسر إلى موسينجو وبعض القساوسة أنه ينبغى العودة إلى حضن الكنيسة الكاثوليكية الدافئ، وأن موسينجو وعد بمساعدته فى تحقيق رغبته.

قال برونو للقضاة الذين قاموا باستجوابه إن موسينجو اتهمه بالتقصير فى تعليمه، مؤكدًا أنه بذل كل ما فى وسعه لتعليمه. ثم استطرد برونو قائلاً، إنه قرر العودة إلى

فرانكفورت للإشراف على طبع مؤلفاته. واستأذن من مضيفه موسينجو للسفر إلى فرانكفورت، فاتهمه الرجل بأنه يرغب فى الذهاب إلى هناك لممارسة التدريس وأصر على استبقائه. واستطرد برونو قائلاً عن مضيفه: «فبدأ يشكو من أننى لم أعلمه كل ما وعدته به، ثم أخذ يتوعد ويهدد قائلاً إننى إذا لم أبق طواعية واختيارًا فإنه سوف يجد الوسيلة لإرغامى على ذلك. وفى الليلة التالية عندما رأى أننى مصمم على الرحيل وأننى انتهيت من ترتيب كل أمورى كما عملت الترتيبات الخاصة بنقل متعلقاتى إلى فرانكفورت، دخل علىَّ غرفة نومى بعد أن آويت إلى الفراش بزعم أنه يريد التحدث معى وتبعه خادمه بارتولمو برفقة خمسة أو ستة أشخاص آخرين أعتقد أنهم يعملون فى تسيير الجندولات إذا لم أكن مخطئًا، وأيقظونى من النوم واقتادونى إلى حجرة فوق سطح السراى وأغلقوها علىَّ بالضبة والمفتاح. وقال (موسينجو) لى إننى إذا بقيت وعلمته المصطلحات الخاصة بتذكر الكلمات وعلم الهندسة من البداية فسوف يطلق سراحى، وإذا لم أفعل هذا فسوف يكون لرفضى نتائج وخيمة. وأجبت بقولى إننى أعتقد دومًا أننى قمت بتعليمه بما فيه الكفاية وبأكثر مما اتفقنا عليه، وإننى لا أستحق منه هذه المعاملة. وتركنى هناك حتى اليوم التالى عندما دخل ضابط بصحبة الرجال الذين لا أعرفهم وأمرهم بأخذى إلى قبو تحت الأرض حيث تركونى حتى هبوط ظلام الليل، ثم جاء ضابط آخر بصحبته فرقته واقتادنى إلى المكتب المقدس. وفيما بعد صرح برونو قائلاً: «لم يكتف موسينجو بالتعبير عن رغبته فى تعلم كل ما أعرف، بل أيضًا بتعليمه ما ليس باستطاعتى أن أعلمه لأحد. وهددنى باستمرار فى شرفى وحياتى إذا امتنعت عن تعليمه كل ما أعرف».

ثم قام موسينجو بالاستيلاء على كل نقود برونو وملابسه ومخطوطاته وكتبه قبل أن يسلمه إلى محاكم التفتيش. وقام الضابط ماتيو أفاتا العامل تحت إمرة مجلس العشرة، بإلقاء القبض عليه ونقله إلى سجن محاكم التفتيش الواقع إلى الغرب من جسر التنهدات والمواجه لقصر الدوق فى البندقية. واختلطت الحقائق بالأكاذيب، إذ قال موسينجو فى أولى الشهادات التى أدلى بها: «قال (برونو) أثناء حديثه معى فى بيتى إنه ينحى باللائمة الشديدة على الكاثوليك لأنهم يعتقدون فى تحول خبز القربان إلى جسد المسيح، وأنه عدو للمناولة، وأن جميع الأديان لا ترضيه وأن المسيح إنسان تعس كان يتعين عليه أن يتوقع الشنق لما ارتكبه من شر وغواية للناس». ويستطرد موسينجو قائلاً إن برونو أنكر الثالوث، وقال إن الكون سرمدى وخالد وإن العوالم فيه بلا نهاية.

فضلاً عن قوله إن المسيح كان ساحرًا يأتى بالمعجزات الظاهرية وإن نفس الشىء ينطبق على الرسل، ثم أضاف أن المسيح لم يكن يرغب فى الموت وأنه أرجأ مكابدته للموت قدر استطاعته، والرأى عنده أن الخطايا لا تعاقب وأن الأرواح تتناسخ كما أنه ليس بمقدور العذراء مريم أن تلد، وأن المذهب الكاثوليكى ملىء بالتجديف على الله جل جلاله. وطالب برونو بتجريد الرهبان من النقود؛ واصفًا إياهم بأنهم مجرد حمير يؤمنون بالأفكار الحميرية. بل إنه اتهم القديس توماس الأكوينى وغيره من آباء الكنيسة بالجهل. ومضى موسينجو يقول، إن برونو ذكر أمامه أن عدوًا له وجه إليه ١٣٠ تهمة استطاع الإفلات منها جميعًا بأن ألقى عدوه فى نهر التبر وأغرقه. ثم استطرد قائلاً، إن شيطانًا يسكنه.

وفى شهادة أخرى أدلى بها موسينجو أمام محكمة التفتيش قال إن برونو أخبره أنه لا يخشى المحاكمة أو حتى تبليغه عنه، حيث إنه لا يملك الدليل على صحة دعواه ولا يمكنه الاستناد إلى شهادة أحد. ومضى برونو - على حد قول موسينجو - فى تحديه للكنيسة بأن قال إنها لن تستطيع إلحاق الأذى به.

مثول برونو أمام محكمة تفتيش البندقية

قبل الدخول فى تفاصيل محاكمة برونو أمام محكمة تفتيش البندقية، يجدر بنا أن نذكر أن كتاباته تشير بوضوح إلى أنه لم يكن غافلاً عن المصير الأسود الذى ينتظره، فهو يخاطب قضاته قائلاً: «لو كنت أيها السادة المرموقون أعمل بفلاحة الأرض وحرثها ورعى الغنم وزراعة البساتين أو حياكة الملابس، لما التفت إلى نشاطى أحد ولراقبنى عدد قليل من الناس، ولما قرعنى وأنحى على بالملامة سوى قلة ولاستطعت أن أرْضى الجميع. ولكن نظرًا لأنى أصور بالطبيعة وأسعى جاهدًا لرعاية الأرواح وأعشق تربية العقول وتغذيتها؛ فإن الجميع يراقبوننى ويهددوننى ويهاجموننى وينهشون جسدى ويلقون القبض علىَّ للفتك بى. والذى يفعل بى هذا ليس واحدًا أو فئة قليلة، بل الكثرة وربما كان الجميع».

بدأت محاكمة برونو فى البندقية يوم ٢٦ مايو ١٥٩٢ فى قصر البطريركية الواقع أمام سجن ريو دى بلازو. وكانت محكمة تفتيش البندقية تختلف عن محكمة تفتيش روما، فى أن الأولى كانت مسئولة أمام الحكومة وترسل أحد موظفى الدولة لحضور الجلسات وتبليغ الحكومة أولاً بأول بكل ما يحدث فى قاعة المحكمة. وكان يحضر

المحاكمات فى البندقية ثلاثة قضاة يصحبهم موظف الدولة، الذى كان له حق إيقاف إجراءات المحاكمة إذا رآها تحيد عن نص القانون.

ورغم ذلك، فإن محكمة البندقية لم تسمح لبرونو باستخدام محام للدفاع عنه، ولم تمنحه الوقت الكافى للاستعداد للدفاع عن نفسه، فضلاً عن أنها لم تسمح له بإقامة أى اتصال مع العالم الخارجى، كما أن المحكمة - تنفيذًا للمراسيم التى أصدرها البابا إنوسنت الرابع فى عام ١٢٥٠. أخفت اسم المدعى عنه واكتفت بإطلاعه على بنود الاتهام. وأيضًا أجريت المحاكمة فى سرية تامة، كما أن المشتركين فيها تعهدوا أمامها بالتزام الصمت وعدم إفشاء ما يدور فيها. أضف إلى ذلك أن قضاة برونو تميزوا بالحنكة والمراس والقدرة على استجواب المتهمين وانتزاع المعلومات التى يخفونها فى صدورهم.

تكونت هيئة محكمة البندقية من ثلاثة أشخاص، هم: البطريرك لورنشيو بريولى الذى كان فيما مضى يشغل وظيفة سفير البندقية فى باريس، والحبر الرسولى لودوفيكو تابرنا، والأب المبجل جيوفانى جابرييل سالوزو. ويضاف إلى ثلاثتهم ممثل دولة البندقية ألونسيو فوسكارى؛ وفى خلوة خاصة توفرت هيئة المحكمة خلال الأيام السابقة على المحاكمة على قراءة التقارير الخاصة التى سطرها المدعى جيوفانى موسينجو.

وفى التقرير الذى سطره موسينجو فى ٢٤ مايو ١٥٩٢ - أى قبل القبض على برونو بيوم واحد - برر هذا الرجل غدره ببرونو قائلاً، إنه فعل ذلك بدافع من ضميره وكاهن اعترافه على نحو ما ذكرنا.

ثم مضى يقول: «بما أنكم تفضلتم علىَّ فى صبر عظيم بالعفو عما ارتكبت من خطأ وتأخرى فى توجيه الاتهام، فأتوسل إليكم أن تعذرونى لهذا التأخير أمام هيئة القضاة الموقرة، حيث إننى كنت حسن النية لأنى لم يكن فى مقدورى أن أنتزع منه كل المعلومات دفعة واحدة، كما أنى لم أعرف شرور هذا الرجل على حقيقتها إلا بعد أن قمت بحبسه فى منزلى نحو شهرين. عندئذ رغبت فى التمكن منه وأن أتأكد بنفسى عن طريق معاملاتى معه أنه لن يهرب من منزلى من وراء ظهرى. فقد كنت أؤكد لنفسى دومًا أننى قادر على إخضاعه لملامة المكتب المقدس. وقد نجحت فى ذلك».

وبعد أن وجه موسينجو اتهاماته ضد برونو نرى محكمة تفتيش البندقية تسوق ضد ضحيتها ما لا يقل عن مائة وثلاثين تهمة. قال موسينجو إن الشيطان يلبسه، وإن

شهودًا أمثال الناشر جيوفانى باتستا (كيوتو) والناشر أندريا موروسينى على استعداد للشهادة على صحة هذا. وكما أسلفنا، قام موسينجو بالسطو على مخطوط سطره برونو إلى جانب سطوه على مقتنياته من الكتب التى ألفها فلاسفة آخرون. ويبدو أن موسينجو تعمد أن يذكر أن برونو حط من شأن القديس توماسى الأكوينى بسبب شيوع أفكاره اللاهوتية وتعلق الكنيسة الكاثوليكية بها.

ولعل أخطر اتهام وجهه موسينجو إليه هو ادعاؤه بأن برونو أراد الإطاحة بالكنيسة الكاثوليكية، وسعى إلى إقامة طائفة دينية جديدة (وهو ما نجح مارتن لوثر وكالفن فى فعله).

ويبدو أن محكمة التفتيش فى البندقية لم تكن تثق تمامًا فى صحة اتهامات موسينجو؛ مما حدا بها إلى تأجيل المحاكمة حتى ينتهى المدعى من كتابة مذكرة تتضمن ما يملكه من أدلة وبراهين .

خاتمة

وفى كتاب صدر عام ٢٠٠٢ بعنوان: «البابا والمهرطق» يقول لنا مؤلفه مايكل هوايت، إن جيوردانو برونو استدعى فى ٨ فبراير عام ١٦٠٠ فى يوم شتوى قارص البرودة؛ للمثول أمام المحقق العام فى محاكم التفتيش، الكاردينال سانتورو دى سانتا سفيرينا. ولم تمهل هذه المحاكمة الأخيرة ضحيتها سوى أحد عشر يومًا لقى بعدها مصيره المشئوم. ومثُل برونو أمام المحققين فى قاعة جمهور المصلين فى الفاتيكان. وكان حاضرًا فيها ثمانية كرادلة وسبعة معاونين وكتبة جلسوا على مقاعد وثيرة، وقد أحاطوا بالمتهم. وتدلت ثيابهم الكهنوتية المصنوعة من الحرير اللامع فى نعومة ورقة على مقاعدهم المصنوعة من القطيفة. وكان الكاردينال سفيرينا جالسًا على أريكة فخمة مرتفعة يتوسط الجالسين. وأسند الكاردينال أصابعه العظمية الطويلة المختلجة فى صبر نافد على ذراعى مقعده. وقد وضع هذا الرجل فى إحدى أصابعه خاتمًا لامعًا يعكس الضوء المنساب من أبواب القاعة العالية.

وبين الحاضرين برزت شخصيتان مهمتان، هما الكاردينال سفيرينا نفسه الذى كان الساعد الأيمن للبابا كليمنت الثامن، وهو رجل لم تفارقه المرارة بسبب إخفاقه فى اعتلاء كرسى البابوية. أما الرجل الآخر الذى يخشى جانبه والذى تمنى أن يرى كل الهراطقة والبروتستانت، بل سائر المنشقين على الكنيسة الكاثوليكية يحرقون، فهو الكاردينال روبرت بيلارمين . كان بيلارمين أستاذ اللاهوت يحظى بشغل وظيفة

المستشار البابوى فى شئون اللاهوت والعقيدة. وبعد انقضاء خمسة عشر عامًا على دفن برونو المحروق فى قبره، قام هذا الكاردينال بتحريض رجال الكنيسة على إلقاء القبض على جاليليو وتقديمه إلى المحاكمة. والجدير بالذكر، أن الكنيسة الكاثوليكية اعتبرت بيلارمين عام ١٩٣٠ واحدًا من القديسين.

وقف برونو صامتًا أمام قضاته الخمسة عشر، وقام الكاردينال سفيرينا بتلاوة التهم التى تدينه، والتى يبلغ عددها ثمانية اتهامات، منها قوله إن تحويل الخبز إلى جسد المسيح والخمر إلى دمه مجرد زيف وهراء وإنه يستحيل على العذراء أن تلد ولدًا. ثم قوله إننا نعيش فى عالم لا نهائى، وكذلك قوله بوجود عدد لا يحصى من الكواكب تعيش عليها مخلوقات مثلنا تعبد آلهتها الخاصة بها.

ومن جانبه، رفض برونو التعليق على هذه الاتهامات واكتفى بالقول إنه سوف يخاطب البابا شخصيًا. وتقدم برونو ببيان موجه إلى البابا كليمنت قام الكاردينال سفيرينا بفضه دون أن يسلمه إلى البابا.

وفى صبر نافد وادعاء للتقوى سأل الكاردينال سفيرينا ما إذا كان برونو على استعداد للرجوع عن هرطقته. ولم يحر برونو جوابًا، بل حملق فى الحائط وراء الكرادلة الجالسين وقد التزم الصمت، ومال سفيرينا على مقعده إلى الخلف وندت عنه آهة عميقة ووضع راحتيه على مساند أريكته الوثيرة. وحانت منه التفاتة سريعة إلى الكاردينال بيلارمين الجالس إلى يساره.

وران على القاعة صمت عميق دام لحظة، ثم مال سفيرينا ببطء إلى الأمام وقرأ بيانًا كان البابا كليمنت الثامن قد أعده، جاء فيه «أعلن وأحبذ أنه يجب النظر إلى هذه القضية باتخاذ الإجراءات المشددة (واتخاذ جميع الشكليات المناسبة)، كما أعلن النطق بالحكم بتسليم المدعو الراهب جيوردانو إلى المحكمة العلمانية».

وبعدئذ اقتيد برونو خارج القاعة لمواجهة المزيد من التعذيب.

وفى وقت لاحق من اليوم نفسه، وقف جيوردانو برونو كى يواجه قضاته للمرة الثانية. وفى هذه المرة استدعى برونو أمام لجنة علمانية يرأسها حاكم روما فى قاعة محكمة التفتيش الواقعة فى دير منيرفا. وبهذا تكون السلطة الدينية المتمثلة فى بابا روما قد سلمت المتهم إلى السلطة المدنية. ثم أصدر المكتب المقدس بيانًا إلى حاكم روما، جاء فيه:

«خذوا (المهرطق) لمحاسبته أمام سلطتكم القضائية وفقًا للحكم الذى تصدرونه عليه لتوقيع العقاب المناسب عليه، راجين منكم .. تخفيف قسوة حكمكم عليه فيما يتعلق بجسده لتجنب خطر موته أو إراقة دمه».

ورغم ما يبدو على هذا الخطاب من رحمة زائفة، فإنه كان فى واقع الأمر يعنى تسليم المتهم إلى الذراع العلمانى لحرقه حيًا.

أصدر حاكم روما الحكم على برونو الجاثى على ركبتيه أمام قضاته . وتقدم أسقف سيدونيا الذى تلقى مبلغ سبعة وعشرين سكودى نظير أداء مهمته بخطى إلى الأمام، كى ينزع عن ظهر برونو ثيابه الكنسية وعن جسده الشارة الكهنوتية. ونطق بإحراقه ثم إحراق مؤلفاته. وترددت أصداء كلمات الأسقف المشئومة فى أرجاء الحجرة. وعقب إصدار الحكم عليه بالحرق سأله حاكم روما ما إذا كان يرغب فى أن يقول شيئًا.

التزم برونو الصمت طويلاً وران السكون على الغرفة. وحملق القضاة ورجال الكنيسة فى المحكوم عليه الذى بدا عليه الانكسار. ورفع برونو رأسه وأجال بصره فى أرجاء الغرفة ثم قال بصوت جهورى: «ربما كان خوفكم من إصدار هذا الحكم أعظم من خوفى من قبوله». واقتيد السجين إلى زنزانة ضيقة معتمة مثل الليل المدلهم، وكبلوا قدميه فى حلقة مثبتة فى أرضية الزنزانة الحجرية.

ظل جيوردانو برونو أمدًا طويلاً يعتقد أنه يدين بالمذهب الكاثوليكى وأن آراءه لا تعتبر خروجًا على الكنيسة، كما أنه ظل يعتقد أن بإمكانه إقناع بابا روما بصحة أفكاره. كان ذلك أيام تجواله فى أرجاء أوروبا وممارسته التدريس بجامعاتها. وفى أوروبا تعرف على المذهب اللوثرى والمذهب البروتستانتى المتطرف المعروف بالمذهب الكالفينى. وأيضًا توفر برونو على دراسة كتابات الأقدمين وتأثر بها. وراقت له أفكار كوبرنيكوس الفلكية، وذهب إلى ما هو أبعد مما ذهب كوبرنيكوس. ذهب إلى لانهائية الكون وعدم وجود إله شخصى، أى إله تربطه صلات شخصية بالإنسان، وهو الأمر الذى أصبح بعد مرور نصف قرن حجر الزاوية فى فلسفة سبينوزا القائلة بحلول الله فى الكون والطبيعة. وكما أسلفنا، أغضب برونو رؤساء الدير منه فى فترة انخراطه فى حياة الرهبنة بسبب دأبه على مناقشة زملائه الرهبان ودحضه الكثير من فلسفة أرسطو. فضلاً عن تشككه فى الثالوث . ولم يكتف برونو بذلك، بل ألف قصة هجائية سبق أن أشرنا إليها بعنوان: «فلك نوح»، سخر فيها من المؤمنين الأغبياء الذين

يقبلون الديانة المسيحية على عواهنها. وأيضًا راقت له أفكار المهرطق أريوس المنكر للاهوت المسيح. وزاد من كراهية زملائه الرهبان له أنه لم يتورع عن قراءة الكتب المحظورة التى تعالج السحر والتصوف والظواهر الغامضة، وتلك التى تعالج تحويل المعادن الرخيصة إلى ذهب. وقد وشى به أحد الرهبان وضبط وهو يقرأ أعمال للمصلح الدينى إيرازموس المحظورة، الأمر الذى جعل رئيس الدير أمبروجيو باسك يبلغ الكاهن المحلى عنه وعن مروقه، فقام هذا الكاهن بطرده من حظيرة الكنيسة. فجال بعدها فى ربوع أوروبا طريدًا شريدًا بلا مأوى أو مستقر؛ لأنه حاول عقلنة الدين المسيحى إلى جانب دراسته للتصوف والسحر.

ونذكر فى هذا الصدد أن مدينة فلورنسا الإيطالية كانت قبل ظهور برونو منارة للعلم، حيث اهتمت بعض العائلات الحاكمة والأرستقراطية - وعلى رأسها عائلة مديسيس الشهيرة - بالتنقيب عن المخطوطات العربية واقتنائها. وأيضًا نقب الباحثون والعلماء الطليان، أمثال جيوفانى بوكاشيو وجولوشيو سالوتاتى وجيوفانى كونفرسينى، عن كنوز النصوص اللاتينية القديمة مثل مؤلفات تاسيتوس التاريخية ومؤلفات ماتيليوس الفلكية وأعمال شيشيرون. وتجمعت كل هذه المقتنيات النفيسة فى فلورنسا التى شاهدت زخمًا حضاريًا وثقافيًا وعلميًا ليس له نظير. وبحلول عقد العشرينيات من القرن الخامس عشر - أى قبل ظهور برونو - توفر المترجمون على ترجمة هذه المقتنيات الثمينة إلى اللغة الإيطالية. وهكذا استطاع الدارسون فى عصر النهضة الإيطالية الوقوف على أفكار الأقدمين، أمثال أرسطو وأفلاطون وفيثاغورث وإقليدس وأبقراط وجالين التى بشرت بانبلاج فجر جديد فى العلوم والطب والفلسفة. فضلاً عن أن جوتنبرج كان قد استحدث الطباعة قبل مولد برونو بقرن كامل. ثم انتقلت إلى روما عام ١٤٨٠. وبنهاية القرن الخامس عشر وصل عدد الطابعين فى مدينة البندقية وحدها إلى مائة مطبعجى. وحتى نتبين الطفرة الكبيرة التى حدثت فى عالم الكتابة فى عصر النهضة نقول، إن عدد المخطوطات الموجودة فى أوروبا قبل الطباعة كان أقل بقليل من الثلاثين ألف كتاب، فى حين بلغ عدد الكتب المطبوعة فى أواخر القرن السادس عشر - أى أثناء حياة برونو - ما يقرب من خمسين مليون كتاب.

كتب وأبحاث أخرى للمؤلف

١ . كتب باللغة العربية

١ ـ برتراند راسل الإنسان، الدار القومية، القاهرة ١٩٦١.

٢ ـ برتراند راسل الإنسان، الدار القومية، القاهرة ١٩٦٦.

٣ ـ دراسات تمهيدية فى الرواية الإنجليزية المعاصرة، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٦.

٤ ـ توفيق الحكيم الذى لا نعرفه، مطبعة وهدان، ١٩٧٤.

٥ ـ اتجاهات سياسية فى المسرح قبل ثورة ١٩١٩، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٩.

٦ ـ برتراند راسل، تأليف آلان وود (ترجمة)، الأندلس، بيروت ١٩٨١.

٧ ـ س. ب. سنو والثورة العلمية، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨١.

٨ ـ موسوعة المسرح المصرى الببليوجرافية (١٩٠٠ ـ ١٩٣٠) ، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٢.

٩ ـ موقف ماركس وآنجلز من الآداب العالمية، مكتبة الأنجلو، القاهرة ١٩٨٤.

١٠ ـ شكسبير فى مصر، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٦.

١١ ـ ماذا قالوا عن أهل الكهف، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٦.

١٢ ـ جورج أورويل (حياته وأدبه)، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٧.

١٣ ـ الأدب الروسى قبل الثورة البلشفية وبعدها، الألف كتاب الثانى، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٩.

١٤ ـ وول سوينكا (ترجمة)، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٩.

١٥ ـ أدباء روس منشقون فى عهد جوزيف ستالين، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩١.

١٦ ـ الأدب الروسى والبريسترويكا، دار الهلال، القاهرة ١٩٩١.

١٧ ـ الأدب والجنس، دار أخبار اليوم، القاهرة ١٩٩٣.

١٨ ـ الثالوث المحرم، دار الهلال، القاهرة ١٩٩٤.

١٩ ـ الشذوذ والإبداع، دار الهلال، القاهرة ١٩٩٥.

٢٠ ـ دراسات فى الأدبين الإنجليزى والأمريكى، كلية الألسن ـ جامعة عين شمس، ١٩٩٥.

٢١ ـ من ستالين إلى جورياتشوف، مكتبة الأنجلو، القاهرة ١٩٩٦.

٢٢ ـ الإلحاد فى الغرب، سينا للنشر ومؤسسة الانتشار العربى، القاهرة وبيروت ١٩٩٧.

٢٣ ـ الهرطقة فى الغرب، سينا للنشر ومؤسسة الانتشار العربى، القاهرة وبيروت ١٩٩٧.

٢٤ ـ العلم والدين، تأليف برتراند راسل (ترجمة)، دار الهلال ١٩٩٧.

٢٥ ـ الرجل الذى مات، تأليف د. ه. لورانس (ترجمة)، دار الهلال.

٢٦ ـ ملحدون محدثون ومعاصرون، سينا للنشر ومؤسسة الانتشار العربى ١٩٩٨.

٢٧ ـ رباعيات الشذوذ والإبداع، سينا للنشر ومؤسسة الانتشار العربى ١٩٩٨.

٢٨ ـ اليهود والأدب الأمريكى المعاصر، دار الهلال ١٩٩٨.

٢٩ ـ موسوعة الرقابة والأعمال المصادرة فى العالم، مركز الدراسات والمعلومات القانونية لحقوق الإنسان، القاهرة ١٩٩٨.

٣٠ ـ فى مدح الكسل ومقالات أخرى، تأليف برتراند راسل (ترجمة)، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ١٩٩٨.

٣١ ـ سيرة حياة برتراند راسل، تأليف آلان وود (ترجمة) ، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ١٩٩٨.

٣٢ ـ اليهود والأدب الأمريكى المعاصر، دار الهلال، نوفمبر ١٩٩٨.

٣٣ ـ صورة اليهودى فى الأدب الانجليزى، دار الهلال، مارس ١٩٩٩.

٣٤ ـ الهولوكست بين الإنكار والتأكيد، دار الهلال، ديسمبر ٢٠٠٠.

٣٥ ـ اليهود فى الأدب الأمريكى فى أربعة قرون، مكتبة الأنجلو المصرية ٢٠٠١.

٣٦ ـ الهولوكست فى الأدب الأمريكى، مكتبة الأنجلو المصرية ٢٠٠١.

٣٧ ـ الهولوكست فى الأدب الفرنسى، دار نهضة الشرق، يناير ٢٠٠٢.

٣٨ ـ اليهود فى الأدب الروسى، دار نهضة الشرق، يناير ٢٠٠٢.

٣٩ ـ محاكم التفتيش، دار الهلال ٢٠٠٢.

٤٠ ـ محاكم التفتيش فى إسبانيا، مركز الدراسات والمعلومات القانونية لحقوق الإنسان، القاهرة ٢٠٠٢.

٤١ ـ محاكم التفتيش فى إيطاليا، دار الهلال، ٢٠٠٣.

٤٢ ـ أبرز ضحايا محاكم التفتيش (الهيئة العامة للكتاب).

٤٣ ـ محاكم التفتيش فى فرنسا (تحت الطبع).

٤٤ ـ ألبرت أينشتاين: سيرة حياته. (تحت الطبع).

٤٥ ـ ترجمة إنجليزية لكتاب «شكسبير فى مصر» ـ مكتبة الإسكندرية (٢٠٠٣).

٢ ـ مقال باللغة العربية:

نقد رواية العنقاء، تأليف لويس عوض، فبراير ١٩٧٠.

٣ ـ كتب باللغة الإنجليزية:

1- Naguib Mahfouz. **The Beginning and the End** (Translation), The American Univ. in Cairo, 1975.

2- George Orwell as an Ambivalevt Writer, National Bookshop, Cairo, 1978.

3- **Animal Farm**, National Bookshop, Cairo, 1978.

4- **Nineteen Eighty Four**, National Bookshop, Cairo, 1978.

5- **Hardy's Tragic and Ironic Vision in Tess**, National Bookshop, Cairo, 1978.

6- **Shakespear in Egypt**, Rapack, Cairo, 1980.
7- **English Literary Criticism**, Univ. Book, Tanta, 1985.
8- **Macbeth**, Anglo - Egyptian, Cairo, 1989.
9- **The Mayor of Casterbridge**, Anglo - Egyptian, Cairo.
10- **Sons and Lovers,** Anglo - Egyptian, Cairo, 1989.
11- **Joseph Andrews**, Anglo - Egyptian, Cairo, 1989.
12- **King Lear,** Anglo - Egyptian, Cairo, 1989.
13- **Merchant of Venice**, Anglo - Egyptian, Cairo, 1989.
14- **Jane Eyre**, Anglo - Egyptian, Cairo, 1989.
15- **A Passage to India**, Anglo - Egyptian, Cairo, 1994.
16- **Robinson Crusoe**, Anglo - Egyptian, Cairo, 1994.
17- **Animal Farm**, Anglo - Egyptian, Cairo, 1995.
18- Forthcoming: **Egypt in the Modern British Novel**: A Collection of Articles on Newby, Ghali, Enright, Forster, Liddell and Olivia Manning, Published in Al - Ahram Weekly in the following issues, 4 July, 5 September, 10, 24 October (1991) and 23, 30 January, 1, 23 April (1992).

٤ . مقالات باللغة الإنجليزية:

1- John Wain's "**Youg Visitors**", Faculty of Alsun Journal, 1975.
2- "**King Lear as a Religious Play**", Faculty of Alsun Journal, 1976.
3- "**Orwell as a Literary Critic**", Faculty of Alsun Journal, 1976.
4- "**The Development of Liberal Culture in Modern Egypt**", a series of artcles published in the Egyptian Gazette in the following issues, 23. 30 March, 6. 13. 20. 27. 28 April, 4. 11 May, 1983.

صدر من هذه السلسلة

أولاً: الموسوعات والمعاجم

ليونارد كوتريل، الموسوعة الأثرية العالمية

ويليام بيتر، معجم التكنولوجيا الحيوية

ج.كارفيل، تبسيط المفاهيم الهندسية

ب. كوملان، الأساطير الإغريقية والرومانية

و. د. هاملتون وآخرون، المعجم الجيولوجي المصور في المعادن والصخور والحفريات

حسام الدين زكريا، المعجم الشامل للموسيقى العالمية (ج١)

خيرية البشلاوى،معجم المصطلحات السينمائية

دونالد نيكول، معجم التراجم البيزنطية

ثانياً: الدراسات الاستراتيجية وقضايا العصر

د.محمد نعمان جلال، حركة عدم الانحياز في عالم متغير

إريك موريس؛ آلان هو، الإرهاب

ممدوح عطية، البرنامج النووى الإسرائيلى

د. لينوار تشامبرز رايت، سياسة الولايات المتحدة الأمريكية إزاء مصر

إزرا .ف. فوجل، المعجزة اليابانية

د. السيد نصر السيد، إطلالات على الزمن الآتى

بول هاريسون، العالم الثالث غداً

مجموعة من العلماء، مبادرة الدفاع الاستراتيجي: حرب الفضاء

و. مونتجمرى وات، الإسلام والمسيحية فى العالم المعاصر

بادى أونيمود، أفريقيا الطريق الآخر

فانس بكارد ، إنهم يصنعون البشر (٢ ج)

مارتن فان كريفلد،حرب المستقبل

ألفين توفلر ، تحول السلطة (٢ج)

ممدوح حامد عطية ، إنهم يقتلون البيئة

د.السيد أمين شلبي، جورج كينان

يوسف شرارة ، مشكلات القرن الحادى والعشرين والعلاقات الدولية

د. السيد عليوة، إدارة الصراعات الدولية

د. السيد عليوة، صنع القرار السياسى

جرج كاشمان، لماذا تنشب الحروب(٢ج)

إيمانويل هيمان، الأصولية اليهودية

أنجيلو كودفيللا، المخابرات وفن الحكم

آلان أنترمان، اليهود (عقائدهم الدينية وعباداتهم)

ثالثاً: العلوم والتكنولوجيا

ميكائيل آلبى، الانقراض الكبير

فيرنر هيزنبرج، الجزء والكل: محاورات في مضمار الفيزياء الذرية

فريد هويل، البذور الكونية

ويليام بينز، الهندسة الوراثية للجميع

د. جوهان دورشنر، الحياة فى الكون كيف نشأت وأين توجد

إسحق عظيموف، الشموس المتفجرة (أسرار السوبرنوفا)

روبرت لافور، البرمجة بلغة ألسى باستخدام تيربوسى (٢ج)

إدوارد إيه فايجينباوم، الجيل الخامس للحاسوب

د. محمود سرى طه، الكمبيوتر فى مجالات الحياة
د. مصطفى عنانى، الميكروكمبيوتر
ى. رادو نسكاياى ، الإلكترونيات والحياة الحديثة
جلال عبد الفتاح، الكون ذلك المجهول
إيفرى شاتزمان، كوننا المتمدد
فرد س. هيس، تبسيط الكيمياء
كاتى ثير، تربية الدواجن
د.محمد زينهم، تكنولوجيا فن الزجاج
لارى جونيك ومارك هوبليس، الوراثة والهندسة الوراثية بالكاريكاتير
جينا كولاتا، الطريق إلى دوللى
دور كاس ماكلينتوك، صور أفريقية: نظرة على حيوانات أفريقيا
إسحق عظيموف، أفكار العلم العظيمة
د.مصطفى محمود سليمان، الزلازل
بول دافيز، الدقائق الثلاث الأخيرة
ويليام هـ.. ماثيوز ، ما هى الجيولوجيا؟
إسحق عظيموف، العلم وآفاق المستقبل
ب. س. ديفيز، المفهوم الحديث للمكان والزمان
د. محمود سرى طه، الاتجاهات المعاصرة فى عالم الطاقة
بانش هوفمان، آينشتين
زافيلسكى ف. س.، الزمن وقياسه
ر. ج. فوربس، تاريخ العلم والتكنولوجيا (ج٢)
د.فاضل أحمد الطائى، أعلام العرب فى الكيمياء
رولاند جاكسون، الكيمياء فى خدمة الإنسان
إبراهيم القرضاوى، أجهزة تكييف الهواء
ديفيد ألدرتون، تربية أسماك الزينة
أندريه سكوت، جوهر الطبيعة
إيجور إكيموشكين، الإيثولوجى
بارى باركر، السفر فى الزمان الكونى
ديمترى ترايفونوف، ظلال الكيمياء
بول ديفز، جونز جريبين، أسطورة المادة
جيفرى ماوسايف ماسون، حين تبكى الأفيال
ليونارد أ. كول، السلاح الحادى عشر
و. جراهام رينشاردز. أسرار الكيمياء
د. زين العابدين متولى، وبالنجم هم يهتدون

رابعاً: الاقتصاد

ديفيد وليام ماكدوال، مجموعات النقود (صيانتها، تصنيفها، عرضها)
د. نورمان كلارك، الاقتصاد السياسى للعلم والتكنولوجيا
سامى عبد المعطى، التخطيط السياحى فى مصر
جابر الجزار، ماستريخت والاقتصاد المصرى
ولت ويتمان روستو، حوار حول التنمية الاقتصادية
فيكتور مورجان، تاريخ النقود
د. تشارلز سى مانز، إدارة الأعمال بلا مديرين

خامساً: مصر عبر العصور

محرم كمال، الحكم والأمثال والنصائح عند المصريين القدماء
فرانسوا ديماس،آلهة مصر
سيريل ألدريد، إخناتون
موريس بيراير، صناع الخلود

بكـــنت أ. كتشن، رمسيس الثانى: فرعون المجد والانتصار

ألن شورتر، الحياة اليومية فى مصر القديمة

ونفرد هولمز، كانت ملكة على مصر

جاك كرابس جونيور، كتابة التاريخ فى مصر

نفتالى لويس، مصر الرومانية

عبده مباشر، البحرية المصرية من محمد على للسادات (١٨٠٥ ـــ ١٩٧٣)

د. السيد طه أبو سديرة، الحرف والصناعات فى مصر الإسلامية

جابرييل باير، تاريخ ملكية الأراضى فى مصر الحديثة

عاصم محمد رزق، مراكز الصناعة فى مصر الإسلامية

ت. ج. هـــ. جيمز، كنوز الفراعنة

حسن كمال، الطب المصرى القديم

أ. أ. س. إدواردز، أهرام مصر

سومرز كلارك، الآثار القبطية فى وادى النيل

كريستيان ديروش نوبلكور، المرأة الفرعونية

بيل شول وأدبنيت، القوة النفسية للأهرام

جيمس هنرى برستد، تاريخ مصر

د. بيارد دودج، الأزهر فى ألف عام

أ. سبنسر، الموتى وعالمهم فى مصر القديمة

ألفريد ج. بتلر، الكنائس القبطية القديمة فى مصر (ج٢)

روز أليندم، الطفل المصرى القديم

ج. و. مكفرسون، الموالد فى مصر

جون لويس بوركهارت، العادات والتقاليد المصرية من الأمثال الشعبية

سوزان راتييه، حتشبسوت

مرجريت مرى، مصر ومجدها الغابر

أولج فولكف، القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة

د. محمد أنور شكرى، الفن المصرى القديم

ت.ج. جيمز، الحياة أيام الفراعنة

إيفان كونج، السحر والسحرة عند الفراعنة

تشارلز نيمس، طيبة (آثار الأقصر)

رندل كلارك، الرمز والأسطورة فى مصر القديمة

ديمترى ميكس، الحياة اليومية للآلهة الفرعونية

محمد عبد الحميد بسيونى، بانوراما فرعونية

حمدى عثمان، هؤلاء حكموا مصر

جوزيف دلى، العمارة العربية فى مصر

ميكل ونتر، المجتمع المصرى تحت الحكم العثمانى

بربارة واترسون، أقباط مصر

إيريك هورنونج، فكرة فى صورة

بيير جرانديه، رمسيس الثالث

محسن لطفى السيد، أساطير معبد إدفو

سادساً: الكلاسيكيات

جاليليو جاليليه، حوار حول النظامين الرئيسين للكون (٣ج)

وليم مارسدن، رحلات ماركو بولو (٣ج)

أبو القاسم الفردوسى، الشاهنامة (٢ج)

إدوارد جيبون، اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها (٣ج)

ناصر خسرو علوى، سفر نامة

فيليب عطية، ترانيم زرادشت

جورج جاموف، بداية بلا نهاية

محمد كرد على، بين المدنية العربية والأوربية

سابعاً: الفن التشكيلى والموسيقى

عزيز الشوان، الموسيقى تعبير نغمى ومنطق

ألويز جرايتر، موتسارت

شوكت الربيعى، الفن التشكيلى المعاصر فى الوطن العربي

ليوناردو دافنشي، نظرية التصوير

د.غبريال وهبه، أثر الكوميديا الإلهية لدانتى فى الفن التشكيلى

روبين جورج كولنجوود، مبادئ الفن

مارتن جك، يوهان سباستيان باخ

ميخائيل ستيجمان، فيفالدى

هيربرت ريد، التربية عن طريق الفن

أدامز فيليب، دليل تنظيم المتاحف

حسام الدين زكريا، أنطون بروكنر

جيمس جينز، العلم والموسيقى

هوجولا يختنتريت، الموسيقى والحضارة

محمد كمال إسماعيل، التحليل والتوزيع الأوركسترالى

د.صالح رضا، ملامح وقضايا فى الفن التشكيلى المعاصر

إدموندو سولمى، ليوناردو

سيونايد ميرى روبرتسون، الأشغال الفنية والثقافة المعاصرة

ثامناً: حضارات عالمية

جاكوب برونوفسكى، التطور الحضارى للإنسان

س. م. بورا، التجربة اليونانية

جوستاف جرونيباوم، حضارة الإسلام

أ. د. جرنى، الحيثيون

ل. ديلابورت، بلاد ما بين النهرين

ج. كونتنو، الحضارة الفينيقية

آدم متز، الحضارة الإسلامية (٢ج)

جوزيف نيدهام، تاريخ العلم والحضارة فى الصين

ستيفن رانسيمان، الحضارة البيزنطية

سبتينو موسكاتى، الحضارات السامية

تاسعاً: التاريخ

جوزيف داهموس، سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى

هنرى بيرين، تاريخ أوربا فى العصور الوسطى

أرنولد توينبى، الفكر التاريخى عند الإغريق

بول كولز، العثمانيون فى أوربا

جوناثان ريلى سميث، الحملة الصليبية الأولى وفكرة الحروب الصليبية

د. بركات أحمد، محمد واليهود

ستيفن أوزمنت، التاريخ من شتى جوانبه (٣ج)

و. بارتولد، تاريخ الترك فى آسيا الوسطى

فلاديمير تيسمانيانو، تاريخ أوربا الشرقية

د.ألبرت حورانى، تاريخ الشعوب العربية (٢ج)

نويل مالكوم، البوسنة

جارى. ب . ناش، الحمر والبيض والسود

أحمد فريد رفاعى، عصر المأمون (٢ج)

آرثر كيستلر، القبيلة الثالثة عشرة ويهود اليوم

ناجاى متشيو، الثورة الإصلاحية فى اليابان

محمد فؤاد كوبريلى، قيام الدولة العثمانية

د. إيرار كريم الله، من هــم التتار؟

ستيفن رانسيمان، الحملات الصليبية

آلبان ويدجرى، التاريخ وكيف يفسرونه (٢ج)

جوسيبى دى لونا، موسولينى

جوردون تشيلد، تقدم الإنسانية

هـــ. ج. ولز، معالم تاريخ الإنسانية (٤ج)

هـــ . سانت موس، ميلاد العصور الوسطى

يوهان هويزنجا، اضمحلال العصور الوسطى
هـ . ج. ويلز، موجز تاريخ العالم
لورد كرومر، الثورة العرابية
و. مونتجمرى وات، محمد فى مكة

عاشراً: الجغرافيا والرحلات

ت.و. فريمان، الجغرافيا فى مائة عام
ليستردیل رای، الأرض الغامضة
رحلة جوزيف بتس (الحاج يوسف)
إميليا إدواردز، رحلة الألف ميل
رحلات فارتيما (الحاج يونس المصرى)
رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز (٣ج)
رحلة عبد اللطيف البغدادى فى مصر
رحلة الأمير رودلف إلى الشرق (٣ج)
يوميات رحلة فاسكو داجاما
س . هوارد، أشهر الرحلات إلى غرب أفريقيا
إريك أكسيلون، أشهر الرحلات فى جنوب أفريقيا
وليم مارسدن، رحلات ماركو بولو (٣ج)

حادى عشر: الفلسفة وعلم النفس

جون بورر، الفلسفة وقضايا العصر(٣ج)
سوندراى، الفلسفة الجوهرية
جون لويس، الإنسان ذلك الكائن الفريد
سدنى هوك، التراث الغامض: ماركس والماركسيون
إدوارد دو بونو، التفكير المتجدد
رونالد دافيد لانج، الحكمة والجنون والحماقة
د.توماس أ. هاريس، التوافق النفسي: تحليل المعاملات الإنسانية
د. أنور عبد الملك، الشارع المصرى والفكر
نيكولاس ماير، شارلوك هولمز يقابل فرويد
أنطونى دى كرسبنى، أعلام الفلسفة المعاصرة
جين ورويرت هاندلى، كيف تتخلصين من القلق؟
هـ ج. كريل، الفكر الصينى
د. السيد نصر السيد، الحقيقة الرمادية
برتراند راصل، السلطة والفرد
مارجريت روز، ما بعد الحداثة
كارل بوبر، بحثا عن عالم أفضل
ريتشارد شاخت، رواد الفلسفة الحديثة
جوزيف داهموس، سبعة مؤرخين فى العصور الوسطى
د. روجر ستروجان، هل نستطيع تعليم الأخلاق للأطفال؟
إريك برن، الطب النفسى والتحليل النفسى
بيرتون بورتر، الحياة الكريمة (٢ج)
فرانكلين ل. باومر، الفكر الأوروبى الحديث (٤ج)
هنرى برجسون، الضحك
أرنست كاسيرر، فى المعرفة التاريخية
و. مونتجمرى وات، القضاء والقدر
إدوارد دو بونو، التفكير العملى

ثانى عشر: العلوم الاجتماعية

د.محيى الدين أحمد حسين، التنشئة الأسرية والأبناء الصغار
م. و ثرنج، ضمير المهندس
رايموند وليامز، الثقافة والمجتمع
روى روبرتسون، الهيروين والإيدز
بيتر لورى، المخدرات حقائق نفسية
د.ليو بوسكاليا، الحـب

برنسلاو مالينوفسكي، السحر والعلم والدين
بيتر ر. داى، الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعي
بول جيرهارت، تعليم المعوقين
أرنولد جزل، الطفل من الخامسة إلى العاشرة
رونالد د. سميسون، العلم والطلاب والمدارس

ثالث عشر: المسرح

لويس فارجاس ، المرشد إلى فن المسرح
برونو ياشينسكى ، حفلة مانيكان
جلال العشرى ، فكرة المسرح
جان بول سارتر ؛ جورج برناردشو؛ جان أنوى مختارات من المسرح العالمى
د.عبد المعطى شعراوى ، المسرح المصرى المعاصر: أصله وبدايته
توماس ليبهارت، فن المايم والبانتومايم
زيجمونت هبنر، جماليات فن الإخراج
أوجين يونسكو، الأعمال الكاملة (٢ج)
آلان ماكدونالد، مسرح الشارع
نك كاى، ما بعد الحداثية والفنون الأدائية
بيتر بروك، التفسير والتفكيك والإيديولوجية
أندريه فيلبيه، الممثل الكوميدى
لى ستراسبرج، تدريب الممثل
جلال جميل محمد، مفهوم الضوء والظلام فى العرض المسرحى

رابع عشر: الطب والصحة

بوريس فيدوروفيتش سيرجيف، وظائف الأعضاء من الألف إلى الياء
د.جون شندلر، كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى السنة
د.ناعوم بيتروفيتش، النحل والطب
م. هـ. كنج، التغذية فى البلدان النامية

خامس عشر: الآداب واللغة

برتراند رسل، أحلام الأعلام وقصص أخرى
ألدس هكسلى، نقطة مقابل نقطة
جول ويست، الرواية الحديثة : الإنجليزية والفرنسية
أنور المعداوى،على محمود طه: الشاعر والإنسان
جوزيف كونراد، مختارات من الأدب القصصى
تاجور شين ين بنج وآخرون، مختارات من الآداب الآسيوية
محمود قاسم، الأدب العربى المكتوب بالفرنسية
جابرييل جارسيا ماركيز، الجنرال فى متاهة
سوريال عبد الملك، حديث النهر
د.رمسيس عوض، الأدب الروسى قبل الثورة البلشفية وبعدها
مختارات من الأدب اليابانى: الشعر، الدراما، الحكاية، القصة القصيرة
ديفيد بشبندر، نظرية الأدب المعاصر
نادين جورديمر وآخرون، سقوط المطر وقصص أخرى
رالف ئى ماتلو، تولستوى
والتر آلن، الرواية الإنجليزية
هادى نعمان الهيتى، أدب الأطفال
مالكوم برادبرى، الرواية اليوم
لوريتو تود، مدخل إلى علم اللغة
د. جابرييل جارسيا ماركيز، سيمون بوليفار
ديلاسى أوليرى، الفكر العربى ومكانه فى التاريخ
د. على عبد الرءوف اليمبى، مختارات من الشعر

الإسبانى فى العصور الوسطى (ج١)
ب. إفور إيفانز، موجز تاريخ الدراما الإنجليزية
ج. س. فريزر، الكاتب الحديث وعالمه (٢ج)
جورج ستاينر، بين تولستوى ودستويفسكى (٢ج)
ديلان توماس، مجموعة مقالات نقدية
فيكتور برومبير، ستندال
فيكتور هوجو، رسائل وأحاديث من المنفى
يانكو لافرين، الرومانتيكية والواقعية
د.نعمة رحيم الغزاوى، أحمد حسن الزيات كاتباً وناقداً
ف.يرميلوف، دستويفسكي
لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة، الدليل البيليوجرافى:روائع الآداب العالمية (ج١)
محسن جاسم الموسوى، عصر الرواية : مقال من النوع الأدبى
هنرى باربوس، الجحيم
ميجيل دى ليبس، الفئران
روبرت سكولز وآخرون، آفاق أدب الخيال العلمى
يانيس ريتسوس، البعيد (مختارات شعرية)
ب. إفور ايفانز، مجمل تاريخ الأدب الإنجليزى
فخرى أبو السعود، فى الأدب المقارن
سليمان مظهر، أساطير من الشرق
ف.ع. أدينكوف، فن الأدب الروائى عند تولستوى
د. صفاء خلوصى، فن الترجمة
بلدوميرو ليلو وآخرون، قصص من أمريكا اللاتينية
موريس إدجار كواندرو، نظرات فى الأدب الأمريكى

سادس عشر: الإعلام

فرانسيس ج. برجين، الإعلام التطبيقى
بيير ألبير، الصحافة
هربرت شيلر، الاتصال والهيمنة الثقافية

سابع عشر: السينما

هاشم النحاس، الهوية القومية فى السينما العربية
ج.دادلى أندرو، نظريات الفيلم الكبرى
روى آرمز ، لغة الصورة فى السينما المعاصرة
هاشم النحاس، صلاح أبو سيف (محاورات)
جان لويس بورى وآخرون ، فى النقد السينمائى الفرنسى .
محمود سامى عطا الله، الفيلم التسجيلى
ستانلى جيه سولومون ، أنواع الفيلم الأمريكى
جوزيف وهارى فيلدمان، دينامية الفيلم
قدرى حفنى، الإنسان المصرى على الشاشة
مونى براح، السينما العربية من الخليج إلى المحيط
حسين حلمى المهندس، دراما الشاشة: بين النظرية والتطبيق للسينما والتليفزيون (٢ج)
إدوارد مرى، عن النقد السينمائى الأمريكى
جوزيف م. بوجز، فن الفرجة على الأفلام
سعيد شيمى، التصوير السينمائى تحت الماء
دوايت سوين ، كتابة السيناريو للسينما
هاشم النحاس، نجيب محفوظ على الشاشة
يوجين فال، فن كتابة السيناريو
دانييل أريخون، قواعد اللغة السينمائية
كريستيان ساليه ، السيناريو فى السينما الفرنسية
آلان كاسبيار، التذوق السينمائى
تونى بار، التمثيل للسينما والتليفزيون

بيتر نيكولز، السينما الخيالية

بول وارن، خفايا نظام النجم الأمريكى

دافيد كوك، تاريخ السينما الروائية

لويس هيرمان، الأسس العملية لكتابة السيناريو للسينما والتليفزيون

ثامن عشر: كتب غيرت الفكر الإنساني

سلسلة لتلخيص التراث الفكرى الإنسانى فى صورة عروض موجزة لأهم الكتب التى ساهمت فى تشكيل الفكر الإنسانى وتطوره مصحوبة بتراجم لمؤلفيه وقد صدر منها ٩ أجزاء.

تاسع عشر: الأعمال المختارة

يوهان هويزنجا، أعلام وأفكار

د.مصطفى طه بدر، محنة الإسلام الكبرى

ت. كويلر ينج، الشرق الأدنى

جيمس نيومان؛ ميشيل ويلسون، رجال عاشوا للعلم

ابن زنبل الرمال، آخرة المماليك

د. محمد عوض محمد، نهر النيل

آرثر كريستنسن، إيران فى عهد الساسانيين

أوجست دييس، أفلاطون

يعقوب، فام، البراجماتية

روبرت ديبو جراند وآخرون، مدخل إلى علم لغة النص

بلوتارخوس، العظماء

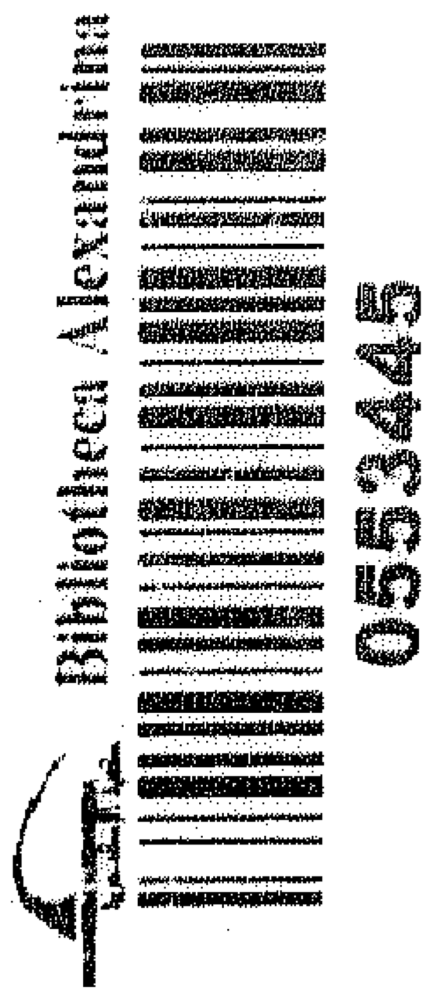
تشارلز ديكنز، مذكرات بكويك (٣ج)

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ٢١٩١٧ / ٢٠٠٤

I.S.B.N. 977 - 01 - 9430 - 1

لاشك أن الدكتور رمسيس عوض حقق إنجازاً علمياً رائداً بأبحاثه المتعددة عن محاكم التفتيش، فقد ألف ما لا يقل عن خمسة كتب فى هذا الموضوع. والكتاب الذى بين أيدينا يتناول ثلاثة هم أبرز ضحايا محاكم التفتيش فى إيطاليا، وهو ينقسم إلى ثلاثة أجزاء. الجزء الأول يتناول حياة جاليليو العالم الفلكى الكبير الذى حاكمته محاكم التفتيش؛ لأنه نادى بأن الأرض كروية وأنها تدور حول الشمس، وأما الجزء الثانى من الكتاب، فهو يتناول حياة رجل دين معروف بالتقوى اضطهدته محاكم التفتيش وأحرقت جثته؛ لأنه كان يفضح عيوبها ويهاجم فساد البابوات. أما الجزء الثالث والأخير فى هذا الكتاب، فهو يتناول حياة وفلسفة برونو الذى ناصب الكنيسة الكاثوليكية العداء واتهمها بالجهل والفساد؛ فكان مصيره الحرق حياً.



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

١١ جنيهًا